موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الثاني

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة
أسماء الله الحسنى
وصفاته الفضلى
من الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

ردمك ISBN: 9789957570576
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

اللطيف

هذا الاسم ورد في سبع آيات من القرآن الكريم، أولها في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

ولم يقترن اسم اللطيف إلا باسم الخبير، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

وورد مقيّداً في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

وقد ورد هذا الاسم في السُّنة في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال لها: «لَتُخبِرِيني أو لَيُخبِرَنِّي اللطيف الخبير».

من معاني اسم الله (اللطيف)

اللطيف في اللغة صفة مشبَّهة باسم الفاعل على وزن (فعيل)، والفرق بين اسم الفاعل والصفة المشبَّهة باسم الفاعل؟ أنَّ الصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل تلازم صاحبها، فتقول: فلان طويل أي إنّه طويل دائماً، أمّا لو قلت: فلان داخل، فالدخول طارئ وقد يدخل مرة واحدة، فاسم الفاعل يدل على الحدوث والانقطاع، والصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل تدل على الثَّبات والدَّوام.

لكن لا بدّ من تنويه وهو أنَّ الأصل في اللغة المعنى، فإذا قلنا: الله عز وجل خالق، فهو ليس خالقاً لمرَّة واحدة، بل يخلق ما يشاء، وخلقه مستمر على الدّوام.

واللطف في الشَّيء رِقَّته، واستحسانه، وخفَّته على النَّفس، أو احتجابه وخفاؤه.

وفي صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت في حادثة الإفك: ولا أشْعُرُ، وهو يريبُني في وجَعي: أنِّي لا أرى من النبي ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

يقال: لطف به وله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠].

الله لطيف بعباده ولهم، رفيق بهم، يرحمهم، قريب منهم، يعامل المؤمنين بعطف ورأفة وإحسان، ويدعو المخالفين إلى التوبة والغفران مهما بلغ بهم العصيان، فهو لطيف بعباده، يعلم دقائق أحوالهم ولا يخفى عليه شيء مما في صدورهم.

سيدنا لقمان قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].

يعلم دقائق الأمور، أدقّ التفصيلات، البواعث الخفية، المقاصد البعيدة، النوايا البعيدة، المشاعر، الخواطر، لكنَّه لطيف.

اللطيف هو الذي ييسر لعباده أمورهم، يوفقك في زواجك، في شراء بيت، في تجارة رابحة، بطولتك ألا تعزو الفضل إلا إليه، أنت حينما تقول: الله وفقني، الله أكرمني، الله مكنني، الله أعطاني، الله تفضل عليّ، الله يسَّر لي أمري، فهذا ليس من باب التواضع، بل من باب الحقيقة، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

فلا يتحقق شيء على وجه الأرض إلا بتوفيق الله.

إذاً اللطيف هو الذي ييسر للعباد أمورهم و يستجيب منهم دعاءهم، فهو المحسن إليهم في خفاء و ستر، من حيث لا يعلمون فنعمه عليهم سابغة ظاهرة، لا يحصيها العادُّون، و لا ينكرها إلا الجاحدون.

أنت كرم من الله، منحك نعمة الإيجاد: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

ثمَّ منحك نعمة الإمداد، أعطاك هواء، أعطاك ماء، أعطاك مأوى، أعطاك علماً، أعطاك طلاقة لسان، عندك زوجة، عندك أولاد، عندك أصهار، كلُّ هذه النعم بفضل الله عزَّ وجلَّ، إذاً هذا معنى من معاني اللطيف.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج:٦٣].

واللطيف هو الذي يرزقهم بفضله، فهذا يتقن الخط، وهذا يتقن قصَّ الشعر، وهذا يتقن التَّعليم، وهذا يتقن الهندسة، وهذا تاجر، والآخر مزارع، وكلُّ واحد مكَّنه الله من عمل ويسَّره له.

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

كما أنَّه يحاسب المؤمنين حساباً يسيراً بفضله ورحمته ويحاسب غيرهم من المخالفين وفق عدله وحكمته.

ومن معاني اللطيف أنَّه خفيّ قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف:١٩].

ينبغي ألا يراه أحد، ألا يعلم به أحد، أنت جالس في بيتك، مع زوجتك وأولادك، والله معك أينما كنت لكن بلطف، وإنَّ من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

إذاً الله عز وجل لا يُرى في الدنيا لطفاً منه وحكمة ويرى في الآخرة إكراماً ومحبة، احتجب عنا في الدنيا لطفاً وامتحاناً ورأيناه في الآخرة إكراماً وإحساناً.

ولو رآه الناس في الدنيا جهاراً لبطلت الحكمة وتعطلت معاني العدل، لذلك قال الله عز وجل عن رؤية الناس له في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

أضرب هذا المثل: لو أنَّ صاحب المحل وراء الطَّاولة لا يغادر مكتبه و لو لثانية، و المكان الذي فيه المال بقبضته، وعنده موظف أراد اختبار أمانته، فهل يستطيع اختباره دون أن يغيب عن مكتبه؟! لكن لو خرج صاحب المحل من المحل و أبقى الدُّرج مفتوحاً و جلس في المحل المقابل بمكان لا يراه الموظف، الآن يمتحن الموظف، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢].

لو أن الله عز وجل يُرى في الدنيا، وكلُّ ذنب وراءه عقاب مباشر فالكل يستقيمون، ولكن لا قيمة لهذه الاستقامة.

فالله عزَّ وجلَّ ما أراد أن تكون علاقة عباده به علاقةَ قهر، بل أرادها علاقة حب.

لذلك لو أنَّ الله ظهر في الدنيا لأُلغي التكليف، وأُلغيت البطولات، وأُلغي الثواب، وأُلغي العقاب، لا يمكن أن نُمتحن، لا يمكن أن نستحقَّ الجنَّة، لا يمكن أن يكون لنا ثواب، لا يمكن أن نرقى إلا إذا كنا مخيَّرين، إلا إذا كان بالإمكان أن تعصيه وأنت معافى.

من هنا قال الله عز وجل عن رؤيته في الدنيا: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى:٥١].

حتى كليمه موسى، كلمه الله من وراء حجاب، وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

موجود، لكن لا تراه، اعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذه مرتبة الإحسان و في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «تعلَّموا أنَّه لَنْ يَرى أحدٌ منكم ربَّه حتى يموتَ» [رواه مسلم عن عمرُ بن ثابت الأنصاريُّ].

في الدنيا ليس هناك رؤية وأية دعوى برؤيته افتراء و كذب، لأن الدنيا خلقت للابتلاء، أما الآخرة فهي دار الجزاء.

الدنيا دار تكليف أما الآخرة فدار تشريف، الدنيا دار عمل أما الآخرة فدار جزاء، في الآخرة يُكشف الغطاء و يرفع فيها الحجاب، و يلطف الله بالموحدين عند الحساب قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق:٢٢].

قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس:٢٦].

قال علماء التفسير: الزيادة رؤية وجه الله الكريم.

وإذا قلنا: الله لطيف بعباده، فالله عزَّ وجلَّ معك يسمع صوتك، ويعلم ما في قلبك، وما في رأسك من أفكار وطموحات، وصراعات، وآراء، ومعتقدات، وتصورات وتخيلات، ويعلم ما في قلبك من هموم ومتاعب وآلام وضغوط من خوف ومن قلق،

ومع ذلك وجوده معك محببٌ، تصوّر لو أن إنساناً لازَمَ إنساناً... جلس فجلس معه، مشى فمشى معه، دخل إلى بيته فدخل معه، أكل فأكل معه، فإن بقي يلازمه خمسة أو ستة أيام يخرج من جلده، ويقول له صائحاً: إليك عني، انصرف بعيداً، وقد رأينا أنه لم يتكلم بأيَّة كلمة، ولم ينتقد، ولم يعترض، ولم يطلب منه طلباً ما؛ إنَّ ذلك الشخص بملازمته لك عبء عليك، لكنَّك تعلم أنَّ الله معك دائماً، ولكن لا تُحسُّ بوجوده، فوجوده محبَّب إليك، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد: ٤].

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة: ٧].

تعني كلمة لطيف، أن الله عزَّ وجلَّ من اللطف بحيث لا تراه ولا تسمعه؛ ولكن تراه بعقلك، وهذا أحد المعاني لكلمة لطيف، لهذا جاء في الحديث الصحيح:

عن أبي هُرَيْرَةَ قال كانَ النبيُّ ﷺ بارزاً يوْماً للناسِ فأتاهُ جِبْرِيلُ فقالَ ما الإيمانُ؟ قالَ: «الإيمانُ أن تُؤْمِنَ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ وبِلقائِهِ ورُسُله وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ»، قال: ما الإسلامُ؟ قال: «الإسلامُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ ولا تُشْرِكَ بِهِ شيئاً، وتُقيمَ الصلاة، وتؤدِّيَ الزكاةَ المَفْروضَةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، قال: ما الإحسانُ؟ قالَ: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراهُ فإنَّهُ يَراكَ» [رواه مسلم].

إذاً: المعنى الأول أنَّ الشَّيء الصَّغير الذي لا يُحَسُّ به لأنَّه بعيد، أو لصِغره يسمى لطيفاً، ولمَّا كان الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن الجسمية ليس بجسم ولا صورة، ولا متبعِّض ولا متجزِّئٍ، ولا متحيِّز، كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، لا يُسأل عنه؛ متى كان؟ لأنه خالق الزمان، منزّه عن الجسمية والتحيز في كل مكان مع كل شيء بعلمه، محيط بكل شيء علماً، وعلمه مع كل شيء، وفوق كل شيء، وإلى جانب كل

شيء، وما معنى الحيّز؟ مثلاً هذا الكأس يشغل حيزاً في الغرفة، وله وزن وارتفاع وقُطر وقد حجز على الطاولة مكاناً، وفي الفراغ مكاناً وله وزن؛ هذا هو الحيز، فربنا عزَّ وجلَّ ليس بمتحيز، أي: لا يشغل حيزاً.

إذاً إذا قلت: الله لطيف يعني أن الله عزَّ وجلَّ لا يشغل حيّزاً، وليس بجسم ولا صورة، ولا متبعّض ولا متجزِّئ ولا متحيّز، إلى آخر هذا التعريف.

ولما كان الله منزّهاً عن الجسمية لم يحسَّ به فأطلقوا اسم الملزوم له على اللازم، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف بمعنى أنه غير محسوس وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار، فهذا الاسم من صفات التنزيه، أي: سبحانه أن يكون له جسم، أو أن يكون متحيزاً، سبحانه أن يحيط به زمان.

إذاً: اسم اللطيف من أسماء التنزيه، فهو معك لكن بلا شعور، لا تُدرِكُه الأبصار لأنه لطيف وهو يُدرِكُ الأبصار.

وأحياناً تعمل عملاً لا يُرضي الله فتُحاسب عليه بعد قليل حساباً عسيراً؛ وأحياناً تفكر في عمل لا يُرضي الله، تجد الله عزَّ وجلَّ قد عاقبك، لأنه عَلِمَ ما في نفسك، إنه لطيف لا تُحِس بوجوده، فوجوده ليسَ ثقيلاً عليك، لكنه موجود، يحولُ بين المرء وقلبه، ويعلم السر وأخفى، ومعنى: (وأخفى)، أي: وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إنَّه يعلم لِمَ وكيف، وماذا، وعلامَ، وهذه أحوالك أيها الإنسان يعلمها الله دون أن تراه، فالله لطيف، ولطيف اسم تنزيه، وفي الوقت نفسه لطيف لكنه موجود معك، فخواطرك ومشاعرك وأحاسيسك وطموحاتك وصراعاتك وآلامك، وضيق نفسك كلُّه معروف عنده لكن دون أن تشعر به.

إنَّ المؤمن ما دام يعبُد الله وكأنَّ الله يراه فإنَّه يكون متأدِّباً حتى ولو كان في خلوته، وهو لا يرى الله بعينيه لكنَّه يراه بعقله، فالمؤمنون وهم في فرشهم يتأدبون مع الله عزَّ وجلَّ، ويجب أن تكون حركته كلُّها أدباً، حتى إذا دخل الخلاء له دعاؤه، وحتى إذا دخل الحمام له موقف فيه أدب، لأنَّ الله يراقبه.

فكلما ارتقى إيمانك تشعُر أنَّ الله معك... «يا موسى! أتحب أن أكون جليسك، قال: وكيف هذا يا رب؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني».

وبعد، فكم من مصلٍّ يقول: سَمِعَ الله لمن حمده، فهل عرفت معناها، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فاحمدني، فإن قلت: سمع الله لمن حمده، فأنا أسمعك وأصغي إليك، فلذلك إذا صليت فاعلم أنك بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

ترى الإنسان يعتني بمظهره عناية مطلقة إذا دُعيَ لمقابلة مسؤول مثلاً، وهو إنسان مثله، يموت، ويجوع، ويعطش، ويتعب، ويغضب، فكيف إذا وقف بين يدي الواحد الديّان؟ فليعلم أنَّ الله لطيف، موجود ولكن لطيف، وجوده لطيف وليس ثقيلاً، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: اللطيف هو العالِمِ بدقائق الأمور وغوامِضِها. ويقال: فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته، ومهتدياً إلى ما يُشكِل على غيره، وعلى هذا التفسير يكون الله لطيفاً بمعنى أنه عليم.

وقد تفهم الأمر بشكل ظاهري لا بخباياه، ولا بخلفيَّاته ولا بتحليلاته العميقة، ولا بالدوافع الخفيَّة لهذا الأمر، فالإنسان كلَّما ارتقى علمُه فهم البواطن وفهم السَّرائر، وما بين السُّطور، بل يفهم الدَّافع الحقيقيَّ.

أضرب مثلاً بأشخاصٍ غير مستقيمين: في أيام الشتاء جاءت صديقة زوجته، وهو جالس في غرفة الجلوس والمدفأة مشتعلة، فقال لها ولزوجته: تعالين إلى هنا، أدفأ لكُنَّ، وهل حقاً أدفأ لَهُنَّ؟ أم له هدف أبعد من ذلك، أن يطلِعَ على هذه المرأة صديقة زوجته، من يعلم هذا الشيء؟ الله عزَّ وجلَّ يعلم السِّرَّ وأخفى.

وما معنى لطيف يعني يعرف دوافعك الحقيقية، وهذه المواقف الملتوية والسِّرَّ، والحِكمة، وهو الذي يعلم دقائق الأمور، وبواطِنها وخلفيات الأشياء، وحقيقة كل أمرٍ، ويعلم ما خَفِيَ على معظم الناس.

فالذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها، ومؤدِّياتها ومضاعفاتِها وما ينجم عنها وما أساسها، وما سِرُّها، وما أسبابها الحقيقيَّة هو اللطيف هذا معنى ثانٍ، اسم اللطيف يعني الذي يعلم كل شيء مهما دق وخفي.

المعنى الثالث: اللطيف هو البَرُّ بعِبادِهِ الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويهيئ مصالحهم من حيث لا يحتسبون، فاليوم حَرٌّ شديد مثلاً، فربنا عزَّ وجلَّ يهيئ لأهل هذه البلدة إنضاج فاكهتهم، وهم لا يعرفون، وبعد شهر ترى هذه الفاكهة معروضة في الأسواق بوضع جيِّد وجميل وطعم طيِّب ولذيذ، فمن أنضجَ هذه الفاكهة طوالَ هذه المدَّة؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ، إنَّه لطيف بعباده، فساعة حرّ، وساعة برد، وساعة ماء غزير، وساعة ماء قليل، وأنت لا تدري فاللطيف بعباده هو البَرُّ بهم، والذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويهيِّئ مصالحهم من حيث لا يحتسبون، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى:١٩].

لكن المعنى الرابع وهو من أروع المعاني التي قالها الغزاليُّ رحمه الله، أنَّ اسم اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور، وينقل عبده من حال إلى حال بلطف عجيب.

فهذا الطِّفل الصغير يجب أن يغيِّر أسنانه، لأنَّه لو نبتت له أسنان نهائيَّة ثابتة وفمه صغير جداً، فمنظره مُنَفِّر، فأسنانه كبيرة، والفم صغير، ولو نبتت له الأسنان وهو يلتقم ثدي أمِّه فيمكن أن يؤذيها أذى مؤلماً لا تحتمله، فهذا الطِّفل يكون في السنة الأولى دون أسنان ثم تنبت له أسنان لبنيَّة، ومن بعد، ربنا عزَّ وجلَّ يُبدِّل لهذا الطفل أسنانه، فالله لطيف، ولا يوجد طبيب في الأرض يستطيع أن ينزع سناً لطفل دون أن يبكي، حتى إنَّ حقنة المخدر مؤلمة جداً، فيبكي منها، ولكنَّ ربنا عزَّ وجلَّ يذيب هذا السن شيئاً فشيئاً ثم يأكله الطِّفل مع اللقمة ولا يشعر بشيء، فمعنى لطيف كما قال الإمام الغزالي: «هو من يعلم حقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرِّفق دون العنف».

وأحياناً قد يُكرِهُك الله على شيء ما، ليس فجأةً، بل بالتدريج، خلال خمس سنوات مثلاً، وتأتيك منه بعض المتاعب، أزاح عنك خمساً بالمئة من محبته، وبعد أسبوعين تأتي متاعب جديدة فيزاح بالمئة عشر، وبعد أسبوعين متاعب جديدة بالمئة خمس عشرة، وبعد شهرين أو ثلاثة تقول: زهقت روحي، ولم أعد أطيق ذلك، فهناك شيء غير صحيح قد تعلقت به، فربنا عزَّ وجلَّ نزعه منك شيئاً فشيئاً بلطف.

على هذا النحو تم تحريم الخمرة؛ إذ كان العرب متعلِّقين بها تعلُّقاً شديداً، فلو أمرهم أن يتركوا الخمرة بآية واحدة فربما ارتدَّ بعضهم، أو نصفهم عن الإسلام، لكنَّ الله لطيف، قال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧].

ألطف إشارة إلى أنَّ الخمر رزق ولكنَّه ليس حسناً، فقال: تتخذون منه سَكَراً، مادة مُسكِرة، ورزقاً حسناً، تظنون أنَّه حسن وهو مسكِر فليس بحَسَن، هذه أول إشارة، وبعد ذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ ﴾ [النساء:٤٣].

يعني: إن شربْتَ فلا عليك، ولكن دعه عند الصلاة، وبعد ذلك قال: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

المنافع للذين يتَّجرون بها ويعيشون على دخلها، ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠].

فهو سبحانه لطيف حرَّمَها بالتدريج، وكذلك قد يذهب شاب إلى الجامع فيسمع درساً ووعظاً، يقول: والله إنَّه درس جميل، وأريد أن أداوم عليه، ويكون مقيماً على

عشرين أو ثلاثين معصية، وربنا للطفه لا يذكّره بها كلّها، لكنَّ اللطيف يذكّره بواحدة منها بين الحين والحين، هذه حرام، وهذه حرام، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد كنت جاهلاً، فلعله يتركها؟؟ ولو أعطيناه القائمة بالمعاصي كلّها لترك الدِّين كلّه، ولكنَّ اللطيف تدرَّج به واحدة واحدة، وبعد ستة أو ثمانية أشهر، ترك هذه وهذه وهذه، وربنا يسخِّر له شخصاً يُذكِّرُهُ بالأشياء بلطف، فهذه حرام يا أخي وهذه لا يجوز أن تأتيها، وهذا اللقاء لا يجوز، وهذا البيع فيه شبهة وهذه البضاعة لا يحل الاتِّجار بها فهي محرمة شرعاً، أتتاجر بطاولات نرد؛ فإليك حديث النبي ﷺ فقال:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عن أبيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِيرِ فكأنَّما غَمَسَ يَدَهُ في لَحْمِ خِنْزِيرٍ ودَمِهِ» [رواه مسلم].

وبالتدريج ربُّنا يعالج الأمور، فربُّنا لطيف في العلاج، والإنسان أحياناً يغلب رجاؤه على خوفه، وربُّنا لطيف يخوِّفه، وأحياناً يغلب خوفه على رجائه، وربنا لطيف يطمئنه.

العلم الدقيق مع التدريج في العمل، هذا هو الاسم الجامع المانع لاسم اللطيف، ويستحقُّه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرِّفق دون العنف، حين يجتمع له هذا العلم. وإليك مثلاً: إنَّ الوالد إذا ارتكب ابنه مخالفة للشَّرع أو للأخلاق، يمكن أن يعاقبه بعنفٍ وقوَّة، ولكن الأجدى أن يتابعه، ويراقبه، ويشجِّعه، ويكافئه، ويعاقبه، ويُعرِض عنه، ويراوح في كلِّ ذلك، وبعد شهرين أو ثلاثة يستقيم طواعية وقناعة، فأنت نقلته من حال التلبُّس بهذه المخالفة إلى حال التوبة منها بطريقة لطيفة دون أن تُحطِّمَهُ، أو تجرحه، أو تَسحَقَهُ، أو ترضَّه رَضّاً ودون ألم وعنف، والمربي المؤمن لطيف، ينقل من يعالجه، ويربيه من درجة إلى درجة بالرِّفق واللطف.

دخل رجل إلى المسجد فأحدث جلبة وضجيجاً يريد أن يدرك الركعة، فلما انتهى قال ﷺ لهذا الذي أحدث جلبة وضجيجاً: «زادك الله حِرصاً ولا تعد!» [أخرجه

البخاري، من حديث أبي بكرة] لقد ترفق به، ولذلك «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف» [أخرجه مسلم، من حديث عائشة] إذاً علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف.

ومن لطف الله بعباده، أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلّفهم دون الطاقة، خمس صلوات، كل صلاة ثلث ساعة، عشرون دقيقة، أي: مئة دقيقة من أربع وعشرين ساعة، ولو كلَّفَكَ خمسين صلاة لما استطعت! ثلاثون يوماً تصوم في السنة فلو كلفك ستة أشهر صياماً متتابعة لما أطقت.

الله لطيف بأوامره، لطيف بخلقه، فلو كانت هذه التفاحة تحتاج إلى أدوات لتأكلها لشَق الأمر على الناس جميعاً، فأنت بسكين تأكلها، ولو كانت البيضة تحتاج إلى مفتاح ولم تجد المفتاح لأتعبت الحياة أهلها، لكن على طرف الصحن تكسرها.

عنقود العنب تريد أن تسحبه نحو الأسفل فينسحق بيديك، ولكن بالعكس له مفصل، الله لطيف، إذا عملت حركة معاكسة باتجاه العنقود يصير بيدك، تُمسك الدّراقة تصبح بحركة في يدك، فربنا عزَّ وجلَّ لطيف، الفاكهة لها طعم ولها شكل، ولها قِوام مقبول مع الأسنان، ولو كانت التفاحة بقِوام الصخر تماماً فما الطريقة إلى أكلها؟ إننا نحتاج إلى مطحنة حجر كي نصنع عصير تفاح، إذ لا نقدر على أكلها، فالتفاحة قِوامُها هشّ ممكن أن تأكلها بسهولة.

الذي دبّر الأمور هو الحكيم، والذي أوجدها هو الجواد، والذي رتبها هو المصوّر، والذي وضع كل شيء في موضعه هو العدل، أما الذي لم يترك فيها دقائق إلا وعرفها فهو اللطيف، واللطيف هو الذي أعطى العباد فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، واللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل يسير، واللطيف من وفق للعمل في الابتداء وختمه بالقبول في الانتهاء، واللطيف هو الذي وَليَ فستر، وأعطى فأغنى، وأنعم فأجزل، وعلم فأجمل.

مظاهر اسم الله (اللطيف) في الكون

الحقيقة التي أرجو أن تكون واضحةً في ذهن كلِّ مؤمن؛ هي أنَّ الكون كلَّه في أصل خلقه خُلِقَ وسُخِّر للإنسان تسخيرين: تسخيرَ تعريف، وتسخير تكريم، فالمرء قد يشرب الكأس من الماء، فيروي العروق ويذهب الظمأ، ولكن هذا الماء خُلق لهدف أكبر من أن تشربه، خُلق لكي تعرف الله من خلاله، فمن جعل الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ومَن جعله ذا خاصية عالية في النفوذ؟ ومن جعله يتبخر في درجة منخفضة جداً؟ ومن جعله يحلّ المواد الكثيرة؟ ومن جعله قِوام الخليَّة الحيَّة؟... إلخ؟

فإذا عرفت -أيها المؤمن- اللهَ من خلال الماء فقد حقَّقت الهدف الكبير من خَلْقِ الماء، أمَّا إذا شربت كأس الماء وارتويت منه، ثم أغلقت دون عقلك الأبواب فقد حققت الهدف الصغير؛ فالهدف الكبير أن تعرف الله من خلال الماء والهواء والطعام، وأن تعرفه من خلال نفسك التي بين جنبيك، وأن تعرفه من خلال ابنك، ومن خلال كل شيء حولك، هذا كله بيَّنه النَّبي ﷺ في حديث موجز قصير جامع مانع، حينما رأى الهلال...

حَدَّثَنا قَتادَةُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا رأى الهِلالَ قال: «هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، هِلالُ خيرٍ ورُشْدٍ، آمنتُ بالذي خَلَقَكَ» ثلاث مراتٍ، ثم يقولُ: «الحمدُ لله الذي ذَهَبَ بشهرِ كذا وجاءَ بشهرِ كذا» [أخرجه أبو داود].

إذا وقفت أمام بائع أزهار وتأملت اسم الجميل، من خلال جمال الزهرة، وتأملت هذه الرائحة الفواحة العَطِرة، ورأيت في الزهرة تناسق الألوان وأنت تعلم علم اليقين أن هذا الزهر لا يؤكل، وإنما خُلِقَ خصيصاً لإمتاع عينك وأنفك، إذاً هذا من إكرام الله عزَّ وجلَّ لك، فإذا عرفته شكرته وعظَّمته.

لو قرأت كتاباً عن العسل، وتملَّكك العجب العُجاب من هذه النحلة: تلك الحشرة الاجتماعية، ذات النظام البديع، في مجتمعها الذي هو أرقى من المجتمعات

البشرية، فأيُّ مجتمع بشري، يعرف فيه كلُّ مواطِنٍ ما له وما عليه، من حقوق وواجبات؟ إن النظام لدى مجتمع النحل مهمٌّ جداً، إذ لا ترقى إليه التنظيمات البشرية، إذ كلُّ شيء في وقته وموقعه ومكانه وزمانه، فأرقى المجتمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى النِّظام الاجتماعيِّ عند النَّحل أو النمل.

أجل، إذا قرأت كتاباً عن النحل، وشعرت أن الخالق جلَّ وعلا أبدع في خلق النحل، أدركك الخشوع وربما انهمرت عينك بالدموع، فأنت حققت الهدف الأكبر من خلق النحل ولو لم يكن دخلك يسمح لك أن تشتري شيئاً من العسل، أما الذي أكل العسل حتى امتلأت حجراته وخلاياه منه، ولم يفكِّر في هذه المادة التي أكرَمَ الله بها الإنسان فقد عطَّل الهدف الأكبر واستفاد من الهدف الأصغر.

إذاً اتفقنا على أن الكون مُظهِر لأسماء الله الحسنى... وما دمنا نطوف حول اسم اللطيف، فهل ترى في الكون ما يدل على أنه لطيف؟... نعم فالهواء يحيط بنا من كل جانب، نستنشقه، ولو حرَّكناه لشعرنا بوجوده، يحمل طائرة وزنها ثلاث مئة وخمسون طناً، منها مئة وخمسون: هيكل الطائرة ومئة وخمسون: الوقود، وخمسون: الركاب مع الحاجات؛ فالهواء يحمل ثلاث مئة وخمسين طنَّاً فهو إذاً شيء عجيب جداً.

وحينما تدخل المركبةُ الفضائيَّة في الغلاف الجويِّ فإنَّها تصبح كتلةً من اللهب لاحتكاكها به، ومع ذلك فإذا كنت على سطح الأرض فالهواء لا يُرى وليس له صوت إذا كان ساكناً، فهو موجود وكأنه غير موجود فلا يحجب الرؤية، وترى أخاك من خلاله، وتسمع صوته، إذاً الهواء لطيف، وربنا عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى:١٩].

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:١٤].

إسم اللطيف له معانٍ كثيرة، أحد هذه المعاني أنَّ الشَّيء الصَّغير الذي لا يُحَسُّ به لصغره يسمى لطيفاً، مثلاً: ائتِ بمذياع، أدِرْ مؤشره إلى إذاعة من الإذاعات، تستمع إلى

نشرة الأخبار، أين هو الكلام؟ إنه موجود في الجو المحيط، وبهذا الجهاز اللاقط التقطته، فهل تستطيع أن ترى بعينك موجات الإذاعة؟ لا تراها بعينك، ولا تسمعها دون جهاز استقبال؟ وهل لها وزن؟ لا، ولها رائحة؟ لا، إذاً موجات الإرسال لطيفة، وموجودة والدليل استماعك لها من الجهاز الذي بين يديك، فإذا أزحت عنك الجهاز فإنك لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً ولا تشمُّ شيئاً، إذاً هذا الإرسال موجود ولكن بلطف.

الإرسال موجود ولكن بلطف، والهواء موجود ولكن بلطف،أما الهواء فإنه إذا تحرّك بسرعة تزيد على ثمان مئة كيلومتر في الساعة، فلن يُبقي هذا الإعصار شيئاً على سطح الأرض، وقد قرأت أنَّ في أمريكا إنساناً عنده دار فخمة جداً، وله سيارة من الوزن الثقيل، وأصاب هذه المدينة إعصار، فعثر على محرك سيارته بعد خمسة كيلومترات من داره، ولم يجد أي أثر لا للدار ولا للمركبة وهذا نتيجة حركة الهواء!! أمّا إذا سكن فلطيف جداً، إذ لا تراه بعينك، وليس له رائحة، ولا صوت ولا حِسّ.

وهذا الماء، لو أخذت منه نقطة ووضعتها تحت المجهر، وكبَّرْت النقطة مئات المرات لرأيت فيها عشرات، بل مئات، بل ألوف الكائنات الحية، في حين يبدو أمامك ماء صافياً عذباً فراتاً رائقاً. لكنَّ الكائنات التي فيه غير ضارَّة، وهي كائنات لطيفة، وما معنى لطيفة؟ أي: هي من الصِّغر بحيث لا تراها من لطفها، فهذا معنىً من معاني لطيف.

الفاكهة الكبيرة على الأرض و الفاكهة الصغيرة التي لا تؤذي على الشَّجر، لو أنَّ البطيخ على الشجر لكانت مشكلة، الله لطيف.

لو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس، أردنا أن نعيدها نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي، و قطر الحبل خمسة أمتار، معنى حبل فولاذي قطره خمسة أمتار أي يقاوم من قوى الشد مليوني طن، أيّ إنَّ الأرض مرتبطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب مليوني طن من أجل أن تحرف الأرض في مسيرتها حول الشمس ثلاثة ميلي كلَّ ثانية، أين هي قوى التّجاذب؟ موجودة بيننا، هل يستطيع إنسان في الأرض أن يبني بناء من مئة طابق دون علاقة بالأرض.

قوى التجاذب قوى مذهلة، وهي أحد أكبر الأدلة على لطف الله عز وجل، قوى جبارة تربط الكواكب ببعضها بعضاً، و مع ذلك لا تراها وأنت تمشي خلالها.

نصيب المؤمن من اسم الله (اللطيف)

عندما يعرض الإنسان لمعالجة بحث يجب أن يعود إلى الأهداف الكبرى، يحدِّدها أولاً كأن يشير إلى الهدف العام من بحثه، وإلى الهدف الخاص، لأنَّ الباحث أحياناً تَزِلُّ قدمه وينحرف عن الهدف الكبير، وتشغله فروع البحث فتستأثر باهتمامه وينسى الغاية الأهمَّ في معالجته للبحث المعنيِّ به، وقد تضيع الفكرة الرئيسة على القارئ، ونحن هنا مع أحد أسماء الله الحسنى، فالبحث مُهّم والغاية سامية، وحذرنا من الانسياق وراء الفروع قائم إن شاء الله.

إن شرف العلم من شرف المعلوم، وهذه الحقيقة أكررها كثيراً في كتابي، فإذا درست موضوعاً حقيراً أو تافهاً أو سخيفاً، فهذه الدراسة، وتلك التمحيصات والتحقيقات والمتابعات بجملتها سخيفة لماذا؟ لأنَّ الموضوع تافه، وكلما شرُفَ الموضوع شرُف العِلم.

والسؤال المُلح دائماً: هل يوازَن خالق مع مخلوق؟ أو قديم مع حادث؟ أو كامل كمالاً مطلقاً مع ناقص؟ لا، وحينما يتعرف المرء إلى أسماء الله الحسنى يتعرف إلى خالق الكون، وقد يسأل سائل: وما علاقتي بأسماء الله الحسنى؟ فأقول: أصل الدين معرفته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

فأنت أيُّها الإنسان خليفة في الأرض ولن تحقِّقَ هذه الخِلافة إلا إذا اصطبغت بصبغة الله عزَّ وجلَّ، فإذا عرفنا جانباً من أسماء الله الحسنى فينبغي أن نتساءل: ما حظُّ المؤمن من معرفة هذا الاسم؟

أمَّا حظُّ العبد من هذا الاسم فهو الرِّفقُ بعباد الله، واللطف بهم في الدعوة إلى الله.

﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٣-٤٦].

دخل أحدهم على الرشيد وقال له: سأعِظُكَ بغِلظَة، قال له: ولِمَ الغِلْظَة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرٌّ مني، أرسل موسى وهارون إلى فرعون فقال لهما: فقولا له قولاً ليناً.

فإذا عرفت شيئاً سيئاً فاستره، وكن لطيفاً، وإذا تحركت نحو فعل شيء فكن بهذه الحركة لطيفاً، وإذا أردت إحداث شيء فاجعل لهذا الشيء برنامجاً لا يُثقل على صاحبه، فالنبي ﷺ كان في قمة النشوة في صلاته مع ربه، ووراءه أصحابه، فسمع بكاء طفل صغير، فعلى غير عادته قرأ آية قصيرة رحمة بهذا الطفل، واختصر الصلاة وسلّم، وفي الصحيحين والمسند من حديث أنس رضي الله عنه: إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه ببكائه... فإذا دعوت إلى الله عزَّ وجلَّ فكُنْ لطيفاً وليناً ورحيماً.

إذا استُفتيت في أمر و كان في الأمر سَعة فأفتِ بالرخصة و خذ نفسك بالعزيمة، ولا يمكن أن تتقرب إلى الإله الطيف إلا إذا كنت لطيفاً مع خلقه.

وقال بعض المحققين: العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفقٍ ناصحٍ لا بعنفِ معسرٍ، وكيف وهو مستبصر بلطف الله تعالى.

وخلاصة بحثنا أنه إذا كان الله لطيفاً في علمه، لطيفاً في وجوده، لطيفاً في تصرفاته فاشتقَّ منه هذا اللطف.

الغني

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

قد يكون الإنسان رحيماً لكنَّه فقير، فيتحرَّق قلبه رحمة بالناس ولا يستطيع مساعدتهم دائماً، أو مساعدتهم جميعاً، لأنّه فقير، لكنَّ عظمة الله عزَّ وجلَّ أنَّه غنيٌّ ورحيم معاً، فغناه ورحمته تعطيان الإنسان كلَّ ما يحتاجه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨].

وغالباً ما يقترن اسم الغنيّ باسم الحميد، كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج:٦٤].

هو غني عن عباده، لكنَّه يعاملهم معاملة يحمدونه عليها، فهناك إنسان غنيٌّ يظنّ أنّه لا يحتاج إلى أحد، فتراه فظّاً، غليظاً، مستكبراً، مستعلياً، أمّا خالق السماوات

والأرض، الذات الإلهية الكاملة، فغنيٌّ، ومع غناه فهو كامل، فما أروع أن يجتمع الغنى مع الكمال.

فالله عزَّ وجلَّ حميد، مع أنَّه غنيٌّ عن عباده، لو أنَّ كلَّ من في الأرض كفروا فلا يحتاج إليهم أبداً، ومع ذلك يعاملهم معاملة كاملة يحمَدونه عليها.

واقترن اسم الله الغنيّ باسم الحليم، قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٣].

غنيٌّ عن عباده لكنَّه يُمِدُّهم بالطَّعام والشَّراب والهواء، ويمدُّهم بكلِّ ما يحتاجونه وهم يعصونه.

واقترن اسم الله الغنيّ باسم الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠].

فهناك غنيٌّ بخيل، وقد قيل: العدل حسن لكنَّه في الأمراء أحسن، والسَّخاء حسن لكنّه في الأغنياء أحسن، والصَّبر حسن لكنّه في الفقراء أحسن، والتَّوبة حسن لكنّها في الشَّباب أحسن، والحياء حسن لكنّه في النِّساء أحسن.

وورد هذا الاسم في الحديث الشريف: «اللهم أنت الله، لا إله إلا أنت، أنتَ الغنيُّ، ونحن الفقراء، أنْزِلْ علينا الغيث واجعلْ ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين» [أبو داود عن عائشة].

من معاني اسم الله (الغني)

الغنيُّ في اللغة صفة مشبَّهة باسم الفاعل، لمن اتَّصف بالغنى فعله غني غِنىً، واستغنى واغتنى فهو غنيٌّ، لكنَّ الحقيقة المهمّة أنَّ غنى الإنسان نسبيّ، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف:٣٢].

إنسان يشعر بألم في صدره فيقلق أشدَّ القلق، وقد يكون غنيّاً كبيراً ويذهب إلى طبيب القلب، وهو في أعلى درجات التَّواضع له، ويسأله بكلِّ أدب: هل أحتاج إلى عمل جراحيّ؟ هل هذا الألم عابر، أو مستمرّ؟ هل هذا الألم يدل على خطر قادم؟ فهذا الغني الكبير يقف أمام الطبيب في أعلى درجات الأدب والتَّواضع والافتقار إلى علم هذا الطَّبيب، إذاً في هذا الموقف هذا الغنيُّ مفتقِر إلى هذا الطَّبيب، هو غنيٌّ لكنَّه الآن مفتقر إلى علم الطَّبيب.

طبيب القلب نفسُه، يستمع إلى صوت غير طبيعيٍّ في محرِّك سيارته، فيقلق أشدَّ القلق، ويذهب إلى اختصاصيّ السيّارات سائلاً: هل هذا مؤشِّر على وجوب تبديل المحرِّك؟ هذا الطَّبيب المتفوِّق يقف أمام هذا الإنسان بتواضع بالغ، وكلُّ إنسان متفوقٌ في شيء فهو غنيّ فيه، لكنّه مفتقر إلى أشياء كثيرة.

والحظوظ وُزِّعت في الدنيا توزيع ابتلاء، فهذا ممتحَن بالغنى، وذاك ممتحَن بالفقر، وثالث ممتحَن بالوسامة، ورابع ممتحَن بالدَّمامة، وآخر ممتحَن بالصِّحة، فكلُّ ما آتاك الله فأنت ممتحَن فيه، وسوف ينظر الله ماذا تعمل؟ هل تتَّخذ الصِّحَّة أساساً للمعصية والإثم؟ أم تتَّخذها لخدمة الخلق؟ هل تتَّخذ وقت الفراغ للانحرافات التي لا ترضي الله؟ أم تتَّخذ وقت الفراغ لطلب العلم؟ لذلك من أدعية النَّبيّ ﷺ: «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب» [الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطميّ الأنصاري].

وغنى الإنسان نسبيّ من زاوية أخرى، إذ كلُّ ما يملكه منوط بقُطر شريانه التَّاجي فإذا ضاق هذا الشّريان دخل في متاعب لا تنتهي، وقد ينجو، وقد لا ينجو، إذاً ليس غنيّاً، وهذا الغنيُّ، كلُّ مكانته، وقوّته منوطة بسيولة دمه، فإذا تجمَّدت قطرة دم في أحد أوعية دماغه أصيب بالشَّلل، أو فقد الذّاكرة، أو السّمع، أو البصر، أو الحركة، إذاً ليس غنيّاً.

أعرف شخصاً جاء بشهادة عليا، وصل لمنصب مهمّ، له مكانة، وعلم، وزوجة، وبيت فخم، ودخلٌ كبير، فقد بصره، فلما زاره أحد أصدقائي، قال له: والله أتمنّى أن

أجلس على الرَّصيف، وأتسوّل، وليس عليّ إلا هذا المعطف، وأن يردَّ الله لي بصري، إذاً ليس هناك غنيّ حقيقة، والغنيُّ هو الله.

وقد قال سيّدنا عليّ ﷺ: الغنى والفقر بعد العرض على الله.

أما قبل العرض على الله فلا يعدُّ الغنيُّ غنيّاً، ولا الفقيرُ فقيراً، بل إنّ الغنى الحقيقيَّ هو غنى العمل الصالح، فسيُّدنا موسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام حينما سقى للفتاتين ابنتي شعيب عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص:٢٤].

فيجب أن تَعدَّ نفسك غنيّاً إذا أكرمك الله بعمل صالح، إذا سخَّرك لخدمة خلقه، إذا كنت مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، إذا بثثت في النَّاس الطَّمأنينة، والأمن، والسَّكينة، إذا أطعمت جائعهم، وكسوت عاريهم، وعالجت مريضهم، وآويت مشرَّدهم، وأنصفت مظلومهم.

أمّا الغنى في ذات الله عزَّ وجلَّ فإذا تعلَّق بالمشيئة فهو من صفات الأفعال كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨].

وهناك ملمح لطيف في الآية، أوضِّحه بالمثل التالي:

إنسان يبيع الخمر في مطعم من أعلى مستوى، ثمَّ أراد أن يتوب، فلما تاب انخفض دخله إلى العُشر، هذا الانخفاض له حكمة بالغة جداً، فقد أراد الله جلَّ جلاله أن يجعل لهذا القرار البطوليِّ ثمناً يدفعه، وبهذا الثَّمن يرقى يوم القيامة.

لكن بعد حين يفتح الله عليه أبواب الرِّزق. فلابدّ من امتحان، وهذا الملمح مستنبط من كلمة (سوف) في الآية فعطاء الله قد يتأخر بعد التَّوبة، وذلك لتحقيق الامتحان.

وإن لم يتعلَّق الغنى بالمشيئة، فهو صفة من صفات الذات.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وكقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

الغنيُّ سبحانه هو المستغني عن الخلق بذاته، وبصفاته، وبسلطانه، والخلق جميعاً فقراء إلى إنعامه، وإحسانه، فلا يفتقر إلى أحد في شيء، بل كلُّ مخلوق مفتقِر إليه في كلِّ شيء، وهذا هو الغنى المطلق، وهو الغنى الحقيقيُّ، وغنى الإنسان غنى مجازيّ، فهو غنيٌّ بماله، لكنّه مفتقر إلى الصِّحة، مفتقِر إلى التوفيق، مفتقِر إلى النَّصر وهكذا.

والغنيّ أيضاً هو الذي يُغنِي من يشاء من عباده بحكمته، وأيُّ غنيٍّ سوى الله فغناه نسبيٌّ، مقيّد، مجازيٌّ، فلا غني على الحقيقة إلا الله.

أحد أكبر أغنياء بريطانيا، دخل إلى غرفة أمواله، فأغلق الباب عليه خطأ، وكان كثير الأسفار، فظنَّه أهله مسافراً، بدأ يصرخ ويصرخ إلى أن أشرف على الموت، فجرح إصبعه، وكتب بدمه على الحائط: أغنى إنسان في بريطانيا يموت جوعاً.

مهما بلغ المخلوق في غناه، فهو فقير إلى الله، لأنَّه المنفرد بالخلق والتقدير، والملك والتدبير، هو المالك لكلِّ شيء، خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ وَقَالَ يَدُ الله مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» [متفق عليه عن أبي هريرة].

والنَّبيُّ ﷺ قال فيما رواه عن ربِّه تبارك وتعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» [مسلم عن أبي ذر].

ولكن... قد نرى شحّاً في الأمطار، وقد نرى قلّة في المحاصيل، وقد نرى قِصراً في العُمُر، وقد نرى مرضاً، والحقيقة أنّه من المستحيل أن يكون تقليل الله عز وجل تقليلَ عجز، أما نحن البشر فنقلّل تقليلَ عجز فإذا كان الماء قليلاً، فإننا نقطع الماء ساعات طويلة كلَّ يوم، وإذا كانت المحاصيل قليلة فإنّنا نرفع الأسعار، إلا أنَّ الله جلَّ جلاله إذا قلّل فتقليله تقليل تأديب، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

وفي آية ثانية: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

وقد اطلعت على مجلّة علميّة رصينة، قرأت فيها بحثاً عن اكتشاف سحابة في الفضاء الخارجي، يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرّة في اليوم بالمياه العذبة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾ [الجن:١٦-١٧].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ ﴾ [المائدة:٦٦].

أحد العلماء يرى أنه من معاني الغني: هو الذي لا تعلّق له في ذاته. أي أن ذاته لا تتعلق بشيء. فأنت متعلق بالحرارة وبالبرودة مثلاً... فإذا كان البرد شديداً؛ فأنت

بحاجة إلى مِعطف، وإذا كان الحرُّ شديداً؛ فأنت بحاجة إلى جهاز تكييف، وإذا كنت جائعاً؛ فأنت بحاجة إلى الطَّعام، وإذا كان هناك عطشٌ؛ فأنت بحاجة إلى ماء، وإذا كنت بلا مأوى؛ فأنت بحاجة إلى بيت، وبحاجة إلى سرير، وإلى أن تنام. فقد ترى سيارة ثمنها ملايين، وقد انقلبَتْ على جانب الطريق؛ والسبب أنَّ السائق قد نام؛ وحاجته إلى النوم أودت به في هذا الحادث؛ فأنت محتاج للنوم، محتاج إلى الطعام، وإلى الشراب، وإلى جو مريح، وإلى هواء، وإلى ثياب، وإلى مأوى، وتحتاج إلى زوجة.

فالإنسان يعتاد الحياة الزوجية فتُؤنسهُ زوجته وتخدمه، تحضر له طعامه، أي: تُعدّ له ما يأكل، وتغسل له ملابسه، وهي تحسن عشرته كذلك، فإذا سافرتْ أو مرضت يقول لك: تغيَّرت حياتي. فأنت مفتقر إلى زوجة. مفتقر إلى طفل... يقول: هذا الطفل ملأ البيت بهجة. فأحياناً لا ينجب الزوجان؛ فتجد البيت أصبح كهفاً مظلماً، فالأطفال لهم ضجيج ولهم لعب ولهم مطاليب، لكن يملؤون البيت فرحةً.

فكم حاجة أنت تحتاج إليها؟ تحتاج إلى زوجة، وإلى ولد، وأن تشرب، وأن تأكل، وأن تنام، وتحتاج إلى ثياب، وأن تأكل شيئاً ذا مذاق حلو، أو لكأسٍ من الشاي لتشربه، وتحتاج إلى فاكهة لتأكلها، فلو مكثت شهراً من غير أن تأكل الفاكهة، تشعر بحاجتك الأساسية إليها، فأنت محتاج إلى مليون حاجة، أما الغني الحقيقي فإن ذاته لا تتعلق بشيء، فأنت مربوط بأشياء لا تقدَّر ولا تحصى.

مثلاً معك كميَّة من الذَّهب، فتجدك متتبِّعاً للأسعار هل غلا الذهب أم هبط سعره؟ وإذا اشتريت بضاعة فتسأل نفسك هل هناك في السوق منافس لك؟ وما هي أسعار البضاعة؟ وأنت بحاجة إلى أن تربح، فيومياً لديك آلاف الحاجات، لكنَّ الغنيَّ الحقيقي هو الذي لا يتعلقُ بشيء... ذلك هو الله ففي الحديث القدسي:

«لَوْ أَنّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً» [صحيح مسلم، عن أبي ذرٍّ].

وقيل: من تعلَّق بغيره فهو محتاجٌ إليه.

وقيل: الغنيُّ؛ هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو المستغني عن كلِّ شيء، المفتقِر إليه كلُّ شيء.

وقيل: الغنيُّ؛ هو الغنيُّ بذاته عن العالمين، المتعالي عن جميع الخلائق في كلِّ زمنٍ وحين، الغنيُّ عن العباد، المتفضِّل على الكلِّ بمحض الوداد.

الغنيّ؛ هو الذي يعطي الغنى لعباده، إما أن يعطيهم الكفاية؛ أي: أغناهم عن السؤال، أو يُغني بعض عباده عن بعض... فالحقيقة أنَّ الحوائج لله، لا تكون إلا لله، فعندما يهبها لك ربُّنا عز وجل من خلال رزقٍ تملكه أعزَّك. أما إذا جعلك تحتاج إلى إنسان أذلَّك... لذلك في الدعاء تقول: «اللهمَّ اجمعنا عليك وفرِّقنا عليك، اللهم لا تجعل حوائجنا إلا إليك».

ربُّنا سبحانه وتعالى هو المغني بمعنى: أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى، أعطاك قدمين تمشي بهما، أعطاك سمعاً، أعطاك بصراً، أعطاك حركة، أعطاك يداً، مفاصل، أصابع، رسغاً، مرفقاً كتفاً، أعطاك جهازاً للهضم، جهازاً للأمعاء، جهاز دوران، جهاز إفراز، أعطاك هيكلاً عظمياً ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ [طه:٥٠] أي: كل ما يصلحك، أعطاك إدراكاً وذاكرة ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه:٥٠].

والغنيّ؛ هو الذي أفاض الغنى على عباده، وسهَّل لهم المراد، وما من غنىً في الوجود، إلا وهو من جناب الحقِّ ممدود، الغنى الحقيقي من الله عز وجلَّ... وهو المغني لأوليائه من كنوز أنواره... وبذا فقد انتهينا إلى نوع ثانٍ من الغنى؛ فقد أغناك بالعلم.

فقد أطلعني أخ على مجلة فرنسية، فيها صورٌ عن مقاطعة في الهند، يعبدون الجرذان، وتبيِّن الصورة معبداً ضخماً وأكثر من ثلاثمئة جرذٍ يعطونهم الحليب، اللبن، القمح، البرغل، يأكلون مع الجرذان في طبقٍ واحد... امرأة تضع على رأسها خماراً والجرذان يقفون على رأسها وكتفها، يعبدون الجرذان كآلهة! وهو تحقيق علمي، موثَّق.

فهل ذلك ممكنٌ؟ نعم، عند من يزيغ عن الحق والفطرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فهناك من يعبد البقر وأشياء أخرى، ولكن الله عرَّفك بذاته، لتعبده هو، فهو الذي خلقك، تعبد خالق الكون، خالق السموات والأرض... وهناك من يعبد البقر، أو الشجر، أو الحجر، أو الشمس، أو يعبد القمر... والله سبحانه وتعالى كرَّمنا وأغنانا عن هذه الخرافات، وعن هذه السخافات، وعن هذه التُّرَّهات.

إما أن يُغنيك بالدنيا، وإما أن يُغنيك بمعرفته، يُغنيك بتقريبك إليه، يُغنيك بإلقاء النور في قلبك، يُغنيك بأن يُعطيك رؤيةً صحيحة، فتكون لك حكمةٌ بالغة، وسدادٌ في الأقوال، وصوابٌ في الأفعال؛ هذا هو الغِنى.

الحقيقة إذا أردنا أن نصل إلى ملخص الدرس... الغنيّ؛ هو الذي أغنى عبده بمعرفته... فأنت غني بمعرفة الله، أغناك بمنهجه، بين يديك منهجٌ صحيحٌ مئة بالمئة، فليس لديك مفاجأة. أغناك بالقرب منه، أغناك بإلقاء النور في قلبك، أعطاك رؤيةً صحيحة، وحكمةً بليغة.

وبعد، فالله هو المغني، غنيٌّ ويعطي الغنى لمن يشاء. لكن الغنى الحقيقي أن تعرفه، فسيدنا ربيعة بن كعب خدم النبي ﷺ أياماً عديدة، قال له: «يا ربيعة سلني فأعطيك» قال له: أنظرني حتى أنظر. بعد أيام قال له: «ماذا يا ربيعة؟» قال: إني أسألك أن تدعُوَ الله أن يجنِّبني من النار ويدخلني الجنةَ فقال له: «من أمرك بهذا؟» قال: «ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه، فأحببت أن تدعو الله لي» [الطبراني، عن ربيعة بن كعب]، ما قيمة الدنيا؟ أنا أريد شيئاً دائماً في الجنة، أن أكون معك في الجنة.

وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ» فقلت: أسألك مرافقَتَكَ في الجنَّة، قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود» [انظره مطولاً في: مسند الإمام أحمد (١٦٥٧٨، و١٦٥٧٩)].

فلذلك الغنى الحقيقي أن تصل إليه، أن تعرفه، أن تُقبل عليه، أن تلوذ بحماه، أن يكون قلبك مهبطاً لتجلِّياته، يطمئنك، يكرمك، يوفِّقك، يقرِّبك منه، يسعدك، وفي سورة النور قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور:٣٣].

﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالزواج ليس شيئاً سهلاً فمن عنده بيتٌ وزوجة، ورزق وأبناء، والبيت فيه ما فيه من نِعَم، فالله إذاً أغناك بهذه الزوجة؟ وجعلها ستراً لك فلا تَقْسُ عليها كثيراً، ولا تقرِّعها فهي هدية الله إليك، لا تكفر بنعمة الله، الزواج نعمة، هناك من يزعج زوجته حتى يجعلها تترك البيت! هذه نعمة الله فلا تضيّعها.

وأحياناً تجد امرأة ولها زوج، وعندها أولادٌ، تعمل أعمالاً منفِّرة إلى أن تُطلَّق فهذه كفرت نعمة الزواج!! ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أحياناً يغنيك بالمال، تحصل على شهادة فتعيَّن في وظيفة، وتحصل على راتبٍ في آخر كل شهر، فلا تمدَّ يدك لأحد، أو تتقن مهنة تدر عليك دخلاً وفيراً، فأغناك الله بالمال، وأغناك بالعلم... وأغناك بالصحة، فكل أعضائك سليمة، أغناك بزوجة، أغناك ببيتٍ ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، وفي سورة النجم قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم:٤٨].

أي أعطى... وفي سورة الضحى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى:٨].

قال بعض العلماء: «إغناء الله لعباده على قسمين؛ منهم من يغنيه الله بتنمية الأموال وهم العوام -يقولون لك: الله متفضل، ويضع يده على جبينه بعد أن يقبِّلها- ومنهم من يغنيه بتصفية الأحوال وهم الخواص».

وهذا الأخير هو الغني الحقيقي قريب من الله، عنده علم وعنده حكمة وعنده شفافية، فالنبيُّ ﷺ وقف خطيباً على نخلة، قطعت له نخلة فخطب عليها، فلما صنعوا له منبراً، ووقف ليخطب على المنبر حنَّت النخلة إليه، فوضع يده عليها إكراماً لها [انظر البخاري: ٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥].

وقال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم علي قبل أن أبعث» [مسلم، عن جابر بن سمرة].

عَنِ الحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ مَوْلَى الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَديثاً لا أُحَدِثُ بِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لِحاجَتِهِ هَدَفاً أَوْ حائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ فإذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْناهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذا الجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يا رَسُولَ الله فَقَالَ: «أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ» [سنن أبي داود].

فالله عز وجل قد يعطيك شفافية، فتتفاعل مع المخلوقات، وتتناغم مع الكون، وتتذوّق الجمال، جمال الفجر، جمال الشجر، جمال البحر، أن تتذوّق الجمال فهذا غنى، أحياناً يكون لديك نفس واسعة الصدر عندك قلب كبير، وعندك مشاعر وأحاسيس رقيقة، وعندك رضاً، وعندك حلم وتوازن فهذا غنى.

تجد شخصاً عنده الكثير من المقتنيات الثمينة، ويملك بيتاً فخماً ولكنه إذا غضب، يصبح مثل الوحش، فهذا فقيرٌ، أحمق، أرعن. الحلم غنى، الحكمة غنى، معرفة الله غنى، وطاعتك لله غنى؛ أن تصلي الصلوات الخمس غنى، أن تصوم رمضان غنى، العوام يغنيهم الله بتنمية الأموال، والخواص بتصفية الأحوال.

معاني الغنى

الغنى ضدُّ الفقر، وله معانٍ عديدة... أحدها عدم الحاجة إطلاقاً، وليس ذلك إلا لله تعالى. فالله وحده الذي لا يحتاج إلى أحد، بل إنَّ الله وحده يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء. غنيٌّ عن خلقه، آمنوا، كفروا، أحسنوا، أساؤوا، قدَّروا، لم يُقدِّروا، عرفوا، جهلوا، جحدوا، ألحدوا، غنيٌّ عن خلقه، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

فشأن المخلوق أنَّه يحتاج إلى ربِّه في كلِّ شيء، وشأن الرَّبِّ أنَّه لا يحتاج إلى أحد.

الغنيُّ هو الذي لا يحتاج إلى أحد، وهذه ليست إلا لله. أمَّا العبد فإنَّه يحتاج، إلَّا أنَّه إذا احتاج إلى ربِّه بقي عزيزاً، أمَّا إذا احتاج إلى عبيده كان ذليلاً لهم.

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين وله هيبةٌ لا توصف، له مكانةٌ عليَّة، سُئِلَ مرةً: بِمَ نِلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

أما إذا تعلَّم الإنسان العلم الشرعي، ثم احتاج إلى دنيا الناس واستغنوا عن علمه، فهذا منتهى الذُّلِّ.

والحقيقة أنَّ المؤمن إذا أقبل على الله عزَّ وجلَّ أغناه الله عن خلقه، فيشعر أنَّه غنيٌّ عن المطامع، كما يشعر أنَّه غنيّ عمّا في أيدي النَّاس، لا يشتهي ما لا يجد.

وقد ورد في الأدب الكبير لابن المقفع «لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأسَ ما عَظَّمه في عيني، صِغرُ الدنيا في عينيه، كان لا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد» وقد قيل: خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همَّاً ومن أخذ من الدُّنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

الله غنيّ... لا يحتاج إلى خلقه. والمؤمن باتصاله بالله عز وجل يشتقُّ من هذا الاسم قيماً أصيلة، فيصبح غنيَّاً عن النَّاس، لا ينظر إلى ما عندهم ولا يطمع بما في أيديهم، ولكنّ بعض النَّاس يدخل إلى أحد البيوت، فتجده ينظر إلى كلِّ ما فيه من أشياء ويسأل: كم ثمن هذه التُّحفة؟ ومن أين اشتريت هذه؟ وكيف حصَّلت هذه؟ تشعر بضعفه وتشعر بدنوّه، وهناك إنسان لا يأبه لكلِّ هذه المظاهر، فالمؤمن المتَّصل بالله يستغني، يشعر بغنى.

دخلوا على سيدنا أبي عبيدة عامر بن الجراح، وكان قائد الجيوش الإسلاميَّة في بلاد الشام، رأوا في غرفته قدر ماءٍ مغطىً برغيف خبزٍ، وجلداً يجلس عليه، وسيفاً معلَّقاً في الحجرة. قيل له: يا أبا عُبيدة ما هذا؟ قال: هو للدُّنيا وعلى الدُّنيا كثير، ألا يُبلِّغنا المقيل.

ازهد بما في أيدي الناس، يحبّك الناس... ارغب بما عند الله، يحبّك الله، فالله إن أحببت ما عنده أحبّك، وإن زهدتَ بما في أيدي الناس، أحبّك الناس.

فالغني هو الله الذي لا يحتاج إلى أحد، وجوده وغناه ذاتي أما الإنسان فهو يحتاج؛ لكن بين أن يحتاج الله عزَّ وجلَّ، ويحتاج إلى ما عنده، وبين أن يحتاج إلى خلقه فالهوَّة عميقة. إذا احتاج إلى ما عند الله علا، وإن احتاج إلى خلقه دنا، وقد قيل: احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغنِ عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ: رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» [سنن الترمذي].

لا تنسوا... أنْ خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً. إذا كان لديك آلة بسيطة فإصلاحها سهلٌ، أما إذا كانت تعمل بالحاسوب وتعطَّلت، ولا يوجد من يصلحها لك، يستولي عليك الهمّ، فكلما كانت الآلة شديدة التعقيد، فإصلاحها يكون صعباً وهمّاً أكبر... هذه قاعدة... خذ من الدُّنيا ما شئت وخذ بقدرها همّاً.

تجد غنياً بعيداً عن الله، به كبرٌ، وغطرسة، واستعلاء، وتأفف... وأحياناً تجد غنياً على حجمه المالي الكبير متواضعاً، قريباً منك... العظمة أن تكون مستغنياً عن الناس؛ وأنت معهم، تصغي إلى حديثهم، تتعاطف مع مشكلاتهم، يعنيك ما يعنيهم، يؤلمك ما يؤلمهم، ترجو لهم ما ترجو لنفسك. وهذه صفة عالية جداً، الأنبياء كانوا مع الخلق، يمشون في الأسواق، يعيشون معهم، لذلك قالوا: هناك برجٌ عاجيٌّ فكري، وهناك برجٌ عاجيٌّ أخلاقي... فالبرج العاجي أصلاً مذموم... يقولون لك: فلان يعيش في برج عاجي، أي أنه ليس واقعياً، بعيدٌ عن هموم الناس، إذا ابتعدت عن هموم الناس وعن حياتهم اليومية، وعن مآسيهم، وعن آلامهم، وعن طموحاتهم فأنت في برجٍ عاجيٍّ فكري. أنت تعيش في الأحلام وهذا لا يليق بالمؤمن. أما إذ ابتعدت عن سقطاتهم وانحرافاتهم ومعاصيهم فأنت في برجٍ عاجيٍّ أخلاقي.

فالمؤمن ينأى بأخلاقه عن سقطات مجتمعه، أما بفكره فإنه يعيش معهم؛ يألم لألمهم... سيدنا عمر جاءته هديةٌ من أذربيجان، فقال لرسول عامل أذربيجان: ما هذه؟ قال له: هديةٌ... طعامٌ أهداه إليك عاملك على أذربيجان، ففتح العلبة، فوجد فيها طعاماً نفيساً جداً. فسأل رسول عامله على أذربيجان: هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة. أخرجها من فمه وقال: قل لصاحبك: كيف يعنيك أمر المسلمين إن لم تأكل مما يأكلون؟ حرامٌ على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين، خذ هذه الهدية ووزعها على فقراء المسلمين. ولم يأكل منها شيئاً.

سيدنا عمر حينما كانت مجاعة في المدينة، ترك اللحم أربعة أشهر، فقرقر بطنه فخاطبه قال: قرقر أيها البطن أو لا تُقرقر، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صِبْيَةُ المسلمين.

المعنى الأول... أن الله هو الغني، أي هو الذي لا يحتاج إلى أحد. شأن الخالق أنه غنيٌّ عن خلقه، وشأن المخلوقات أنهم مفتقرون إلى ربِّهم. لذلك قالوا: الربُّ ربٌّ، والعبد عبدٌ. شأنُك يا رب أنك غنيٌّ عنا، وشأنُنا أننا مفتقرون إليك، لكن ما أحلى وما أجمل وما أكرم أن تفتقر إلى الله، وما أصعب وما أقسى أن تفتقر إلى عبدٍ لئيم.

سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه سُئل ما الذُّلُّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرُدُّه. ثم قال: والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنْخَلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيراً أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.

وبعد فالمؤمن غنيٌّ بالله، عبارة في الفقه تُعجبني... هل يجوز أن تُعطي طفلاً صغيراً زكاة مالك وله أبٌ غني؟ قد يقول القائل: هذا طفل ليس معه مال، لا يملك قرشاً واحداً في جيبه. يجيب الفقهاء عن هذه المسألة: الطِّفل الصَّغير الفقير غنيٌّ بغنى أبيه. فما دام أبوه غنياً فهو غنيٌّ، ولو سحبنا هذه القاعدة على موضوع بحثنا هذا فالمؤمن

فقير لكنَّه غنيٌّ بالله، غنيٌّ بربِّه، لذلك تجد أحياناً إنساناً مطمئناً ويقول لك: أنا أملك كذا من المال أو معي كذا من الأسهم، فالرد المناسب الرائع: كن بما في يدي الله، أوثق بما في يديك.

فأحياناً تجد إنساناً معتمداً على توفيق الله وعلى حفظه، ومتوكلاً عليه ويثق بما عند الله، هذا أغنى ممن يملك ملايين كثيرة.

المعنى الثاني من معاني الغنى: قِلَّة الحاجات، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى:٨].

أي أنَّ الإنسان محتاج إلى طعام، إلى شراب، إلى مسكن، إلى ثياب، إلى أوانٍ، إلى سرير، الإنسان يحتاج إلى آلاف مؤلَّفة من الحاجات، مثلاً لو اشترى بيتاً فمَلَكَهُ وهو مفروش، وعنده مركبة مثلاً، وله محل تجاري مورداً لرزقه، ويملك بيتاً في المَصْيف، عنده ألبسة كثيرة جداً ولديه مال سائل؛ هذا بالمعنى الثاني غني، فبيته ملكه، وعنده وقود للتدفئة، وعنده أجهزة ومركبة وطعام، ومال سائل. لكن هذا يحتاج إلى طبيب، ويحتاج إلى معلّم لابنه لكنَّ حاجاته قليلة، أما أكثر الحاجات لديه فموجودة.

فإذا أغنى الله رسوله ﷺ هل يعني هذا أن النبي الكريم ﷺ لم يعد محتاجاً إلى الله؟! الحاجة إلى الله ثابتة، ودائمة، ثم إنَّ النبي ﷺ أشار إلى هذا المعنى بأسلوب آخر فقال:

«لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» [صحيح البخاري، عن أبي هريرة].

فأحياناً الإنسان يكون لديه نفسٌ عظيمة تبتغي الوصول إلى الله، وأمور الدنيا عندها ثانويَّة، فهو مستغنٍ عن دنيا النَّاس؛ لكنه مفتقرٌ إلى فضل الله، هذا شأن الصديقين، والمؤمنين الكبار، فالغنى غنى النفس.

أحياناً تجد شخصاً ذا نفس عفيفة، تقول له: هل يلزمك شيء من المكان الفلاني؟ يقول لك: شكراً. لا يطلب شيئاً، وتجد شخصاً يقول لك: إلى أين أنت مسافرٌ؟ أحضر

لي كذا وكذا. فلا يترك إنساناً إلا ويسخره، وقد يحرجه ويشقّ عليه، فكلما قلّت طلباتك، ارتقى مقامك. حتى النبي الكريم ﷺ قال: «أَعْظَمُ النِّساءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤونَةً» [مسند الإمام أحمد، عن عائشة].

حين توفي أحد شيوخ الأزهر قديماً، لفت نظري تحقيقٌ كتب عنه وعن بيته وهو شيء مدهش، فهو يسكن في بيت صغير، فكم قدّر ما تحت يده من ميزانية؟ تحت يده مبالغ كبيرةً جداً جداً، ويسكن في بيت في الطابق الرابع، وقد أجرى عمليتين في ركبتيه، بسبب التهاب المفاصل، ولم يتمكّن من أن يبدِّل بيته، ذا المساحة الصغيرة والمرتفع بالنسبة إليه. عنده غنى نفس، وهذا هو الغنى، وفيه عفّة، وخرج في جنازته عدد كبير من المشيِّعين.

فالغنى غنى النفس، فالإنسان المؤمن يستغني بالله؛ فلا يحتاج لشيء ما دام عنده طعامٌ يأكله، وشرابٌ يشربه، ولباسٌ يستره، وبيتٌ يسكنه ويؤويه فقد حاز الدنيا بحذافيرها.

المعنى الثالث: الغني؛ الذي عنده الشَّيء الكثير من متاع الدنيا، فهو يملك بيتين أو ثلاثة، وسيارتين أو ثلاث، ومئة من التحف والمقتنيات وكلُّها أجنبية الصنع، والكثير من الأحذية والملابس من الدرجة الأولى.

وكخلاصة: المعنى الأول للغنى ألا نحتاج إلى أحد... من هو الغني المطلق؟ هو الله وحده... شأن الله أنه لا يحتاج إلى أحد، شأن العبد أنه يحتاج، إن احتاج إلى الله عز وجل علا، وإن احتاج إلى خلقه دنا.

المعنى الثاني: قلَّة الحاجات... عنده كلُّ شيء، حاجاته قليلة، لكنه يحتاج إلى طبيب لأسنانه، ولو كان معه ملايين! يحتاج إلى طبيب صحة، إلى مدرّس لأولاده، يحتاج إلى صاحب مهنة معينة لإصلاح خللٍ طرأ في بيته.

المعنى الثالث: أن تكثُرَ مقتنياتك، وألفت النَّظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء:٦].

إذاً أيها المؤمن فلتقلل من مقتنيات الدنيا لديك.

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾، اليهود حينما سمعوا قول الله عز وجل تعاظمتْ أنفسهم الخبيثة، سقطوا في مستنقع الضلال، قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة:٢٤٥].

قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران:١٨١].

فقال الله عز وجل: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾.

آيات ورد فيها اسم (الغني)

ورد اسم الغنيِّ في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) ﴾ [البقرة:٢٦٣].

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن صدقةٍ يتبعها أذى، هذه الصَّدقة لك وليست لله، أمرك أن تدفعها من أجل أن تقبل عليه، فإن أتبعتها بالمنِّ والأذى؛ فلا قيمة لها، هو غنيٌّ عنك، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ [البقرة:٢٦٧].

أيضاً... غنيٌّ عن صدقةٍ تكرهها... أكلةٌ عافتها نفسك، وتصدَّقت بها... فالله غنيّ عن هذه الصدقة، أمرك أن تُعطي مما تحبُّ؛ من أجل أن تقبل عليه، من أجل أن ترقى عنده، فإن فعلت ما لا تُحب، فهو غنيٌّ عن هذه الصدقة، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران:٩٧].

فإن أردت الحجَّ فأهلاً وسهلاً بك، وإن كنت لا تريد أن تحجَّ حرمت نفسك الخير.

وفي سورة يونس قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس:٦٨].

الإنسان يتمنى ولداً حتى يُعينه في الكِبَر، وهذه هي سنَّة الله في خلقه. فتجد الشَّاب يصعد سلَّم البناء قافزاً كل عشر درجات معاً، وبعد فترة يصعد درجة درجة، ثم يضع رجله فوق الدرجة ويرتاح دقيقتين، ثم ينقل رجله الأخرى ويرتاح كذلك دقيقتين، ثم بعد ذلك لا يستطيع الصعود؛ فينتقل إلى بيت أرضي غير مرتفع، فالله عزَّ وجلَّ غنيٌّ أمَّا الإنسان فمفتقِر.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ فنحن بحاجة إلى أولاد لأن الإنسان فانٍ، وبابنه يشعر بامتداد أثره، فالابن يُعوِّض نقص أبيه، فإذا لم يكن قد درس، فيكون حريصاً على أن يُدرِّس ابنه. وإذا لم يتجِّر يقول لك: لا أريد أن أجعله موظفاً. وإذا لم يكن الأب متعلِّماً للغة من اللغات، يقول لك: أريد أن أعلِّم ابني اللغة. فالإنسان أحياناً يعوض نقصه بابنه، ويحقق فيه امتداده، وذلك لأنه فانٍ؛ فيقول لك: هذا من أثري، يخلفُني، ذِكْرٌ لي بعد أن أموت. فالإنسان بحاجة إلى ولد... ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ليس بحاجة إلى ولد.

وفي سورة إبراهيم يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

وقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد:٣٨].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٦].

يقول لك: يا أخي أنا صليت التراويح كلها في رمضان؛ فهذه لك... دفعت نصف مالي صدقة، فهذه لك، قرأت ختمة قرآن؛ فهذه كذلك لك ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان:١٢].

وقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان:٢٦].

وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

أنت مفتقر إلى عين، مفتقر إلى سمع، مفتقر إلى توازن، مفتقر إلى كليتين تعملان. ذهب شخص لغسيل كليته فقالت له الممرضة: لا تشرب الماء طوال هذا الأسبوع؛ فالجهاز معطَّل عن العمل. فهل من السهل أن يمتنع الإنسان عن شرب الماء؟ عندك كلية تعمل بصمت، لا تحتاج إلى الانتظار في الدور، ولا إلى أجرة تدفعها، ولا ضجيج ولا فتح شرايين، وغسيل الكلية مرتين في الأسبوع كل اثنين وخميس وباستمرار، ألستَ غنيّاً؟ ألستُ سعيداً؟

الغدة النخامية وزنها نصف غرام؛ تفرز اثني عشر هرموناً أحد هذه الهرمونات يحقق توازن السوائل، فتشرب في اليوم أربعة أو خمسة أكواب من الماء وتقوم بإخراجها، فلو اختلَّت هذه الغدة فإنّك تحتاج لشرب أربعة صفائح من الماء، فلا تستطيع مغادرة صنبور الماء ولا الحمام وهذا يصبح عملك كل يوم وليلة! فهل أنت غنيّ؟!!

قال لي أحد الإخوة: زارني طبيب فلما جلس في الغرفة وأخذ بالحديث وضع يده على مفتاح الكهرباء، وضغط عليه فانطفأت الثريا وقال له: هكذا الإنسان كبسة على الزر وتنتهي حياته... أنت وأموالك ومكانتك وصلاحيَّاتك؛ بكبسة زر، وينتهي كل

شيء، سكتة دماغية، فيصبح في عداد الأموات! فأين بيته الفخم؟ ومركبته الفخمة؟ ومنصبه الرفيع؟ وأين مكتبه التجاري؟ وأين وجوده الصارخ بالمجتمع؟ فهل أنت غني؟! أم أنت فقير؟!! أنت فقير إلى شرايين مرنة، لو تصلَّبت، تنتهي حياتك وتموت، فقير إلى شرايين مفتوحة، ولو أغلقت؟ يقول الطبيب مثلاً: خمسة شرايين مسدودة؛ فلا بد من عملية قلب مفتوح، فهل أنت غني؟ نعم، أنت غني ولكن بفضل الله وحفظه!!

قال لي شخص: فجأةً اهتزت الصورة أمامي لمسافة عشرين سنتيمتر، كل الصور من حولي اهتزت، وفقدت التوازن الحركي، ولا بد من إنسان يسير بي، كذلك فقدت التوافق الحركيّ، فلا أستطيع الإمساك بكأس، وإن أردت ذلك ذهبت يدي لمكان آخر! ذهب إلى فرنسا مكث فيها ستة أشهر ولا أمل في الشفاء... صورة مهتزَّة، فقد التوافق الحركي، وفقد التوازن نقص... فهل أنت غني؟ فكم من ضرورات أنت بحاجة لها؟!

من كان له خبرة في الطب، ونظر إلى التحاليل وقرأ: أسيد أوريك مرتفع، وكوليسترول زائد، وكذلك الشحوم الثلاثية، والمفاصل متيبسة، والغضاريف مهترئة، فكيف تكون غنياً؟ فالإنسان فقيرٌ!! لمن؟ لله سبحانه، كلما عرف ضعفه يصبح متواضعاً، فليس الإنسان غنيّاً ولكنَّه يتواضع، ولكن أنت فقيرٌ حقيقة والله هو الغني، وإن اعترفت بفقرك أصبحت غنياً. أغناك الله وأمدَّك بقوةٍ وبحيويةٍ، وأعطاك عافيةً، وأعطاك ذاكرةً، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

توفي منذ فترة أحد إخواننا، قال لي ابنه: خرج من معمله ذات يوم ولم يستطع التعرف إلى بيته، وضاع عنه لمدة ساعة، أصيب بمرض فَقْدِ ذاكرة جزئي، وليست الذاكرة كلَّها ولكن فقد عنوان بيته، وبعد ساعة من البحث عن بيته لم يجده! لكنّه تذكَّر بيت ابنه فذهب إليه وقال له: يا بنيّ، أين بيتي دُلني عليه! لي قريبة في أعلى درجات الذكاء، وفجأةً فقدت الوعي، دخل عليها ابنها وهو أقرب الناس لها، فقالت له: من أنت؟! فهل أنت غني؟ لا بل مفتقر، فالله هو الغني وأنت الفقير. إن عرفت فقرك أغناك الله، وإن ادعيت الغنى أفقرك الله، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ

ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، وقال: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ فأحياناً والعياذ بالله يكون الإنسان ضعيف التفكير، يحضر دروس العلم أول مرة ثم يعتادها، ويلتقي مع إخوان مؤمنين فيُسرَّ فتتغير حياته كلها، فيصلي، ويقرأ القرآن، ويستقيم ويغُضُّ بصره ويدقق في تحصيل دخله وإنفاقه ويعيش في جنة. ويأتي إنسان بشكل مقصود أو غير مقصود فيُسيء له، فيريد أن ينتقم منه، فيترك الدروس كلَّها ويترك الصلاة. فأين ذهب عقلك؟ إذا أساء إنسان لك والجامع مفتوحٌ للجميع، فليس عندنا اصطفاء في الجامع، والباب مفتوحٌ لمن يحضر، فإذا أساء شخص لك؛ فإنك تترك الصلاة والدروس وتدبر مولياً لأنَّ أحد الأشخاص أساء له، فأين عقلك؟ وأين رشدك؟

فإذا كنت طالباً في كلّيّة الطّبّ، وعلّقت آمالاً كبيرة على هذه الكليّة. وأساء لك أحد الطلاب، فهل تهجر الكلية وتخرج منها؟! وكل مستقبلك في هذه الكلية؟ فستصبح طبيباً، وتفتح عيادة ويأتيك المرضى، وتأخذ ألوفاً مؤلفة، إذا أساء إليك أحد الطلاب تدمّر حياتك، لو أساء لك أستاذ، فلن تترك، ولو أساء لك عميد الكلية فلن تترك، هذا المؤمن ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٦].

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨].

نصيب المؤمن من اسم الله (الغني)

من أدب المؤمن مع اسم الغنيّ: أنَّ من عرف أنَّ الله تعالى هو الغنيُّ المغني، استغنى عن كلِّ شيء بالاعتماد عليه.

مـا لي سـوى فقـري إليـك وسـيلةٌ فبالافتقـار إليـك ربي أضرع
إذا كنـت في كـلِّ حـالٍ معـي فعـن حمـل زادي أنـا في غنـى

من أدب المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ أن تعتمد عليه وحده.

من مسالك التخلُّق باسم الله الغنيّ، أنَّ التخلُّق بالغنيّ يناسبه إظهار الفاقة والفقر إلى الله تعالى أبداً.

فأنت في الأصل فقير، الله هو الغني، فإذا أنجزت إنجازاً ما، فقل: هذا من فضل الله. وإذا نجحت لا تقل «ذاب لب مخّي» لا... ليس كذلك بل قل: الله وَفَّقَنِي وأعانني ونجحت. أسست عملاً ما ونجحت، فلا تقل: أنا خططت له وجمَّعت خبرات متراكمة، لا... لا تقل ذلك بل قل: الله عز وجلَّ وَفَّقَني، وسمح لي أن أنجح في هذا العمل. فأنت في الأصل فقير، فإذا عزوت الغِنى إلى ذاتك، فأنت مخطئ، وإذا عزوت الفضل إلى الله، فأنت قد تأدَّبت مع الله الغني لفقرك في الأساس. وكلما افتقرت إلى الله، زادك غنىً، وكلَّما تذللت إليه، زادك عزاً. فهذه العملية معكوسة، كلما خضعت إليه زادك رفعاً.

قال العلماء: التخلُّق بالمعنى العميق لاسم الغني... أن تكون بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك، وأن تُحسن السخاء والبذل لعباد الله تعالى، أن تثق بالله، وأن تُغني من حولك، الله غني ومُغنٍ، أن تستغني بالله عمَّن سواه، وأن تُغني من حولك، أعطِ... فمن لوازم التخلُّق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ؛ أن تُعطي. كما أنَّ الله يُغني عباده، أنت أغنِ من حولك.

فإذا كنت تملك معملاً، أو مشروعاً؛ فإذا كان العاملون عندك في كفاية، ووسعت عليهم واشتروا بيوتاً، وتزوَّجوا فهل هذا غلط؟ تجد من يقول لك: لحم هذا من

خيري، لا... فإذا أغنيت من حولك فأنت أغنى إنسان، أنت تعرف الله عز وجلَّ، بعض الناس يحبون أن يكون كلُّ من حولهم أغنياء ويعطوا حتى لا يبقى فقير.

كثير من الإخوان لديهم معامل ومؤسسات. فإذا زوَّج هذا، ووفر لهذا بيتاً، وأعطى هذا مساعدة، إن رزقه الله مولوداً، وهذا لديه مشكلةٌ أو نزل به مرضٌ فأجرى له عملية على حسابه الخاص، فهذا صواب. كما أنَّ الله مغنٍ فتأدَّب مع هذا الاسم وأغنِ من حولك، فتكون أنت أغنى الناس، ولن تضام.

لذلك كتطبيقٍ سريعٍ لهذا الاسم... كلما استغنيت عن الناس، شعرت براحة نفسية. كلما استغنيت عما في أيدي الناس، أحبَّك الناس. كلما استغنيت عن أموالهم، وعن عطاءاتهم، وعمّا يخصُّونك به، شعرت بكرامة. أمعن النَّظر في هذه الأقوال الثلاثة... احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغنِ عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره. لذلك من بعض الأدعية اللطيفة: اللهمَّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك، ودُلَّنا بك عليك.

المولى

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم، مطلقاً ومضافاً، فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٤٠].

وفي آية ثانية: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨].

وفي آية ثالثة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد:١١].

ويقول تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

من معاني اسم الله (المولى)

هذا الاسم ينقلنا إلى موضوع مهمٍّ، وهو الحاجة إلى التَّديُّن، إنّها حاجة في أصل فطرة الإنسان، لأنَّ الإنسان خُلِق ضعيفاً، وهذه نقطة ضعف في أصل خلقه، ولكنَّها لصالحه؛ كهذه الوصلة الضَّعيفة في الآلات الغالية جداً، فلو جاء تيار شديد لساحت،

وانقطع التيار، وسلم الجهاز، فطبيعة ضعف الإنسان لصالحه، خُلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه، فيسعدَ بافتقاره، ولو خُلق قويّاً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:١٥].

وأحياناً يغتني الإنسان أو يقوى فينسى ربه، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧].

مع أنَّه ضعيف، ومع أنّ أيَّ خلل في جسمه يجعل حياته جحيماً، أحياناً قد يقوى بماله أو بمنصبه أو بعلمه المادي فيطغى.

إذاً: من فضل الله علينا، ومن نعمته العظمى أننا ضعاف، ومع الضّعف يكون الافتقار إلى الله، ومع الافتقار إلى الله سعادةٌ وأيُّ سعادة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أما في حُنين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

ومن نقاط ضعف الإنسان أنّه عجول، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١].

فهو يريد الشَّيء السَّريع، يريد المتعة الآنيَّة، لذلك يعيش معظمُ الناس لحظتهم، يستمتعون، وينسون آخرتهم، ينسون مغادرة الدنيا، والبطولة لا أن تعيش الماضي، أو أن تتغنى بالماضي، ولا أن تعيش الحاضر، لكنَّ البطولة والعقل والذكاء أن تعيش المستقبل، وفي المستقبل مغادرة الدنيا، وأخطر حدث في حياة الإنسان المغادرة، وما من إنسان أشد عقلاً مِن هذا الذي يعدُّ لهذه السَّاعة التي لا بدَّ منها، الإنسان عجول، يحبُّ البيت الواسع، والمركبة الفارهة، والزَّوجة الجميلة، ولو أضرَّ هذا بآخرته.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١)﴾ [الإسراء:١١].

لذلك حينما يختار الإنسان هدفاً بعد الموت يرقى عند الله، لأنّه عاكس طبعه، ومعظم الناس يبحثون عن مُتَع آنيَّة، وعن مكاسب وقتيَّة، يعيشون لحظتهم، ولا يعيشون مستقبلهم والكيّس العاقل من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأمانيّ.

إذاً: البطولة أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا.

نقطة ضعف ثالثة في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩)﴾ [المعارج:١٩].

أمّا معنى الهلع فقد شرحته الآيات اللاحقة، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ [المعارج:٢٠-٢١].

إذا شعر الإنسان أنَّ ورماً بسيطاً قد أصابه فإنّه يقلق وقد لا ينام الليل إلى أن يتأكد ما إذا كان ورماً حميداً أم خبيثاً.

ولولا أنَّه هلوع لما تاب تائب إلى الله، ولولا أنَّه هلوع لما اقتيد الإنسان إلى باب الله عزَّ وجلَّ، ولولا أنَّه هلوع لما اصطلح مع الله، فالله عزَّ وجلَّ جعله بهذه الصفة لتسهُل توبته، وتسهُل عودته إلى الله، وليصطلح مع الله.

الإنسان حريص على سلامته وعلى رزقه، فأيُّ شبح مصيبة لاحَ له في الأفق يهدِّد سلامته، أو يهدِّد رزقه ينخلع قلبه له، إذاً: الله عز وجل يسوقه إلى بابه، يسوقه إلى التوبة، يحمله على التوبة، يقوده إلى الصلح مع الله عز وجل.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ [المعارج:٢١].

فهو حريص على ما في يديه، وهذا الحرص يرفع مقامه عند الله إذا ما تخلى عن حرصه وأنفق مما آتاه الله.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤].

لأنَّ هذه الأشياء محبَّبة إلينا فبإنفاقها يرقى الإنسان، إذاً: هذه نقاط أساسيَّة في أصل خلق الإنسان وهي لصالحه، هذه النقاط الثلاث هي سبب كبير في حاجته إلى التَّديُّن، وأيُّ إنسان على وجه الأرض بحاجة إلى التّدين، حتى الذي يعتقد اعتقادات خاطئة، حتى الذي يعبد الحجر والشمس والقمر، ويعبد أشياء من دون الله، الدافع الأساسيّ للتّديّن أنّه ضعيف، فالبطولة وأنت بحاجة ماسَّة إلى التَّديُّن أن تعبد الإله الحقيقيَّ، أن تعبد خالق السماوات والأرض، أما الذين عبدوا من دونه وثناً وشمساً وقمراً وحجراً فهم في الواقع يبحثون عن شيء يطمئنهم.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٤٠].

أنت بحاجة إلى مولى، بحاجة إلى مرجع، بحاجة إلى مربٍّ، بحاجة إلى سند، بحاجة إلى من يدعمك، بحاجة إلى من تتوكل عليه، بحاجة إلى من يُطَمْئِنُك، بحاجة إلى جهة قويَّة تحتمي بها من شرور أعدائك، هذا شيء طبيعيٌّ جدّاً في الإنسان، إلا أنَّ المؤمن وصل إلى الإله الحقيقيِّ، وصل إلى خالق السماوات والأرض، وصل إلى مَن بيده كلُّ شيء، وصل إلى من بيده مصائر الخلائق، والله عزَّ وجلَّ ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ [هود:١٢٣].

فلا بدَّ أن تعتقد أنَّ الله هو المعطي وحده، وهو المانع، وهو الخافض، وهو الرافع، وهو المعزُّ، وهو المذلُّ، وهو الناصر، وهو المغني، وهو الرازق، هذا هو التَّوحيد، وما تعلمت العبيد أفضلَ من التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن ترى يد الله تعمل وحدها، التَّوحيد أن تتَّجه إلى الله، وهو نعم المولى، هو عليم، لا تحتاج مع الله إلى إيصال، ولا إلى حلف يمين، هو يعلم، وبعضهم قال: الحمد لله على وجود الله،

أعداؤك بيده، أقرب النَّاس إليك بيده، فإذا أحبَّك الله سخَّر لك أعداءك ليخدموك، وإذا تخلَّى الله عنك يتطاول عليك أقرب النَّاس إليك، وهذا معنى: لا إله إلا الله.

مثلٌ للتوضيح: تصوَّر ابناً له أب موقّر جداً، عالم، أخلاقيٌّ، وضعه الماديّ جيِّد جدَّاً، وهذا الأب حريص على ابنه حرصاً لا حدود له، هيَّأ له غرفة خاصة، تابع تربيته الأخلاقيَّة، تربيته الإيمانيَّة، تربيته الدينيَّة، تربيته العلميَّة، تربيته الاجتماعيَّة، تربيته النفسيَّة، تربيته الجسميَّة، وضعه في أفضل المدارس، هيَّأ له أفضل المدرسين، اهتمَّ بصحَّته، اهتم بعاداته، وتصوّر في المقابل ابناً لا أب له، وأمُّه مشغولة عنه بالأسواق، وهو في الأزقَّة ومداخل الأبنية، من مخفر إلى مخفر، من مكان إلى مكان، عنده تُهَمٌ كثيرة أخلاقيَّة، وماليَّة، وازن بين هذين الشَّابين، شابٍ بأعلى درجات الانضباط والكمال، وشابٌّ بأسوأ درجات التفلُّت والانحلال.

اقرؤوا الآية الآن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

فالمؤمن له مرجع يعود إليه، له كتاب يقرؤه، هذا حرام، وهذا حلال، لك إله تدعوه في الليل، لك إله عظيم تسأله فيجيبك، تستغفره فيغفر لك، تتوب إليه فيتوب عليك، في حياتك منظومة قيم، هناك شيء حلال وشيء حرام، شيء ممكن وشيء غير ممكن، شيء مباح وشيء مكروه، شيء واجب وشيء مستحسَن، أنت تعيش بمنظومة قِيم، وهذا من فضل الله علينا.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة:١٨].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦١].

من نعم الله الكبرى أن يكون الله عزَّ وجلَّ وليَّك، قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:٤٠].

آية تملأ قلبك طمأنينة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦].

إذا فتح الله عليك باب الحكمة في المنع عاد المنع عينَ العطاء، فربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك فعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [أخرجه مسلم].

الله عزَّ وجلَّ يتولَّى أمرنا، وقد تضيق علينا الدُّنيا، وأحيانا تشحُّ السَّماء، فيقيم المسلمون صلاة الاستسقاء، ويلجؤون إلى الله، أحياناً يأتي شبح مرض، فيكون سببَ توبة نَصوح، أحياناً يأتي شبح فقر، هذا الفقر يسوقنا إلى باب الله، بطولتك أن تفهم حكمة الله في المصائب، البطولة أن ترى حكمة الله في أفعاله.

نعم المولى، وقعت في مأزق فدعوته، إذاً هو موجود أولاً، ثانياً يسمعك، ثالثاً قادر على أن يلبيك، رابعاً يحبك، فهو موجود وسميع، وقدير ورحيم.

﴿قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء:٦١].

فرعون من ورائهم، والبحر من أمامهم. ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء:٦٢].

سيّدنا يونُس كان في بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

ويقول تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ﴾ [التوبة:١٥].

أنت حينما تطيع الله عزَّ وجلَّ، وحينما تعبده يُنشىء لك حقاً عليه وهو ألا يعذِّبك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة:١٨].

لو أنَّ الله قبِل دعواهم لما عذَّبهم، لأنَّ الله لا يعذِّب أحبابه.

المؤمن يتمتع بأمن لا يتمتع به أحد، والدليل: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

لو أنَّ الآية: أولئك الأمن لهم، أي لهم ولغيرهم، لكنّ الله تعالى قال: (أولئك لهم الأمن) وهذه عبارة قصر وحصر.

ويتمتَّع المؤمن بالحكمة: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ويتمتَّع المؤمن بالرضا، فلذلك حينما يسوق الله الإنسانَ إلى بابه عن طريق مصيبة، أو شبح مصيبة، أو ضيق، أو عدو جاثم على صدره، أو شبح فقر، أو شبح مشكلة، فهذه في الفهم الإيماني نعمة باطنة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان:٢٠].

حينما يتابعك الله عزَّ وجلَّ، وحينما يُخضعك لتربيته فأنت في خير عميم، وأنت في نعمة كبرى، إذا كنت ضمن العناية المشدَّدة فأنت في نعمة كبرى، لكنَّ المصيبة الكبيرة أن يتابع الله نعمه على عبده، وهو يعصيه، المصيبة الكبيرة أن تكون خارج العناية الإلهيَّة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد:١١].

أحياناً يشدِّد عليهم، أحياناً يضيِّق عليهم، أحياناً يُسلِّط عليهم عدوَّهم.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

ثمّ يقول تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ [القصص:].

لذلك إذا كنت ضمن العناية المشدَّدة فالله يتولّى أمرك، وإذا تولَّى الله أمرك فأنت في نعمة كبرى من الله عزَّ وجلَّ.

إذا أخطأت جاء العقاب، أو أسرفت في الإنفاق جاء التقتير، أو استعليت على إنسان جاء التأديب، لأنَّ الله مولاك، نعم المولى ونعم النَّصير، هو مولانا، وعلى الله فليتوكَّل المتوكِّلون.

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧].

واسم (المولى) يقودنا إلى موضوع معيّة الله لعباده، وقد فرّق العلماء بين معيَّة الله العامَّة ومعيَّته الخاصَّة، فأمّا المعيّة العامّة فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد:٤].

أي: معكم بعلمه، مع أيّ مخلوق؛ مع المؤمن، ومع الكافر، أمَّا إذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ [الأنفال:١٩].

فهذه هي المعيَّة الخاصَّة، أي هو معهم بالتأييد والنَّصر، والحفظ والتَّوفيق، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد مَن فقدك؟

نصيب المؤمن من اسم الله (المولى)

إذا كان الله تعالى مولى الذين آمنوا فلا بدّ للمؤمن الحقِّ أن يوالي مولاه جلّ جلاله، وما دام الله معه بعلمه فينبغي أن يكون مع ربه بطاعته.

والحديث الشَّريف الآتي يبيّن طريق تحقيق الولاء لله تعالى ويبيّن كذلك ثمراته، يقول النَّبيِّ ﷺ فيما أخرجه الإمام البخاريّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ الله قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ...» [البخاري].

إذاً قبل أن يقف جاهل في خندق مُعادٍ للحقِّ، ينبغي أن يعلم مَن هو الطرف الآخر.

إنَّ الإنسان في الحياة المدنيَّة، وقبل أن يتطاول على إنسان يمثِّل الحكومة يعدّ للمليون، فإذا تطاول الإنسان على دين الله، وعلى شرع الله، ووصل إلى الأشياء المقدَّسة في حياة المسلمين فلينتظر الحرب من الله عزَّ وجلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ...» .

وإليكم المفهوم القرآني للوليِّ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

إنَّ أيَّ مؤمن يجب أن يكون وليّاً لله. فلو لُخِّص الدِّينُ كلُّه في كلمتين لكانت الأولى: أنَّك آمنت بالله، والكلمة الثانية: أنَّك تتقي أن تعصيه، لذلك يمكن أن تضغط رسالات الأنبياء كلها في كلمتين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

لذلك قال العلماء: «نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى»، فإذا وحدت الله، واتقيت أن تعصيه فقد حقَّقت الهدف من وجودك، وقد وضعتَ يدكَ على حقيقة الدِّين.

الآن لا معنى لأن تعرف الله من دون أن تتقرَّب إليه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠].

تتمة الحديث القدسيِّ الشَّريف: «... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ...» [البخاري عن أبي هريرة].

الفرائض أولاً، أداء الفرائض مقدَّم على أيِّ شيء، أعظم قربة إلى الله أن تؤدِّيَ الفرائض:

ما معنى فريضة؟ أي أنَّ سعادتك تتوقف عليها.

للتقريب: كيف نقول: إنَّ استنشاق الهواء فريضة، لأنَّ حياة الإنسان متوقِّفة على استنشاق الهواء.شرب الماء فريضة، لأنَّ حياة الإنسان متوقِّفة على شرب الماء.فتناول الطعام، وشرب الماء، واستنشاق الهواء فرائض، بمعنى أن حياة الإنسان متوقِّفة عليها.

أما الحرام فهو الذي يحرم النَّفس من سعادتها وسلامتها، وحينما تفهم أوامر الدين أنَّها ضمان لسلامتك، وليست حداً لحرِّيتك تكون فقيهاً، فإذا رأيت لوحة كتب عليها: «ممنوع التجاوز، حقل ألغام»، فأنت لا تشعر أن واضع هذه اللوحة أراد أن يقيِّد حرِّيَّتك، بل تعلم علم اليقين أنَّه أراد أن يضمن لك سلامتك.

«وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»

أول مراتب القرب من الله أداءُ الفرائض، والفريضة ما تتوقف عليها سعادتك وسلامتك.

عندنا أشياء في الدين حدِّيَّة، وعندنا أشياء نسبيَّة، فتركُ المحرمات حدِّيٌّ، لا تفاوت في ذلك ولا تفاضل، فالذي نهانا عنه النَّبيُّ ﷺ يجب أن ننتهي عنه كلياًّ.

كمستودع الوقود السَّائل، له صفة سلبيَّة وصفة إيجابيَّة، الصِّفة السلبيَّة أنَّه مُحْكَم، والإحكام حدِّيٌّ، أمَّا عدم الإحكام فنسبيّ، الاستقامة حدِّيَّة، لا تقبل التَّفاوت، لذلك «إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» [رواه مسلم]، فأقلّ ممرض في المستشفى مع أعلى طبيب في المستشفى لابد من تعقيم الإبرة، أما العلم فمتفاوت، فالفرق كبير جدَّاً بين الممرض والطَّبيب، أمَّا من حيث تعقيم الإبرة فلو أراد طبيب متفوق جداً أن يعطي إنسانا حقنة فلا بد من تعقيمها، ولو جاء ممرض ليعطيه هذه الحقنة فلا بد من تعقيمها بقواعد ثابتة وحدية، فالاستقامة حدِّيَّة، والأعمال الصالحة متفاوتة.

«وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»

معنى ذلك أن العلاقة مع الله واضحة، الله عز وجل يحبُّ من يتقرَّب إليه، وأحياناً يكون التَّعامل مع جهة مزاجيَّة صعباً جدَّاً، إذ ليس لها قاعدة تضبط تعاملها مع الآخرين، لكنَّ التَّعامل مع ربِّ العالمين سهلٌ جدَّاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

ولو أنَّ الإنسان مشى إلى الله خطوة مشى الله إليه خطوات، لمجرد أن تفكر أن تتقرَّب إلى الله فالله عزَّ وجلَّ يملأ قلبك سعادة، و طمأنينة، ورضا، وهناك تجاوب سريع جداً من الله عز وجل، بل إنَّ الله ينتظرك.

النبي ﷺ قدّم صورة رائعة جداً لأعرابي ركب ناقته: «لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللهمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته» [متفق عليه].

وإذا أحبَّك الله فلا تعباً بشيء آخر، إذا أحبَّك الله ألقى محبَّتك في قلوب الخلق، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ»

الإنسان يستمع إلى ملايين الموضوعات في حياته، أمَّا المؤمن فسمعه منضبط بالمنهج الإلهيِّ. فمستحيل وألف ألف مستحيل أن تستوعب الباطل، فحياتنا لا تكفي

لاستيعاب الباطل، لأن الباطل متعدِّد، لكن بين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، حاول أن تمرِّر مستقيماً آخر فإنّه يأتي فوقه تماماً، فالحقُّ لا يتعدَّد، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

لهذا قيل: المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما المعركة بين باطلين فلا تنتهي.

حياتنا جميعاً لا تكفي لاستيعاب الباطل، ويمكن أن تمضي عشر سنوات أو عشرين سنة في دراسة فئة ضالَّة، والفئات الضَّالَّة تنتظمها قواعد تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد نصوص موضوعة، ونزعة عدوانيَّة، لكن من السهل جدّاً أن تستوعب الحق في عمر معتدل.

الإنسان يستمع إلى ملايين المقولات، فيغربلها، هذه الفكرة خلاف القرآن، هذه الفكرة خلاف الحديث الصحيح، هذه الفكرة خلاف المنهج، فالأصل كتاب الله، هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يسمع به وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ»

لو أنَّ إنسانا نظر إلى بناء يأخذ بالألباب، لكنَّ صاحبه تاجرُ مخدرات، جمعه من مال حرام، فإنه لا يحترم صاحب هذا البناء، بل يحتقره لأن عنده ميزاناً، لذلك فالمؤمن منضبط، سمعه منضبط، وبصره منضبط، الأشياء لها صورة ولها حقيقة، يمكن أن يجلَّ إنساناً دخله محدود جداً من حلال، ويحتقر إنساناً بنى مجده على أنقاض النَّاس، أو على حياة الناس، أو على أمن الناس، أو على خوف الناس، فالآن تقييمه للأشياء مبنيٌّ على نور ألقاه الله في قلبه، فيقيّم الأشياء بميزان الشّرع، بمنظومة قيم ومبادىء.

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ التِي يَبْطِشُ بِهَا».

لا يتحرَّك حركة إلا وفق منهج الله، إن أعطى أَعطى لله، وإن منع مَنع لله، وإن رضي رَضي لله، وإن غضب غَضب لله، وإن وَصل وصل لله، وإن قطع قَطع لله، هكذا.

«ورِجْلَهُ التِي يَمشِي بِهَا»

لا تقوده رجله إلا إلى عمل صالح، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، أو لارتياد بيوت الله، أو لإصلاحٍ بين شخصين، فحركته كلُّها في سبيل الله.

«وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»

فإذا التجأ المؤمن إلى الله عزَّ وجلَّ فإنّ الله يلبيه فوراً، فهو مستجاب الدَّعوة.

المؤمن تحت رعاية الله، وحفظه، وتأييده، ونصره، يتولاه بالرعاية، يتولاه بالحفظ، يتولاه بالتأييد، يتولاه بالمعالجة، فلذلك من أقرب أسماء الله الحسنى إلى المؤمن اسم المولى.

النصير

هذا الاسم ورد مطلقاً معرّفاً في آيتين.

الآية الأولى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:٤٠].

والآية الثانية: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج:٧٨].

وورد هذا الاسم أيضاً في دعاء النَّبيِّ ﷺ، فعَنْ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللهمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ» [الترمذي وأبو داود].

من معاني اسم الله (النصير)

(النّصير) على وزن (فعيل) صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة تعني شيئين؛ مبالغةَ الكمِّ، ومبالغةَ النَّوع، أي مهما يكن العدوُّ قويًّا فالله هو النّصير، ومهما يكن الأعداء كُثُراً فالله سبحانه وتعالى هو النّصير.

وما من اسم يحتاجه المسلمون اليوم كهذا الاسم وقد تكالب عليهم أعداؤهم، لكن هذا النَّصر له قواعد وشروط.

أول تلك القواعد أنَّ النَّصر من عند الله، وحينما يتوهَّم المسلمون أنَّ النَّصر من عند زيد أو عبيد فقد وقعوا في وهمٍ كبير، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:١٠].

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ولكن هناك نصرٌ استحقاقيٌّ، فالمؤمن حينما يكون على ما يرضي الله وينتصر، فهذا هو النَّصر الاستحقاقيُّ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران:١٢٣].

كان أصحاب النَّبيِّ ﷺ من الافتقار ومن الاستقامة ومن التوحيد ما جعلهم يستحقون نصر الله عزَّ وجلَّ.

ولكنَّ النّصر له ثمن، وثمنه الإيمان والإعداد: الإيمان الذي يحملك على طاعة الله - والإعداد المتاح فقط.

أمّا الشرط الأول فقد جاء في عدّة آيات: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧].

هذا كلام خالق الأكوان، وزوال الكون أهون عند الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر:٥١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور:٥٥].

البند الأول في ثمن النّصر هو الإيمان الذي يحمل على طاعة الله، أمَّا الإيمان الذي لا يحمل على طاعة الله فلا قيمة له أبداً.

أمّا البند الثاني فهو الإعداد، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠].

ومن رحمة الله بنا أنَّه كلَّفنا أن نعدَّ القوَّة المتاحة، وليس القوّة المكافئة. وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ .

عندما أؤمن الإيمان الذي يحملني على طاعة الله، وحينما أعد لأعدائي العدَّة المتاحة عندئذ أكون قد دفعت ثمن النَّصر، وما لم يُدفع ثمن النَّصر فإنّه بعيد المنال، وهذه هي الحقيقة المرَّة التي هي أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، إذن النَّصر من عند الله، وله ثمن، والثمن له بندان الأول الإيمان، والثاني الإعداد.

فإذا آمنَّا ولم نعدَّ فلن ننتصر، وإذا أعددنا ولم نؤمن فلن ننتصر، لذلك قالوا: الإيمان والإعداد شرطان كل منهما لازم غير كاف، وما لم يتحقَّق الشَّرطان معاً فلن يكون النَّصر.

حينما نتعامل مع الله وفق قواعده القرآنيَّة، ووفق نواميسه نقطف الثَّمرة، أما إذا تعاملنا مع الله تعاملا ضبابيّاً مزاجيّاً، ولم ندفع الثَّمن المطلوب فلن ننتصر.

لم ينتصر المسلمون في أُحُد النّصر المطلوب، لأنّهم عصوا، ولو أنّهم انتصروا لسقطت طاعة رسول الله ﷺ.

ولم ينتصروا في حنين لأنّهم وقعوا في شرك خفيٍّ، فقالوا: لن نُهزم مِن قلَّة، إذًا: إمَّا لسبب سلوكيٍّ في أُحد، أو لسبب اعتقاديٍّ في حنين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

نستنبط من غزوة أحد وغزوة حُنين أنَّ هناك درسين بليغين، الأول: حينما تقول: الله، يتولاك الله عزَّ وجلَّ، وحينما تقول: أنا، يتخلى عنك، وهذا الدرس نحتاجه كل يوم، بل كل ساعة، قل: أنا بعلمي، واختصاصي النادر، وخبراتي المتراكمة، ومالي العريض، وجاهي الكبير، يتخلّ الله عنك، قل: الله، في زواجك، في عملك، في حرفتك، حينما تقابل عدوّاً يتولّاك الله.

فالنَّصر الأول هو النَّصر الاستحقاقيُّ، وندفع ثمنه إيماناً مترجماً إلى التزام، إلى وقوف عند الحلال والحرام، إلى فعل ما ينبغي، إلى تطبيق منهج الله، إلى أن يرانا الله حيث أمرنا، ويفتقدنا حيث نهانا، وإعداداً للقوَّة المتاحة.

فالتَّوكل من دون إعداد تواكل، وهو معصية، أن تقول: يا رب، توكلت عليك، ولا تفعل شيئاً، سيدنا عمر وجد رجلاً معه جمل أجرب، قال: «يا أخا العرب، ما تفعل بهذا الجمل؟ فقال: أدعو الله أن يشفيه، قال: هلَّا جعلت مع الدعاء قطراناً».

ورأى سيدنا عمر أناسا يتكفَّفون النَّاس في الحجِّ، قال: مِن أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: كذبتم، بل أنتم المتواكلون، المتوكل من ألقى حبَّة في الأرض، ثم توكَّل على الله.

ويمكن أن ينسحب هذا على جميع شؤون حياتنا، فالتَّفوُّق في العمل يحتاج إلى الأخذ بالأسباب، ويحتاج إلى التَّوكل على الله، وكلاهما شرط لازم غير كاف، والمسلمون في معظمهم لا يأخذون بالأسباب، بل يتوكَّلون توكُّلاً لا يرضي الله، سماه العلماء التواكل، وهناك من أخذ بالأسباب وألّهها، ونسي الله، واعتمد عليها فأخطأ السَّبيل، والطَّريق الأمثل أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كلُّ شيء، ثم تتوكَّلُ على الله وكأنَّها ليست بشيء، ومن السَّهل أن تأخذ بالموقف الحادَّ، كأن تأخذ بالأسباب وتنسى الله، أو أن تتواكل على الله، ولا تأخذَ بالأسباب، فإن أردت أن تنتصر في أيِّ معركة حقيقةً أو مجازاً فلابد أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كلُّ شيء، وأن تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست

بشيء، وقد قال النّبيّ ﷺ: «إِنَّ الله يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ» [أبو داود].

أن نستسلم، أن نيئس، أن نحسَّ بالإحباط، أن نقول: انتهينا، فهذا نُلام عليه، هذا يأس، واليأس كفر، هذا تشاؤم، والتشاؤم ليس من صفات المؤمن.

هناك معارك قتاليَّة، معارك تنمية، معارك بناء، سمِّ أي قضية أو مشكلة في حياة المسلمين معركة، والانتصار في هذه المعركة يحتاج إلى شرطين، كل منهما شرط لازم ليس كاف، أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، وأن تتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، وكأنَّ الطريق الأمثل طريق ضيّقة عن يمينها وادٍ سحيق وعن يسارها وادٍ سحيق، إنك إن أخذت بالأسباب، ونسيت الله، واعتمدت عليها، وألهتها وقعت في وادي الشرك، وهناك تأديب من الله، على من اعتدّ بغير الله، وإن تركت الأسباب وادّعيت التوكّل على الله فقد وقعت في المعصية، ولا بدّ من تأديب.

هناك نصر آخر سمّاه العلماء النَّصر التَّفَضُّلِيّ، ودليله الآية الكريمة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٢-٤].

فالرُّوم أهل كتاب، وأهل الكتاب مشركون، ومع ذلك انتصروا، فهذا النَّصر ليس استحقاقيّاً، ولكنَّه تفضليٌّ، والنَّصر التفضليُّ يعني أنَّ المنتصِر ليس كما ينبغي في إيمانه بالله تعالى والتزامه بأمره، لكنَّ حكمة الله اقتضت أن ينتصر، لذلك أثبت الله للصحابة الكرام وهم نخبة البشر فرحهم بهذا النصر.

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٤].

لكن هناك نصر ثالث، إنّه النَّصر المبدئيُّ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾﴾ [البروج:٤-٧].

أصحاب الأخدود لم ينتصروا بالمقياس التقليديِّ، لكنَّهم انتصروا نصرا مبدئيًّا، لأنَّهم ثبتوا على إيمانهم بالله.

ومن هذا النوع نصر ماشطة بنتِ فرعون:

عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ فَقَالَ هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا شَأْنُهَا قَالَ بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ بِسْمِ الله فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ أَبِي قَالَتْ لَا وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ الله قَالَتْ أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ نَعَمْ فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا فَقَالَ يَا فُلَانَةُ وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي قَالَتْ نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ الله فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا قَالَتْ لَهُ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً قَالَ وَمَا حَاجَتُكِ قَالَتْ أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا قَالَ ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الْحَقِّ قَالَ فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ» [مسند أحمد].

لذلك فالأمَّة في حاجة لمن يدفع ثمن مبادئه ولو غالياً، ولو أنَّ كلَّ إنسان أخذ بالرُّخص فلن نجد في الأرض بطولات أبداً.

هذا هو النَّصر المبدئيُّ؛ بأن يموت الإنسان على مبدئه ولا يساوم عليه.

وأقول لكم بكلِّ صراحة: إنَّ بعض المسلمين وقعوا في الإحباط واليأس، إذ هناك امتحانان صعبان:

الامتحان الأول: أن يقوِّي اللهُ الكافر حتى يقول ضعاف الإيمان: أين الله؟ **والامتحان الثاني:** يظهِر الله آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله.

نحن الآن في الامتحان الأول، وهو صعب جداً، الطرف الآخر قوي ومتغطرس، ويفعل ما يقول، فبعض المؤمنين ضعفوا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

ويحضرني في هذا الموضوع حديث شريف:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» [الترمذي].

فالله عزَّ وجلَّ جعل قلب الإنسان بيده، يملؤه أمنا، أو يملؤه خوفاً، يملؤه سعادة، أو يملؤه ضيقاً وانقباضاً، أراد الله أن يعلمه أنّك إن اتخذت قراراً صحيحاً سليماً بالتَّوبة إلى الله، والصُّلح معه، وطاعته فإنّه يملأ قلبك رضا وسعادة، وتفاؤلاً وسروراً، وكأن الله بارك لك هذا القرار، وأعانك عليه، والدليل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧].

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

وفي المقابل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وهذه معونة من الله عزَّ وجلَّ، فالقرار الحكيم معه سرور، وانشراح، وراحة نفسيَّة، وطَمأنينة، وإقبال، وتألُّق، والقرار الخاطئ معه انقباض وتشاؤم وكآبة، بل إنَّ كلَّ ما يعانيه البشر من ضياع وتفلُّت وتشاؤم وإحباط ما هي إلّا أعراض لمرض واحد، هو الإعراض عن الله.

أمّا علاقة هذا الحديث بالنَّصر، فهي أنَّ هذا الذي تراه قوياً، طاغية، قلبه بيد الله تعالى.

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين، وقد أدّى أمانة العلم، وبيّن ما ينبغي أن يبيّنه، فبلغ الحجّاج ما قاله الحسنُ، فقال لجلسائه: «يا جبناء، والله لأسقينكم من دمه»، وأمر بقتله، وجاء بالسياف، وأمر بإحضاره ليقطع رأسه أمام مَن حوله، جيء بالحسن البصري، ودخل على الحجاج، ورأى السّياف، فحرَّك شفتيه، فإذا بالحجّاج يقول له: أهلاً يا أبا سعيد، أنت سيِّد العلماء، ومازال يدنيه، ويقرِّبه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه، وعطّره، وأكرمه، وشيَّعه إلى باب قصره، فتبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت لربك؟ قال: قلت له: «يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً كما جعلت النَّار برداً وسلاماً على إبراهيم».

هذا الذي تخافه قلبه بيد الله، هذا القوي الذي يتمنى إفناءك قلبه بيد الله، قد يملؤه الله هيبة منك، فالله نصير، لأن قلوب الذين حولك بيد الله عزَّ وجلَّ، ألم يقل هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

فإذا كان الله معك خدمك أعداؤك، وإذا كان الله عليك تطاول عليك أقرباؤك.

(النصير) قد ينصرك على المرض، وقد ينصرك على العدو، وقد ينصرك على كل معركة تخوضها بأوسع معاني المعارك، فهو نعم المولى ونعم النصير.

حينما تدعو الله عزَّ وجلَّ، وتقول: يا نصير انصرني، فهو موجود، ويسمع، ويقدر، ويحبُّ أن يرحمك، ولن تدعو جهة إلا إذا أيقنت بوجودها وعلمها، وقدرتها ورحمتها، لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

حينما تقول: الله أكبر، فهو أكبر من كل قويٍّ، أكبر من كل جبَّار، قال تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء:٦١].

فرعون بحقده وجبروته، وأسلحته وجيشه يتبع شرذمة من بني إسرائيل مع سيِّدنا موسى، وصلوا إلى البحر، لا أمل بالنَّجاة، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢].

وسيِّدنا يونُس، وهو في بطن الحوت ولا أمل بالنجاة، والإنسان يمكنه أن يقف في فم الحوت على قدميه، ووجبته الغذائيَّة أربعة أطنان، والإنسان وزنه ثمانون كيلو، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وأروع ما في الآية أنَّ الله قلب القصَّة إلى قانون، بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

وقد وصف الله مكر الأعداء فقال: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران:١٢٠].

كلُّ آلاتهم، كلُّ أسلحتهم، كلُّ أموالهم، كلُّ أقمارهم الصناعية، كلُّ حاملات طائراتهم، لا قيمة لها إذا تحقق الصبر مع التقوى.

وفي المحصّلة: الطَّاعة مع الصَّبر سبيل إلى النَّصر، أمَّا المعصية مع الصَّبر فليس بعدها إلا القبر.

الحفيظ

ورد هذا الاسم مطلقاً في قوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢١].

وقد ورد أيضاً مقيَّداً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى:٦].

ولم يرد هذا الاسم في السُّنَّة.

من معاني اسم الله (الحفيظ)

الحفيظ في اللغة صيغة مبالغة من اسم الفاعل الحافظ، الحافظ اسم فاعل وصيغة المبالغة منه «الحفيظ» والفعل حفظ، يحفظ، حفظاً.

وحفظ الشَّيء يعني صيانته من التَّلف والضَّياع، ويستعمل الحفظ في العلم على معنى الضَّبط، وعدم النّسيان، أو تعاهد الشّيء وقلة الغفلة عنه، وقوم حفَّاظ هم الذين رُزقوا حفظ ما سمعوا وقلّما ينسون شيئاً.

والذَّكاء شيء، والذَّاكرة القويَّة شيء آخر، لكن بينهما منطقة مشتركة فكلُّ ذكيٍّ لابدَّ من ذاكرة تعينه في استرجاع الحقائق، وكلُّ من يملك ذاكرة قويَّة فهو على شيء من الذَّكاء.

والحافظ و «الحفيظ» أيضاً هو الموكَّل بالشيء يحفظه، ومن ذلك الحَفَظَة من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠-١١].

ويقال: حفظ المال والسرَّ حفظاً: رعاه وصانه، واحتفظ بالشيء لنفسه، يعني خصَّها به، والتَّحفُّظ قلَّة الغفلة في الأمور والكلام.

«الحفيظ» سبحانه وتعالى هو العليم، المهيمن، لا تغيب عنه شاردة، ولا واردة ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر:١٩].

هو الرَّقيب على خلقه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:١٤].

ومن لوازم حفظه أنّه يعلم كلَّ شيء، ولا يغيب عنه شيء، لا يعزُب عنه مثقال ذرة في ملكه.

و«الحفيظ» هو الذي يحفظ أعمال المكلفين، حركاتهم، وسكناتهم محفوظة عنده، قال تعالى: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١١-١٢].

يدوِّنون على العباد أقوالهم، وخطراتهم، وحركاتهم، وسكناتهم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٨].

حركاتك، وسكناتك، وخطراتك، وكل جزئيات حياتك، محفوظة عند الله عزَّ وجلَّ.

وهو «الحفيظ» يحفظ على عباده أسماعَهم، وأبصارَهم، وجلودَهم، لتشهد عليهم يوم اللقاء.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت:٢٠].

و«الحفيظ» يحفظ من يشاء من الشَّرِّ، والأذى والبلاء، ويحفظ أهل الإيمان والتَّوحيد، ويعصمهم من الهوى وشُبُهات الشيطان، ويحول بين المرء وقلبه من الوقوع بالعصيان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥].

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوَّة على طاعته إلا به.

و «الحفيظ» هو الذي يهيِّئ الأسباب بتوفيقه إلى الطَّاعة والإيمان، يحفظك من الوقوع في العصيان، ويمدك بالأسباب التي تعينك على الطاعة والإيمان.

ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «اللهم احفظني بالإسلام قائماً، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدوا حاسداً، اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك» [أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه].

لكنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «والشَّرُّ لَيسَ إليكَ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن علي بن أبي طالب].

هذا يعني أنَّ الشَّرَّ نسبيٌّ، وليس هناك شرٌّ مطلق، فالشَّرُّ المطلق يتناقض مع وجود الله، فالمصيبة قد تعدُّ شرَّاً بالنسبة إليك حاليّاً، لكنَّها بالنسبة إلى مآلك ومستقبل حياتك تعدُّ خيراً، فالله عزَّ وجلَّ يوظِّف الشَّرَّ النِّسبيَّ للخير المطلق.

مثل للتَّوضيح: مركبة من أحدث المركبات، قادها صاحبها وهو شارب للخمر، نزل في الوادي، فتحطَّمت، هذا المنظر المشوَّه للمركبة سببه أنّه أُسيء استخدامها، فنقول: هذا الشَّرُّ ناتج عن مخالفة التعليمات.

الشَّرُّ ناتج عن إنسان أعطاه الله حرية الإرادة، أعطاه الشهوات، لكنّه لم يتحرك وفق منهج الله، لو تحرك وفق منهج الله لما كان شرٌّ.

الملح مادة مهمَّة جدَّاً، فإذا وضعت في الحلويات فلا يمكن أكلها، والمواد التي صنعت منها الحلويات مفيدة، أما حينما أُسيء استخدام الملح ووضع في الحلويات فهذا هو الشَّرُّ النِّسبيُّ، فالشَّرُّ سلبيٌّ لا يحتاج إلى صانع، بل يحتاج إلى إنسان مخيَّر تحرك بقوَّة شهوته دون ضابط من شرع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

معنى ذلك أنّ الذي يتبع هواه وفق هدى الله عزَّ وجلَّ لا شيء عليه.

و «الحفيظ» هو الذي حفظ السماوات والأرض بقدرته، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالله حفيظ لمخلوقاته أي أنه يبقيها على حالها، لغاياتها، وينظِّم ترابط العلل بالمعلولات، هذه قوانين، أي هناك سبب، وهناك نتيجة، من نظّم علاقة الأسباب بالنتائج؟ هو الله عزَّ وجلَّ، الله تفضَّل علينا بملايين القوانين الثابتة، لتنظِّم حياتنا، التمدُّد قانون، وأثناء البناء تراعي هذا القانون، فالبناء لا يتصدَّع، لو لم يكن هناك قوانين فالحياة لا تُعاش، تصبح شاقَّة جدَّاً.

ذكر الغزاليُّ رحمه الله تعالى أن الحفظ الإلهيَّ على وجهين، الوجه الأول إدامة وجود الموجودات، وإبقاؤها، ويضادُّه الإعدام، فالشيء الموجود محفوظ، فالحفظ يعني البقاء، الله عز وجل أبقى الشمس شمساً، والقمر قمراً، والنجوم نجوماً، أبقى الماء ماءً، والهواء هواءً، أبقى المعادن معادن، أعطاها خواص، وخواصها ثابتة.

والله تعالى هو الحافظ للسماوات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمدها والتي لا يطول.

القمح مثلاً وجد في الأهرامات، من ستة آلاف عام فلما زُرع نبت، والقمح فيه رشيم، والرُّشيم كائن حي، معنى هذا أنّ الكائن الحيَّ عاش ستة آلاف عام، وهناك أشياء عُمُرها سريع، أقصر خلية في جسم الإنسان عمرها ثمان وأربعون ساعة، وهي خلايا زغابات الأمعاء، وأطول خلية في جسم الإنسان عمرها خمس سنوات، وهي الخليَّة العظميَّة، يعني أنت أيها الإنسان تتجدّد كلياً كل خمس سنوات، عدا خلايا الدماغ وخلايا القلب.

إذ كلُّ المعلومات والأفكار والخبرات والمهارات والذواكر في الدماغ، ولو أنها تبدَّلت لفقد الإنسان كلَّ اختصاصه، وجميع المشاعر والأذواق في القلب، فالله تعالى يحفظ لنا خلايا الدّماغ والقلب.

الوجه الثاني للحفظ: أن الحفظ صيانة للمتقابلات والمتضادَّات بعضها عن بعض، فالماء يطفئ النار، فهما متضادَّان، من الذي يحفظ للماء وجوده وللنَّار وجودها؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

وقد جمع الله عزَّ وجلَّ بين هذه المتضادَّات المتنازعة، في سائر العناصر والمركَّبات، وسائر الأحياء كالإنسان، والحيوان، والنَّبات.

ومن زاوية أخرى: الإنسان مفطور على حُبِّ وجوده، وعلى حبِّ سلامة وجوده، وعلى حبِّ استمرار وجوده فكم من التدابير التي يتَّخذُها للحفاظ على نفسه أو ماله، أو للحفاظ على صحَّته، أو للحفاظ على أولاده. وهذا يعني أنَّه يبذل جزءاً كبيراً من نشاطه في الدُّنيا في سبيل الحفاظ على وجوده، أو على سلامة وجوده، أو على دخله أو على صحته، أو على مُكتسباته، أو على ما بيده، فالحفاظ على الشَّيء لا يقِلُّ أهميّة عن تحصيله، فالإنسان يُحصِّل شيئاً ويُحافظ عليه، فنشاط الحِفاظ على ما أنت فيه لا يقل عن نشاط تحصيل هذا الذي تريده، فالإنسان حينما يحاول أن يحافظ على حياته أو على

سلامته أو على صحته أو على أولاده في حياته أو بعد مماته، حينما يحاول الحفاظ على دخله وإنتاجه وعلى بيعه ومكانته وسمعته، فهو يعمل وفق غرائزه ودوافعه.

تحصّل هذا الدخل وتحافظ عليه، تُحصِّل هذه اللياقة البدنيَّة وتحافظ عليها، تُحصِّل هذه السُّمعة وتحافظ عليها، بل إنَّ نشاط المحافظة على الشَّيء ربما كان أكثر من نشاط تحصيله، فالإنسان أحياناً يصل إلى مرتبةٍ ومنصبٍ ويبذل أربعة أخماس وقته في الحِفاظ على هذا المنصب، وكأنَّ هذا الحفاظ أصبح شُغلَه الشَّاغل، لذلك فالإنسان حينما ينسى الله عزَّ وجلَّ، أو حينما ينسى اسم الله الحفيظ، أو حينما ينسى أن الله هو الحافظ أولاً وآخراً، حينما يتجاهل أن الحِفظ بيد الله وحده وأنه مهما كنت ذكياً، ومهما كنت أريباً، ومهما كنت ذا خبرة عريقة، مهما أخذت من الاحتياطات، مهما اتَّخذت من الأسباب، مهما أقمت من السُّدود، مهما حصَّنت نفسك، إذا أراد الله بك شيئاً فلا بُدَّ أن يصل إليك، فالحفاظ الحقيقيُّ لا يكون بأخذ الأسباب وحدها، بل بأخذ الأسباب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، فكم من إنسان دُمِّرت حياته من خطأٍ بسيط في صحَّته.

سمعت عن إنسان مرض وكان مرضه قابلاً للشفاء، ليس مرضاً عُضالاً، علاجه ممكن، وهناك أدويةٌ فعَّالة في شفائه، ذهب إلى صيدلانيّ، فكان غائباً عن عمله، وترك مكانه موظَّفاً، فأعطى الموظَّف لهذا المريض دواء آخر، وقيل له: ضع الحبَّة تحت لسانك، تفاقم هذا المرض حتى كاد يودي بحياته. مهما كنت ذكيَّاً فأنت بحاجة إلى حفظ الله.

وحينما يتجاهل الإنسان اسم الله الحفيظ، فإنّه يقع في سوء فعله: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾، حينما يأخذ الإنسان بأسباب الحفظ الماديَّة وينسى أن مُسبِّب الأسباب هو الله عزَّ وجلَّ، حينما يأخذ بالأسباب الماديَّة للحفظ ويأتيه بأس الله

من حيث لا يحتسب مما يجعل حياته كلَّها جحيماً لعلَّة تصيب جسدَه، فمثلاً شخص حصّل أعلى الشّهادات وتزوج امرأةً غربيَّة تروق له، وعاد بها إلى بلده، ووصل إلى أرفع المناصب، ثم فَقَدَ بصره فزاره صديق له، فقال له: والله يا فلان أتمنى ألاّ أحمل هذه الشهادة، وألا أكون متزوجاً، وأن أقوم على قارعة الطريق أتكفَّف الناس، وأن يردَّ الله إليّ بصري!

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾، الإنسان عُرضة لأخطار لا تنتهي في الدنيا والوقائع بين أيديكم، تجد إنساناً بأعلى درجات الذّكاء، رجل يمشي على يمين الطّريق، فصدمته سيّارة كان سائقها نائماً، وأصيب في عموده الفقري ممّا أدّى إلى شلل كامل طوال حياته، فمن يحميه ويحفظه من الغوائل؟ فالله خير حافظاً، فلا بدَّ من التَّوكُّل حقّاً.

مثلاً كيف يُحصِّن المال؟ يجب أن يُحصَّن المال لا بوضع أقفال، وأقفال ذات أرقام... لا. ففي مراسيل أبي داود عن الحسن مرسلاً «حصنوا أموالكم بالزكاة».

يجب أن تحفظ المال كما بيَّنَ لك الله وبيَّن الطريق لحفظه، وليس كما يصل إلى علمك من أساليب معقَّدة جداً مبنية على التكنولوجيا، تكتفي بها وتترك الصّدقات.

سمعت عن رجلٍ يعمل في تجارة الذَّهب، استورد صندوقَ حديدٍ من إحدى قارات الأرض، وله مواصفات تحتاج إلى كُتيِّب لوصفها، واستطاع أُناس أن ينزلوا إلى دكانه بالليل وأن يثقبوا الصندوق من سقفه، وأن يأخذوا كل ما فيه، فقد اعتمد على هذا الصندوق في حفظ ماله ونسي الله تعالى، وحينما ينسى المرء الله عزَّ وجلَّ ويأخذ بكلِّ أسباب حفظ الصّحة ويعتمد عليها يأتي عَطَب غير متوقَّع، وهناك عشرات الأمراض بل مئات الأمراض حتى الآن لا تُعرف أسبابها، يقال لك: فقر دم غير مُصنِّع، يعني معامل كريات الدم التي في نِقي العظام توقفت فجأةً بلا سبب عن صنع كريات الدم، وعندها يحتاج الإنسان كلَّ أسبوع إلى ستمئة سنتمتر من الدَّم ما دام حيّاً أو يموت، إنَّ كل الذكاء والاحتياطات لا تُجدي مع هذا المرض، وهذا المرض ليس له أسباب، فلو أخذ الإنسان بكلِّ أسباب الصَّحة إلا أن هناك أمراضاً ليس لها أسباب ماديَّة.

رأيت شخصاً دنياه في أعلى درجة، ومع ذلك أصابه نموٌّ زائد في دماغه، وانتهى إلى موت عاجل، فأنا أتمنى أن نستوعب جميعاً معنى اسم الحفيظ، فما لم يتولَّ الله جلَّ في عُلاه حِفظَ صحَّتك وحِفظ سُمعتك وحِفظ أهلك وحِفظ مالك فالخطر ماثل، أحياناً إبريق شاي يُحرِّكه طفل فيسكبه على وجهه، فيصبح هذا الطفل مصدر شقاء لأسرته طوال عمره، فمهما حافظت على ما تملك؛ من الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، وتجاهلت اسم الحفيظ، فاعتمادك على أسباب ماديَّة اعتماد عجز وضياع.

شخص في أعلى درجات نجاحه الدنيويِّ، وله عدَّة مشاريع متنوعة في البلدة وأرباحها كبيرة في أعلى مستوى، وصحته في غاية السلامة، وهو ذو مكانة اجتماعية وعلاقات رفيعة، حوله أعوان وأتباع وجيش من المنتفعين، مكانة وتعظيم وجاه وأرباح، وكل ستة أشهر يذهب إلى أوروبا وينزل في أجمل فنادقها، حدث شيء قد لا يخطر على البال وهو أنه أراد أن يُصلح قطعة كهربائية، فقال له عامل الكهرباء: سأضعها لك في مكان مرتفع فهي أجمل، فأجازه في رفعها، في اليوم التالي اضطُر إلى أن يتعامل معها، فصعد على الكرسي لعُلُوِّها، فانكسر الكرسي فوقع على مقعدته فنقل إلى المستشفى وبعد حوالي ثمانية عشر يوماً كان في عِداد الموتى، وترك ثروة ضخمة، فهذا دُمِّرت حياته لأتفه الأسباب.

حصِّن نفسك من المصائب بالاستقامة، هناك نقطة عميقة الدلالة جداً وهي: يؤتى الحَذِرُ مِن مأمنه، ومن آيات الله العظيمة، أن طبيباً مختصاً بالهضم والأمور مدروسة عنده بعمق وفهم، فليكن آيةً للناس، أصيب بقَرْحَة وما نجا منها، بل أودت به، هناك طبيب مقيم في بلد غربي، وهو مؤمن بأهمية الجري يومياً، والجري نافع ورياضة ممتازة وجيِّدة، وأنا معه بهذا، يجري كل يوم ساعتين، كتب مقالاً وأجْروا معه مقابلات وكان يظنُّ نفسه أنه آخر إنسان يموت بالقلب، فإذا مات كل من حوله فسيكون آخرهم، لأنه يجري كلَّ يوم، وجعل اعتماده على الجري دون الله تعالى، فأصيب بنوبة قاسية جداً وهو يجري، فكان فيها حتفه، لقد أخطأ إذ وكَل أمره للجري

والرّياضة، وجعله بديل حفظ الله عزَّ وجلَّ، وهذا لا يغني من الله شيئاً، يمكن أن تجري وتلعب الرّياضة وتنظِّم طعامك وتجتنب المواد الكيماويَّة، يمكن أن تعتني بصحتك إلى أعلى درجة، وهذا كلُّه صحيح بل مطلوب، لكن لا يعني ذلك أن تنسى الله عزَّ وجلَّ، أن تنسى أن الله هو الحافظ. وملخص الملخص: اعقل وتوكَّل.

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه فقال له: يا أمير المؤمنين! إنَّك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالةً، ولا بد من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله، فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالله تخوِّفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت من أنّي فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإنّي لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم، وأمَّا ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصَّالحين، وإنَّما بنو عُمر أحد رجلين: رجلٍ اتَّقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجلٍ غيَّر وفجر فلا يكون عمر أولَ من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يصعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدَّمع ثم قال: بنفسي فتيةٌ تركتهم ولا مال لهم، يا بَنيَّ! إنّي قد تركتكم من الله بخير، إنَّكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهِد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله، يا بَنيَّ! ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا -يا بنيَّ- عصمكم الله ورزقكم، قالوا: فما احتاج أحد من ولد عمر ولا افتقر [العقد الفريد لابن عبد ربه].

وذُكر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظني، قال: بما رأيتُ، أو بما سمعتُ؟ فقال: بل بما رأيتَ، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير، واشتري له موضع قبره بدينارين، وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام

ابن عبد الملك وخلَّف أحد عشر ابناً، فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مئة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس.

حدثني رجل أثق به أنَّ إنساناً كثيرة أملاكه، من معامل إلى محالّ تجاريَّة إلى مزارع إلى بيوت في المصايف، إلى بيوت على شاطئ البحر، توفيَ، وكان هدفه الأكبر تأمينَ المال لأولاده من بعده، ترك أموالاً لا تأكلها النِّيران، والقصة طويلة جداً، فخلال سنتين تكفَّف أولاده من بعده، إذ عقدوا صفقةً كبيرة جداً مع شخص خارج القطر وشحنوا البضاعة واختفى الشخص، واضطروا إلى الاقتراض من جهات أخرى ثم عجزوا، لكن المهمَّ كما أنَّ الله عزَّ وجلَّ قادر، وأنَّه إذا أعطى أدهش، كذلك فهو إذا سلب أدهش، من كلِّ شيء انقلب حالهم إلى لا شيء.

أوجز للقراء الكرام: لن تستحقَّ حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا طبّقت منهجه، فهناك مظلة فإذا طبقت منهج الله عز وجل فأنت تحت مظلة رعاية الله عزَّ وجلَّ في الدّنيا ثمَّ في الآخرة.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبي ﷺ قالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإمامُ العادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلانِ تَحابَّا في الله اجْتَمَعا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وَجَمالٍ فَقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فأخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِياً فَفَاضَتْ عَيْناهُ» [متفق عليه].

إنَّ أخشى ما أخشاه أن أخرج عن ظِلّ الله عز وجل، كيف تخرج؟ بالمعاصي، إذا كنتَ مستقيماً فأنتَ في ظِلّ الله، أنت في حِفظه، أنت في رعايته، ولا ينسى أحد قولَ الله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال:١٩].

هذه معيّة خاصة، وليست معيَّةً عامة، معك بالحِفظ، معك بالتأييد، معك بالتَّوفيق، معك بالرِّعاية، معك بالإكرام، تُحِسّ بشكل صارخ أنَّ الله يُحبُّك، وأنَّ الله يحفظُك، وأنَّ الله يُلهِمُك، وأنه يوفِّقُك، وأنه يُسدد خُطاك، وأنه مُنطِقُكَ بالحق، وأنَّه يرفع لك شأنك، ويرفع لك ذِكرك، هذه تلمسها لمس اليد، بل إني أقول: إن ارتباط المؤمن بالإيمان، هذا الارتباط الشديد ليس لأن أفكاره في الإيمان مُقنعة، أجل هي مقنعة، والعقيدة صحيحة، والأفكار سليمة، والأمور واضحة، لكنَّ الذي يَشُدُّكَ إلى الله عزَّ وجلَّ ليس وضوح الأفكار، ولا دقة البراهين، بل هذه المعاملة التي عاملك الله بها بعد أن اصطلحت معه، فأراك من فضله ومن لُطفه ومن عنايته ومن حِفظه ومن توفيقه.

فلذلك شعورك بالحفاظ على ما في يديك هو شعور طبيعيٌّ وهذه فطرتك، لكن السلوك للحفاظ على ما في يديك لن يجعلك تنحو منحىً مادياً، كأن ترى أنَّه لا بد من وضع الأقفال، ولا بد من تَمَلُّق فلان، فبقائي في وظيفتي بهذا المكان مرهون برضاء المسؤول عني، فما الذي يرضيه؟ معصية الله، إذاً سأعصي الله من أجل أن يرضى حتى أبقى في وظيفتي، وهذا هو الجهل، وهو الذي يقع فيه معظم الناس، هو يريد أن يحافظ على ما بيده عن طريق إرضاء النَّاس، يرضيه ويعصي الله، فتَجِدُّ ظروف لم تكن في الحسبان، وتقلِب الموازين، ويغضب ذاك المسؤول عنه من غير سبب، ويخسر الدُّنيا والآخرة.

لذلك أكرر هاتين الكلمتين: من آثر دنياه على آخرته خسرهُما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهُما معاً، لكن حتى أكون واقعياً ربنا عزَّ وجلَّ -وهذا يُعرف من طريق تعامل ربِّ العزَّة مع العباد- أحياناً يُغلِق لك كلَّ الأبواب إلا طريقاً واحداً مسموحاً وهو غير مشروع، هنا الامتحان، إذ كلُّ الأبواب التي تُرضيه مغلقة وبابٌ واحد لا يُرضيه مفتوح على مِصراعيه، فماذا تفعل؟ هنا الامتحان. فإن قلت: لن أعصي الله ولو قُطعت إرْباً إرْباً فأنت هكذا يا عبدي؟ وأنا لن أتخلى عنك، وسأقلب لك كلَّ الموازين بحيث سيغدو عدوك صديقَك، وسأُيسّر لك أعمالك وستأتيك الدنيا وهي راغمة؛ لأنك آثرت طاعتي على الدُّنيا، عندئذ تأتيك الدُّنيا وهي راغمة.

في الأسواق قوانين بين التجار، إذ هناك طريقة في البيع شائعة متعارف عليها وتحفظ بها مالك وتربح، لكن ربما كان في هذه الطريقة شُبهَة في الدِّين، فأنت إذا أردت تطبيق قواعد الدِّين في التَّعامل بهذه الطريقة تخسر، فاحذر أن تضحي بعلاقتك بربك وتأخذ بأساليب الناس الملتوية. فتخسرَ كل شيء.

شخص أُعطي أرضاً فسأل عالماً فقال: يا بنيّ هذه ليست لك، هذه لفلان من الناس، وهي غير مشروعةٍ لك، اذهب إلى صاحبها واشتر الأرض منه، فذهب إليه وطلب شراءها منه، وقال له: قال لي معلّمي: يحرُم عليّ أخْذُها، وليس معي ثمنها الآن إلا أنَّ معي حلي زوجتي أبيعه وأقترض، واطلب أنت ما تريد ثمناً لهذه الأرض، فنظر إليه وقال له: يا بنيّ لقد بعت من أراضيّ أربعمئة دونم، وما جاءني أحد كما جئت أنت، فاذهب وهذه هدية مني لك خذها حلالاً، إن موقفه الورع جعل هذه القطعة من الأرض حلالاً له.

وليُصغِ الإنسان سمعه لهذه الكلمة: زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً مخافةً منه ثم يضيِّعك الله عزّ وجلَّ، زوال الكون أهون على الله من أن تقف موقفاً فيه مرضاة الله عزَّ وجلَّ ثمّ يتخلَّى عن نصرتك. يا رب أنا لا أعصيك ومهما بلغ الثمن لن أعصيَك. أتفعل هذا عن طيب خاطر وتضيع؟ لا والله، لذلك توجد قوانين مستنبطة من التعامل اليوميّ، فهذا الذي توهّم أن بقاءه في هذا المكان منوط بإرضاء فُلان وفلان، وجعل إرضاءه عن طريق معصية الله عز وجل، فهذا الذي أرضيتَه وأسخطتَ الله عزَّ وجلَّ فلا بد من أن يَسخط الله عليك ويُسخِط ذاك الإنسان عليك، وإذا أغضبت إنساناً من أجل طاعة الله، فلا بد من أن يرضى الله عنك وأن يُرضِي عنك هذا الإنسان، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فموضوع الحفظ يلخِّصه قولُ الله عزَّ وجلَّ إذ يقول في مُحكم كتابه: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤].

قد يسافر الإنسان فهل يضمن أثناء سفره ألا يصاب ابنه بحادث سيارة مثلاً؟ هل يضمن ألا يقع خلل في بيته؟ هل يضمن عدم دخول شخص معتدٍ إلى بيته في غيابه؟ وهل وهل وهل...؟ أما المؤمن فإنه إذا أزمع السفر دعا بهذا الدعاء: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال»(١) تشعر أن أعصابك تخدَّرت، لأن الله يملك البيت، يحفظ مالك وأولادك وأهلك وكلَّ شيء، ترى كيف حفظ الله لك ولدك من حادث خطير، لا تقل: نجا بأعجوبة، بل هذا حِفظُ الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

لتعلم أنَّ ما عند الله لن تناله إلا إذا اتَّبعت منهجه، حفظ المال بتأدية الزكاة، حفظ الجوارح بطاعة الله، عين تغضُّ عن محارم الله، عين تبكي من خشية الله هل ترثها؟ لا بل ترثك، فهناك فرقٌ بين أن ترثها وبين أن ترثك.

عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَواتِ لأَصْحَابِهِ: «اللهُمَّ اقْسِمْ لَنا من خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وبَيْنَ مَعاصِيكَ، ومِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ، ومِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنا مُصيباتِ الدُّنْيا، ومتِّعْنا بأسْماعِنا وأبْصارِنا وقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنا واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظَلَمَنا وانْصُرْنا على مَنْ عادانا، ولا تَجْعَلْ مُصيبَتَنا في دِينِنا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنَا» [أخرجه الترمذي في سننه].

فالمؤمن ما دام لسانه ينطق بالحقِّ، وبصره ينظر إلى آيات الله لا إلى عورات المسلمين، وسمعه يستمع به الحقَّ، ما دام المسلم هكذا، فأغلب الظنِّ أن الله سبحانه وتعالى يحفظ

(١) قطعة من حديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سَفَرٍ، كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم! إني أسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم! هون علينا سفرنا هذا، اللهم اطوِ لنا البعدَ، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال» [رواه أبو داود في السنن]. وزاد مسلم في صحيحه: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل».

له هذه الجوارح فهناك حالة تُسمَّى حالة الأمن، المؤمن يشعرُ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لن يُضيِّعه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام:٨١].

إذاً: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾، الأب دائماً حريص على أولاده حرصاً لا حدود له، لكن لو حصل خلل في الخلايا الداخليَّة ونمت هذه الخلايا نموَّاً عشوائيَّاً، فالأب ماذا بيده أن يفعل؟ بيده أن يتألَّم فقط، أمَّا الإله فكلُّ شيء بيده، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ فالذي يحفظ هو الله عزَّ وجلَّ.

أقسم لي رجل بالله كان يقود سيارته بسرعة عالية في طريق طويلة، ونام ورأى مناماً، واستيقظ في الوقت المناسب قبل أن يواجه حادثاً مُروِّعاً مدمِّراً، إذ أنقذه الله من التّردِّي في الهاوية.

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤].

فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك؟ تلاحظ أنَّ من حِكمة ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه من اعتمد على ذاته واتَّكل على نفسه، من اعتمد على ذكائه، على ماله، على معارفه، على أصدقائه، على اتِّصالاته. مثل هذا الإنسان بأتفه الأسباب يُدمَّر.

وقد قيل: أوحى الله عز وجل إلى داود: وعزتي ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات بمن فيها والأرض بمن فيها، إلا جعلت له بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأرسخت الهواء من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، ومستجيب له قبل أن يدعوني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

لذلك أقوى شيء يشدُّك إلى الدِّين معاملة الله لك بعد أن تصطلح معه؛ إذ تشعُر أنَّك ضمن عناية وتوفيق وإلهام وتسديد وحفظ وتأييد ونصرة، فالله يُلهمك مثلاً ألا تسافر لوجود هلاك بذاك السفر. تجد إنساناً قبل يوم من الاجتياح سحب كلَّ ماله وجاء إلى منطقته، على حين أن غيره خسر كلَّ ماله لأنَّه تركه في البلد الذي حصل فيه الاجتياح، حصل كل ذلك بفارق يوم واحد فقط، من ألهمه؟ الله عز وجل ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

كفار قريش أليست معارضتهم لرسول الله كان هدفها الحفاظَ على ما هم فيه؟ هذا أمر واقعي، وليس من باب القيل والقال، فزعماء قريش حينما عارضوا النّبيَّ ﷺ وكفروا به وكادوا له وأخرجوه وحاربوه، واضطهدوا أصحابه، أليس من أجل أن يحافظوا على مكانتهم في مكَّة وعلى زعامتهم وعلى أموالهم وعلى شأنهم في الجزيرة؟ ما الذي حصل؟ إنهم دُمروا وإنهم قُتِّلوا وإنهم مُزِّقوا وإنهم شُرِّدوا، من الذي انتصر عليهم؟ رسول الله ﷺ وأصحابه الذين اتبعوه، وهذا شيء متكرر دائماً يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

الأمور تدور وتدور ولا تستقرُّ إلا على تكريم المؤمن وحفظه، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾. بعد كل هذا الإيضاح لا بد من الوقوف عند معاني الحفيظ. إن هذا الاسم له معنيان:

المعنى الأول: حفيظ بمعنى عليم: فالله لا ينسى، حفيظ لا ينسى، كلُّ أعمالك وكلُّ أقوالك وكلُّ مواقفك وكلُّ عطاءاتك وكلُّ منعك وكلُّ الصِّراعات التي في ذهنك، كل ما أنت فيه محفوظ عند الله عزَّ وجلَّ، الآن تجد من يقول لك: الملفّ سحبناه ونجوتَ من المخالفة بعد أن سحبنا الضبط، وانتهت المشكلة، أو إنَّ الملفَّ اختفى وضاع، فمثلاً الآن هناك حاسوب وعن طريقه تصدر النتائج الجامعية فممكن لشخص أن يمحو كل النتائج لخمسة آلاف طالب، فلو افترضنا أن شخصاً محا كل

ذاكرة الحاسب فأين الطلاب ودراساتهم ونجاحاتهم؟ لقد ضاع كلُّ شيء، فممكن أن يكون إنسان أذكى من إنسان آخر يسحب الوثيقة أو يسحب الملفَّ أو يسحب التقرير أو يسحب الضبط، أما الله عزَّ وجلَّ فحفيظ فلا توجد قوة لإلغاء ما عنده، فكلٌّ محفوظ ومسجَّل عنده. فهنا شعورك أنَّ أعمالك كلَّها مسجَّلة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران:١٨١].

وما قولك: إن الله عز وجل يوم القيامة يعرِض أعمالَك كلَّها عليك بصُوَرِها، بوقائعها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) ﴾ [المطففين:٩].

مرقوم من الرَّقْم وأصل الرَّقم الكتابة، وقيل: مرقوم أي: بيِّن ظاهر الكتابة، أو له علامة يُعرف بها، أي: مُعَلَّم، فكُلُّ مخالفة وصورتها. فأبلغ طريقة في المخالفات المروريّة تأتي بالتنبيه، فيقال لك: عليك مخالفة، ثم تراجع ليعطوك الصورة، ألم تكن في هذا الطريق؟ هذه سيارتك وهذه صورتها وهذا الضبط، فأرقى أنواع الضبط أن تأتي المخالفة مع الصورة، ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) ﴾ أو مُرَقَّم يستحيل أن تُنزع منه صفحة، مثل المالية، هذا الدفتر صفحاته كذا، توقيعه كذا، بعت بيعاً ثم تقول سأنزع هذه الصورة، هذا لا يمكن إذ إنك ستجد صفحةً عند موظف الماليَّة، فما قولك: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة يعرض عليك كلَّ أعمالك، لماذا وقفت هذا الموقف؟ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات:٢٤].

قد تكون أعمال لها مظهر مقبول، لكن مخبؤُها غير مقبول، فربُّنا عزَّ وجلَّ يُطلعك على مخبئك، على نياتك، على حقيقتك، هذا معنى حفيظ، أي: عليم، كلُّ أعمالك مسجَّلة، الله حفيظ يعني كلُّ شيء عنده مسجَّل، يعلم كلَّ شيء وربُّنا عزَّ وجلَّ يقول عن نفسه: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ﴾ [طه:٥٢].

فالله سبحانه لا ينسى أبداً، فالحِفظ الأول ضد السهو والنسيان، وهو يعود إلى معنى العلم، فهو تعالى حفيظ للأشياء بمعنى أنه يعلمها جُملةً وتفصيلاً علماً لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، لا بالزوال ولا بالسَّهو ولا بالنِّسيان، هذا المعنى الأول فأنت تعامُلُكَ مع الله عز وجل على أنه حفيظ، لو أدّيت مبلغاً لجهة وسُجِّل لك في قيودها، هذا الموقف مُسجَّل، فمثلاً الابتسامة مسجَّلة، فإن ابتسمت ابتسامة في وجه إنسان خائف وطمْأنته فهذه مسجَّلة، إنسان اعتذر إليك وأنت قويٌّ فقلت له: لا عليك، أنا أودُّك ولك مكانة عندي، طمْأنْتَه وارتاح، نام المسكين مطمئناً فهذه مسجَّلة، ابتسامتك، عطاؤك، منعك، كرمك، تضحيتك، هذه كلُّها أعمال مسجَّلة. وهذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: الحفيظ، أي: ضد التضييع: الأول ضد النسيان، والثاني ضد التضييع، فمعنى حفيظ، أي: الله عزَّ وجلَّ لا يُضيّع المؤمن بل يحفظ له عملَه ويكافئه عليه في الدنيا والآخرة، فالمستقيم موفّق، ومن يغضُّ بصره عن محارم الله كذلك، فالمكافأة سعادة زوجيَّة، من يضبط لسانه فسُمعتُه عالية، من يضبط جوارحه يحفظها الله له، اطَّلعَ على استقامتك وعلى عملك وسجَّله لك، هذا هو المعنى الأول، كافأك عليه؛ إذاً عِلْمٌ ومكافأة، أما المعنى الثاني فهو أنه حفظ لك نتائج هذا العمل، فلذلك يبشِّر الله عزَّ وجلَّ في القرآن المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت:٣٠].

إن هذه المعاني تنقسم إلى قسمين: الحفاظ في الدنيا والحفاظ في الآخرة أن يحفظ لك دينك، تجد شخصاً له بداية رائعة ثم انتكس وترك الصلاة وانغمس في المعاصي والموبقات، لذلك إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فإذا لم ينتكس الإنسان، وإذا لم تزلَّ قدمه، وإذا لم يعتقد عقيدةً زائغة، ولا تعلّق بأهل الكفر فهذا من فضل الله عليه، فالإنسان إذا قطع مرحلةً بعيدة في مسيرة حياته

وهو محافظ على إيمانه وعلى استقامته وعلى صلته بالله عزَّ وجلَّ وعلى نقائه وعلى طُهرِه وعلى إخلاصه فهذه نعمة كبيرة جداً، كم من شخص بدأ بدايةً مشرقة ثم انتكس، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠].

أناس كثيرون يدخلون مداخل شتى وهم صادقون، فإذا دخلوا هذه المداخل وتألَّقت أمامهم الدنيا أغرتْهم وحرفتهم وساقتهم إلى الضَّلالات وخرج كاذباً، لقد دخل صادقاً وخرج كاذباً، دخل مخلصاً وخرج خائناً، دخل مطيعاً وخرج عاصياً، دخل متعبِّداً وخرج متكبِّراً؛ فلذلك طلب منك ربُّك أن تدعوه قائلاً: ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠].

البطولة لا أن تدخل بل أن تخرج، فممكن أن يُدَلَّ شخص على مسجد فيرجع إلى الله، شيء جميل، تجده انسجم وتأثر وتفاعل، عارِض طفيف واجهه فترك الدِّين كلَّه؛ زوجته لم تنسجم مع هذا الدِّين المعقَّد بزعمها فترك دينه من أجل زوجته، هذا خرج مخرجاً كاذباً، دخل صادقاً فخرج كاذباً.

فإذاً أحد معاني الحفيظ أن يحفظ الله لكَ دينك، أن تسلَم عقيدتك من الشبهات ومن الشرك الخفيّ ومن عقيدةٍ زائغة، وأن تسلم لك جوارحك من المعاصي والآثام، أن يسلم لك دخلك من الشبهات، لهذا سيدنا يوسف قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣].

إذاً يجب أن ينشأ عندك طلب من الله دائم، يا رب احفظ لي ديني واستقامتي وإخلاصي لك، ونقائي وحبّي لك ولأنبيائك وللمؤمنين، وباعد بيني وبين حبِّ أهل الدنيا والكَفَرة والمفسدين، والمؤمن متواضع، يقول لك: نسأل الله أن يُتمم لنا بخير.

محمد بن عبد الله بن عَمْرَوَيْه ويُعرف بابن عَلَم قال سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل

يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا: لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبة! أيَّ شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت تعرق حتى نقول: قد قبضت، ثم تعود فتقول: لا لا، فقال لي: يا بني ما تدري! قلت: لا، قال: إبليس لعنه الله قائمٌ حذائي عاضٌّ على أنامله، يقول لي: يا أحمد فُتَّنِي، فأقول له: لا، بعد، حتى أموت [سير أعلام النبلاء للذهبي].

فالإنسان معرَّض لخطر الفساد تحت خطر إغراء الدنيا، أما إذا قال: أنا لا أخطئ، ولن أدع هذا الطريق، فلعل فيه كِبراً مما قد تَزلّ القدم معه، إذاً معنى الحفيظ أن يحفظ الله لك إيمانك وعقيدتك واستقامتك ورغبتك في الحق، لهذا سيدنا عمر ﵁ قال: «ما ابتليت ببليَّة إلا كان لله عليَّ فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أُحرَم الرضا بها، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها» [بدائع السلك في طبائع الملك لمحمد بن علي الأندلسي الغرناطي]، هذا هو الكلام العميق، الحمد لله ما شربت خمراً، وما ارتكبت معصية، وما كفرت وما نافقت، المال ليس له قيمة عندئذ.

هناك نقطة مهمّة جدّاً، وهي أنَّ الإنسان إذا كان دينه غالياً على قلبه ونفسه وأراد الله عزَّ وجلَّ أن يمتحنه بمصيبة فحينها ليس من مانع إذا قال: إنّ ديني سليم والحمد لله إذ لم تكن المصيبة في ديني وهذه أكبر نعمة، قد تجد شخصاً ليس عنده مشكلة، ولكنَّه يشرب الخمر، ليس لديه مشكلة في دخله، ومعمله، وفي حياته اليوميّة وفي صحّته وأولاده، لكنَّه لا يصلي، هناك من ليس لديه أية مشكلة في الدنيا لكنه يعتقد أنَّ الدِّين كلَّه خرافة. هذه مصيبة، بل هي كبرى المصائب.

توفي قبل أيام شخص، قال مَن يعرفه: إنه خلال اثنين وخمسين سنة ما دخل إلى المسجد إلا مرَّة واحدة، دخل ليُصلَّى عليه. هذه مصيبة، قَدِمَ على مجهول، فالحمد لله إذ لم تكن في ديني، فهذا شيء مهم جداً ما دامت القضية في الدنيا، فالدُّنيا زائلة أمَّا في الدِّين فمشكلة كبيرة، «والحمد لله إذ لم تكن أعظم»، هناك مصيبة في سيارتك والسَّيّارة تُصلّح، احترقت غرفة نرمّمها ونَدَهنها، وهذه أهون مما لو كانت المشكلة بابنه أو

بزوجته أو بصحته، «والحمد لله إذ ألهمتُ الصبر عليها»، وكان شريح يقول: «إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني» [البيهقي، شعب الإيمان]. الصبر نعمة، فالصابر يعني أنه عالِمٌ يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ صاحب الأمر كلِّه، أفعاله كلُّها حكيمة، فيها عدل وفيها رحمة وفيها لُطف وفيها تكريم ورأفة، يا رب لك الحمد، هكذا شئتَ وأنا راضٍ بقضائك، ووردت آيات كثيرة فيما يخص حفظ الدين: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء:٧٤].

إذاً فالله ثبَّته، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨]، ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه:٢٥-٢٦]، هذه كلُّها أدعيةُ القرآن، أي أنت إذا كنت مؤمناً ومستقيماً وصادقاً ومحبّاً للحقِّ، لك مجالِسُكَ العلمية اطلبْ من الله عز وجل أن يحفظها عليك، في إحدى الحجج التي أكرمني الله بها وأنا في الطواف قلت: يا رب أنا أضعف خلقك شرَّفتني بخدمتك وخدمة عبادك، إن علمت صدقي في هذا فاحفظها لي واحفظني لها، يا رب احفظ هذه الدعوة، وإن علمت خلاف ذلك فعالجني قبل أن أموت. فالإنسان لا بدَّ أن يسأل الله عزَّ وجلَّ، يسأل الحفيظ أنْ يحفظ له إيمانه، دينَه وتألقه.

والله أعرف رجلاً: طيلة عشرين سنة أو خمس وعشرين وهو ينتمي إلى طريق الإيمان، فأغرته امرأة وسقط سقوطاً مريعاً، وترك الصلاة، وجاءته المصائب من كلِّ جهة، ما حُفظ له دينه.

المعنى الثاني: أن يحفظ لك دُنياك، أهم شيء صحَّتك، وجودك، سلامتك، أهلك، أولادك، ومالك، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١].

﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ ﴾ [التغابن:٤].

من يكلؤكم؟ من يرعاكم؟ لا أشكُّ أنَّ كلَّ واحد منَّا كان على خطر أنقذه الله منه، يقال أحياناً: كان بيننا وبين الموت المحقَّق دقيقة واحدة، كدنا نهلك لولا أنَّ لطف الله بنا، فهذا حفظُ الله عزَّ وجلَّ.

هناك معنى ثالث وهو أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا خلق الشَّيء، فاستمراره يحتاج إلى حفظٍ من الله عزَّ وجلَّ، والدَّليل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ ﴾ [فاطر:٤١].

فأنت مخلوق، وبقاؤك بيد الله عزَّ وجلَّ، بقاء السموات بيد الله، بقاء الشَّمس بيد الله، بقاء الأرض بيد الله، بقاؤها على خط سيرها بيد الله، لأنهما إن زالتا ما يمسكهما من أحد من بعده؟ هذا معنى الحفيظ فلا بد من أن تستسلم لله عزَّ وجلَّ، وأدقُّ ما في البحث أنَّك مفطور على حُبِّ وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، وجزءٌ كبيرٌ من نشاطِك منصرف إلى الحفاظ على ما أنت فيه، فإذا سلكت وسائل الحفاظ الماديَّة وغاب عنك اسم الله الحفيظ الذي بيده كلُّ شيء فقد أخطأت الهدف وضللت الطَّريق، ولن تنال حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا طبَّقت منهجه، لذلك لا ينفع حذر من قدر، ولكن ينفع الدُّعاء ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، فادعوا الله عبادَ الله.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِراشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِراشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِه، فإِنَّهُ لا يَدْرِي ما خَلَفَهُ عَلَيْه، ثُمَّ يَقُولُ: باسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإِنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بِما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالحينَ» [رواه البخاري].

فالإنسان إذا نام بين حالتين: إما أن يستيقظ من نومه ويبقى حيّاً، وإما ألّا يستيقظ، لأنَّ الله أمسك نفسه، أي: أخذ روحه، لذلك علَّمنا رسولنا ﷺ أن نسأل الله عند النَّوم أن يرحمنا إذا أمسك بنفوسنا، أي: قبض أرواحنا ونحن نيام وأن يحفظنا بها يحفظ عباده الصالحين، إذا أرسل نفوسنا بعد النوم، أي: أبقانا أحياء وأيقظنا من نومنا.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: كانَ رَسولُ الله ﷺ يقولُ: «اللهمَّ أَصْلِحْ لِي ديني الذي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ التي فيها مَعاشِي، وأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها مَعادِي، واجْعَلِ الحَيَاةَ زِيادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي من كُلِّ شَرٍّ» [رواه مسلم].

نصيب المؤمن من اسم الله (الحفيظ)

إنَّ أكبر أسباب حفظ الله للمؤمن أن يكون مع الله.

كـــن مـــع الله تـــرَ الله معـــك ... واتـــرك الكـــل وحـــاذر طمعـــك

وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه ... ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

متى تحافظ على استقامتك؟ متى تسعى للحفاظ على ما أنت فيه؟ حينما تصل من خلال الدِّين إلى شيء ثمين، فتذوق طعم القرب، وطعم الحب، وطعم الإقبال على الله، هذه النَّتائج الباهرة التي يحصِّلها الإنسان هي التي تحمله على طاعة الله.

فالإنسان حينما يصلي صلاة شكليَّة، وحينما يصوم صياماً شكليّاً، وحينما يؤدي العبادات أداء شكليّاً لأنه ليس مستقيماً على أمر الله، يزهد في الدين، فلا يبالي أصلَّى أم لم يصلِّ، لا يبالي أأطاع الله أم لم يطعه، لأنه محجوب بالمعاصي، محجوب بالعيوب، محجوب بالذنوب، أما إذا أخلص الصدق مع الله، وأطاع الله، وأقبل على الله فإنّه يصل إلى النّتائج المرجوة، عندئذٍ يحافظ عليها، فيحفظه الله، لا بدّ من أن تقدِّم شيئاً، أمّا أن يتوهم الإنسان أنَّ بإمكانه أن يأخذ كلَّ شيء، دون أن يقدِّم شيئاً، فهذه سذاجة، هذا الذي تقدمه هو طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧١].

كلُّكم يعلم أنَّ بلوغ القِمَّة شيء يحتاج إلى جهد كبير، لكنَّ البطولة لا أن تصل إلى القمة فحسب، بل أن تبقى فيها، أناس كثيرون في ساعة من ساعات الإقبال على الله يتألقون، ثم لا يتابعون سيرهم إلى الله، عندئذٍ يتراجعون، هذا الوضع الذي يتكرر أحياناً، يُقبل ثم يُدبر، يتألّق ثم يخبو، يتحرك ثم يسكُن، هذا الوضع لا يرضي الله عزَّ وجلَّ، وفي الحديث الشّريف.

«أحبَّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإنْ قلَّ» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن عائشة أم المؤمنين].

ومن تطبيقات هذا الاسم أنَّ الله حفيظ بمعنى لا يخفى عليه شيء، فالبطولة أن تصفِّي قلبك من كلِّ شيء لا يرضي الله، طهِّر قلبك من كلِّ حقد، من كل احتيال، من كل كراهية.

الله حفيظ، يحفظ عباده، وأنت أيّها المؤمن اشتقَّ من هذا الكمال كمالاً تتقرّب به إلى الله، احفظ من حولك، احفظ أولادك، احفظ دينهم، احفظ عقيدتهم، احفظ عباداتهم، احفظ دراستهم، احفظهم بكل ما تملك حتى يكرمك الله عزَّ وجلَّ بحفظهم بعد موتك.

ألا تتمنى أيّها المؤمن أن يحفظك الله تعالى إذاً اعمل بوصية نبيّك محمّد ﷺ: «احفظ الله يَحْفَظْك» [أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس].

القوي

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العليَّة باسم «القوي» في كثير من النّصوص القرآنيّة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم معرفاً بالـ مقترناً باسم الله العزيز في موضعين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود:٦٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩].

وورد أيضاً منوَّناً في خمسة مواضع منها قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج:٧٤].

أمَّا في السُّنَّة فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت عن يوم الخندق: «وبعث الله عز وجل الريح على المشركين فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً» [رواه أحمد عن عائشة].

من معاني اسم الله (القوي)

القويُّ في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالقوّة، وقد قوي، وتقوّى قوّة فهو قويّ، يقال: قوّى الله ضعفك أي أبدلك مكان الضعف قوَّة، فالقوَّة نقيض الضعف، والوهن، والعجز، وهي الاستعداد الذاتي، والقدرة على الفعل، وعدم العجز عن القيام به، قال تعالى لسيدنا موسى (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) عن الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

أي خذها بقوَّة في دينك وحجّتك، وقال جلّ جلاله لسيدنا يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢].

أي بجدٍّ، وعون من الله تعالى.

الله جلّ جلاله هو القويّ بل هو القويّ وحده، ولا قويَّ سواه، وكلُّ قوَّة في الأرض في الذّوات والأشياء مستمدَّة من قوَّة الله، تأييداً للمؤمنين، أو استدراجاً لغير المؤمنين، أو تسخيراً للجمادات، لحكمة بالغةٍ بالغة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها

القويّ سبحانه وتعالى هو الموصوف بالقوّة، والإنسان في أصل فطرته يعجب بالـ «القوي»، اجلس بمجلس، هناك عشرة رجال، أحدهم قويٌّ جداً يتمتع بمنصب رفيع، تجد الحاضرين كلَّهم تنعقد أبصارهم عليه، ينظرون إليه، يسألونه، خطف الأبصار كلَّها لأنَّه قويّ، و هناك إنسان آخر خطف الأبصار كلَّها لأنّه غنيّ، وهناك إنسان أنيق جداً، وسيم الطلعة، وجهه لطيف، النَّاس كلُّهم ينظرون إليه، فالجمال، والكمال، والنوال كلها تجلب الأنظار، فكيف إذا علمت أنَّ كلَّ جمال في الكون مسحة من جمال الله، وكلَّ كمال في البشر مسحة من كمال الله؟

إذاً الله جلّ جلاله لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادٌّ، ولا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، وهو القويُّ في فعله، القادر على إتمامه.

هو القويُّ في بطشه، هناك طاغية يتفنّن في إذلال العباد، ثمّ تأتي قدرة الله عزّ وجلّ فيبطش به، فترتاح النفوس، وسبحان من قهر عباده بالموت، مطلق المشيئة والأمر في مملكته، والله هو القويّ سبحانه، لا يعتريه ضعف أو قصور، قيّوم لا يتأثر بوهم أو فتور، ينصر من نصره، ويخذل من خذله.

القويّ هو كامل القدرة على كلِّ شيء، الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، والموصوف بالقوَّة المطلقة.

القويّ هو المتناهي في القوَّة، الذي تتصاغر كلُّ قوَّة أمام قوَّته، فزلزال تسونامي يساوي مليون قنبلة ذرية، هناك جزر انزاحت، هناك حديث طويل عن هذا الزلزال هذا مثل لقوَّة الله عزَّ وجلَّ.

يتضاءل كلُّ عظيم عند ذكر عظمته.

القويُّ هو الذي له كمال القدرة والعظمة، ولا يعجزه شيء، قال العلماء: القويُّ غالب لا يُغلب، يُجير ولا يُجار عليه، فقوّته فوق كلِّ قويٍّ، ما قولك أن تكون مع هذا «القوي»؟ هل تخشى أحداً؟

هل ترتعد فرائصك؟ إذا كنت مع القويّ فأنت قويّ.

والإنسان يُعجب بالقوَّة، ويتأثَّر بالكمال، وأحياناً يتأثَّر بالقوَّة وأصحابها، فالله سبحانه وتعالى يجمع في أسمائه بين الكمال والجلال، فقد قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٧٨].

قد تجد مجموعة صفات أساسها الرَّحمة، كاللطف، والشفقة، والعناية، والحرص، وهناك أسماء أساسها القوة كالقهار، والجبار، والقويّ، والمتين، فالإنسان كما يتأثر تأثُّراً بالغاً بالكمال الإلهي، فهو أيضاً يتأثر تأثراً بالغاً بالجلال الإلهي، لأنَّ الإنسان ضعيف، وكل إنسان ضعيف يميل إلى أن يحتمي بقويّ.

من يعبد الشمس، أو يعبد البقر، أو يعبد إلهاً كبوذا، إنّما يفعل ذلك لأنَّ الإنسان مفطور على تعظيم القويّ، ولأنَّه ضعيف لا تركن نفسه إلا إلى قويٍّ، فإذا ضلَّ الإنسان عن الله القويِّ يلجأ إلى ما يتوهَّم أنَّه قويٌّ، فالحاجة إلى التَّديُّن حاجة أساسيَّة.

لك صديق قويٌّ تطمئنُّ إليه، وتقول: معي رقم هاتفه، وتشعر أنَّ أية مشكلة ستُحلُّ عن طريقه، وهذا بالطَّبع شِرك وجهل وخطأ، وعليك أن تشعر أنَّك عبدٌ لقويٍّ، عبد لغنيٍّ، فالله الذي تعبده بيده كلُّ شيء، الذي تعبده إليه مرجع كلُّ شيء، الذي تعبده قادرٌ على كلِّ شيء، الذي تعبده غنيٌّ وقويٌّ وحكمٌ عدلٌ، فهذا سرُّ توازن نفسيَّة المؤمن لأنَّه يركن إلى القويِّ.

المؤمن ضعيف بنفسه ولكنَّه قويٌّ بربِّه، وهذه القوَّة ليست ذاتيَّة ولكنَّها مستمدَّة من قوَّة الله، المؤمن غنيٌّ بغنى الله، مطمئنٌّ لأنَّ الله طمأنه، متوازنٌ لأنَّ الله بشرّه... فلذلك اسم القويّ يبعث في النَّفس الطَّمأنينة.

أحياناً تكون علاقة الإنسان مع شخص ضعيف، يقول له: والله لم أستطع خدمتك، فقد كان بودّي أن أفعل ولكن عيني بصيرة ويدي قصيرة، فلا بدَّ لمعاملتك من موافقة الجهة الأعلى، ولكنَّها لم تتوافر لديّ، فأنت معتمِد عليه وواضع كلَّ الثِّقة فيه، وتعتقد أنَّه يستطيع أن يقوم لك بهذه الخدمة، ولكنَّه اعتذر لأنَّه ضعيف فصغُر في عينيك، وما عُدت تعتزُّ به.

أما إذا اعتزَّ الإنسان بالله عزَّ وجلَّ فهو أقوى الأقوياء، فهو ملك الملوك ومالك الملوك، فليس من الصَّعب أن تكون عبداً لله القويّ، اصدق في التَّوجُّه إليه، واعتمد عليه وحده، وعندئذٍ أنت قويٌّ من قوَّة الله، غنيٌّ من غنى الله عزَّ وجلَّ.

قال العلماء: مادة القوَّة تدلُّ على شدَّةٍ خلافَ الضعف، فالقويّ عكسُ الضعيف، ورجلٌ شديد القِوى، أي: شديد أسر الخلق.

أحياناً تركب مركبة ومعك خمسة أشخاص في طريق صاعدة صعوداً شديداً ولكنها تسير، معنى ذلك أن المحرِّك قويٌّ، أحياناً تجد في الميناء البحري رافعة ترفع

حاوية كبيرة زنة عشرين أو ثلاثين طناً فالرَّافعة قويَّة، وأحياناً ترى باخرة تبلغ حمولتها مليون طنٍّ كبعض ناقلات النِّفط، تسير بمحرِّك جبَّار.

تجد آلات تقوم بهدم بناء بأكمله، هذه أمثلة أمامنا، ولكن هذا الجبل من يزحزحه؟ تجد بعض الجبال تؤخذ منها الرِّمال، فمنذ أربعين سنة يؤخذ منه يومياً عشرات الحمولات وما يزال شكله كما هو، في محافظة السويداء يوجد جبل نادر في القطر يمدُّنا برمل مفرَّغ مثل الإسفنج، وأعرف أنه منذ أكثر من عشرين سنة تعبأ منه كل يوم مئة سيارة من الرمال السوداء والجبل ما يزال كما هو، فمن يستطيع أن يزحزح جبلاً؟

توجد شركة في ألمانيا قامت بنقل بناء كان يجب أن يُهدم، فقامت هذه الشركة بتقديم عرضٍ وهو نقل هذا البناء بنصف كلفة بنائه، فقامت بفصل الأساسات ورفعها على عجلات وربطت المجاري وأسلاك الكهرباء والهاتف وبشرط أنَّ السكان لم يغادروه! ونقل ثلاثين متراً وهذا البناء مؤلَّف من ستة طوابق، فهذه الشركة العملاقة التي قامت بهذا العمل تشعر بأنها شركة جبَّارة، وهذه الأمثلة أرضية.

لكن حينما ترى أنَّ الأرض تدور بسرعة ألف وستمئة كيلومترٍ في الساعة، فهذه الكرة الأرضية من يديرها؟ ومنذ كم من السنين؟ والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة من حجم الأرض، والشمس والمجموعة الشمسية كلُّها نقطة على درب التبانة ودرب التبانة مجرَّة على شكل عضلة، تراها في أيام غياب القمر كسحابة بيضاء في السماء على شكل مغزلي وهذه هي مجرتنا، والمجموعة الشمسية بأكملها بجميع كواكبها كالأرض والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وبلوتو وزحل... وإلى آخره نقطة على هذه المجرَّة، فمن يدير هذا الكون؟ فأنت مع القويِّ... الذي بيده كلُّ شيء.

والقوَّة تدلُّ على القدرة التَّامَّة.

الإنسان يحمل علبة مكعبة الشكل طولها مثلُ عرضها مثلُ ارتفاعها ويبلغ ضلعها ستين سنتيمتراً، أما لو حمَّلْناهُ علبة بداخلها مواد ثقيلة فتجده لا يقوى على

حملها، ولو حمل إنسان صندوقاً من الحديد ووزنه ثلاثمئة كيلوغرام فتجد نفسك قد عظَّمته كيف حمله؟ ولو أنَّ صخرة مكعبة الشكل، طول ضلعها خمسة أمتار، وطلبت من إنسان أن يزحزحها فلن يستطيع، فهذا فوق طاقته، فما بالك بالجبال؟... جبال الهيمالايا مثلاً يبلغ ارتفاعها ٨٨٨٢م، ولها قاعدة تغوص تحت الأرض أربعة وعشرين ألف متر، فجميع الجبال ثلثها فوق الأرض وثلثاها تحت الأرض، فمن خلق هذه الجبال؟ ومن ألقاها في الأرض رواسي أن تميد بكم؟ من جعلها أكناناً؟ من جعلها أوتاداً؟ ومن جعلها مصدَّاتٍ للرياح؟ من جعلها مستودعاتٍ للمياه؟ من جعلها قمماً عاليةً ذات مناخٍ لطيف؟ إنّه الله عزَّ وجلَّ.

الإنسان عندما ينسى الله ويخضع لقويٍّ من بني البشر ويمحضه كلَّ ودِّه، وكلَّ ولائه وهو ليس على حقٍّ، يكون هذا الإنسان قد ضيَّع نفسه وباعها بثمنٍ بخس، أمَّا إذا عرف الله وجعل كلَّ طاقاته لله عزَّ وجلَّ فيكون قد عرف قيمة نفسه... أساساً ما عرف قيمة نفسه إلا من باع نفسه لله، لأنه أحسن الاختيار.

قال العلماء: «القوة تدلُّ على القدرة التامة، والمتانة تدلُّ على شدة القوة».

أحياناً نريد قوَّة تحمل طاولة صغيرةً مثلاً، القوَّة تدلُّ على القدرة التّامّة، أما لو رفعت هذه الطاولة رافعة قدرتها أن ترفع خمسين طناً، فإنَّ هذه القوَّة تكون تامَّة ومتينة، تامَّة أي كافية لإنجاز هذا العمل، أما عندما يكون معها احتياطيٌّ يبلغ مئة ضعف فتكون متينة عندها.

إلا أنَّه في المصطلحات الحديثة نقول: المتانة والقساوة، فالقساوة هي تحمُّل قوى الضغط، أمَّا المتانة فهي تحمُّل قوى الشَّدِّ، فلو وضعنا يدنا فوق مكعب من الفخَّار وضغطنا، فإذا كُسِر نقول: إنَّ قوى الضغط الواقعة عليه عالية وكبيرة جداً حتى إنَّ هذا المكعب سحق، أما إذا كان لدينا خيط وأردنا أن نمتحن متانته فإننا نشدُّه فإذا قُطع نقول متانته ضعيفة، فالقساوة تحمل قوى الضغط، أما المتانة فتحمُّل قوى الشَّدِّ.

لا بدَّ من وقفة قصيرة عند عظمة الخالق لا تخطر على بالك وهي أنَّ أسنانك فيها قوَّة بالغة، فميناء الأسنان هو ثاني أقسى عنصر في هذا الكون بعد الماس، لا يزيد عليه في قساوته إلا الماس، وهذا الإنسان خُلق من ماءٍ مهين، هذا الماء صار عظاماً قاسية وصار ميناء قاسياً.

إذاً: تمام القوة أن تؤدي مهمتها، أما متانة القوة فأن تكون هذه القوة بالغة الشدة، فالله تعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامُّها قوي، ومن حيث إنه شديد القوة متين، إذاً هو قويٌّ متين، فكلمة قوي، أي: تعلقت قوَّته بكلِّ ممكن، فكلُّ شيء ممكنٍ قدرتُه تغطيهِ، وقوته شديدة أي: متينة.

الله -جلَّ جلاله- صاحب القدرة التَّامَّة بالغة الكمال، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

فالضَّعيف ليس عزيزاً، الضعيف تضعف عزَّته أمام أيِّ شيء، فقد يخجل الإنسان أحياناً فخجله ضعف، وإذا لم يعرف يصغر ويضعف، وإذا لم يتمكَّن من حمل شيء يصغر، وإذا توقَّفت آلته أمام عقبةٍ كأداء يصغر، أما العزَّة فألا ينالك أحد، فمعنى ذلك أنت عزيز، فمن لوازم العزَّة القوَّةُ، فالله سبحانه وتعالى قويٌّ عزيز.. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾... ولا ننسى أن كلمة (هو) تفيد الحصر والقصر.

وقيل: القويّ هو المتناهي في القوَّة التي تتصاغر كلُّ قوةٍ أمام حضرته، ويتضاءل كلُّ عظيمٍ عند ذكر عظمته، فالله تعالى أعطى الملائكة قوَّةً كبيرة يستطيع الملَك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن.

فمن الممكن أن يأتي إعصار على أمريكا ويدمِّر مدينة بأكملها ولا يُبقي فيها شيئاً، فقد قرأت عن إعصار قبل ثلاثين عاماً بلغت سرعته ألف كيلومترٍ وهو من أعتى أنواع

الرياح أتى على مدينة، وكان فيها بناء ضخم ومتين، فصاحبه لم يجد أثراً لبنائه، وقد وجد محرِّك مركبته بعد أكثر من خمسة كيلومترات من موقع البناء.

وأحياناً المياه تدمِّر كلَّ شيء، والنَّار تحرق كلَّ شيء، تجد حريقاً في الغابات قضى على مئتين وخمسين دونماً، أو على ألفين وخمسمئة دونم، فالله عزَّ وجلَّ قويٌّ.

ومن الغريب أنَّ الأشياء الأساسيَّة في حياتنا تنقلب إلى قوى مدمرة، فالهواء مثلاً أساسيٌّ في حياتنا ينقلب إلى مدمِّر كالرياح العاتية، والماء أساسي في حياتنا وقد ينقلب إلى قوَّة مدمِّرة.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن عن العفريت الذي أتى بعرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى سيِّدنا سليمان في بيت المقدس فقال تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠].

عندما أرادوا إنشاء السَّدِّ العالي بمصر، كانت البحيرة خلف السَّدِّ ستغمر معبداً كبيراً بالمياه، فتعاونت أكثر من سبعين دولةً على نقل هذا المعبد بما فيه بعد أن قُطِّع على شكل مكعبات، واشتركت في ذلك شركات عملاقة، وبروافعها العملاقة تم نقله من مكانه إلى مكان آخر، فقلت: سبحان الله هذا عرش بلقيس نقل من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقلّ من لمح البصر، وهذا ما يذكره القرآن الكريم، لهذا فالملائكة والجنُّ أُعطوا قدرات تفوق حدَّ الخيال، لذلك قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣﴾ [الرحمن:٣٣].

لماذا بدأ بالجن؟ قال: لأن الجنَّ أقدر من الإنس على خرق السموات والأرض، والنَّبيُّ الكريم ﷺ -كما روى الترمذي من حديث عائشة- أنه رأى جبريل قد سد الأُفق، فالملائكة أوتوا قدراتٍ عالية المستوى ومع ذلك يخشون سطوته سبحانه، ويرعدون من هيبته.

وقيل: القويّ «هو الذي له كمال القدرة والعظمة»، له كمال القدرة لا يعجزه شيء، فأحياناً تجد رافعات تقف أمام عقبة كأداء، أو تجد سياراتٍ في طريق شديدة الصعود تقف ولا تكمل الطريق، وآلات تعجز عن متابعة المهمّات، والله بالغ القدرة لا يُعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، فأنت مدعوٌّ لأن تكون عبداً للإله القويّ، فإذا كنت عبداً له كنت قوياً بقوَّته.

قال العلماء: «غالبٌ لا يُغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوَّته فوق كلِّ قوَّة».

قد تجد في الحروب الحديثة دولة قويَّة عندها من الأسلحة المتطوِّرة فتأتي دولة أقوى منها تحيِّد أسلحتها كلَّها، يكون لديها سلاح ذو فاعليَّة شديدة جدّاً، كأن يقولوا مثلاً: قنبلة تركَّب من أشعة الضوء المركَّز -أشعة الليزر-، أو قنابل عنقوديّة أو قنابل ذكيّة، فهذه الدول المالكة للأسلحة الفتَّاكة تتفوق على الدول الأقلِّ منها قوَّةً، إذاً الدَّولة الضعيفة ليست عزيزة. لكنَّ الله: «غالب لا يُغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوَّته فوق كلِّ قوة».

وقيل: «هو الذي لا يلحقه ضعفٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله».

ألا ترون إلى مصارِعين أشدَّاء، رياضيين، عدّائين، ففي الرياضة الكثير من الفروع، انظر إلى هذا البطل في سنِّ الثمانين تجد ظهره قد انحنى ويده ترتجف، ويصعد درجات السلم درجة درجة، فقد كان في بلاد الشام رجلٌ قويٌّ إذا أمسك عربة يجرُّها حصانان قويان وشديدان يوقفها، وقد حدثني رجل توفي -رحمه الله- كان يركب في مركبة عامة وصعد إلى جانبه هذا البطل الشديد فرجا السائق أن يوقف له المركبة أمام بيته لأنه لا يقوى على أن يمشي مسافة عشرة أمتار، رجاه رجاءً طفولياً، أين قوَّته؟ لقد تلاشت.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (القوي)

اسم القويّ جاء في سبع آيات... الآية الأولى في سورة هود قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦].

أنا أركِّز على كلمة «هُوَ» أي هو وحده القويّ العزيز، فما بال الأقوياء في الأرض؟ قوَّتهم مستمدَّة من قوة الله، فلو تخلَّى عنهم لأصبحوا ضعفاء.

أضرب لكم مثلاً على ذلك: في معامل الحديد توجد رافعات تعمل بالجذب الكهربائيّ المغناطيسيّ، سطح مربع كبير جداً محاط بوشيعة كهربائيّة يمرُّ بها تيّار كهربائيّ، فيمكن أن تحمل عشرة أطنان من الحديد، ولسهولة العمل في هذه المعامل تنتقل الرافعة من مكان إلى مكان، ويكفي أن تسري الكهرباء في الأسلاك فتحمل عشرة أطنان، والعامل في هذه الرّافعة لو ضغط على زرّ في أقلّ من عشر المليمتر يفصل الكهرباء عن هذه الخطوط فتجد كل ما علق في الرافعة يسقط، وذلك عن طريق عملية الضّغط على الزّرّ.

الله عزَّ وجلَّ قويٌّ، وإذا منح القوّة لأشخاص فبأي ثانية يجعلهم ضعافاً، لا يقدرون على شيء، إنَّ الله هو القويّ، فقوّة الأقوياء من قوته، وفي أيّة لحظةٍ يسلبهم هذه القوّة، والله إذا أعطى أدهش وإذا سلب فتَّش.

جاء في الآية الكريمة كلمة «ربك» التي تذكرني بأنها أقرب اسم للإنسان، فالرب هو الذي يربيك، هو الذي يرعاك، هو الذي يربي جسدك، ويربي روحكَ، ويربي نفسك، ويعطيك ويمنعك، ويقلبك على أحوال شتَّى، إن ربك الذي يربيك هو وحده ﴿ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾. فاطمئن، فتوكل عليه، والتفت إليه، وأقبل عليه، وأخلص له، ولا تلتفت إلى أحدٍ سواه، لأنهم لا شيء إلى جانبه.

والآية الثانية في سورة الشورى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

ربي ما أعظمك! سبحانك! يا قويُّ! يا لطيفُ! هناك قويٌّ غير لطيف، أعماله كلُّها قاسية... أمّا ربّنا عزَّ وجلَّ فمع أنّه قويٌّ عزيز فإنّه لطيفٌ بعباده، فالهواء لطيف، والماء لطيف، والأرض فيها لطف إلهيٌّ كبير، وإذا أراد ربّنا عزَّ وجلَّ أن ينزع سنَّ طفل

دون أن يشعر بأيِّ ألم على الإطلاق ينزعه وهو يأكل، يراه في فمه مع لقمة الطَّعام، أمَّا إذا أراد أيُّ طبيب أن ينزع سنَّ طفلٍ فلا بدَّ من أن يؤلمه، فالله لطيف.

فالماء له سيولة عالية جداً ولكنَّه مدمِّر أحياناً، والهواء لا تراه بعينك ولكنَّه يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طنّاً، فالهواء يحملها... فاللطف الإلهي واضح في كلِّ شيء.

وفي سورة الأنفال قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾ [الأنفال:٥٢].

في الآيتين الأولى والثانية القويّ ورد مع العزيز، فيها تناسب، أمَّا في هذه الآية فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾ عقابه أليم لأنه قوي، والإنسان لا يخاف تهديد الضعيف... فقد قال جرير:

زعم الفرزدقُ أن سيقتلُ مربعاً ... أبشر بطولِ سلامةٍ يا مربعُ

إذا هدَّدك إنسان ضعيف فلا تعبأ بتهديده، أمَّا القويّ إذا هدد فهذا شيء مخيف... ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾... لا تعاند من إذا قال فعل.

وقد قال تعالى في سورة الحج: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج:٤٠].

وقال الله تعالى في سورة الحج أيضاً: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾ [الحج:٧٤].

قال بعضهم: «عرفت الله من نقض العزائم»... أحياناً جهة في الأرض قويَّة جداً ترتِّب وتخطِّط وتحكِم، فإذا كلُّ إحكامها وخطَّتها وتدبيرها يذهب هباءً منثوراً.

فالإنسان في حركته اليوميَّة في الحياة يجب أن يُدخل في حساباته أنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فقريش جاءت على بكرة أبيها ومعها حليفاتها من القبائل، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام في معركة الخندق، فالمسلمون لم يحاربوا أحداً، ولكن الله أرسل على عدوِّهم ريحاً عاتيةً اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم فلم يحتملوا، هذه الرياح وما نتج عنها قد قال تعالى فيها: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

في برمودا مثلث إلى الآن هو سرٌّ، طائرات عملاقة تطير فوقه فتسقط في المياه بلا أي خبر يعرف عنها، بواخر عملاقة تدخل فيه فتختفي، وحتى الآن لا يزال هذا المثلث سرَّاً من أسرار الأرض، كل ما قيل من تحليلات فهي غير كافية لما يجري في هذا المثلَّث، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

وموضوع قوَّة الله -عزَّ وجلَّ- أكثر ما تبدو في الحروب، فتجد أنه على الرَّغم من الإعداد الشَّديد للحرب يخسرها طرفٌ دون آخر لأسبابٍ تافهة.

يحضرني خاطرة: الحروب ثلاثة: حربٌ لا تكون، وحربٌ لا تطول، وحربٌ لا تنتهي... الحرب بين حقَّيْن لا تكون، فالحق لا يتعدَّد، والحرب بين حقٍّ وباطلٍ لا تطول لأنَّ الله مع الحقِّ، والحرب بين باطلين لا تنتهي لدخول العوامل الأرضيَّة: الأقوى والأذكى ومن عنده سلاح أكثر جدوى هو المنتصِر.

وقد قال تعالى في سورة غافر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر:٢٢].

وقد قال تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:٢٥].

تجد أحياناً سريراً معلقاً على سلاسل، آخر السلسلة يوجد قطعة على شكل حرف (S) قطره أقل من أربعة مليمترات يُحمل هذا السَّرير وعليه خمسة أشخاص وهو يتحرَّك، ألا تعجب لهذا الحديد الذي يحمل هذا الوزن؟ المصاعد الكهربائية تعلَّق بالفولاذ المضفور وهو متين جداً، هذا هو الحديد الذي أنزله الله فيه بأس شديد ومنافع للناس.

وقد قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة:٢١].

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾... كتب لإقناع عباده أن هذا شيء ثابت... نحن في حياتنا الشيء المكتوب ثابت، يقول لك: معي عقد، أو معي إيصال، أو معي سند، معي تصريح، معي إقرار، كلُّ شيء مكتوب ثابت، أما الشَّفهيُّ فضعيف.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

الإنسان غير المؤمن قد يخضع لقويٍّ لتأثُّره بالقوَّة ولا يخضع لله، يتأثَّر بقوَّة الجمال فيخضع لهذا الجمال ولا يخضع لله، يتأثر بقوَّة العطاء فيخضع لمن أعطاه ولا يخضع لله.

فهذا الذي عصى الله من أجل النَّاس، من أجل الأقوياء، أو الكرماء، أو من أجل المتع الرّخيصة... هذا الذي عصى الله من أجل النَّاس لو كان يعلم قبل أن يعصيه أنَّ القوَّةَ لله جميعاً، قوَّة العطاء من عند الله، وقوَّة الجمال من عند الله، وقوَّة كلِّ شيءٍ من عند الله، لو كان يعلم هذا حق العلم لما عصاه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف:٣٩].

انظر إلى عبارة ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾.

عن عبد الله بن علقمة بن وقَّاص عن علقمة بن وقاص قال: إنّي عِند معاوية إذ أذّن مؤذِّنه فقال معاوية كما قال مؤذِّنه حتى قال المؤذِّن: حيَّ على الصلاةِ قال: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، فلما قال: حيَّ على الفلاحِ قال: لا حول ولا قوَّة إلا بالله (ولا حول ولا قوة إلا بالله قيل معناه لا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلا بتوفيق الله. وقيل: الحول الحركة تقول: حال الشخص إذا تحرك، فالمعنى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله).

وقال بعد ذلك ما قال المؤذن، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول مثل ذلك [رواه النسائي].

أنت بحاجة إلى قوَّة على طاعته... ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال الله تعالى على لسان يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣].

أنت بحاجة إلى قوة على طاعته، لا قوة إلا بالله، لا قوة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بالله، الله هو القويّ، وكلُّ الأقوياء يستمدُّون قوَّتهم من الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت:١٥].

وقد قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

يرزق لأنه قويٌّ، فالضَّعيف لا يرزق.

نصيب المؤمن من اسم الله (القوي)

نستفيد من هذا الاسم أنَّ الإنسان المؤمن إذا عرف قوَّة الله تواضعَ، فلا يجتمع كِبر مع معرفة قوَّة الله عزَّ وجلَّ، أنت لا شيء إزاء قوَّة الله عزَّ وجلَّ، فكلما تمّت معرفتك

بقوَّة الله تلاشت قدراتك أمام قوَّته، فأصبحت متواضعاً، والتَّواضع علم، والمتواضع يعلم أنّ حجمه لا شيء وأنَّ الله هو كلُّ شيء.

إذا عرف قدرة الله -عزَّ وجلَّ- وقوَّته فإنّه يتواضع له فيزيده الله قوَّةً إلى قوَّته، أما إذا وضعه الله في مكانٍ قويٍّ واعتدَّ بقوَّته فالله -عزَّ وجلِّ- يجعله مثلاً في الضعف ليتَّعِظ العباد به، ويجعله عبرة لغيره.

إن الإنسان أحياناً يعتدُّ بقوَّته أو بماله أو بعمله، فإذا به يعتدُّ بقوَّته وينسى قدرة الله عليه وفي الحديث الشّريف يقول الرَّسول ﷺ «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه» [رواه الترمذي].

وقف رجل أمام الحجَّاج فقال له: أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، فما كان إلا أن عفا الحجَّاج عنه.

ثم لنذكر المعنى الثاني... إذا نسيت قدرة الله عزَّ وجلَّ جعل الله هذا القويّ المتعالي عبرةً لخلقه، فمن أجل أن تزداد قوّةً إلى قوّتك اعرف حجمك الحقيقيَّ وتواضع لله عزَّ وجلَّ، واعترف أمامه بضعفك يزدك قوةً إلى قوَّتك.

حينما تعزو فضل الله إلى الله تكون قويّاً، وحين تعزو فضل الله إلى ذاتك، وهذا خطأ كبير، تكون ضعيفاً، سرّ قوتك أن تفتقر إلى الله، لولا أنَّ الله تفضَّل عليك، لولا أنَّ الله مكَّنك، لولا أنَّ الله أعطاك، لولا أنَّ الله سمح لك، لولا أنَّ الله وفقك، لولا أنَّ الله نصرك، لولا أنَّ الله حفظك، لولا أنَّ الله أمدَّك فلست شيئاً مذكوراً.

قبل أن تدخل إلى عيادتك، إلى مكتبك الهندسيّ، إلى مكتب المحاماة، إلى محلّك التّجاريّ قل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوّتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوَّتك وعلمك يا ذا القوَّة المتين.

وبعد ذلك: إذا كنت مطيعاً لله، فهذا سبب قوّتك، وإذا كانت هناك معصية فهذا سبب ضعفك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

إنّ سبب قوّتك أن تكون مطيعاً لله، مطبقاً لمنهج الله، لأنَّ الله سبحانه وتعالى إذا رآك في طاعة أمدَّك بالقوَّة، والهيبة، والتّوفيق، أمدَّك بالحفظ، والتأييد، والنّصر، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى.

ما من اسم من أسماء الله الحسنى إلا وله تطبيقات، ففي الحقيقة عندما يتعرّف الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ يسلك سلوكاً صحيحاً، فيصبح كلامه سديداً، وحركته أديبة، وطاعته لله متينة، وإخلاصه شديداً لأنّه عرف الله، وأصل الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ، والإنسان إذا عرف الله عرف نفسه، أما إذا جهل ربَّه فقد جهل سرَّ وجوده وغاية وجوده، فتتجاذبه قوى الأهواء وترديه صريعاً.

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلى آلِهِ وصحبه وسلَّم.

المجيد

المجيد اسم من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن الكريم، وفي السُّنَّة المطهّرة، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج:١٥-١٦].

أمّا في السّنّة فقد ورد في الحديث الشّريف الذي رواه أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

«قُولُوا اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» [البخاري].

من معاني اسم الله (المجيد)

المجيد في اللغة من صيغ المبالغة على وزن فعيل، واسم الفاعل ماجد، وفعله مَجَدَ، يمجُد، مجداً.

والمجيد هو الكريم المِفضال، وقيل: إن جُمع في الإنسان شرفُ الذَّات إلى حسن الفِعال سُمِّي مجيداً.

مثلاً: إنسان درسنا نسبه فإذا هو ينتمي إلى أرقى أسرة لكنَّ أفعاله سيئة فلا يسمى ماجداً، لأن رسول الله ﷺ يقول: «من بَطَّأ به عملُه، لم يسرع به نسبه» [مسلم، من حديث أبي هريرة]. إنسان آخر أعماله طيِّبة لكن لا نعرف أصله ولا الأسرة التي ينتمي إليها ولا ماضيه. فهو إذا ماجد، أسرع به عمله، ولو بَطَّأ به نسبه. شرفَ الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجداً، والمجد هو المروءة والسخاء والكرم وكرم الفعال.

المجيد سبحانه وتعالى، هو الذي علا وارتفع بذاته، له المجد في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومجده بيّن في جماله جلَّ جلاله، وسَعته، وعلوِّه، واستوائه على عرشه، وفي الحديث الشّريف: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود].

وفي الحديث أيضاً: «حِجَابُه النُّورُ، لو كَشَفَهُ لأحْرَقتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» [مسلم عن أبي موسى].

هذا جمال الذات، أمَّا كيفيَّته فأمرٌ لا يدركه أحد، إذ عين العلم به، عين الجهل به، وكل شيء خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن إدراك الإدراك إدراك، وليس عند المخلوقين منه إلا ما أخبر به عن نفسه، من كمال وصفه، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ومن مجد ذاته أنَّه استوى على العرش، فهو العلي بذاته على خلقه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والعرش أعلى المخلوقات، والله جلّ جلاله فوق ذلك محيط بالخلائق والكائنات، ويعلم ما هم عليه.

«فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِرْدَوس، فإنه أوسطُ الجنة وأعلى الجنة، وفوقَه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» [البخاري عن أبي هريرة].

ومن كمال مجده الكرسيّ، وقد خصَّه بالذِّكر دون العرش في أعظم آية في كتاب الله، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

لقد بيّن الله جلّ جلاله في كتابه الكريم من كمال وصفه وسَعة ملكه لمن أعرض عن طاعته، وعن توحيده في عبادته، أن مُلك من أشركوا لو بلغ السماوات السبع، ولو بلغ الأراضين كلَّها وما فيهن، وما بينهم، على عرضهنَّ، ومقدارهنَّ، وسعة حجمهنَّ، لا يمثّلن شيئاً في الكرسيِّ، الذي تحت قدم الملك، فما بالك بعرشه ومجده، وما بالك باتّساع ملكه.

هذا الإله العظيم ألا يُخطَب وُدُّه؟ ألا تُرجى جنَّته؟ ألا تُتَّقى ناره؟

وفي الحديث الشّريف: «ما السَّماوات السَّبع مع الكرسيِّ إلا كحلْقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيِّ كفضل الفلاة على الحلقة» [ابن حبان عن أبي ذر].

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً أنّه قال: «الكرسيُّ موضع قدميه والعرش لا يقدر قدرُه» [رواه الحاكم و الدارمي عن ابن عباس].

أمّا مجد أوصافه، فله علوُّ الشَّأن، لا ندَّ له، ولا نظير، ولا شبيه له، ولا مثيل، فالمجد وصف جامع لكلِّ أنواع العلوِّ التي يتَّصف بها المعبود، فهو العليُّ العظيم، لأنَّ أيَّ معبود سواه إذا علا مجده بعضَ الخلق، واستقرَّ له الملك، فإنَّه مسلوب العظمة، وأيُّ عظيم سواه مسلوب العظمة في علوِّه، الأقوياء يمرضون، وينامون، ويموتون، أو لغلبة غيره على ملكه، فأيّة عظمة لعلوِّ المخلوق وهو يعلم أنَّ قدرته محدودة وأيّامَه معدودة؟! أيستحقُّ المخلوق أن يكون معبوداً؟!

ومن لوازم الإيمان أن نمجِّد الله سبحانه وتعالى، وأن نذكر الله ذكراً كثيراً، وأن نحبَّه حبَّاً عظيماً، وأن نخضع له، بل إنَّ قِمَّة الإيمان أن نعبده، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينيَّة، تُفضي إلى سعادة أبديَّة.

وقبل أن نتعمق بشرح هذا الاسم، ينبغي أن نعلم أنَّ النَّفس البشريَّة مفطورةٌ على حبِّ الكمال، وأنَّ أسماء الله الحسنى كاملة، فكمال الله عزَّ وجلَّ وفِطرة النَّفس التي فُطرت على حبِّ الكمال يتوافقان.

فلذلك لا يطمئنُّ الإنسان، ولا تُقْبِل نفسه على الله إلا إذا رأى في الله الكمال المطلق، أمّا الإنسانُ فكمالهُ نسبيّ، فقد يصيب كثيراً ويخطئ قليلاً، ويبقى عند النَّاس كاملاً، لكنَّ الله سبحانه وتعالى كماله مطلق، فالشَّرُّ المطلق لا وجود له، لأنَّه يتناقض مع وجود الله، لكنَّ الشرَّ النِّسبيَّ يوظِّفه الله سبحانه وتعالى للخير المطلق.

فالمجيد اسمٌ مشتقٌّ من المجد، والمجد في لغة العرب نهاية الشَّرف، نهاية السُّموّ، نهاية الرِّفعة، نهاية الكمال، يقال: رجلٌ ماجد، أي: رجلٌ شريف له آباء متقدِّمون في الشرف.

كلمة الماجد معناها من حيث النسب؛ أنَّه ينتمي إلى أشرف أسرة، ومن حيث السلوك؛ كثير الخير، مِفضال، معطاء، فربُّنا عزَّ وجلَّ كماله مطلق وفعله خير كلُّه.

والمجيد في حقِّ الله تعالى المتناهي في الكمال والعزِّ، ونفس الإنسان تحبُّ الكمال، لذلك فالنَّفس الإنسانيَّة لا يملؤها إلا معرفة الله، فلو أنَّها اختارت غير الله، اختارت ما دون الله، فإنَّها ستبقى في اضطراب، لا تسكن، ولا تستريح.

يمرُّ الإنسان في حياته بحالات متنوعة، يطلب المال مثلاً فإذا بلغه وجمعه سقط من عينيه وأصبح شيئاً تافهاً، يطلب اللذائذ فإذا اقتنصها صغرت في عينه، أما إذا طلب الله سبحانه وتعالى ومهما جدَّ في الطَّلب فإنه يبقى سعيداً إلى أقصى درجة لأنَّ الله لا نهائيّ، لأن الله كماله مطلق.

الشَّاب يوصف بأنه يعيش أحلاماً، وهو شاب في مقتبل العمر يتصوَّر بيته، ويتصوَّر زوجته، ويتصوَّر عمله، واختصاصه ومكانته، فهو ما يزال شاباً، ويسعده

الحلم، وتسعده الآمال، فإذا وصل إلى حدوده القصوى، أي إذا تزوج، أو توظَّف، أو اختار هذه الحرفة دون تلك، وزاول العمل فيها فإنَّ حياته أصبحت مغلقة محدَّدة، هذا بيته، وهذه زوجته، وهؤلاء أولاده، وهذا دخله، وهذه مكانته، وتلك حرفته.

ومن ثمَّ يشعر بالفراغ، كما يشعر بالرَّتابة، لذلك فالنَّاجحون في الحياة الماديَّة من عجيب أمرهم أنّهم ينصرفون بعد أن وصلوا إلى النَّجاح إلى الميسر أحياناً لأنَّ حياتهم أصبحت مملَّة، بلغوا قِمَّة النجاح، ماذا بعد النجاح؟ لا بد من التغيير.

فالإنسان إذا نجح في عمله، وفي زواجه وكان بعيداً عن الله عزَّ وجلَّ معرفةً وسلوكاً، فإنَّه يبحث عن لذائذ مستجدة، فلذلك تراه ينحرف انحرافات خطيرة لا لأنه يحبُّها، بل لأنَّه يجدِّد من خلالها حياته كما يظنّ.

أما المؤمن فإذا عرف الله عزَّ وجلَّ فمعرفتُه بالله تملأ نفسه إلى أبد الآبدين لأنَّ النَّفس لا نهائيَّة، لا يملؤها إلا المطلق، أمَّا المحدود فلا يملؤها، فهي أكبر، فالدُّنيا بكلِّ لذائذها محدودة، فالشيء الثّابت أنَّ الإنسان يشتري بيتاً واسعاً، في الأسبوعين الأولين أو الثلاثة يسعد به أشدَّ السعادة، أمَّا بعد حين فيغدو لا معنى له، يتزوّج أجملَ امرأة، ثمَّ لا يلبث أن يركب أفخر مركبة، وبعد حين تجده في سأم وفتور وتناقص، لأنَّ الأشياء الدّنيويّة محدودة، والنَّفس لا محدودة، فإذا طلبت السعادة في المحدود فلن تجدها، وما سوى الله محدود، كلُّ شيء ما سوى الله يخبو بريقه، تتناقص لذَّته، تتناقص ثمرته.

إذاً إن أردت الله فأنت في سعادةٍ متنامية، وإن أردت ما سوى الله فأنت في سعادةٍ متناقصة، إذاً فالمشكلة ليست مع الشاب فقط، بل ومع كلِّ إنسانٍ ولو بلغ كهولته وتوضَّحت معالم حياته وتحدَّدت، إنَّ نفسه لا نهائيّة، فإن أراد المحدود وتعلَّقت نفسه به، وقع في الحيرة وفي الضَّجر، فإمّا أن ينحرف، وإمّا أن يهديه الله إليه.

فالمجيد في حقِّ الله تعالى هو المتناهي في الكمال والعزِّ، له الجمال في الأوصاف والأفعال، الذي يعامل عباده بالكرم والجود ويتجلّى لهم بنور الوداد، ماجد وذاته

ماجدة، أفعاله كريمة، مودّته لعباده بالغة، ومن كلمات الدعاء: اللهم أنت المجيد، الفعال لما يريد، نسألك الأمن يوم الوعيد.

ومن الحقائق التي لا تخفى أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً تغنَّى به، فإذا أنت أحببت صديقاً فلتراقب نفسك خلال شهر مثلاً، فأينما جلست تتحدَّث عنه وأنت لا تشعر، فمن أحبَّ شيئاً تغنَّى به، ومن أحبَّ الله تغنَّى بكماله، والثناء على الله عزَّ وجلَّ مسعِد، الله عزَّ وجلَّ عنده كلُّ شيء يسعدك فيه، إذ أقبلت عليه أسعدك.

الدُّعاء وسيلة، والدُّعاء غاية، هو وسيلة لأنّه سلاح بيدك، أمّا كونه غاية فلأنّك لمجرد أن تدعو الله وتتصل به فأنت أسعد النّاس، فإذا كان إقبالك على الدّعاء ضعيفاً يخلق الله لك حاجةً عنده من أجل أن تدعوه فإذا دعوته اتّصلت به وسعدت بقربه.

المجيد هو واسع الكرم، الغنيُّ المغني.

أنت ماذا فعلت من أجل الله الذي سخَّر لك الوجود، أعطاك الحواسّ الخمس، أعطاك العقل، أعطاك الأعضاء، أعطاك زوجة أبدعها لك أجمل إبداع وأحسنه، أعطاك بيتاً، وأولاداً ومكانةً، أمدك بكلّ ما تحتاج ثم هداك إليه... فأنت ماذا قدَّمت؟ قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

أنت موجود فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧-٨].

وجعلك مكرَّماً... دخلت إلى مشتل فواجهتني لوحة يبلغ ارتفاعها أمتاراً، ورأيت فيها صفاً فيه ثلاثون صورة عرضاً، وفيه تسعون صورة طولاً، كلُّ صورة تمثِّل نوعاً من النبات خلقه الله تعالى خصِّيصَى لك لتمتِّع عينيك بهذا النبات، هذا النبات نبات زينة لا يؤكل ولا يشرب لكنّه مخلوقٌ لتُمتِّع عينيك به، أنواع لا تعدُّ ولا تحصى،

كم نوع من الورود ومن نباتات الزينة، من ألوان الأطعمة، من ألوان الفواكه، من أنواع الأطيار، هذا كلُّه مخلوق للإنسان فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

تجد الإنسان أحياناً يسأل نفسه: الله عزَّ وجلَّ منحك نعماً كثيرة... نعمة الإيجاد والإمداد والهدى والإرشاد، أنت ماذا فعلت لخلقه؟... أكبر سؤال ينبغي أن تسأل نفسك عنه ماذا فعلت من أجل ربي؟ ماذا فعلت إرضاءً لربي؟

والماجد هو المغني، أي: غني مُغْنٍ، أمَّا في بني البشر فهناك غنيٌّ غير مغنٍ، حريصٌ على المال يكدسُهُ أكداساً، يعيش فقيراً ليموت غنياً، وهذا من أندم الناس، فالمال قوة، ومن خلاله يمكن أن تصل إلى أعلى درجات الجِنان.

ذات مرة سألني أخٌ سؤالاً: هل هناك من حرج في أن ننفق على معيشتنا أموالاً طائلة بغير حساب، ما دمنا نؤدِّي زكاة أموالنا، لا نقترف إثماً؟ فقلت: أنا لن أجيبك بكلمة واحدة بنعم أو لا، بل سأذكر لك مثلاً:

لو أنَّ إنساناً معه مئة مليون، وعلم أن شركة استثمارية تعطي على الليرة الواحدة (مثلاً) ملياراً -وهذا الكلام كلام افتراضي- رَبِحَ بكل ليرة ملياراً، وأنت معك مئة مليون، فهل تغامر وتشتري بأربعين مليوناً سيارة، وبستين مليوناً بيتاً وتمكث دون أكل؟ أم أنَّك تشتري بيتاً بعشرة ملايين ليرة، وسيارة بمليونين، وتضع باقي المبلغ بالاستثمار، فالأرباح مغرية، وكلُّ ليرة تربح ملياراً؟ إنَّ الذي معه كتلة نقديَّة يمكنه أن يعيش حياة معقولة مكرّمة، ثم إذا كان عنده فائض من ذاك المال فلينفقه في طاعة الله، فهذا الفائض في الآخرة. كلُّ ليرة منه بمليار، كلُّ ليرة تعود عليه بألف مليار، كلُّ ليرة بمليار مليار هذا في الآخرة، فهل من المعقول أن أستهلك الفائض النقدي كلَّه في النفقة اليومية؟ القضية تجاريَّة، الذي يمتلك كتلة نقديّة زائدة من الممكن أن يصل بها إلى الجنَّة إلى أعلى عليين.

فللإنسان حقٌّ أن يأكل ويشرب ويسكن ويركب باعتدال وما زاد على حاجاته، بإمكانه أن ينفقه في مرضاة الله، وسيرى اللقمة إذا أطعمها فقيراً في سبيل الله كجبل أحدٍ يوم القيامة، فهذه اللقمة الواحدة إذا أطعمتها معوزاً، فلو قلت إذاً إنّ الليرة أعطَتْ ملياراً ربحاً فإنَّ الكلام معقول، حجم جبل مقابل حجم لقمة يفوق المليار.

فالماجد المغني هو الله، والله عزَّ وجلَّ إذا أعطى أدهش، فقد أعطاك صحّة... يقول لك الطبيب: هذا الدسَّام مثلاً ثمنه ثمانون ألفاً، تكلفة العملية أربعمئة وخمسون ألفاً، زرع كبد سبعة ملايين، زرع كلية ثمانمئة ألف... فإذا عافاك الله عزَّ وجلَّ، فأنت إذاً تملك ألف مليون وأنت ماشٍ على رجليك، حواس خمس، جهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز تنفس، وجهاز طرح الفضلات، وجهاز تصفية، وأعصاب، وعضلات، وهيكل عظميّ، وعقل في رأسك، جلد سليم، معنى ذلك أنَّ ثمنك يعدل ألف مليون، فإذا أنعم الله عزَّ وجلَّ عليك بالصحة فقد أعطاك شيئاً ثميناً، والصحة تنتهي عند الموت، فعلى قَدْرِ ما كنت معتنياً بصحتك يتحاشى عنك المرض إلى حين، إلا أنَّ الموت لا بد آتٍ ذات يوم.

قرأت ذات مرة أن مغنياً لم يركب طائرة في حياته، خوفاً من أن يموت في حادث طيران، أكْلُهُ أكلٌ مدهشٌ فيوماً يأكل سمكاً، ويوماً يأكل دجاجاً، ويأكل مساءً فواكه متنوعة، أعتقد أنه عاش إلى التسعين، لكن بعد كلِّ هذا العمر، مات، ولقد قرأت عنه مقالة أن عنايته بصحته لا توصف، شيء مثل الخيال، ومع ذلك مات، معنى ذلك أن الموت يأتي على كل إنسان حتى الأصحاء، فما الذي يبقى؟ العمل الصالح، لذلك أعظم نعمة، نعمة الهدى، ثم الصّحّة، ثم الكفاية، لذلك قال ﷺ: «... مَنْ أَصْبَحَ مِنكُمْ مُعافًى فِي جَسَدِهِ، آمِناً فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» [سنن ابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري].

والمجيد أي: رفيع الشرف، المنتهي بالمجد والكمال، واسع العطاء الغني، المغني.

سيدنا سعد بن عبادة كان يقول: اللهم هب لي حمداً ومجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني القليل، ولا أصلح عليه.

بعض الناس مقاومته هشَّة فإذا أغناه الله يعصيه على الفور، أي إنّه على الدخل الكبير يرتكب الموبقات، أما على الدخل المحدود فمستقيم، إلا أنَّ الآية الكريمة تعطيك قاعدة عامة وثابتة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

معنى ذلك أن الله عزَّ وجلَّ إذا قلَّل، فإنّه يقلِّل تقليل تأديب لا تقليل عجز، إذا وجدتَ الأمطار قد شحَّت، والموارد قد قلَّت، والأعمال أصبحت عسيرة، والأمور غير ميسرة، معنى ذلك أنه تضييق من الله عزَّ وجلَّ، وهذا التقليل لا يمكن أن يكون تقليل عجز إلا أنَّه تقليل تأديب.

إذا قطعوا مرافق الماء عن بيوتنا فالسبب أنَّ المياه غير كافية، هذا تقليل عجز، إذا قطعت الكهرباء في اليوم ساعة، معنى ذلك يوجد عجز، أما إذا قلَّل الله عزَّ وجلَّ المواردَ فلا يمكن أن يكون عجزاً، لأن الله عنده خزائن كل شيء: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر:٢١].

فإذاً يؤدِّب الله عباده، فهذا الصحابي الجليل سعد بن عبادة قال داعياً: اللهم! هب لي حمداً ومجداً، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني إلا هو ولا أصلح إلا عليه.

فإذا رأيت إنساناً عظيماً وليس له عمل صالح فإنَّ عظمته فارغة، العظمة أساسها العمل العظيم، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال.

وبعد فإذا رجا إنسان ربَّه أن يكون غنيّاً ليكون بهذا المال ماجداً انقلب هذا الطلب إلى عبادة، فلو أنَّ شخصاً يبحث عن مال وهدفه إذا اغتنى أن يبني مسجداً، أو يبني معهداً شرعياً، أو يطعم الفقراء، أو يكرم الأيتام وينشئ داراً للأيتام (مَبَرَّةً) مثلاً

وينفق إنفاق الطَّامع برحمة الله ويرجو وجهه، أو يعلِّم الطلاب على حسابه لكي يصبحوا دعاة، فإذا كان هذا هدفه فعمله عبادة، وأيُّ عبادة.

التقيت مرة بإنسان بينما كنت في زيارة إحدى المحافظات، فوجدت مسجداً قد أنشئ حديثاً على الساحل، فأعجبني ودخلت وصليت فيه، ثم دعاني هذا الإنسان إلى مكتب له في المسجد، فقال لي: أنا الذي بنيت هذا المسجد، حدثني عن قصته فسمعت كلاماً غريباً قال لي: لما أنهيت الخدمة الإلزامية من حوالي عشرين سنة، وكنت والله، لا أملك درهماً ولا ديناراً فأخذت من أُختي سوارها وبعته بثلاثمئة ليرة وسافرت إلى إحدى دول الخليج، وبينما أنا في الطائرة ما تكلمت بلساني إلا أنَّه قد خطر في بالي خاطر: لو أنَّ الله جبر خاطري في هذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً، أقسَم بالله إنه لم ينطق هذا بشفتيه، ثم قال لي: وأكرمني الله عزَّ وجلَّ إكراماً منقطع النظير، ثمَّ رجعت إلى بلدي واشتريت أرضاً مساحتها خمسة دونمات، وتقدمت بطلب رخصة فلم أحصل عليها، قالوا: المنطقة غير منظَّمة ثم قابل المحافظ الذي قال له: عمِّر ولا بأس عليك، ثم قال: ويكلِّ بساطة عمّرنا مسجداً كبيراً ضخماً وهو الذي صليت فيه قبل قليل، طلب بصدق النيّة فالله أعطاه، فإذا طلب أحد مالاً من الله لكي يعمِّر مسجداً أو لينشئ معهداً شرعياً، أو ليبني داراً للأيتام، لينفق على طلاب علم ولكي ينشر الدعوة إلى الله، هذا الغنى آل أمره إلى عبادة، ولم يكن غنى مطغياً أو غنىً منسياً لأنه أدّى حقَّ الله في المال، لأنَّ المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف... والمال قوّة، لكن هذا المال يحتاج إلى نية ويحتاج إلى إيمان، والإيمان يُفرز نية عالية، والنيّة العالية تحوِّل طلب المال إلى عبادة.

أما إذا كان همُّ الإنسان أن ينشئ بيتاً ضخماً، وأن يشتري سيّارة فارهة ويستقلّها زهواً، فهذه ليست عبادة بل هي حبٌّ للدنيا.

ومن دعاء علي رضي الله عنه: اللهم! صن وجهي باليسار، ولا تبدل جاهي بالإقتار، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك وأستعطف شرار خلقك، وأُبتلى بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كلِّه وليُّ الإجابة والمنع.

فإذا أتقن الإنسان عمله، أتقن مصلحته، أتقن تجارته، أتقن صناعته، أتقن وظيفته، أتقن طبّه، أتقن هندسته، وجاءه دخل كبير وحلَّ مشكلات النَّاس به فهو في أعلى درجات العبادة، إنَّه مستقيم، طاهر، ورِع، كسب مالاً وزوَّج شاباً واشترى بيتاً لإنسان فقير آواه به، حل مشكلة إنسان، وفَّق بين زوجين، آوى إنساناً عليه دعوى إخلاء مثلاً، فتاة أمَّن لها بيتاً وبعد هذا تقدم لها شاب ليتزوجها، أحياناً تجد البنت إذا ملكت بيتاً فإنها على الفور تتزوَّج، إذا كنت ميسور الحال وعندك بنتٌ مستقيمة وطاهرة نقية وتقدم لها شاب لا بيت عنده ولا يملك ثمنه فاشتر لها بيتاً وزوجهما، فهناك آباء أعجب من أفعالهم كثيراً.

قال لي أخ: أنا أمّنت بيتاً لهذه البنت فإذا تقدم أحد خطبها وتزوجها فله هذا البيت، ولم يمضِ إلا وقت قليل حتى تزوّجت، وحُلّت مشكلة شابين بحاجة إلى زواج، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...

«... وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُربَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ...»
[صحيح البخاري، من حديث عبدالله بن عمر].

فإذا طلب أحد المال من الله تعالى ليحلَّ به مشكلات المسلمين نقول له: نِعم الطلب طلبك، وهذا عملٌ من أرقى الأعمال وأرجاها عند الله تعالى.

ذكر الله عزَّ وجلَّ اسمه المجيد في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج:١٥]. وقال عن كتابه الكريم: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ١﴾ [ق:١] فالقرآن كتاب الله، كتابنا المقرر حدِّث عنه ولا حرج، حدِّث عن نظمه، وعن إعجازه، وعن تشريعه، وعن أخباره، وعن حلاله وعن حرامه، وعن وعده، وعن وعيده، وعن صوره، وعن مشاهد يوم القيامة فيه، وعن قَصص أنبيائه، هذا الكلام كلام الله عزَّ وجلَّ.

فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١].

وقال أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

الكون كله في كفَّة والقرآن في كفَّة وهو بين أيدينا، والله الذي لا إله إلا هو لو وقفت عند حروفه حرفاً حرفاً لوجدت العجب العجاب، لو وقفت عند حركات الحروف لوجدت العجب العجاب.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ أي: الشَّريف، فلله الشَّرف والمجد والعلوُّ والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله، ووصف الله تعالى قرآنه بأنه مجيد لكثرة فوائده، فالمجيد في صفة الله يدل على كثرة إحسانه وأفضاله، والمجيد هو الشريف بذاته، الجليل بأفعاله، الجزيل بعطائه، البالغ المنتهى في الكرم، وقيل: المجيد المتناهي في الشرف في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الجليل في نعوته والجميل في ملكه وملكوته.

جاء اسم المجيد في آيات أخرى فالله عزَّ وجلَّ في سورة هود قال: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٣].

أيّ إنّه كثير العطاء ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

فإذا تعرَّف الإنسان إلى الله واستقام على أمره فإنّه يهديه سُبُل السلام، فهناك أزمات طاحنة... ويوجد دعاء للنبي ﷺ يقول فيه: «اللهم! إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نِقمتك، وجميع سخطك» [رواه مسلم من حديث عبدالله بن عمر].

أحياناً يقع البلاء فجأةً، ويداهم المرض العُضال فجأةً.. فاللهم إنا نعوذ بك من فجاءة نقمتك وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك... أحياناً تكون المفاجأة في الأولاد، أو المفاجأة في الزوجة، ففي حياة الكافر والعاصي مفاجآت، وأخبار كالصواعق.

أما المؤمن فالله عزَّ وجلَّ يهديه سُبُل السلام، فهو في سلام مع نفسه، وفي سلام مع من حوله، وفي سلام مع ربِّه، وفي سلام مع مستقبله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١].

المؤمن في سلام، لن تجد عنده مفارقات وأخباراً صاعقة، ذات مرةٍ دُعينا من قبل أحد الإخوة لمزرعة، وقال لي: هذه مزرعة عمِّي، وبينما نحن في المزرعة دخل عمُّه ولم

يسلِّم على الموجودين جميعاً وعددهم ثلاثون رجلاً، ولكنني ضقت ذرعاً من تصرُّفه هذا، فقال لي هذا الأخ: عمّي حضر من المشفى الآن حيث كان يقوم بتكرير دمه وغسل كليتيه. فلا تؤاخذه على تصرُّفه فهو لم يعد يرى بعينيه من كثرة الألم، والغسيل كل أسبوع مرة، يمشي دون أن يرى أحداً أو يحس بأحد، فالهمُّ حجبه عن النّاس كلِّهم.

فقد يصاب الإنسان بمصيبة في جسده أو ماله أو عياله مما يجعله لا يرى شيئاً مما حوله، فإذا طمأنك الله عزَّ وجلَّ وقال لك: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨] فلا تخف، فأنت موضع عنايتنا، فأحياناً تجد أن الله عزَّ وجلَّ يلقي في قلبك الطمأنينة وتشعر بالثقة، وتشعر بأنَّ العناية تحوطك، فاحمد الله على نعمائه فالله قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾... فهل هذا شيء قليل أن يعتني الله بك ويدافع عنك ويطمئنك ويُلقي السكينة في قلبك والسعادة، فهل هذا قليل؟ والثمن بيدك وهو طاعته، فأطعه وانظر متدبراً في قول القائل:

أطـع أمرنـا نرفـع لأجلـك حجبنـا ... فإنّـا منحنـا بالرضـا مـن أحبَّنـا
ولُـذ بحمانـا واحـتم بجنابنـا ... لنحميـك ممـا فيـه أشرار خلقنـا
وعـن ذكرنـا لا يُشْـغِلَنَّكَ شـاغلٌ ... ولا تنسـنا واقصـد بـذكرك وجهنـا
وسـلِّم إلينـا الأمـر في كـلِّ مـا يكُـن ... فـما القـرب والإبعـاد إلا بأمرنـا

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾.

عطاؤه لا حدود له، فالله عزَّ وجلَّ أحياناً يعطي الإنسان قليلاً من الدنيا قد يختلُّ توازنه بسببه، كأن يعطيه بيتاً جميلاً، زوجةً جميلة، تجارة رابحة، فكيف إذ أعطاك الله الجنّة... ولنمعن النظر في هذا الكلام، إذا ذهبنا إلى السّاحل، وقبضت أصابعك وأشرت بالسَّبابة وقمت بغمسها في مياه البحر وسحبتها بعد ذلك فانظر مقدار ما حملته وما تعلَّق بها من ماء... يقول النبي الكريم ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بِمَ ترجع» يعني التي تلي الإبهام [رواه أحمد والطبراني، من

حديث المستورد بن شداد]، الدنيا بقصورها، بنسائها، بمركباتها، بأماكنها الجميلة... ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غُمِس في البحر من مائه.

«... أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ...» [صحيح البخاري من حديث أبي هريرة].

لذلك الموت عند المؤمن تُحفته وعُرسُه، لأنه دخل الجنَّة وقد رأى مقامه فيها ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ فالله يهيئ لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إذا أكرمنا بالجنة فهناك كل ما لا يتصوَّره العقل، الثمن طاعته فقط.

وفي سورة البروج قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج:١٤-١٦].

فلا إرادةَ فوقَ إرادةِ الله أبداً، فالله هو المريد، هو القادر، هو الفعَّال، هو الحكم، هو العدل، لا رادَّ لما أمر، ولا معقِّب لحكمه.

وهناك آية ثالثة قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج:٢١-٢٢].

معنى قرآن مجيد، أي: كثير الخير، إن قرأته، إن تعلَّمت أحكام تلاوته، إن فهمته، إن طبَّقته، إن تعلَّمت منه، لا حدود لفضائل القرآن، لذلك من أوتي القرآن ورأى أنَّ أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقَّر ما عظَّمه الله، ومن تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت.

نصيب المؤمن من اسم الله (المجيد)

المؤمن ولأنَّه عرف الله، فكلّ حياته عطاء، يعطي من وقته، ومن جهده، ومن ماله، ومن خبراته، يعطي كلَّ شيء، فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، إلا أنَّ هذا العطاء أساسه إيمان، يُعِدُّه صاحبه لاجتياز عقبات الآخرة، فالمؤمن طموح جداً، فإذا خدمك إنسان خدمة وقال لك: أريد عليها مئة ألف، هناك أشخاص يأخذون الأجر المكافئ لجهدهم تماماً، فإنه يعرف قيمة جهده يقول لك: إن هذه العملية تكلِّف أربعمئة وخمسين ألفاً،

لو افترضنا أن إنساناً فعلها لوجه الله. أيُّهما أكثر طموحاً؟ الثاني الذي فعلها لوجه الله؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطيه عطاء لا يخطر على قلب بشر يوم القيامة، فأساس الإيمان مبنيٌّ على العطاء لا على الأخذ، تعيش وتأكل وتشرب وتزوِّج أولادك، أمَّا أساس إيمانك فأن تعطي مما أعطاك الله، لذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة:١-٣].

أي إنَّ أحد أركان حياة المؤمن، أحد سماته الأساسية، أحد ركائز حياته ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ لكنَّك تعامل الكريم، يعطيك عطاءً لا يصدَّق، أولاً: يعطيك في الدنيا رحمته وهي تشمل الصّحّة، وتشمل راحة البال، وتشمل الرّفعة، والطّمأنينة والثقة بالمستقبل، أمَّا الكافر فكثيراً ما ترتعد فرائصه خوفاً من تقلُّبات الأيام وعثرات الزمان، مهما كان غنيّاً، فحسبه بؤساً أن سَلَبَهُ نعمةَ الأمن فقد قال تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

الله يعطيك المال وقد يأخذ منك نعمة الأمن، ويأخذ منك نعمة راحة البال، يأخذ منك نعمة الطمأنينة، يأخذ منك السعادة، تعيش في لذائذ متناقصة تعقبها كآبات متنامية.

فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر:٢].

ومن تخلَّق باسم المجيد، فيجب أن يكون كريماً في جميع الأحوال مع ملازمة الأدب، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً بخيلاً... بل تجده كريماً يعطي ولا يضنُّ بعلمه ولا بخبرته.

حدَّثني أخ وهذه القصة منذ ثلاثين عاماً... عنده محل لصناعة الفرنية «الكاتو»، دخل عليه شخص من أقاصي الجزيرة وببساطة قال له: أتعلمني صنع الكاتو؟ فقال له: على العين، تفضَّل إلى الداخل، وقام بعمل العيارات والأوزان المناسبة أمامه، وطبخها

أمامه وبعد أن انتهى من العمل طلب منه أن يقوم بعمل مثلها أمامه... ثم أقسم هذا الأخ... أنه منذ ثلاثين سنة وإلى الآن يزوره ذاك الأخ ويحضر له هدية من بلدته، فقد أسس محلاً هناك في بلده وأخذ الله بيده ولم ينسَ الفضل لثلاثين سنة فيحضر له كلَّ سنة هديَّة ثمينة.

الإيمان أساسه العطاء، وقد حدثني طبيب متخصص في الأورام الخبيثة قال لي: جاءت امرأة شابَّة في ريعان الشباب مصابة بمرض خبيث في الحنجرة وكادت تختنق، ولا أمل في شفائها، وقد قامت مع ذويها بزيارة مستشفيات وعيادات عدّة جامعات، والكلُّ أجمعوا على أنه لا أمل بشفائها، قالوا لزوجها: لا أمل في شفائها... ولكن بعد أن غادر العيادة رجع إلى الطبيب ليحاول مرةً أخرى وقال له: أنا سوف أقوم بإجراء محاولة أخيرة، ولكن الأمل ضعيف جداً، وأقاموا في فندق قريب وأجرى الطبيب للمرأة جلسات أشعة يومياً، وبعد حين تحسنت حالها، وبعد ثمانية أشهر تقريباً بدأ شبح هذا المرض الخطير يتراجع، ثم أذن الله بشفائها وعافاها وأنجبت الأولاد... وهذه القصة منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة... ويقول الطبيب لي: كل سنة يأتي الزوج إلى الطبيب بخروفين وصفيحة من السمن. فقال له الطبيب أخيراً: والله لقد رددت الجميل بالجميل الكثير فوفيت، بل أكثرت، فيقول له الزوج: والله لئن مت أنا، فأولادي من بعدي يتابعون هذا العمل وفاءً منا لحسن صنيعك.

فقد كان ميؤوساً من شفائها ولم يتقاضَ الطبيب شيئاً على علاجها، وكان هذا الزوج فقيراً جداً وأغناه الله بعد ذلك، ونظير علاجه وخدمته طيلة ثمانية أشهر وتراجع المرض وشفاء الزوجة بفضل الله ومَنِّهِ، ولم ينس الزوج هذا الفضل، فإذا كان الفضل لإنسان فَلَمْ ينسه الزوج ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣٧] فكيف إذا كان الفضل لله عزَّ وجلَّ؟

فأنت أيها المؤمن إذا عرفت أن الله ماجد ومجيد، أي: غنيٌّ مُغنٍ، متناهٍ في الشرف والرِّفعة والمجد، وهو يعطي عطاءً لا نهائيّاً، إذاً فَتخلَّقْ بكمالات الله.

فحظ العبد من هذا الاسم أن يعامل الخلق بالصفح والإحسان، والعفو والإكرام، واللين والبشاشة، وتجنُّب الشِّقاق، وأن يعطي من ماله للفقراء، وأن يتواضع مع الخلق، أن يرفق بالضعفاء، وأن يعامل النَّاس كأنهم أهله وجيرانه.

فأنت عليك أن تتخلّق بكمالات الله... بالمناسبة دائماً عندما نضع قطعة من الحديد تحت أشعة الشمس، تكتسب منها شيئاً، الحرارة مثلاً، ثم ضع هذه القطعة في البراد تجدْها باردة، معنى ذلك أنَّ هذه القطعة اكتسبت من هذه الثلاجة البرودة كما اكتسبت من الشّمس السّاطعة الحرارة... أنت إذا اتصلت بالله فلا بدَّ أن تكتسب شيئاً!! فقطعة حديد لا يعقل إن وضعتها تحت أشعة الشمس ألّا تكتسب الحرارة، وإن وضعتها في ثلاجةٍ ألّا تكتسب البرودة، وأنت إذا اتصلت بالله ألا يجب أن تكتسب منه شيئاً؟ فالصلاة التي هي عماد الدين وعصام اليقين ودُرَّة الطّاعات، وأعظم القُربات، هذه الصلاة من أجل أن تكتسب الكمال من الله، لا يمكن أن تكون صلاتك صحيحة وتكون بخيلاً، معنى ذلك أنّك غير متصل بالله كما ينبغي، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وتكون جباناً، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وأنت حقود، هذا شيء مستحيل حقد، جبن، بخل، لؤم، قسوة، قلب قاسٍ لا يرقّ للناس، هذا كلُّه يتناقض مع الصلاة.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فلذلك إذا اتصلت بالله يجب أن تشتقَّ لنفسك من اسمه صفة الكرم، فإنك إذا خرجت من البيت ساعياً لعملك فالتقيت بإنسان وسألك أجبته، و طلب إعانة أعنته، أو وجدته ضالًّا فهديته، أو وجدته فقيراً فأغنيته، همّك الأول أن تسعد خلق الله عزَّ وجلَّ.

أضربُ أمثلة من واقع الحياة... أنت راكب في سيَّارة عامّة وبجانبك صديق فدفعت عنه، فهل يظل ساكتاً ولا يتحرك نحوك شاكراً، أم يبتسم ولا يقول لك شكراً؟

فهل من المعقول أن تدفع عنه بهذه السيارة العامة ولا يلتفت لك شاكراً، مهما كان لئيماً، مهما كان عديم الإحساس، مهما كان جلفاً، وهل من الممكن أن تدفع عن إنسان بمركبة عامة ولا يبتسم لك ويقول لك شكراً؟! وهل من الممكن أن تهدي إنساناً هدية ويأخذها ويضعها بجواره ويقول لك: خير. ويبقى صامتاً، لا بل سوف يقول لك: شكراً لقد كلَّفت نفسك من أجلي... إنك لن تجد إنساناً تصنع معه معروفاً، إلا ويكون له ردٌّ فعل حميد نحوك، لن تجد إنساناً مهما كان لئيماً، مهما كان موقعه منك وقدَّمت له شيئاً إلا ويقدِّم لك شيئاً بالمقابل، فلو قلتَ له كلمة طيبة، لردَّ عليك بكلمة طيبة، لو ابتسمت له ابتسامة، سيبتسم لك ابتسامة مثلها، لو صافحته مصافحة حارَّة لردَّ بمصافحة حارَّة مثلها أو أحسن منها.

فخالق الأكوان ذو الكمال المطلق إذا أنت خطبت ودّه بالتوبة، وخطبت ودّه بالطاعة، خطبت ودّه بالعمل الصّالح، إن خطبت ودّه بالإحسان إلى خلقه، وجدت جزاء ذلك عنده، فهل من الممكن أن تتقرب إلى الله ولا تجد ردَّ فعل من الله؟! فإذا أحسن الإنسان إلى خلق الله سوف يجد في نفسه الطّمأنينة، والسّعادة، والتّوفيق، والحفظ، والتأييد، سوف يجد تكريماً، والتكريم شيء استثنائيّ، شيءٌ مستثنى من معاملة عامّة النّاس، مستثنى من القواعد العامّة التي تحكم البشر، هذه الكرامة دليل أن الله قبل هذا العمل. ألَمْ يقل النبي ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»

[سنن الترمذي، من حديث أنس بن مالك].

التّعامل بهذا الدّين تجارة رابحة... كيف تكون التجارة؟ ما أكثر ما يكون فيها من جهد ونشاط؟ بدءاً من شراء المحل، وتزيين المحل، وترتيب المحل، وتعيين الموظَّفين، وشراء مستودعات، وفتح اعتمادات، واستيراد بضاعة، وعرض البضاعة، ومندوب مبيعات، ومندوب مشتريات، والتّسويق، وبعد هذا قبض ثمن البضاعة ثم صفقة ثانية وثالثة... إلخ. هذا النّشاط الطّويل العريض إذا لم ينتهِ بربح فهو سلوك مضحك لا معنى له، للتجارة هدفٌ واحد هو تحقيق الرّبح، فإذا لم يتحقّق الرّبح فكلُّ هذا النشاط لا معنىً له، جهد ضائع وهو جهد غير ذي معنى.

فلو طبقنا ذلك على الدين... قرأنا قرآناً، صلينا وصمنا وحججنا وزكّينا، وحضرنا مجالس العلم، وكانت عندنا مكتبة إسلاميّة، والكتاب الفلاني لابن فلان، وغيره لفلان الفلاني وهكذا، والطبعة حديثة، أحاديث الكتاب مخرَّجة، هذا الكاتب رد عليه فلان هذا هو النشاط الديني، بين مطالِع ومؤلّف واستماع إلى أشرطة، بين حضور مجالس للعلم وبين أداء الصلوات؛ هذا النشاط كلّه إجمالاً، إذا لم ينتهِ بك إلى أن تتّصل بالله وأن تسعد بقربه فلا معنى له إطلاقاً.

الدين اليوم لدى الكثيرين من المسلمين ثقافة وفلكلور وتقاليد وعادات، وعاطفة جوفاء وهم بذلك يخدعون أنفسهم ويوردونها الموارد الآسنة، أمّا حينما تتّصل بالله وتقطف ثمار القرب، وتجني سعادة القرب والطّمأنينة، فعندئذٍ أنت متديّن، ولن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيماً على أمره، هذا هو بيت القصيد، لكي لا يضيِّع الإنسان وقته، ولكي يتحرّك العبد حركة ناجحة، وكي لا يبدد نشاطه في حركة غير نافعة، عليه أن يدرك حقيقة علاقته بالله تعالى ثم يخلص له العبادة.

ملخص الملخص يجب أن تعرفه وأن تستقيم على أمره حتى تسعد بقربه، هذه هي العبادة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

تعرفه، تطيعه، تسعد بقربه، وانتهى الأمر إلى رضوان الله ولا شيء غير ذلك.

ومن أدب المؤمن مع هذا الاسم، أن ترتفع همّته عن الخلائق، فما دام الله كماله مطلق وعطاؤه مطلق، فدع الخلق إلى الخالق، دعهم، تجد الإنسان المنافق والمنحرف أرضيّاً مع الناس، أمّا المؤمن فهو تارك الناس، وملتفت إلى ربِّ الناس، هناك شيء أساسي في حياته. فالله هو الأصل والغاية.

أحياناً تدخل إلى دائرة لتقابل المسؤولَ، وقد تجد في الممشى مئة شخص، وخمسين باباً مفتوحاً وخمسين موظَّفاً جالساً لا تريد أحداً منهم، لكن تريد المدير العام فقط، هدفك واحد فقط، وكل هؤلاء الذين في دربك تتجاوزهم، والمؤمن كذلك هدفه الوصول إلى الله تعالى.

فعلاقة المؤمن بهذا الاسم: أن ترتفع همَّته عن الخلائق مع تعلُّقه بمولاه، فمن عرف أنَّ الله هو الماجد المجيد سمت همته إليه واعتمد عليه في كلِّ الأمور، أي أنّ المؤمن ربَّاني، والمنافق شيطاني.

الحديث القدسي: «... إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ...، يا عبادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم، من حديث أبي ذرٍّ].

أخلاق المؤمن نحو هذا الاسم: أن يقصد وجه الله الكريم لأنه المغني وحده، وأن يُحسن للمخلوقات تأسياً بكمالات الله، فاتَّجِهْ إلى الله وحده وأكرم خلقه إن كنت قد آمنت بهذا الاسم الجليل.

الواحد

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾ [يوسف:٣٩] .

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد:١٦].

وفي الأعمّ الأغلب اقترن اسم الله الواحد باسمه القهّار، لأنّ علوّه علوُّ قهر:

هو وحده قهر كلَّ متكبّر، لذلك ما أهلك الله قوماً إلا ذكَّرهم بأنَّه أهلك من هو أشدُّ منهم قوة، إلا قوم عاد حينها أهلكهم قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

فيا أيها المؤمن، حينما تعبد الواحد القهَّار فأنت أقوى الأقوياء، تعبد خالق السماوات والأرض، الواحد القهَّار معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، أنت بالدُّعاء أقوى إنسان، وأنت إذا كنت مع الواحد القهَّار فأنت عزيز.

وورد في السُّنَّة الصَّحيحة، عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ قَالَ حَدَّثَنِي حَنْظَلَةُ بْنُ عَلِيٍّ أَنَّ مِحْجَنَ بْنَ الأَدْرَعِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ إِذَا رَجُلٌ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ فَقَالَ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا الله بِأَنَّكَ الوَاحِدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ ثَلَاثًا. [سنن النسائيّ]

وفي حديث آخر، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ الله الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ. [البخاري عن أبي سعيد]

وفي حديث ثالث: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسماوات وَبَرَزُوا الله الوَاحِدِ القَهَّارِ، قلت أين الناس يومئذ قال ﷺ: على الصراط». [مسلم و أحمد عن عائشة]

من معاني اسم الله (الواحد)

الواحد في اللغة اسم فاعل، للموصوف بالوحدانيّة أو الواحديّة، وحّده توحيداً جعله واحداً.

«الواحد» أول أرقام الحساب، وهو يدل على الإثبات، فنقول: في البيت رجل واحد، أمّا (أحد) فللنفي، نقول: دخلت البيت فما رأيت فيه من أحد.

وفي اللغة الواحد هو المتوحِّد الذي لا يخالط الناس ولا يجالسهم، والتَّوحيد أن تؤمن بالله إلهاً واحداً لا شريك له.

«الواحد» هو الله سبحانه وتعالى، القائم بنفسه، المنفرد بوصفه، الذي لا يفتقر إلى غيره، يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء ولا يحتاج إلى شيء، الذي لا يفتقر إلى غيره أزلاً

وأبداً، وهو الكامل بذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، هو سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء، لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ومازال بأسمائه وصفاته واحداً أولاً قبل خلقه، وجود المخلوقات لم يزده كمالاً كان مفقوداً، أو يزيل نقصاً كان موجوداً، فالوحدانيَّة قائمة على معنى الغنى بالنفس، والانفراد بالكمال، وبكمال الوصف.

قال ابن الأثير: «الواحد» في أسماء الله تعالى هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر.

«كانَ اللهُ ولم يكن شيءٌ قَبْلَهُ، وكان عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرضَ، وَكَتبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شيء» [البخاري عن عمران] .

وقال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

الله سبحانه وحده الذي خلق الخلق بلا معين، ولا ظهير، ولا وزير، ولا مشير، فإنه وحده منفرد بالملك، وليس لأحد في ملكه شرك كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ:٢٢].

والواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه أحد من قبلُ، ولا يزال وحده إلى أبد الآبدين، واحدٌ قبْلاً وبعْداً أزَلاً وأبداً، الله سبحانه وتعالى لم يرضَ بالوحدانيَّة لأحدٍ غيره، وفي اللغة أيضاً واحدٌ في هذا الباب، واحدٌ في هذا العلم، واحدٌ في هذا الفنِّ، واحدٌ في هذه الخبرة، الواحدُ في اللغة التقدُّم في العلم أو البأس أو غير ذلك؛ أي: التَّفوُّق، هناك معنيان يليقان بالله عزَّ وجلَّ الوحدانية والتفوق، هو وحده، وواحدٌ لا شريك له، وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم العظيم، نذكر ما قد ورد في الآثار من أنَّه اسم الله الأعظم، هناك واحدٌ وهناك أحد، الله جل جلاله واحد أحد، واحد لا شريك له، وأحدٌ لا مثيل له؛ لا شريك: واحد، ولا مثيل: أحد، فهو واحد أحد فرد صمد.

والعدد أحياناً يأخذ معنيين: معنىً كمياً ومعنىً نوعياً؛ تقول: فلان ترتيبه الرابع في صفِّه، فكلمة الرابع لا تعني أنّ عدد طلاب الصّفّ أربعة، ولكنَّ ترتيبه هو الرابع، وهو المعنى النَّوعي للعدد، أمَّا إذا قلنا: جاء أربعة أشخاص فهذا المعنى الكمِّيّ، فإذا قلنا: الله واحد، أي: لا شريك له، وإذا قلنا: الله أحد، أي: لا مثيل له، فكأنّ «أحد» تشير إلى المعنى النّوعيّ، وكأنَّ «واحد» تشير إلى المعنى الكمِّيِّ.

هناك رأي لبعض العلماء في التفريق بين واحد وأحد، فإذا قلت: ما في الدار أحد يعني ليس فيها لا واحد ولا اثنان ولا ثلاثة فإذا نفيت الأحد نفيت العدد الذي بعده، أما إذا قلت ما في الدار واحد فقد يكون هناك أربعة هذا فرق في استخدام كلمة واحد وأحد، ثم شيء آخر ذو بُعد واضح وهو أنك لا تقول: رجل أحد، فكلمة أحد اختصَّ الله بها.

على كلِّ التَّوحيد مشتقٌّ من الواحد، وكلُّ مؤمن يعلم أنَّه ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتّوحيد نهاية العلم، وفحْوى دعوة الأنبياء جميعاً، لكنَّ التَّوحيد توحيدان: توحيدُ ربوبيّة وتوحيد ألوهيّة، فتوحيد الرُّبوبيَّة أن تشهد أنَّ الله سبحانه وتعالى واحد في ملكه، وهو الذي خلق ورزق وأعطى، وهو الذي منع والذي رفع، وهو الذي خفض وهو الذي قبض وبسط وهو الذي أعزَّ وأذلّ، هذا توحيد الربوبية، لا رازق، ولا معطيَ ولا مُحْييَ، ولا مُميتَ، ولا مدبِّرَ لأمر الكون كلِّه ظاهراً وباطِناً إلاَّ هو، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرَّك ذرَّة إلا بإذنه ولا يحدث حادث إلا بعلمه، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء، ولا أصغر ولا أكبر إلا أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته ونفذت فيها مشيئته واقْتَضَتْها حكمتُه، فتوحيد الربوبية أن تؤمن أنَّه الواحد في تدبيره وفي ملكه.

أمَّا توحيد الألوهيَّة فأن تعبده ولا تعبد أحداً معه، توحيد الرّبوبية رؤية، لكن توحيد الألوهية أن تعبده وحده، والدين رؤية وعبادة؛ علم وعمل؛ عقيدة وسلوك.

هناك رأي آخر عند بعض العلماء لتوحيد الرُّبوبيَّة وهو أن تعتقد أنَّ لهذا الكون خالقاً واحداً، أمَّا توحيد الألوهيَّة فأن تعتقد أنَّ الله تعالى هو المستحِقُّ وحده للعبادة، فهو المسيِّر وهو المعزُّ والمذلُّ والمحيي والمميت.

نحن أمام حقيقتين: أن نشهد أنَّ الله واحد في ذاته واحد في صفاته وواحد في أفعاله، وأنَّه الخالق والرازق، والمحيي والمميت، وأنَّه المعطي والمانع والرافع والخافض والقابض والباسط.

أحد أكبر مصادر الشَّقاء في الحياة الدُّنيا ألا تكون موحِّداً قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

ما الذي يُعذِّب الإنسان؟ أن يرى أمره بيدِ عدوِّه وأنَّه ضعيف وخصْمُه قويٌّ وهو حاقِدٌ عليه. وما الذي يُريحه. أن يرى أمره بيد الرَّحيم وبيد إلهٍ عدلٍ وبيد القدير وبيد الغنيّ وبيد الرؤوف، ما الذي يريحك إذا كنت محقّاً؟ يريحك أن يكون القاضي عادلاً، تقول مثلاً: أنا لا أُبالي فالقاضي يحكم بالحقِّ وأنا مِحِقٌّ، وما الذي يُريحك وأنت موظَّفٌ في دائرة؟ أن توقِن أن المدير العام مُنصِف لا يُلقي بالاً للوشاية، يتحقَّق بنفسه، والذي يُريح الإنسان أن يرى أنّ أمره بيد الله، وأنَّ الله لا يمكن أن يقول لك: يا عبدي اعبُدني وأمرك بيد غيره، وحينما يكون أمرك بيد غير الله فأنت مضطر إلى أن تعبد غير الله أما حينما يقول الله لك: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

فهذا يعني أنَّه لم يأمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك بأنَّ أمرك كلَّه بيده.

هذه الحقيقة لا أفتأ أُكرِّرُها إلى آخر يوم من حياتي؛ لأنَّ القرآن الكريم كلَّه يدور حولها قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

انظر إلى نفسك ما الذي يقلقك؟ إنّه ضعف التّوحيد والإشراك بالله، وما الذي يخيفك ويقبض قلبك؟ إنّه الإشراك ولا أقول: الجليّ فقط بل الخفيّ أيضاً، وما الذي يُزعِجك؟ أن تعتقد أنَّ زيداً بيده أمرك وهو لا يحبُّك، وأن تعتقد أنَّ رزقك بهذه الجهة وربما تغضب عليك، لذلك حينما توحِّد ترتاح أعصابك وتذهب عنك الشِّدَّة النَّفسيَّة، وترى أنَّك بيد أرحم الرَّاحمين.

هذه العين تُريك أناساً أقوياء يفعلون ما يقولون، والله عزَّ وجلَّ لا يمكن أن تراه بعينك في الدّنيا بل تُدْرِكه بعقلك، فالإنسان بلا جهدٍ عقليٍّ يرى شركاء مع الله بل إنَّ العالم كلَّه الآن يقول: إنَّ هذه الدَّولة قويَّة لأنَّ معها سلاحاً نَوَوياً، وبيدِها مصير العالم، فالعين الظَّاهرة تُريك الأقوياء من البشر، ولكنَّ العقل الراجح مع التَّأمل والتَّفكر والتَّدبُّر والقراءة وحضور مجالس العلم يُريك الواحد الأحد، ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

هناك دولة لها من القنابل النّوويَّة ما تستطيع أن تُدمِّر الأرض خمس مرات، لا أُنكِر أن هذه العين ترى الأقوياء من البشر، لكنَّ عقلك وإيمانك وتفكُّرك وتدبُّرك لآيات الله يُريك أنَّه جلَّ جلاله بيده كلُّ شيء؛ رؤية التَّوحيد تحتاج إلى جهد وإلى إيمان بكتاب الله وإلى يقين. واعلم أنَّ رؤية التَّوحيد لها ثمن، أمَّا رؤية العين فلا ثمن لها، وكلُّ إنسان إذا رأى بعينه يقول لك: هذا قويٌّ وذاك غنيٌّ، لكنَّك إذا قرأت القرآن، وهو كلام خالق الأكوان وفهمت آياته وتدبَّرته وصدَّقته، ورأيت الحوادث كيف تجري؛ فإنّك تستنبط أنَّ كلَّ الأقوياء عِصِيٌّ بيد الله عزَّ وجلَّ يُحرِّكها كيف يشاء، قال تعالى على لسان نبيه هود: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

إذا وقفت عند إنسان ولك عنده حاجة وهو أقوى منك فيجب أن تؤمن أنَّ خاطِره وقلبه وعينه وطريقة تفكيره وكلَّ ما يُلقى في رُوعه من إلهامات إنّما هي بيد الله وحده، فإذا أراد الله أن يرحمك ألقى في قلبه العطف عليك، وإذا أراد أن يؤدّبك ألقى في قلبه قسوةً عليك: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٩].

من الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبَّة ذاك الطفل حينما رأت طفلاً صغيراً في التابوت؟ إنّه الله، قال تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص:١٢].

فمن الذي حرَّم على هذا الطفل كلَّ هذه المراضِع؟ هو الله، هذا تحريم منع وليس تحريم تشريع، أمَّا حينما جاءت أمه التَقم ثدْيَها، فالله عزَّ وجلَّ من خلال قصة سيِّدنا موسى وسيِّدنا يوسُف يُريك أنّ الفعل بيده وحده. والله الذي لا إله إلا هو أحياناً أستمع إلى قصَّة أشعر أنّها غذاءٌ لقلبي لأنّها في دلالتها تشير إلى أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وقد يظهر فعل الله للنَّاس جميعاً وأحياناً يمتحن الله عبده بأن تظهر أفعال القويّ جليَّة واضحة ويتبادر لذهنك أنَّ هذا الإنسان يفعل ما يقول، فأين الله؟ هذا امتحان لضِعاف التوحيد، وأحياناً تبدو لك أفعال الله صارخة، فقد تسمع أنّ حريقاً التهم ثلاثين محلاً تجارياً ولم يسلم إلّا محلّ تجاريّ واحد، شيء واضح جداً أنَّ صاحب هذا المحلِّ يدفع زكاة ماله. في إحدى السنوات جاءت حمْلَة الجراد، وأعتقد أنها في الثلاثينيات، فأكلت الأخضر واليابس وأتى الجراد على كل البساتين إلا واحداً في الغوطة إذ بقي كأنَّه قطعةٌ من الجنة بأشجاره وأوراقه، فلما سألوا صاحب البستان قال: أنا أدفع زكاة مالي. إذاً أحياناً ترى فعل الله صارخاً، وأحيانا ترى فعل الإنسان صارخاً، والله في كل الأحوال هو الفعَّال، لكن يَمتَحِن ضِعاف التوحيد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه:١٥].

أحياناً يتمُّ شفاء ذاتيٌّ لمرض عُضال في حين أنَّ الأطباء جميعاً أجمعوا على أنَّ هذا الإنسان لا محالة ميّت، مرض خبيث من الدرجة الخامسة؛ تصوير وتحليل ومخابر

وخمسة أطباء؛ فإذا بالمرض ينحسر شيئاً فشيئاً ويعود المرء سليماً صحيحاً كما كان من قبل، فهذا فعل الله المباشر فالله جلَّ جلاله هو الفعَّال لما يريد.

الحكم بأنَّ الله تعالى هو الواحد يكون بالقول والعلم وبالإشارة بالإصبع، ففي الصلاة تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

التّوحيد كما قال علي رضي الله عنه «أن تعلم أنّ كلَّ ما خطر ببالك أو توهمته في خيالك أو تصوَّرته في حال من أحوالك فالله جل جلاله وراء ذلك»، والتَّوحيد أن تعلم أنَّ الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، ووحدانيته تشمل هذه المعاني كلَّها، وهو واحد لا شريك له وبصفاته متفرّد بها، وهو الرحمن ولا رحمن سواه، أمَّا أفعاله فهو القهَّار ولا قهَّار سواه، واحد في ذاته لا إله غيره، وواحد في صفاته لا رحمن غيره، وواحد في أفعاله لا قهَّار غيره، وواحد في ذاته لا يتجزّأ ولا يتناهى ليس بمتجزِّئ ولا بمتبَعِّضٍ، فالله واحد، لكنَّك تجد أشياء من جزءين أو ثلاثة فهناك آلات تُفكِّك، لكنَّ الله واحد في صفاته لا يشبِهه شيء وهو لا يُشبِه شيئاً، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وقال بعض العلماء: «الواحد هو الذي تناهى في سُؤْدَدِه، فلا شبيه له ولا شريك يساويه»، وقال بعض العلماء أيضاً: «الواحد هو الذي يكفيك من الكلِّ والكلُّ لا يكفيك من الواحد، يحتاجه كلُّ شيء في كلِّ شيء».

لو أنَّ ستة آلاف مليون إنسان ودُوَلَ الأرض كلَّها وقِواها أرادوا بك سوءاً وكنت مع الله فالله يكفيك كلَّ شيء، هو الذي يكفيك من الكُلِّ والكُلُّ لا يكفيك من الواحد، ولو أنَّ قِوى الأرض وأسلحتهم أرادوا بك خيراً لن تستطيع أن تنجُوَ من عذاب الله، لذلك كنت أردِّد لكم دائماً أنَّ الحسن البصري رضي الله عنه، حينما سأله والي البصرة عمر بن هبيرة عن توجيهٍ أتاه من يزيد بن عبد الملك، وكان تنفيذ هذا التوجيه يغضب الله عزَّ وجلَّ فقال: ماذا أفعل؟ فقال له الحسن: «إنَّ الله يمنعك من يزيد ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله»، فمهما احْتميْت بقويٍّ فهذا القوي لا يمنعك من الله، لكنَّك إذا احْتَمَيْت بالله فإنَّه يمنعك من أقوى الأقوياء، وهذا هو التَّوحيد.

وقيل: «التَّوحيد، أي أنَّ الله هو الأحد المنفرد بإيجاد المعدومات والمتوحِّد بإظهار الخَفِيَّات»، فالإنسان يصنع شيئاً من شيءٍ؛ طاولة من خشب ومركبةً من حديد، لكنّ الله تعالى يوجِد كلَّ شيء من لا شيء، وهذا الفعل لا يستطيعه إلا الله.

وقيل: «التّوحيد أن ترى أنّ الله واحد في ملكه لا يُنازِعه أحد وفي صفاته ولا يشبهه أحد»، وقيل: «الواحد هو الذي لا ثاني له في الوجود فهو المنفرد ذاتاً وصفات وأفعالاً بالألوهيّة والرّبوبيّة والأزليّة والأبديّة».

إضاءات على الآيات التي ورد فيها اسم (الواحد)

إليكم هذه الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواحد، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣٣].

يجب أن نشعر أنَّ إله إبراهيم هو إلهنا، وأنَّ إله نبيِّنا ﷺ هو إلهنا، وأنَّ إله الصّحابة الذين نصرهم على أعدائهم هو إلهنا، وأنَّ الله تعالى الذي وعدنا بالتَّمكين بالأرض وبالاستخلاف وبالأمن هو إلهنا، وهو في السماء إله وفي الأرض إله، وفي الأزل وفي الأبد، كيفَ أنَّ الله سبحانه نصر المؤمنين وجعل رايتهم تُرفْرف في مشارق الأرض ومغارِبها؟ هو الله. وهذه آية أخرى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وهذه آية ثالثة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء:١٧١].

وفي الأنعام يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٩].

وفي سورة يوسف: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف:٣٩].

قد يموت الأب وهو يملك معملاً ويخلِّف خمسة أولاد، وهؤلاء الأولاد يتسلّمون هذا المعمل، فالموظَّف الذي عندهم يتلَّقى الأمر من فلان وفلان، أمَّا إن كان للمعمل مدير واحد فالآمر واحد والمسؤولية محدّدة، ومشكلة المشاكل أن يكون لك عدَّة رؤساء تتلّقى منهم الأمر فتقع في حيرة؛ من تُرضي؟ ومن تُغضِب؟ وتهتم بأمر من؟ وتُهمِل أمر من؟ وممّن تقترب؟ وعمّن تبتعد؟ فكلُّهم أقوياء وكلُّهم يأمرونك، هذا مَثَل تقريبيّ، ولو تعامل الإنسان في الحياة الدنيا مع جهاتٍ عديدة لتمزّقت نفسه؛ إن أرضى فلاناً غضِب فلان وإن أعرض عن فلان استشاط الآخر غيظاً فيبقى في حَيرة من أمره، لكن لو كان الأمر بيد واحد لصار التَّعامل سهلاً جداً، لذلك أحد أسباب نجاح المؤمن في حياته عدم التشتت والتمزق والتَّبعْثر فكلُّ قِواه مجمَّعةٌ لإرضاء إله واحد، وفي الحديث الشّريف: «مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ الله هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ الله فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ» [سنن ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود].

قال الشاعر:

فَلَيْتَك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الوصل فالكل هَيِّن ... وكلُّ الذي فوق التراب تراب
فيا ليت شربي من ودادك صافياً ... وشربي من ماء الفرات سراب

تجد بعض الأحيان إنساناً شديد الحرص على سُمعته وكرامته؛ لكنّه قد يواجه مواقف مؤذية ففلان لا بدّ أن يعتذر منه والآخر لا بد أن يَدْعُوَه وثالث ورابع.... إلخ، فهذا ذلٌّ وتمزّق، إنما الإرضاء هو إرضاء الرَّبِّ سبحانه وتعالى، ويحاول أن يرضِيَ من رضيَ تحت مظلّة الشّرع لذلك قال سفيان الثوري: من عرف نفسه لم يضرَّه ذمُّ النَّاس

له، هو يحرص على سمعته لكنَّه لا يتمزَّق حينما يُتَّهم ظلماً، فأمُّنا عائشة رضي الله عنها اتُّهمت ظلماً والله برَّأها، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم اتُّهم بأنه ساحر وشاعر وكاهن ولكنَّ الله نصره وأعلى مقامه.

قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ ﴾.

قال تعالى: ﴿ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝١٦ ﴾ [الرعد:١٦].

وفي سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قد يجد المرء في نفسه أنَّه أقوى الأقوياء وينسى أنَّ الله فوقه، والله سبحانه وتعالى يقهره، فالله عزَّ وجلَّ قهَّار.

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢ ﴾ [إبراهيم:٥٢].

المشكلة؛ التَّبعثُر بين أقوياء، المؤمن لا يرى مع الله أحداً وعليه أن يرضيه وكفى وقال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [النحل:٢٢].

ورحمةً بعباده وإرشاداً لهم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ ﴾ [النحل:٥١].

تقول له: هذا حرام فعله، وذاك حرام بيعه، فيقول: أبي يريد هكذا! فهذا قد اتخذ أباه إلهاً، وذكر لي أخ أنهم في محلهم يزن العامل بدل الأوقية مئة وخمسين غراماً

ويتقاضون ثمن مئتي غرام، وإذا تكلمت طردني أبي!! فهذا هو الغش، وأحياناً يجعل المرء زوجته معبودَه وهو لا يدري، يخاف أن تغضب فلا يُعارِضها ولو أمرته بمعصية! قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

وأحياناً يرضي الإنسان من هو أقوى منه ويعصي الله، فهذا يعني أنّه اتخذ إلهين اثنين، حينما ترضي مخلوقاً وتعصي الله فقد اتّخذت إلهين، أنا لا أقول إنك قلت «هذا المرء هو إله» ولكنّك عاملت هذا المخلوق كما عاملت الإله، لكن أستحلفك بالله أيها القارئ الكريم وهذا مثل منتزع من واقِعنا لو كنت في خدمة إلزامية وأمرك العريف بأمر ثم أمرك اللواء بأمر آخر مخالف ونفَّذت أمر العريف فماذا تكون النتيجة؟ أليس حُمقاً؟ فما بالك بمن يطيع المخلوق ويعصي الخالق، فهذا المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، نبينا سيِّد الخلق وحبيب الخلق ﷺ والله يعلمه، ومن خلال تعليمه تتعلم الأمة، أمره الله تعالى أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

ولو انتزعت حكماً من لسان رسول الله ﷺ ولم تكن محِقاً ماذا يكون مصيرك يوم القيامة؟! عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ الحَنُ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يَأْخُذْها» [رواه البخاري ومسلم].

هذا هو الحق، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

لو أنّ طبيباً ماهراً وأقبل النّاس على عيادته، يقول لك: ليس لك عندي موعد إلا بعد ثلاثة أشهر، وهناك أشخاص أقوياء لا أمل لك بمُقابلَتِهم، أما ربنا تعالى فيقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

الآية واضحة في معناها ودلالتها، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، فأنت بحاجة إلى توحيد واستقامة وعملٍ صالحٍ كي تجد نفسك مع الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء:١٠٨].

أي ماذا تنتظرون؟ أنت بحاجة إلى موافقة ولا بد لك من سفرٍ، والسفر ضروري جداً، ومعروض عليك صفقة بالملايين، صعدت الطابق ووقفت على باب مدير الهجرة ثم انصرفت تتذلل لغيره، أليس هذا هو الحمق؟ فليس لك أن تذهب إلى من هو دون المدير وتريق ماء الوجه أمامه؟ فكيف بالله؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي ماذا تنتظرون؟ أنى تصرفون وأنى تؤفكون وما لكم كيف تحكمون؟ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

ديننا دين توحيد، وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤].

وفي سورة غافر قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

نصيب المؤمن من اسم الله (الواحد)

عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: ألا إنَّ الوَتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلاتِكُمُ المَكْتُوبَةِ وَلَكِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَوْتَرَ ثُمَّ قَالَ: «أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ الله وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ» [رواه مسلم والترمذي].

أي يحب القلب المنفرد بمحبته تعالى، فالله لا يقبل العمل المشترك ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقْبِل عليه.

والدعاء: اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي بحُبِّك حتى لا يكون لي همٌّ ولا شغل سِواك، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللهمّ إنِّ أَسْأَلُكَ بأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْت اللهُ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، قالَ: فَقَالَ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ الله باسْمِهِ الأَعْظَمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»، قالَ زَيْدٌ: فَذَكَرْتُهُ لِزُهَيْرِ بْنِ مُعاوِيَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ [رواه الترمذي وغيره].

والحقيقة أن هذا البحث في التوحيد بحث ثمين، والتوحيد علم جليل مقتبسٌ من اسم الله الواحد، ونحن ديننا دين توحيد، ونبينا ﷺ واحد، وإلهنا واحد، والحق واحد، وهناك نقطة عميقة المعنى والدلالة وهي أنَّ الله عزَّ وجلَّ ذكر النور مفرداً وذكر الظلمات جمعاً قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

والله تبارك وتعالى ذكر الصراط واحداً وذكر الانحراف متعدداً قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فالمنهج واحد، والطريق إلى الله واحد، فالوحدانية مقتبسة من أن الله واحد، ومنهجه واحد، والطريق إليه واحد، ومهما تباعد المسلمون في أقطارهم فقِبْلَتُهم واحدة، قال تعالى في وصْفِه بعض المنحرفين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

ولتعلم أيها المؤمن أنَّ سبيل المؤمنين واحدة، فالمسلم يحبُّ الله ورسوله ﷺ ولا يكذب ويغضُّ بصره ويحبُّ الخلق جميعاً ويرحمهم، وقّاف عند كتاب الله، ورحيم بأهله، ولا يأكل مالاً حراماً، وهذا حال المؤمنين حيثما وجدوا، لقد صار واضحاً ومعلوماً أنَّ ربّنا واحد، وإلهنا واحد وكتابنا واحد، والطريق المستقيم واحد، والنُّور واحد، والقِيَم واحدة والمبادئ واحدة، والأهداف واحدة، وممّا يجمعنا أُمَّةً واحدة أنّ القِبلة واحدة، ألا تعجب أنّ كلَّ مسلم في الأرض يتجه إلى مكانٍ واحد، فينبغي علينا أن نتوحّد في تآخينا ولا نتدابر، فإذا تفرَّقنا فنحن أشقى النَّاس وأهونهم.

وبعدُ فإن موضوع التوحيد هو الدّين كله، وأختِم البحث بهذه المقولة: ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل.

القهّار

سمَّى الله جلّ جلاله ذاتَه العليَّة بهذا الاسم في كثير من نصوص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد:١٦].

أما ورود هذا الاسم في السُّنَّة المطهَّرة، ففي حديث عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: قلت: يا رسول الله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسماوات وَبَرَزُوا لله الوَاحِدِ القهّار، قالت: فقلت أين النَّاس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على الصِّراط» [مسلم عن عائشة].

وورد أيضاً في صحيح الجامع الصَّغير أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا تضوَّر قال: «لا إله إلا الله الواحد القهّار ربُّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفَّار».

تضوَّر من الليل: تقلّب من جنبٍ إلى جنب أثناء النوم.

من معاني اسم الله (القهار)

«القهار» على وزن فعَّال، وهي من صيغ المبالغة، مبالغةِ اسم الفاعل، قهر، يقهر، فهو قاهر، اسم فاعل، وقهَّار صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة دائماً تعني مبالغة الكمِّ، فهو يقهر الطُّغاة مهما كثروا، و يقهر أكبر طاغية مهما بلغ.

أما الفرق بين القاهر و «القهّار» فالقاهر هو الذي له علوُّ القهر، بأي مكان، بأي مؤسسة، بأي دائرة هناك رجل قوي، قد يكون هو المدير العام، وقد يكون إنساناً آخر، لكنّ هناك شخصاً أمره نافذ، لا أحد يستطيع أن يعارضه، هذا الرجل بمعنى «القهار»، أي إرادته نافذة.

فالله قاهر لأنَّ له علوَّ القهر الكليِّ المطلق على جميع المخلوقات، وعلى اختلاف تنوُّعهم، فهو القاهر فوق عباده، والبطولة أن تكون مع القويِّ، فإذا كنت مع القوي فأنت قويٌّ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، لكنَّ التَّوكل على الله لا يكون إلا بأن تكون مستقيماً على أمره، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس قاطبة فتوكّل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثقَ منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وأسماء الله الحسنى لا تتغير في مستوياتها، فالطَّبيب أحياناً يكون لديه معلومات محدَّدة فيعالج مريضاً في ضوء معلوماته، وبعد حين ينال شهادة أعلى فتصبح معالجته أعمق في ضوء ما كسبه من علم جديد، فكلَّما ارتقي علمه ارتقى مستوى معالجته، فهذا ينطبق على الإنسان، لكن لا يجوز أن ينطبق على الذّات الإلهيَّة، فأسماء الله الحسنى لا تفاوت فيها، فقد يأتي اسم غير مبالغ به كالقاهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾ [الأنعام:٦١].

وقد يأتي بصيغة المبالغة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر:١٦].

فأسماء الله الحسنى إذا وردت بصيغة المبالغة فالمقصود منها التكرار وليس النوع لأن مستوى أسماء الله الحسنى لا يتبدَّل.

فالله عز وجل حكيم في خلق النملة وفي خلق المجرة، حكيم، بالنسبة نفسها، في خلق أصغر المخلوقات وفي خلق أكبرها، عليم بكل شيء، أسماؤه من حيث المستوى ثابتة لا تتبدَّل، فإذا تبدلت فبحسب المخلوقات لا بحسب الخالق، ولكن إذا ورد اسم مبالغ به فهو لمبالغة التكرار.

الإنسان أحياناً يحارب عدواً ويقهره، وقد لا يتمكن أن يقهر عدواً ثانياً أو ثالثاً، أمَّا ربُّنا الواحد القهّار فيعني أنَّ كلَّ المخلوقات مقهورة بالنسبة إليه، وبشكل دائم ومستمر.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

والله غالب على أمره، هذا مغزى قصة سيدنا يوسف ﷺ، هذا المغزى الموجَز، والقصَّة بأكملها في تفصيل هذا المغزى.

قصة أخرى يتجلى فيها اسم القهّار، سيِّدنا موسى مع فرعون، فرعون الذي أراد أن يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ليمنع تحقُّق رؤيا قد رآها، وهي أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فالله عز وجل قهره بأنَّ الطِّفل الذي سيقضي على ملكه ربَّاه في قصره، والحقيقة أنَّ كلَّ أفعال الله عزَّ وجلَّ تصدر عن أسمائه، أو أن أفعاله كلَّها فيها أسماؤه كلُّها، وهذا ما يدعو إلى تفسير بعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن ذات الله بضمير المفرد وبعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن أفعال الله بضمير الجمع.

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه:١٤].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ق:٤٣].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣].

فإذا جاء الضَّمير مفرَداً فللتعبير عن ذات الله، وإذا جاء جمعاً فللتعبير عن أنَّ أسماء الله الحسنى جميعَها واردةٌ في أفعاله، وأحياناً ربُّنا عزَّ وجلَّ يجمع أسماءه بإيجاز، فمثلاً: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

فالجلال صفة تُشعر بالعظمة، والإكرام صفة تُشعر بالعطاء، فأنت في حياتك اليومية قد تتعامل مع إنسان تعظِّمه ولا تحبُّه وقد تتعامل مع إنسان تحبُّه ولا تعظِّمه، والبطولة أن تجمع بين التعظيم والمحبَّة، فربُّنا -عزَّ وجلَّ- هو في جلال ورفعة وعظمة وعلوِّ شأن وكبرياء وجبروت وقهر وقدرة وغنىً، وهو كذلك رحيم لطيف ودود كريم عفوٌّ غفورٌ، هناك أسماء متعلقة بالجلال، وهناك أسماء متعلقة بالإكرام، وقد وردت هذه الأسماء في آيتين، قال الله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧].

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

روى الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنّان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم! أسألك، فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى».

يقول الله عز وجل: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

الإنسان يعجب!! هذا كلام الله، فَلِمَ يقول الله: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣] ألا إلى الله تصير الأمور، فهي أين كانت؟ بيد من كانت؟ فإذا قلنا: صار الأمر في هذا الموضوع إلى زيد يعني أن زيداً لم يكن الأمر بيده من قبل؛ فالواقع أنَّ معظم الناس في غفلة عن الحقيقة، فعامَّة النَّاس يرون أنَّ الأمر بيد الأشخاص، وأنَّ

القرار بيد فلان، أو صانع القرار فلان، وفلان هذا يفعل، يقولون مثلاً: «إذا رفعك فلان يرفعك إلى السماء، وفلان إذا غضب جعلك في أسفل سافلين»، هذا كله شرك، هذا الوهم الأعمى، ففي يوم القيامة جميع المخلوقات ترى أن الملك لله الواحد القهّار، لكن في الدنيا لا يرى هذه الرؤيا إلا المؤمن أما في الآخرة فهذه الرؤية عامّة شاملة.

وفي كتاب «المستطرف» للأبشيهي أنَّ كعب الأحبار وجد كلمات مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: «عبدي خلقت لك السموات والأرض ولم أعْيَ بخلقهن، أيعييني رغيف أسوقه إليك كلَّ حين. لي عليك فريضته ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك. وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً».

هذا الأثر يعطي معنى القهّار، أمر الله هو النافذ، الأمور كلُّها تدور وتدور، ولكنَّ أمر الله هو النافذ كيفما دارت الأمور ومهما تقلَّبت.

هناك أشخاص يقرؤون بعض الكتب، التي تتحدث عن مكر اليهود في العالم، يقولون لك: هذا المخطط يهوديّ.

اليهود بشر يخططون ويمكرون، وهم من أخبث خلق الله مكراً وخداعاً، ولكنَّ الفعل ليس إليهم، الفعل فعل الله، فإذا آمنت بأنهم فعَّالون، وأنَّ كلَّ ما يجري في العالم من تخطيطهم فقد ألّهتهم وأنت لا تدري، لكن أحياناً يقع في الأرض شيء ممَّا خططوه فهم خططوه وقل: إنَّ خطَّة الله استوعبت خطَّتهم، فالله عزَّ وجلَّ قد يوظِّف مكرهم في تأديب بعض العباد بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٢٩].

حينما تقول: فلان يفعل، فقد وقعت في الشِّرك وأنت لا تدري، والصَّواب أن تقول: والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

القهر في اللغة يعني الغلبة، قهره أي: غلبه، أو صرف الشيء عن طبيعته، وهي طبيعةٌ قويَّة قهريَّة، وجعلتَه ضعيفاً على سبيل الإلجاء، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾ [الضحى:٩].

لعلك تعلم أيها القارئ العزيز أن لله عز وجل أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال، وقد قال العلماء: القهر قدرة على وصف مخصوص، كما أن الرحمة إرادة على صفة مخصوصة، والقاهر هو القادر على منع غيره أن يفعل بخلاف ما يريد، فالقدرة صفة لله عز وجل في ذاته، قدرة على نحو مخصوص يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون، مشيئته هي النافذة، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، واسم القهّار له علاقة وشيجة بالتوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

فإذا قلنا: إن اسم القهّار هو قدرةٌ على نحو مخصوص من أسماء الذات، إذا قلنا: هو فعلٌ يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون فهو من أسماء الأفعال.

قال بعض المحققين: إنه قهار للعدم، فالعدم ما سوى الله عزَّ وجلَّ، ما سوى الله كان عدماً فأوجده الله فهو ممكن، وهذا الشيء الموجود بقدرة الله عز وجل لا يستمر وجوده إلا بقدرة الله، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١ ﴾ [فاطر:٤١].

السموات والأرض هذا تعبير قرآني عن الكون، الكون كلُّه كواكب ونجوم ومجرَّات، الكون كلُّه يتحرَّك، ولو لم يكن متحرِّكاً لأصبح الكون كلُّه كتلة واحدة والدليل أنَّ هناك قوى التجاذب بين الكواكب والنّجوم والمجرَّات والمذنبات، فالنَّجم الأكبر يجذب الأصغر، وهذا الجذب يتناسب مع الكتلة ومع مربع المسافة، والقانون معروف «جداء الكتلتين مضروب بمربع المسافة» هذه قوة الجذب، قوة الجذب لا تُرى بالعين كما لو جئت بمغناطيس، ووضعت مسماراً، وحركت المغناطيس يتحرك المسمار، فهناك قوة جذب، وقوى التجاذب هذه أودعها الله في الكون لحكمة بالغة، فلو لم

يتحرّك الكون لأصبح كتلة واحدة، فالكوكب الأكبر يجذب الأصغر، فما الذي يمنع؟ فمثلاً أمسك وعاء ماء وحركه حركة دائرية سريعة فإنك تستغرب!! فحينما كان في الأعلى وفيه ماء فلماذا لا ينزل الماء؟ فقوة النبذ تمنعه من النزول، وكثير من الآلات أساسها القوة النابذة كتجفيف الثياب في الغسالات، وآلات عصر الفواكه... إذاً مع الدوران تنشأ قوة نابذة، هذه القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، فلولا أن الكون يتحرك لأصبح كلُّه كتلة واحدة.

الأرض تدور حول الشمس منذ ملايين السنين ولم تنجذب إلى الشمس قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

معنى: ﴿أَن تَزُولَا﴾، يعني: أن تنحرف كلٌّ منهما عن مسارها، والذي قهر هذه النجوم وجعلها تبقى على مسارها هو الله عَّز وجلَّ، فالله عزَّ وجلَّ قهَّار للعدم، فهذا الشيء الذي خلقه أصله لا شيء، إذاً هو أصله العدم سبقه العدم وينتهي إلى فناء، كل شيء يسبقه العدم وينتهي إلى فناء فهو ممكن، أما الله سبحانه وتعالى فهو واجب الوجود، لا أول له ولا آخر له، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

ربنا سبحانه وتعالى قهار للعدم، بمعنى أن هذا الممكن ممكن بقدرة الله، وممكن بإمداد الله، وممكن بتسيير الله، وفي أي لحظة يوقف الله عز وجل عن هذا الممكن تجليه وإمداده ينعدم الممكن، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

يعني قيام كل شيء في الكون بالله عز وجل.

أول معنى يستفاد من معاني القهر أن الله عز وجل قهر الممكن، وجعله قائماً، جعله مستمراً، جعله موجوداً، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

لو تُرك وحده لكان معدوماً، فكأنَّ جوهر الممكن هو العدم ولولا قدرة الله القاهرة في الممكن لما كان هذا الممكن موجوداً.

فأنت وجودك بالله عز وجل، والدليل أجهزة الإنسان، دماغه مثلاً مئة وأربعون مليار خلية، الإدراك، الإحساس، الذاكرة، المحاكمة، التّصور، التّخيل، الغدد الصَّماء، كلُّ هذه الأجهزة أساسها أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُمدّك، وينقطع الإمداد عن الإنسان عند الموت.

وازن بين إنسان في أوج نشاطه، يتحرّك، يفكّر، يحاكم، يتصرّف، يرى، يسمع، يشمّ، يلمس، يأخذ مواقف، ينشئ مشاريع، يترك بصمات في المجتمع وبين جثة هامدة، الفرق بين الجثة الهامدة وهذا الإنسان الممتلئ نشاطاً وحيويةً هو الإمداد الإلهي، هو القهّار، الله عز وجل قهر المادة فجعلها تفكِّر، وتسمع وتعقل وترى وتشمّ وتبصر وتمشي وتتحرك وتغضب وتفرح وتحزن، لو أن إنساناً وضع على ميزان قبل أن يموت بدقائق ومات فلا يخسر عند الموت شيئاً من وزنه، هي قوة الله عز وجل، هذه الروح هي سرُّ حياته، ولما سلبت منه عاد إلى ماديّته فقط.

قال بعض المحققين: القهّار للعدم والوجود، لأن الممكن لو ترك وحده لكان معدوماً، فكأنَّ ماهية الممكن تقتضي العدم إلا أنّه سبحانه وتعالى منزَّه، يقهر هذه الحالة ويبدِّل العدم للوجود.

مثلاً الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة، هذا عمر مديد، وللشمس طاقة لا تخبو، هل عندنا على الأرض مصدر طاقة لا يخبو؟ شخص ملأ خزان الوقود في سيارته بعد مئتي كيلومتر ينفد، أمّا هذه الشمس فهي من خمسة آلاف مليون عام لا تنفد ولا تنتهي، هذا المعنى الأول، يعني بدّل العدم وجوداً واستمراراً إلى حين.

المعنى الثاني: إنَّ أصغر كوكب في الفلك أضعاف جرم الأرض، ثم إنَّ هذه الأفلاك مع ما فيها من كواكب يمسكها الله تعالى بقدرته معلقةً في الهواء كما قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

بعض العلماء يقولون: في الحياة أربع مواد أساسيَّة هي الماء والهواء والنّار والتّراب، وهذه كلها متنافرة والله سبحانه وتعالى بقوته القاهرة ألَّف بينها، من معاني قهره أنَّه ألَّف بين المتنافرات، فأنت لا تستطيع أن تجعل البحر يحترق، والبحر ماء، لكنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ [الطور:٦] سجر النار يعني أشعلها، كيف؟ أنت بالماء تطفئ النار، لكنَّ هذا الماء مكوّن من هيدروجين وأكسجين، الهيدروجين من أشدِّ العناصر احتراقاً، والأكسجين من أشدِّ العناصر مساعدةً على الاحتراق، والمحصِّلة ماء يطفئ النار، فالله عزَّ وجلَّ بقدرته يجعل من هذا البحر ناراً، فمن معاني قهر الله عزَّ وجلَّ أنَّه يؤلف بين الأشياء المتنافرة، وهذه العناصر الماء والهواء والنَّار والتُّراب كلُّها متنافرة ومع ذلك تأتلف في المخلوقات. وهذا هو المعنى الثالث.

شيء آخر، إن الرُّوح جوهر لطيف، روحانيّ نورانيّ والبدن جوهر كثيف مظلم وبينهما منافرة عجيبة، ومع ذلك أسكن الله الروح في هذا الجسد بقهره.

مثلاً إن كان لديك معدن تريد صقله؛ فيقال لك: إنَّ هذا المعدن لا يلتحم بلحام ألمنيوم يحتاج إلى لحام خاص، فهل يلتحم الألمنيوم بلحام حديد؟ طبعاً لا؛ لأنهما متنافران، فالله عزَّ وجلَّ جعل الروح نورانيَّة خفيفة سماويَّة، وجعل الجسم مُنشَدّاً للأرض، ومع ذلك ألَّف بينهما في هذا الإنسان، فالإنسان جسد ونفس، أحياناً تتلألأ نفسه ويبدو هذا على وجهه، وأحياناً تظلم نفسه، ويبدو هذا على وجهه. فالإنسان كائن فيه عنصر سماويّ وعنصر أرضيّ، لكنَّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة:٣٨].

يعني اتَّجهت نحو الأرض، اتجهت نحو الشهوات، نحو الدنيا.

المعنى الرابع من معاني القهّار: أنَّ الله تعالى يذلُّ الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض، فترى ملكاً من كبار الملوك عقيماً وهو يحبُّ زوجته، فهو يدفع ألوف الملايين على أن تنجب فلا تنجب.

ملك ثانٍ يصاب بمرض، ولا يشفى منه ولو بذل الغالي والرخيص، فمن معاني القهّار أنَّ الله قهر العباد كلَّهم بالموت، لا نبي ولا رسول، ولا قوي ولا غني، ولا صحيح، ولا مريض ولا فقير، ولا رفيع ولا وضيع، ولا ملك ولا وزير، إلا ويموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠] والنبي ﷺ يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» [رواه البخاري وأحمد من حديث عائشة].

الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض وتارة بالنكبات وأخيراً بالموت.

المعنى الخامس: إن العقول مقهورة عن الوصول إلى كنه صمديته والأبصار مقهورة عن الإحاطة بأنوار عزَّته، فإياك أن تقول: أنا أدرك عظمة الله لأنَّ من معاني الإدراك الإحاطة، فإذا أمسكت شيئاً صغيراً تعرف طوله وعرضه ووزنه، عقلك يصل إلى الله، لكنَّك لا تستطيع أن تحيط به، لأن الله عزَّ وجلَّ لا يعرفه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

عقلك يصل إليه وتعرفه بالقدر الذي يشاء، فعقل الإنسان مقهور عن إدراك كنه صمديَّته، فالإنسان العاقل لا يطمع أن يجيب عن كل سؤال متعلق بالله عزَّ وجلَّ فليس معناه أنَّه جاهل.

سأل إنسانٌ آخر عن البحر فقال: هذا البحر كم يساوي من الليترات؟ نظر إليه وقال: هذا أمر بسيط ثمانية وستون مليون وسبع مئة وستة وستون لتراً، فهذا يكون

جاهلاً ما دام أعطى رقماً، قال لك: كم لتراً حجم هذا البحر؟ وليس لديك حجوم ولا مقاييس لأعماق البحار، فلو سُئلت: كم حجم هذا البحر؟ فإذا أعطيت رقماً كنت جاهلاً، وإذا قلت: لا أدري كنت عالماً، كلمة لا أدري هي العلم، وكلمة أدري هي الجهل، لذلك قالوا: عين العلم بالله هو عين الجهل به، وعين الجهل به هو عين العلم به، فكلما قلت: أدري، وكل سؤال له عندي جواب، وأنا أعلم كلَّ شيء، فهذا دليل قطعي على أنَّك لا تعلم، هذا ما يتعلق بذات الله عز وجل، فلا أحد يمكن أن يحيط بها.

المعنى السادس: ربُّنا قهَّار فهناك حوادث لا تعلم كنهها فقل: سبحان الله! لا أدري ما حكمتها.

بلد وقع فيه زلزال قُتِل فيه تسعون ألفاً، هناك حكمة، ولكن لا أعرفها، فعقلي قاصر عن إدراك الحكمة، ليس من المفروض أنَّه كلَّما وقع أمامي مشكلة أن أعطي التفسير البسيط، قد يكون التفسير البسيط ساذجاً، فإذا قلت: إنهم أصيبوا بسبب معاصيهم، فهذا الكلام ليس عامّاً، فالمؤمن أحياناً يُبتلى، فالأكمل ألا تدَّعي أنَّك تعرف كلَّ شيء، ولا تعرف خباياه، فمثلاً مرض الإيدز إن قلت: إنه بسبب انحراف السلوك الأخلاقي وهو عقاب عاجل للعصاة، للفجار، ممكن، لكن هناك أشياء صعب تفسيرها، فمثلاً: لماذا هذا الشعب فقير؟ لعل الله عز وجل اقتضت حكمته ذلك.

المعنى السابع والشامل، إن جميع الخلق مقهورون لمشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

مثلاً عندك مئة جهاز في البيت كهربائيات، وعندك مفتاح الكهرباء الأساسي فإذا أغلقته فسوف تتوقف كلُّ الأجهزة، البرّاد والغسّالة... إلخ، فالقوى المحرِّكة بيد الله عزَّ وجلَّ، لا يستطيع إنسان أن يتحرَّك إلا بمشيئة الله، إذاً هو القهّار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وبالجملة لا ترى شيئاً سواه إلا مقهوراً له تحت أعلام عزَّته، ذليلاً في ميادين صمديَّته، هناك معانٍ أخرى للقهَّار، بعض العلماء يقول: «القاهر هو الذي قهر نفوس

العابدين»، ولله المثل الأعلى تكون فتاة جميلةٌ جداً، والخاطب غارق إلى قمة رأسه في حبِّها، فتتحكَّم فيه لجمالها، وكذلك صاحب القوّة كقوّة المال، يتحكم في الضعفاء، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

كل القوى مصدرها من الله عزَّ وجلَّ، إذا أقبلت على الله تسعد أضعاف ما يسعد من أحبُّوا أناساً من بني جنسهم، إذا أقبلت على الله تغنى أضعاف ما يحس به الأغنياء في الدنيا، إذا أقبلت على الله تشعر بقوةٍ أضعاف ما يشعر بها الموالون للأقوياء.

القهّار هو الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، العباد لما أقبلوا على الله، وصلوا، سعدوا، فحبسوا أنفسهم على طاعته، فالله قهرهم بجماله، قهرهم بكماله، قهرهم بتجليه، فالمحب لم يعد يريد من الدنيا شيئاً.

فما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكرام

شاب تعرَّف على فتاة في دمشق فخاف أهله أن يقع في شباكها فأرسلوه إلى بلد أجنبي بعيد جداً ليدرس في الجامعة، وأعطوه قسط الجامعة، وكان مبلغاً كبيراً، أنفق كلَّ هذا المبلغ على مكالمات هاتفيَّة ليتصل بها، فهي قهرته بجمالها.

فلو عرفت الله عزَّ وجلَّ لقهرك جماله، ولقهرك كماله، فالقهّار هو الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، وهو الذي قهر قلوب الطالبين فآنسها بلطف مشاهدته.

نصيب المؤمن من اسم الله (القهار)

إنَّ المؤمن حقاً يعرف القهّار، فمتى يكون ذلك؟ إذا عرف حجم عبوديته، فمن عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه عرف نفسه، كلمة سأفعل كذا وكذا، وسأعطي وسأمنع، هذا كله يبتعد عنه المؤمن لأنه يتنافى مع اسم الله القهّار.

ولكن يمكن أن يكون المؤمن قهاراً بمعنى خاص، أن يقهر شهوته، وأن يقهر متعلَّقات شهوته، لأنَّ شهوته هي أعدى أعدائه، فإذا قهر ميله وشهوته وهواه فمعنى ذلك أنه انتصر على ذاته، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فكلُّ إنسان ينساق مع شهواته وميوله وأهوائه، يتكلّم كلاماً لا يرضي الله عزَّ وجلَّ، يغتاب الناس، يأخذ ما ليس له، فمعنى ذلك أنه ينساق مع شهواته ومع رغباته، فهو مقهور لشهوته.

إذاً عليك أن تقهر شهوتك التي هي أعدى أعدائك، إن فعلت هذا فقد حققت في نفسك هذا الاسم العظيم، بهذا الاسم تعرف ربك، وبهذا الاسم تتخذ السبيل إلى طاعته ومحبته ومرضاته.

الكبير

ورد هذا الاسم مقترناً باسم المتعالي في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾ [الرعد:٩].

وقد ورد أيضاً مقترناً باسم العليِّ في عدَّة مواضعَ منها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾ [الحج:٦٢].

وقد ورد أيضاً في السّنّة الصحيحة في صحيح البخاريّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماءِ ضرَبت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعانا لقوله، كأنه سِلْسِلةٌ على صفوان فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهِمْ قالوا: ماذا قال ربُّكُمْ؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فَيَسمعُها»

مِنْ معاني اسم الله (الكبير)

الكبير من صيغ المبالغة على وزن فعيل، كبِر يكبَر كبراً فهو كبير، والكِبَر نقيض الصّغر، وكبُر بالضّمّ أي عظُم.

كلمة كبير تستخدم للأشياء المتّصلة والأشياء المنفصلة، ويكون الكبر في اتّساع الذّات وعظمة الصِّفات، فقد ترى إنساناً صغير الجسم، قصير القامة، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، مائل الذقن، أحنف الرجل، وهو إنسان كبير، وقد ترى إنساناً عظيم الهيئة، طويل القامة، عريض المنكبين، وهو عالم كبير، قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء:٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:٥٢].

فسمّى الله تعالى جهاد الدعوة إلى الله، جهاد تعليم القرآن، جهاد تبين السنة، جهاد تبين الأحكام الفقهيّة، جِهَاداً كَبِيراً، والجهاد على مستويات، أولها جهاد النّفس والهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

لذلك أثر عن إبراهيم بن أبي عبلة أنّه قال حينما عاد من غزوة: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهادِ النفس والهوى.

والجهاد الثاني هو الجهاد الدعوي.

ثم الجهاد البنائيّ ويعني أن تسهم في بناء الأمة، أن تكون لك بصمة في الحياة.

ثم الجهاد الرابع وهو الجهاد القتالي نصرة للدين وإعلاء لكلمة الله في الأرض

لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت. لهذا قالوا: ذنب المنافق كالذّبابة بينما ذنب المؤمن كجبل جاثم على صدره، وكلّما عظُم الذّنب عندك صغُر عند الله، وكلّما صغُر عندك عظُم عند الله، فهناك مذنب وهناك من يضيف إلى ذنبه ذنباً آخر وهو عدم الاهتمام بهذا الذنب.

«وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً» [الترمذي عن أبي هريرة].

والكبير هو الذي كبر وعلا في ذاته، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

وهو الكبير في أوصافه، فلا سميَّ له ولا مثيل ولا شبيه له ولا نظير، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

وهو الكبير في أفعاله فعظمة الخلق تشهد بكماله وجلاله قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

وهو سبحانه وتعالى متَّصف بالكبرياء ومن نازعه ذلك قصمه وعذّبه، لأن الله عز وجل يقول: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [أبو داود، ابن ماجه، أحمد عن أبي هريرة].

لو اجتمعت قوى الأرض وتضافرت وتعاونت وتآمرت على أن تفسد على الله هدايته لخلقه فإنها لا تستطيع، لا تقلقوا على هذا الدين، إنّه دين الله، بل ينبغي أن نقلق على أنفسنا ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له.

المعنى الأول المتبادر لاسم الكبير أنّه في مقابلة الصّغير، هذا شيء صغير، وهذا شيء كبير، وهذا أكبر... إلى آخره، قاسيون جبل، لكنّك إذا وازنته بجبل الشّيخ فجبل

الشّيخ أكبر، وإذا وازنت جبل الشّيخ بجبال الألب، فجبال الألب أكبر، وإذا وازنت جبال الألب بجبال الهملايا فجبال الهملايا أكبر.

الكبير يقابله الصغير... موظّف بسيط في دائرة لا بأس به، لكنّه أمام المدير العام صغير، والمدير العام أمام الوزير صغير، هناك مراتب في السلطة، يوجد موظّف عنده صلاحيّات وموظّف صلاحياته أكبر، معلّم الصّفّ أمام المدير صغير، مدير المدرسة أمام مدير التّربية صغير، لأنّ مدير التربية يشرف على محافظة بأكملها، ومدير التربية أمام وزير التربية صغير، فالكبير بهذا المعنى: ما يقابل الصغير.

إنسان يملك مئة ألف، هو أمام صاحب المليون صغير، ومبلغ المليون أمام المئة مليون صغير، ومبلغ مئة المليون أمام الألف مليون صغير، لكنَّ هذا المعنى لا يستقيم في ذات الله عزَّ وجلَّ لأن الله عزَّ وجلَّ تعالى عن المقدار والحجميّة، ليس له مقدار وليس له حجم، فالله منزّه عن أن يكون له حيّز أو جهة أو مقدار أو حجم؛ ليس بمتجزِّئ ولا مُتبعِّض ولا بمُتناهٍ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

إذاً: ما معنى الكبير في حق الله عزَّ وجلَّ؟ قالوا: هناك الكبير في الدرجات العقلية، فمثلاً قد تلتقط صورة لمجموعة أشخاص، وقد يكون أقوى إنسان بهذه الدائرة، أو أقوى إنسان بهذه المجموعة، وزنه خمسة وخمسون كيلو، وإلى جانبه معاونه ووزنه مئة وثلاثون كيلو فأيهما الكبير؟ الصغير بحجمه هو الكبير، إذاً عندنا كبير بحسب الحجم وبحسب الوزن، وعندنا كبير بحسب القوّة وبحسب العلم، فربنا عزَّ وجلَّ إذا قلنا: كبير، تعالى عن أن يكون له حيز أو حجم أو مقدار، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الكبير المطلق، المنزّه عن النّقائص سبحانه، ليس كمثله شيء.

المعنى الثاني لكلمة كبير: يعني كبير بمعنى أنه كَبُرَ عن مشابهة المخلوقات، يعني الله عزَّ وجلَّ أكبر من أن يشبه خلقه، وأكبر من أن يشبهه أحد من خَلْقه، وكلّ ما يخطُر ببالك فالله بخلاف ذلك، كلمة كبير في حق الله عزَّ وجلَّ أنّه ليس كمثله شيء، هو أكبر من ذلك.

لذلك لا يجوز مثلاً أن يظهر النبيّ ﷺ ولا غيره من الأنبياء في عمل فنيّ، لأنّ الذي سيقوم بدوره إنسان عاديّ، والنّبيّ أكبر من ذلك، وأعظم من ذلك، هنا معنى الكبير يعني مُنزّه عن أن يشبه خلقه.

أمّا الأكبر؛ فيعني أنّ الله عزَّ وجلَّ هو أكبر من كلِّ خلقه، وهنا شيءٌ بديهي، لكنَّ الإنسان قد يتجه إلى بعض المخلوقين تعظيماً لهم، فإذا أخبرناهم أن الله أكبر من هذا الذي تعبدونه أو تعظمونه من دون الله فليس القصد أن نقيم موازنة بين الله وخلقه، ولكنَّ القصد أن نصرف هذا الإنسان عن الشّرك إلى التّوحيد، وعن الاتجاه إلى ما سوى الله ونصرفه فقط إلى الاتجاه إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنّ كلّ مَنْ دونه لا يوازن به، فإذا ذكرنا معنى الكبير من هذه الزاوية فلِكيْ نوحّد الله ولا نُشرك به شيئاً.

لكن المعنى الآخر، كلمة الأكبر، يعني أكبر مما عرفت، فمهما تعرّفت إلى الله عزَّ وجلَّ فهو أكبر مما تظنّ، مهما تخيّلت قدرة الله عزّ وجلَّ فهي أكبر مما تخيلت، مهما تصورت رحمة الله عزَّ وجلَّ فهو أكبر رحمةً مما عرفت، هذه كلمة «الله أكبر».

نحن نبدأ الصلاة بقولنا: الله أكبر، أي: إذا أردت أن تصلي وساورتك وساوس وانشغلت بها، فإلى أين أنت ذاهب؟ الله أكبر، فمثلاً إذا دخل الإنسان –فرضاً من باب التمثيل– إلى غرفة وزير، فإنَّ رفعةَ منصبه، وكِبَرَ شأنه يدعو مَن عنده إلى النظر إليه لا إلى سواه، أي أنه قلَّ ما تجد إنساناً في حضرة عظيم يتشاغل عنه بسبحة أو بجريدة أو بحاجة، أو بنظر إلى أطراف الغرفة، فإذا كنت في حضرة إنسان له قيمة فلا بدَّ أن تتّجه إليه، فهذا معنى قول: «الله أكبر» أي: اتّجه إلى الله عزَّ وجلَّ، والمعنى الأعمق من ذلك أنّه جلّ جلاله أكبر ممّا عرفت.

من قوانين النَّفس الإنسانيَّة أنَّها لا تُقبل إلا على كبير، وإلا على عظيم، لا تختار إلا الكبير، لا تُعجَب إلا بالعظيم، هذا من خصائص النَّفس البشريَّة، لذلك حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزَّ وجلّ ترتاح نفسه لأنَّ فطرتها كذلك، اختارت الكبير، اختارت الملك، اختارت العظيم، اختارت الرَّحيم، اختارت القويَّ، اختارت العليم،

اختارت السَّميع، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

هناك توافق بين خصائص النَّفس البشريَّة وأسماء الله الحسنى بمعنى أنَّ في جِبلَّتِكَ تعظيماً للكبير، والله هو الكبير، وأنّ في جِبلَّتِكَ ميلاً إلى الرحيم، والله هو الرحيم، وأنّ في جِبِلَّتِكَ إقبالاً على الكريم، والله هو الكريم، فكلُّ أنواع الاضطراب وأنواع الضياع وأنواع التَّشتُّت تتبدَّدُ إذا تعرَّفْتَ إلى الله عزَّ وجلَّ وتطمئنُّ بعدها نفسُك، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وإنّي لأقول دائماً وأُردِّد: ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويبحث عن شيئين: سلامته، وسعادته، ولو عَلِمَ الإنسان أن جِبِلّتَهُ، وطبيعته، وخصائص نفسه، ومبادئ تركيبه، قائمةٌ على حُبِّ الكمال، والله هو الكامل كمالاً مطلقاً، لاتَّضحت له الحقيقة، وانتهى كلُّ إبهام، فما الذي ينفّر النَّفس؟ أن تتوقَّع الكمال في جهة ثم تُفاجأ بأنَّها ليست أهلاً لذاك، هؤلاء الذين يتعلَّقون بأشخاص ادّعوا الكمال وهم ليسوا كذلك يصابون بنكسةٍ كبيرةٍ جدّاً في حياتهم، لكن إذا تعلّق الإنسان بالله عزَّ وجلَّ لن يُفاجأ بأنَّ الله ليس كما اعتقد فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٥٦].

وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المدثر:٥٤].

فالدِّين يُذكّر بأصول الفطرة ويجلّيها، فالسيَّارة مثلاً، مصنَّعة لتسير على طرق معبَّدة، كلُّ شيء فيها منتظَم، ترتاح في قيادتها، ترتاح في تحريكها، تتملَّك زمامها، إذا هي سارت على طريق معبَّدة، فإنَّها صنعت لهذا الطريق، وصُنع هذا الطريق لها، لكن حينما تخرج عن الطرق المعبدة، تشعر باضطراب، بخلل، باختلال توازن، بأصوات، بعثرات، بمتاعب لا حصر لها، أريد أن أقول: إذا عرف الإنسان اللهَ عزَّ وجلَّ اهتدى

إلى فطرته، ووجد نفسه، وقال بعض الحكماء: وجدتُ نفسي حينما تعرفت إلى ربّي، خصائص النَّفس أساسها أنّها تطمئنُّ إذا عرفت العظيم، لاحظ نفسك، في مجلس مع أشخاص متعدّدين، وفيهم شخص متكلّم متألّق ذكيٌّ قويٌّ، فإنَّك تجد نفسك طوال السَّهرة متجهاً إليه وأنت لا تدري، قد تُغفل كلَّ الحاضرين، قد لا تعبأ بهم، قد لا تنظر إليهم، فإذا أيقنتَ أنَّ الله هو الكبير وهو العظيم وهو الرَّحيم وأنَّ أسماءه كُلَّها حسنى توجَّهت إليه وحده، ما الدِّين في حقيقته إلّا التفات إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن الكافر إلا الذي أعرض عن الله وتوجّه إلى ما سِواه، هذا متّجه إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكِحها، أو مالٍ يجمعه، أو منصبٍ يُحصِّله، أو وَجاهة يحقّقها، وهذا المؤمن متّجهٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء:٢١]. فالممرِّض غير الطَّبيب، والجنديُّ غير اللواء، والبائع المتجوِّل غير التَّاجر الكبير، فالتُّجَّار درجات، وأهل العلم درجات: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

أمّا يوم القيامة فعدد الدَّرجات أكبر، والمسافات بين الدَّرجات أكبر، نحن في الدنيا يستوي عظيم الشأن مع حقير الشأن في الطَّعام والشَّراب فكلُّنا تُشبِعُهُ لقيمات، كلّنا يرتاح إذا دخل غرفة دافئة في الشّتاء، هناك قواسم مشتركة كثيرة جداً بين أنواع الناس وأقسامهم، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يبيِّن أنَّ مراتب الآخرة كثيرة جداً ومتفاوتة جداً، ومراتب الدّنيا لا تعني شيئاً لقرب زوالها وتحوّلها، لكنّ مراتب الآخرة تعني كلَّ شيء لدوامها وبقائها، مراتب الدّنيا تحول وتزول بالموت، عند الموت يستوي الغنيّ والفقير، يستوي الصَّحيح والمريض، يستوي الوسيم والدّميم، يستوي القويُّ والضَّعيف، يستوي كبير القوم وصغيرهم، يستوي سراةُ الناس وصعاليكهم، إذاً هذه الدَّرجة التي تبوّأها لا تعني شيئاً، لأنّها لا تدوم، وقد يكون عظيم الشأن في الدنيا فقيراً عند الله، وقد يكون عظيم الشأن عند الله في حياة خشنة، ودخله محدود، بيته صغير، وعياله كُثُر، زوجته

ليست كما يريد، قد يكون ذلك، ولكنَّ علوَّ الدَّرجات في الآخرة يعني المقام السامي، إنّها تعني مرتبته الحقيقيّة عند الله عزَّ وجلَّ، إنّها تعني الخلود في هذه المرتبة إلى أبد الآبدين، لذلك قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

عنِ ابْنِ عُمَرَ قالَ: بَيْنَما نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إذْ قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالحَمْدُ لله كَثِيراً، وسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وأَصيلاً، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنِ القائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وكَذَا؟» قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أنا يا رَسُولَ الله قالَ: «عَجِبْتُ لَها فُتِحَتْ لَها أَبْوابُ السَّماءِ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ [صحيح مسلم].

هذه الكلمات كلمات الإسلام كلمة «أشهد أن لا إله إلا الله»، كلمة «سبحان الله»، كلمة «الله أكبر»، كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله»، كلمة «إن شاء الله»، هذه الكلمات لها معانٍ عظيمة، لكنَّ النّاس مع استخدام هذه الكلمات استخداماً كثيراً دون علم بمضمونها أفقدوها معناها، فيقول: إن شاء الله، إذا أراد أن يخُلف وعده، أو أراد ألا يُسدِّد ما عليه من دين!!

كلمة «الله أكبر» تقولها إذا رأيت مثلاً آلة عظيمة صنعها الغرب، فقد قلتَها في معرض التعجب، هذه ليس من شأنها أنْ تُقال في هذا الموطن، بل إذا رأيت آية من خلق الله عزَّ وجلَّ واستعظمت خالقها فإنّك تقول: الله أكبر، هذه الكلمات التي نردِّدها الله أكبر، سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه لو عرفنا معناها حقيقة لكُنّا في حال غير هذه الحال؛ لذلك ربُّنا عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

ما الباقيات الصالحات؟ قال بعضهم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قرأت الآية شعرت أنّ مَنْ عنده مالٌ كثير أو جاهٌ عريض أو حياةٌ ناعمة،

فكلُّ هذا شيء تافه أمام: الله أكبر، سبحان الله والحمد ولا إله إلا اله والله أكبر؟.... نعم لأنّك إذا قلت: سبحان الله حقيقة فقد سبّحته، وإن قلت: الحمد لله حقيقة فقد حمدته، وإن قلت: الله أكبر فقد كبَّرته، وإن قلت: لا إله إلا الله فقد وحَّدْته، فإذا سبحته وحمدته ووحَّدته وكبَّرته فقد عرفته، وإذا عرفته عرفت كلَّ شيء، وسعدت بهذه المعرفة إلى الأبد، وهذه لا يدانيها متاع الدّنيا كلُّه ولو كثر.

أيها القارئ الكريم، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٧].

إنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف نفسه أنَّه كبير، وأنَّه عظيم، وبأنَّ له الكبرياء، وإذا أمرنا أن نُكبِّره، وإذا أمرنا أن نُعظِّمه، فإنّما ذلك لكي نَسعَدَ به ونُقبل عليه، وكي نُحقِّق الهدف من خلقنا.

أحياناً قد ترى إنساناً يتحدث عن نفسه تيهاً وازدهاءً من أجل أن يتكبّر على من حوله، من أجل أن يتيه عليهم، لكنَّ الله سبحانه وتعالى إذا قال: وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السموات والأرض، وإذا أمرنا أن نُكبِّرهُ تكبيراً: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾﴾ [المدثر:٣].

فما ذلك إلّا لنعرف قدره ومن ثمّ نسعد بهذه المعرفة.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

حقّاً ما قيل: إنّه لا يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم: الله أكبر، فأنت قد تكذب لأنّك تخاف من إنسان كبير، ففي حياة كلِّ إنسان شخص بإمكانه فيما يبدو أن

يفعل وألا يفعل، وأن يعطيك أو أن يمنعك، أنت شئت أم أبيت لك حجم مالي محدود، لك حجم في القوّة محدود، لك حجم في المراتب الاجتماعية محدود، هناك من هو أقوى منك، هناك من هو أكثر منك مالاً، هناك من هو أعظم منك جاهاً، فأنت كلّما واجهت من هو أكبر منك، من هو أعظم منك، من هو أشدُّ منك قوةً، من هو أبرع منك حيلةً، من هو أسمى منك درجةً في العلم، وقلت: الله أكبر فأنت اتّجهت إلى من هو أكبر منه.

وقف مرّةً رجل بين يدي الحَجَّاج وكان مقدِماً على قتله، فقال هذا الرجل: أيّها الأمير؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي إلا نظرت في أمري نظرَ من يرى بُرئي أحبَّ إليه من سقمي، فعفا عنه.

إنَّه لا يكبر في نفسك شيء ما دامت كلمة «الله أكبر» هي شعارك، أحياناً يكبُر المرض، فإذا قلت: الله أكبر، فهذا يعني أنَّ الله قادر على شفائك التّام من هذا المرض، أحياناً يكبر عدوّك، فإذا قلت: الله أكبر صَغُرَ هذا العدوّ، وإذا قلت: الله أكبر صَغُرَ هذا المرض، وإذا قلت: الله أكبر فإنَّ حيلَة خصمك المحكمة تُخفق، لذلك أنت معك سلاح لو عرفت قيمته لكنت في أعلى عليين، ولكنَّ البلاء يكمن في أننا نردّد بعض الكلمات، ولسنا في مستوى مضمونها؛ تقوىً ويقيناً بل تقال جوفاء مفرّغة من مضمونها.

نصيب المؤمن من اسم الله (الكبير)

قال العلماء: «حظُّ العبد من هذا الاسم أن يجالس العلماء، ويصاحب الحكماء، ويخالط الكبراء».

أنت إنسانٌ لك شخصية، وهذه الشّخصية لها خصائص، لك علم، لك مشاعر، لك خبرات، لك ذكريات، لك تجارب، فإذا صاحبت من هو دونك فهذا شيء، وإذا صاحبت من هو في مستواك فذاك شيء آخر، وإذا صاحبت من هو فوقك فذلك شيء ثالث.

التّوجيه: «جالس العلماء، وصاحب الحكماء، وخالط الكبراء» لتقتبس منهم، فإذا صاحبت من هو في مستواك فليس في إمكانك أن تستفيد منه، وليس في إمكانه أن

يستفيد منك، ندٌّ لندٍّ، فأنت إذا صاحبت من هو في مستواك يمكن أن تمضي معه وقتاً ممتعاً، ولكن ربما لن تستفيد منه شيئاً، تستمتع في الجلوس معه دون أن تستفيد منه، لأنّه في مستواك وأنت في مستواه، خبراتكما مشتركة، معلوماتكما مشتركة، لكنّك إذا صاحبت مَن هو فوقك في العلم أو في المعرفة أو في القدر أو في الكمال، أو في الخبرة في الحياة، فإنّك تستفيد منه، ما دام الإنسان مجبولاً على حُب العظيم أو حب الكبير، إذاً عليك أن تصاحب من تراه ثقةً وأهلاً لصحبتك فتستفيد من علمه تارةً، ومن أدبه تارةً، ومن خبرته تارةً، ومن أسلوبه في الخطاب تارةً أخرى، هذه بعض التوجيهات بالنسبة لحظ العبد من هذا الاسم.

وقال المحقّقون: العلماء على ثلاثة أقسام؛ العلماء بأحكام الله فقط، فقيه متفوق بالفقه، فأيُّ سؤالٍ طرحته عليه، يجبْك: لقد ورد في حاشية كذا وفي المصنف الفلاني مَع الحكم الشرعي لهذا السؤال، هذا اسمه عالم بأحكام شرع الله فقط، إذاً هؤلاء العلماء هم أصحاب الفتوى، إذا أردت أن تستفتي في شيء فاذهب إليهم، لأنّهم متفوّقون في معرفة أحكام الشريعة.

وهناك علماء بذات الله تعالى فقط، يعرف الله عزَّ وجلَّ ويعرف أسماءه الحُسنى، يعرف صفاته الفُضلى، يعرف عَظَمَةَ الله عزَّ وجلَّ، مستقيمٌ على أمره، مقبلٌ عليه، فهؤلاء الذين عَلِموا طرفاً عن ذات الله فقط هم الحكماء، إذاً هناك علماء وهناك حكماء، ولقد سبق أن قلت: من ازداد علماً ولم يزدَدْ هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً، يعني نما علمه الشرعي ولم تنمُ معرفته بالله عزَّ وجلَّ، ولم تَرقَ عبادته إلى المستوى المطلوب فقصّرَ في معرفة الله، وفي طاعته وتفوق في الأحكام الشرعية، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً. لا بد من أن تتحرّك على خطين اثنين، على خط معرفة الله ومعرفة أمره، وما أكثر ما ذكرت وكرّرت وأنا أتحدث أو أكتب في هذا الموضوع، هناك عالمٌ بالله، وهناك عالمٌ بأمره، وهناك عالمٌ بخلقه.

أمّا العلماء بخلق الله عزَّ وجلَّ فهم العلماء المشهورون في الفيزياء وفي الكيمياء والرياضيات والفلك والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، وفي هذه العلوم البحتة كالرياضيات التطبيقية والكيمياء العضوية وما إلى ذلك.

العلمُ بخلق الله شيء، والعلمُ بالله شيء، والعلمُ بأمره شيء، وعلامةُ العلم بأمره أنّك تجيب عن أي سؤال متعلّق بأمره. وأما العلمُ بذاته فعلامته طاعتك له، وحينما تعصي الله عزَّ وجلَّ فأنت لا تعرفه.

فالعلماء هم الذين عرفوا الأحكام الشرعية، وهم الذين يُقصَدون في الفتوى، والحكماء هم الذين عرفوا الله عزَّ وجلَّ، وعلامة معرفتهم لله طاعتهم له وإقبالهم عليه، ووصولهم إليه، أمّا أجمل ما في الموضوع فهو قول العلماء: إنّ الكبراء هم الذين عرفوا أحكام الله؛ الأحكام الشرعية وعرفوا ذاته العلية، هؤلاء هم الكبراء.

أَخْبَرَنا زَيْدٌ العَمِّيُّ عَنْ بَعْضِ الفُقَهاء أَنَّهُ قالَ: «يا صَاحِبَ العِلْمِ اعْمَلْ بعِلْمِكَ وأَعْطِ فَضْلَ مالِكَ، واحْبِسِ الفَضْلَ مِنْ قَوْلِكَ إلا بشيءٍ مِنَ الحَديثِ يَنْفَعُكَ عِنْدَ رَبِّكَ، يا صَاحِبَ العِلْمِ إنَّ الذِي عَلِمْتَ ثُمَّ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ قاطِعٌ حُجَّتَكَ ومَعْذِرَتَكَ عِنْدِ رَبِّكَ إذا لَقِيتَهُ، يا صاحِبَ العِلْمِ إنَّ الذِي أُمِرْتَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ الله لَيَشْغَلُكَ عَمَّا نُهيتَ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ الله، يا صاحِبَ العِلْمِ لا تَكونَنَّ قَوِيّاً في عَمَلِ غَيْرِكَ ضَعيفاً في عَمَلِ نَفْسِكَ، يا صَاحِبَ العِلْمِ لا يَشْغَلَنَّكَ الذِي لِغَيْرِكَ عَنِ الذِي لَكَ، يا صاحِبَ العِلْمِ جالِسِ العُلَماءَ وَزاحِمْهُمْ وَاسْتَمِعْ مِنْهُمْ وَدَعْ مُنَازَعَتَهُمْ، يا صَاحِبَ العِلْمِ عَظِّمِ العُلَماءَ لِعِلْمِهِمْ، وصَغِّرِ الجُهَّالَ لِجَهْلِهِمْ ولا تُباعِدْهُمْ وَقَرِّبْهُمْ وعَلِّمْهُمْ» [سنن الدارمي].

الكبير من النّاس هو الذي عرف الله حقَّ المعرفة، وأقبل عليه حقَّ الإقبال، وعرف أحكامه التكليفيّة حقَّ المعرفة، فقد حصَّل المجد من طرفيه، إنّك إذا رأيت عالماً بالله ومعلوماتُه في الشريعة ضعيفة قد لا تُعجب به، وإن رأيت عالماً في الشريعة ومعرفته بالله ضعيفة قد لا تُعجب به، لكنّك إن رأيت من يجمع بين العلم بالله والعلم بأحكام

الشريعة فهذا من الكبراء، وقديماً قالوا: من تفقّه ولم يتحقّق، فقد تفسّق، ومن تحقّق ولم يتفقّه فقد تزندق.

فإذا تركت علم الشريعة جانباً، ولم تستقم عقيدتك، واعتمدت على التأمُّل فقط ربما نطقت بما هو زندقة أو بما يشبه الزندقة، وإذا تعرّفت إلى أمر الله فقط ولم تعرف عظمته فربما خالفت أمره.

فنحنُ بين أنموذجين، أنموذج أتقن أحكام الشريعة وغفل عن أحكام الحقيقة، ونموذج عرف الحقيقة وما عرف الشريعة، لكنّ الكبراء هم الذين عرفوا الحقيقة والشريعة، تحقّقوا وتفقّهوا، عرفوا أحكام الله التكليفيّة، وعرفوا ذاته العليّة، فهذا حظ العبد من هذا الاسم.

إنّه جلّ جلاله ذو الكبرياء، والكبرياء عبارة عن كمال الذات، وكمال الذات، أي: كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين اثنين، دوامه أزلاً وأبداً، فكلُّ وجود يسبقه عدم فليس كاملاً، وكلُّ وجود ينتهي إلى عدم فليس كاملاً، نحن كما نسمَّى في علم التّوحيد (حادث) لأنّه سبقنا عدم، وسيأتي بعدنا العدم، أمّا الله تعالى فكلّ شيء هالك إلا وجهه، فالكبير ذو الكبرياء، والكبرياء كمال الذات، وكمال الذات هو كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين؛ دوامه أزلاً وأبداً، أمّا الثّاني فوجوده ذاتيّ، وسبب كلِّ وجود، أمّا وجود مخلوقاته فليس ذاتيّاً، بل متوقِّف على مشيئته، كُنْ فيكن، زُلْ فيزول، ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكن.

وبعد، فإن الوقوف عند هذا الاسم على مخلوقاته يجلّي الأمر واضحاً، وهو مما يعين على فهم البحث: فمن تطبيقات هذا الاسم على العباد القول مثلاً: فلان كبير، الحقيقة هنا معنى عميق الدّلالة جداً، فكلمة «كبير» إذا وصف بها الإنسان فليس الكامل في ذاته بل الذي تسري كمالاته إلى غيره، هنالك عنصر خامل، وعنصر مشعٌ، وعنصر فاعل وعنصر منفعل، من هو الكبير من الناس، فمثلاً عالِم لكن ما عَلَّمَ أحداً، كامل ما كَمَّلَ أحداً، فهذا ليس كبيراً، أمّا إذا كنت عالماً ووصل علمُك إلى الآخرين

فأنت كبير عند الله عزَّ وجلَّ، إذا كنت كاملاً وسرى كمالُك إلى الآخرين، يعني تخلَّقوا بأخلاقك، وتعلَّموا من علمك، أي: إذا فاض الإناء على غيره فهو الكبير، هذا معنى آخر من معاني الكبير من العباد.

إذاً الكبير الكامل في نفسه المُكمِّل لغيرِه، العالم في نفسه المعلِّم لغيره، أنت إذا بقيت وحدك ولو كنت في أعلى مستوى فلست كبيراً عند الله، يعني باللغة الواقعية أنانيّ، أنت حصَّلت معرفة واكتفيت بها، أنتَ نلت كمالاً واكتفيت به، لكن أين كمالُكَ؟ إنْ لم يسرِ هذا الكمال إلى الآخرين؟ لذلك فالشّيء الذي يلفت النّظر أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣].

«تواصوا بالحق»، يعني أنَّ هناك جزءاً كبيراً من نشاط المؤمن هو الدعوة إلى الله، فمثلاً: رجل مؤمن إيماناً عالياً وزوجته جاهلة، عاصية ويقول: أنا لا علاقة لي بها، هي وشأنها، ألست مؤمناً؟ وآخر يدّعي الإيمان ولا يُعنى بأولاده، ولا يهتمّ بإيمانهم، ولا يهتمّ باستقامتهم، شيءٌ لا يُصدّق، هو مؤمن إيماناً عالياً وله شريك لا يصلّي، وشارد وتائه، وترضى به، وتسكت عنه، ولا يقلقك أمره، إذاً: فلست عند الله كبيراً، لن تكون عند الله كبيراً إلا إذا سرى عِلمُكَ، وسرَتْ أخلاقُكَ، وسرت دعوتُكَ إلى الآخرين، هذا المعنى الذي ذكره بعضهم فيما تنطوي عليه كلمة كبير من العباد.

شيءٌ آخر مهم: هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ حينما يراك تُعظِّمُهُ ولا تخاف من خلقه فأنت عنده مقرّب، لكنه إذا رآك ترتعد فرائصك أمام كلِّ إنسان وتنسى الواحد الدّيّان، تسعى إلى إرضاء النّاس وتنسى ربَّ النَّاس، تخشى النَّاس ولا تخشى الله، فأنت عند الله صغير.

أحياناً يكون الإنسان مسلماً وموحِّداً، لكنَّه يخاف مما يخاف النّاس دائماً، ويقول: ما هذه الحياة كلُّها خوف؟ إذاً هذا الذي يخاف وماله حرام ودخله حرام وأفعاله منحرفة لا بد أن يخاف، وله أن يخاف، لكنَّ المؤمن إذا ظنَّ أنَّ الله سيعاملُهُ كما يعامِل

أهل المعصية والفجور فقد وقع في سوء الظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ، أنت تقع في سوء الظّنّ بالله إذا ظننت أنَّ الله سيعامل المؤمن كما يعامل الفاسق، وإني أقول: إذا خِفتَ أن تعامَل كما يعامَل الفاسق الفاجر، فهذا الخوف عقوبة لك على سوء ظنّكَ بالله، الله عزَّ وجلَّ يحبُّكَ أن تعتمد عليه، يحبُّك أن تثق به، يحبُّك أن تتوكَّل عليه، كما يحبُّك أن تعتزَّ به.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

يجب أن يُرافق الإيمانَ معنويات عالية، يرافق الإيمان ثقة بالله عزَّ وجلَّ، يرافق الإيمان شعور بالتفوق، رأوا أحد أصحاب رسول الله ﷺ، يمشي مشية كأنها مشية كِبر، فقالوا: أكِبْرٌ في الإسلام؟ قال: لا، هذا عزُّ الطاعة، حينما تطيع الله عزَّ وجلَّ يجب أن تعتزَّ بطاعتك... يقول أحدهم: أنا لا أشرب الخمر لأنَّ لديّ قرحةً في المعدة، لا، بل يجب أن يقول: لا أشرب لأنَّ هذا شراب محرّم في ديني، أتستحي بأمر الله عزَّ وجلَّ؟ فهذا المسلم الذي يخاف الله عزَّ وجلَّ يذكر للناس ألف مسوغ ومسوغ لعدم شربه الخمر، على أنه مصاب بقرحة ونحو ذلك، ولا يجرؤ أن يقول: هذا حَرَّمَه الله عزَّ وجلَّ، وأنا ملتزم، فهو مهزوم، ولكن إذا قلت: أنا لا أشرب لأنَّ الله حرّمَ شُربَ الخمر، وافعلوا ما تريدون انتهى الأمر، ارتقيت في مدارج عزَّة الإيمان.

المقصود أن تعتزَّ بالله، أن تثق به، أن تعتمد عليه، أن تتوكَّل عليه، هذا إذا كنت تراه كبيراً، هذا إذا كانت كلمتك (الله أكبر) حقيقة فأنت تقول: (الله أكبر) في الصلاة، وتسمع الله أكبر كلَّ يوم خمس مرات في الأذان، وتقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، في كلِّ حركة من حركات الصلاة، لذلك ذكرت مراراً وأكدّت على ما ذكرت: إنَّ الذي يقول: (الله أكبر) ويطيع مخلوقاً ويعصي خالِقَهُ فكأنّه ما قالها ولا مرّة، ولو قالها بلسانه مئة ألف مرة، إذا قلت: (الله أكبر) وخشيت الناس ولم تخشَ الله فما قلت: الله أكبر ولا مرّة، إنّ الذي نسعى إليه، أن نَدَعَ الشكليات، والكلمات الجوفاء والكلمات المستهلَكة، وأن نعود إلى أصل الدّين وإلى جوهر الدّين، من عصى خالِقَهُ، وأرضى مخلوقاً فما قال:

الله أكبر ولا مرّة ولو ردّدها بلسانه مئة ألف مرة، فإن أرضى زوجتَه مثلاً وعصى ربه، فما قال: الله أكبر، الحقيقة بلا مجاملة وبالكلمة بالصريحة: إن رأيت رضاها أكبر عندك من رضاء الله عزَّ وجلَّ فلا حظَّ لك أبداً مما قلت، وحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك، فقد رأيت رضاء هذا المخلوق أكبر عندك من رضاء الله، وهذا واقع الكثيرين، لكن حينما تقول: الله الكبير، ولا أفعل سوءاً ولو قُطِّعتُ إرباً إرباً، فالآن قلت: الله أكبر.

فما جدوى أن تقول: الله هو الكبير والمتكبّر والكبير المتعال والعلي الكبير وذو الكبرياء، والكبير الذي تعالى عن أن يشبه خلقه والكبير هو في الدرجات العقلية، فما جدوى كلِّ هذه المعلومات المهمّة عن اسم الكبير ما دُمتَ تتجه إلى المخلوق وتنسى الخالق، لذلك علامة المؤمن ألا تأخذه في الله لومةُ لائم، ولا يرى أحداً أكبر من الله، وإذا قال: الله أكبر فهو فعلاً أقوى الناس، لأنك إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، لذلك هناك امتحانات دقيقة في الحياة، خلاصتها أنَّ الله عزَّ وجلَّ يضعُكَ أمام ظرفٍ صعب، قد تُغلَقُ الأبواب كلُّها في وجهك، ثمّ يُفتح باب واحد، باب معصية، فإذا قلت: ماذا أفعل لا حول لي ولا قوّة، وأرجو الله ألا يؤاخذني، معنى ذلك رأيتَ حاجتك إلى هذا الشيء أكبرَ من رضوان الله تعالى، ويجب أن تتذكّر الآية التي قرأناها قبل قليل: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٥].

هل تعلمون ما سياق هذه الآيات؟ الحديث عن الجنة، يعني بعد أن ذَكَرَ الله لنا في القرآن الكريم الحديث عن الأشجار وعن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وعن أنهار اللبن وعن أنهار العسل المصفى وعن الحور العين، عن الولدان المخلدين، وعن كلِّ ما في الجنة من مباهج قال: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ [التوبة:٧٢] أي: إذا كان الله راضياً عنك، وإحساسك بهذا الرِّضا أكبر عندك من كلِّ شيء، فهذه أكبر غاية يسعى إليها المؤمن ويرجوها عند الله سبحانه.

وبعد فإن آخر ما يجب عليّ الإشارة إليه: إذا شعرت أن الله راضٍ عنك، فهذا الشعور أكبر غاية تتحقق لك في الأرض، كنتُ مرةً أقول؛ حينما قال الله عزَّ وجلَّ، وحينما قرر في كتابه الكريم أنه رضي عن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح:١٨].

قلت عندها: والله ما في الأرض كلِّها لا في قديم الزمان ولا في حديثه ولا في المستقبل، ولا في كل القارات، ولا في شتّى المجالات ولا في كل المناحي، من مرتبة أعظم من أن يرضى الله عنك، وما جدوى أن يرضى عنك المخلوقون جميعاً ولم يرض الله عنك؟!!

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

ما ينفعك أن يرضى الناس جميعاً عنك، وما ينفعك أن تكون مُعظَّماً عند النّاس كلِّهم، ولست عند الله عظيماً؟ فرضا النّاس إلى زوال ولكن رضا الله باقٍ أبداً.

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥].

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين:١٥].

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:٥٩-٦٥].

ما قيمة الدنيا كلِّها لو أنّك كنت تملك الدنيا بحذافيرها وليس لك عند الله شأن؟! سمعت عن شركة من الشركات الكبرى في العالم عندها فائض، هي في حيرة من أمر توظيفه؛ أربعة آلاف مليون دولار فائض نقدي عند شركة سيارات، لا تعرف كيف توظّفه، لو أنَّ الدّنيا كلّها لك، لو أنّ هذه الشركة لك، لو أنّ القارات الخمس بما فيها من مصانع هي ملك لك ولم يكن الله عنك راضٍ فما قيمة الدّنيا كلِّها؟!

أنت أيها المؤمن قد تكون من عامّة النّاس في الحياة الاجتماعيّة، فإذا كنت تعرف الله عزَّ وجلَّ وكان الله راضياً عنك، فأنت عند الله عظيم الشّأن، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك، ثم نَقَر بإصبعيه فقال: عجلتْ منيته، قَلَّتْ بواكيه، قَلَّ تراثه» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه].

قد تكون طالباً، قد تكون موظّفاً في الدرجة العاشرة، قد تكون مساعد كاتب، قد تكون صاحب محل صغير مساحته متر بمتر، لكنّك تعرف الله ومستقيم على أمره فأنت عند الله عظيم، لذلك حينما قال إبراهيم بن الأدهم: «والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه من السعادة لقاتلونا عليها بالسيوف»، والله كلامه صحيح، لو كُشف الغطاء وعَلِم ملوك الأرض ما أنت فيه من مرتبة عليّة عند الله لنافسوك وقاتلوك.

أمّا أهلُ الدنيا فهانَ أمرُ الله عليهم فهانوا على الله، ترى حياته تافهة عند الله، لم يبالِ في أي أوديتها هلك، تراه يموت ميتة سيئة بشعة حقيرة، يقول ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» [رواه الطبراني وصححه الألباني] يموت كالجيفة، يموت وهو يعصي الله، يموت ولا يدري به أحد، لكنَّ المؤمن له عند الله شأنٌ كبير.

الله هو الكبير، وأنت أيّها الإنسان قد خُلقت له، فالتّراب للنّبات والنّبات للحيوان والحيوان للإنسان والإنسان لمن؟ للواحد الدّيّان، قال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٥٦].

لا يليق بك أيّها الإنسان أن تكون لغير الله، لا يليق بك أن تُجيِّر لغير الله، لا يليق بك أن تُحسب على غير الله، لا يليق بك أن تكون لإنسان، إنّك للواحد الدّيّان، ولمجرد أن تخضع لإنسان وأن ترى خيرك بيده وشرَّك بيده فقد عصيت الإله العظيم، وهبطت إلى مستوى لا يليق بك.

بطولتك أن تكون لله، أنت له ولست لغيره، تتعامل مع المخلوقين، أمّا قلبك فلله وحده، وفي الحديث الشّريف: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي» [أخرجه البخاري عن عبد الله بن عباس].

يجب أن تكون كبيراً، كبيراً بعلمك، كبيراً بأخلاقك، فالكبير لا يكذب، والكبير لا يبخل، والكبير لا يخدع، والكبير لا يجبُن، والكبير لا يظلم، والكبير لا يحقد.

يكبر الإنسان ويكبر ويكبر ولا ترى كبره فيتضاءل أمامه كلُّ كبير، ويصغر هذا الإنسان ويصغر ويصغر ولا ترى صغره فيتعاظم عليه كلُّ حقير.

إذا تحدثتُ عن اسم الله الكبير فمن أجل أن نعرف الكبير، ومن أجل أن نطيعَه، ومن أجل أن نكون عنده من المقرّبين، ورأسُ القربى عند الله عزَّ وجلَّ طاعته، آخر كلمة أقولها في بحثي هذا، قال عمر: يا سعد لا يغرَّنَّك أنّه قد قيل: خال رسول الله ﷺ فالخلق كلُّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلّا طاعتهم له.

طاعتك عند الله هي كلُّ شيء، وهي التي تحدِّد مكانتك عند الله عزَّ وجلَّ، والمؤمن يعلم أنَّ الله كبير، يجب أن تعتزَّ بالله عزَّ وجلَّ وأن تثق بالله وأن توقن بأنَّ لك معاملةً خاصة، لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية:٢١].

المتعالي

ورد اسم (المتعالي) في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد:٩].

وقد ورد أيضاً في السُّنَّة المطهَّرة بسند صحيح عند الإمام أحمد، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ قرأ هذه الآية وهو على المنبر، فقال: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

فقال ﷺ: يقول الله جلا وعلا: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا المتعال -يمجِّد نفسه- قال: جعل رسول الله ﷺ يردِّدها حتى رجف به المنبر، حتى ظنَنَّا أنَّه سيخِرُّ به»

من معاني اسم الله (المتعالي)

المتعالي اسم فاعل، من تعالى يتعالى فهو متعالٍ، وهو أبلغ من الفعل علا، وفي اللغة العربية: كلُّ زيادة في المبنى يقابلها زيادةٌ في المعنى، فحينما أقول: سأعطيك هذا

المبلغ في المستقبل هناك معنى، أمّا إذا قلت: سوف أعطيك فهناك معنى آخر، فسوف أطول أمداً.

التعالي؛ الارتفاع وقد يكون من تقول له: تعالَ في الطابق الأسفل، وأنت في الطابق الأعلى، فهذا العلوُّ علوُّ مكانة، أي: ارتفع إليَّ.

المتعالي سبحانه وتعالى هو القاهر لخلقه بقدرته، وهو المستعلي على كلِّ شيء بقدرته، والمتعالي على كلِّ شيء: أي قد أحاط بكل شيء علماً، وقدرةً، وقهراً، وخضعت له الرِّقاب في كلِّ شيء، ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

والمتعالي هو الكبير، فكلُّ شيء تحت قهره، وسلطانه وعظمته، ولا إله إلا هو ولا ربَّ سواه، لأنَّه العظيم، وليس هناك من هو أعظم منه، تعبد خالق السماوات والأرض، من بيده الأمر: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣].

من إذا قال لشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

من في قبضته السماوات والأرض، فإذا عرفت الله زهدت فيما سواه، وإذا عرفت الله كنت عزيزاً، قوياً، شجاعاً، إذا عرفت الله عرفت كلَّ شيء.

وفي القرآن جمعان لكلمة العبد، وهما العباد والعبيد، العباد جمع عبد الشكر بينما العبيد جمع عبد القهر، فكلُّ إنسان كائناً من كان، حتى الكافر والملحد والفاجر والعاصي في قبضة الله.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

أمَّا الذي تعرَّف إلى الله، وأقبل عليه، وأحبَّه، وتقرَّب إليه، فنقول: هذا عبد الشّكر، وجمعه عباد.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

الواحد منَّا لا يضمن أن يبقى حيّاً لثانية واحدة، فنحن جميعاً في قبضة الله، أمّا المؤمن فقد تفضَّل الله عليه بالإيمان، فهو يعلم أنَّه في قبضة الله، بينما غير المؤمن توهَّم أنَّه قويٌّ، وفي أيَّة لحظة يقبض الله روحه، فإذا هو خبر بعد أن كان شخصاً كبيراً.

المتعالي سبحانه وتعالى هو الذي ليس فوقه شيء في قهره وقوَّته، فلا غالب له ولا منازع له، بل كلُّ شيء تحت قهره وسلطانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨]،

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

لكنَّ النَّاس يتوهمون أنَّ في الأرض قوّةً جبّارة يخافونها، والحقيقة أنَّ كلَّ هذه القوى الجبّارة التي نراها على شبكية العين إنّما هي هي بيد الله.

نصيب المؤمن من اسم الله (المتعالي)

حينما نقول: تعالى الله، أي تنزّه عن كلِّ نقص، والمؤمن يجب أن يتعالى عن كلِّ نقص بإيمانه، ويجب أن يَعلم ما ينبغي أن يُعلم من الدّين بالضرورة، ولنأتِ بمثل:

لو أنَّ مظليّاً يريد أن يهبط بمظلّة، هناك معلومات كثيرة يمكن أن يجهلها، شكل المظلة: مربع، مستطيل، بيضوي، دائري، عدد الحبال، أنواع الحبال، ممَّ صنعت هذه الحبال، كلُّ هذه المعلومات لو أنَّه غفل عنها فإنّه يصل الأرض سالماً، إلا أنَّ معلومة واحدة إذا غفل عنها فإنّه ينزل ميتاً، إنَّها طريقة فتح المظلَّة، فإذا غفل عن هذه المعلومة فقد أودى بحياته، نسمّي هذه المعلومة بالنسبة للمظليّ: معلومة يجب أن تُعلم بالضرورة.

والدين واسع جداً، هناك تاريخ التشريع، وهناك الفقه المقارن، لكن هناك معلومات لا بدّ من أن يعلمها: أركان الإيمان، الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب، والرسل والقضاء والقدر، وما إلى ذلك، وأركان الإسلام: الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، والأحكام الفقهيّة المتعلّقة باختصاصه.

فالتَّاجر بأمسِّ الحاجة أن يتعلّم أحكام البيع والشراء، والطبيب أحكام الطّبّ، والزوج أو الزوجة أحكام الزواج، والحقوق، والواجبات.

إذاً هناك في الدين حقائق لابدّ من أن تُعلم بالضرورة، والمؤمن يجب أن يتعالى عن كلِّ نقص في إيمانه، لأنَّ العلم كما قال العلماء: أصل حياة الإنسان، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم».

إذاً حينما تبحث عن الحقيقة، وحينما تعمل وَفقها، وحينما تصبر على البحث عنها، والعمل بها، وتطبيقها، والدعوة إليها، تكون قد حققت الهدف من وجودك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

إذاً المؤمن يتعالى عن أيِّ نقص في إيمانه، ولو أنَّ أيَّ نقص في الإيمان لا يقابله سلوك منحرف، لما كان هناك إشكال يُذكر، ولكن لأنَّ أيَّ نقص في الإيمان ينعكس سلوكاً خاطئاً فلا بد من ترميم النّقص والتعالي عليه.

إذاً كما أن الله سبحانه وتعالى، تعالى عن كلِّ نقص، والمؤمن يستكمل طلب العلم، ليكون السلوك صحيحاً يفضي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض، هذا من حيث ما ينبغي أن يُعلم بالضرورة.

وهناك فرض عين على كلِّ مسلم أن يعرف سنَّة النّبيّ ﷺ القوليّة، وسيرته العمليّة.

إذ كلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، والذي ضيَّع بعض المسلمين توهُّمهم أنَّ الإسلام عبادات شعائرية، صوم وصلاة، وحج، وزكاة، ليس غير، ولكنّ الدين منهج واسع جداً، يبدأ بالعلاقات الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدوليّة، يقول تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وها قد أُمرنا أن نأخذ ما أتانا النبي، وأن ننتهي عمّا عنه نهانا، فبربكم كيف نأخذ ما آتانا، وننتهي عما عنه نهانا، إن لم نعرف ما آتانا، وما الذي عنه نهانا؟ وما لا يتمُّ الفرض إلا به فهو فرض.

أرأيت إلى الوضوء؟ إنَّه فرض، لأنَّ الصلاة فرض لا تتمُّ إلا به، إذاً معرفة سنَّة النّبيّ ﷺ فرض عين على كلِّ مسلم.

إذاً ينبغي أن نعلم سنَّة النّبيّ ﷺ القوليّة، ما الذي يمنع أن يكون في كلِّ بيت كتاب في الأحاديث الصحيحة نقرؤها، ونطبقها، هذا من لوازم معرفة أحكام هذا الدين.

وينبغي أن نعرف سيرته، وهذا فرض عين على كلِّ مسلم أيضاً، لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

كيف يكون النّبيّ ﷺ أسوةً لنا إن لم نعرف سيرته؟ كيف كان في بيته؟ كيف كان مع زوجته؟ كيف كان مع أولاده؟ كيف كان مع جيرانه؟ كيف كان مع أصحابه؟ كيف كان في سلمه؟ في حربه؟ في حِلِّه؟ في ترحاله؟ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ جعله أسوة لنا.

إذاً ينبغي أن نعرف سيرته لنتأسّى به، فالمؤمن يتعالى عن كلِّ نقص في معرفة سنّة النّبيّ ﷺ القوليّة، ومعرفة سيرته العمليَّة.

ويجب أن يتعالى المؤمن عن كلِّ نقص في عباداته، وقد سأل النّبيّ ﷺ أصحابه: «أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة].

لا يمكن أن تقطف ثمار الصلاة إلا إذا سبقتها استقامة والتزام، فالمؤمن يتعالى عن كلِّ نقص في فهمه للعبادات.

«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا» [ابن ماجة عن ثوبان].

لذلك مليار وخمسمئة مليون مسلم لا وزن لهم في الأرض، ليست كلمتهم هي العليا، ليس أمرهم بيدهم، للطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لماذا؟ لأن أمر الله هان عليهم فهانوا على الله.

فالمؤمن يتعالى عن أي نقص في عباداته، هذه الصلاة، فماذا عن الصيام؟

«مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعمَلَ بِهِ، فَليسَ لله حاجة فِي أن يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ» [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

فماذا عن الزكاة؟

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [التوبة:٥٣].

ما لم نستقم على أمر الله فلن نقطف من ثمار الدين شيئاً، والمؤمن الصادق يتعالى عن أي نقص في فهمه للعبادات.

المؤمن إذا آمن باسم المتعالي فإنّه يتعالى عن الظّلم، لأنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة.

«يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظَالموا» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

هذا الذي يظلم لا يعرف الله عزّ وجلّ، ولو علم أنَّ الله تعالى سيحاسبه لما ظلم، هناك ظلم يبدأ في البيت، كم من زوج يظلم زوجه؟ وكم من ابن يظلم أباه؟ وكم من أخ يظلم أخاه؟ وكم من ربِّ عمل يظلم موظفاً عنده؟ فحينما يكون ظلم في المجتمع يتخلَّى الله عنا، والدليل قول النبي ﷺ: «فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم» [أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء].

هذا الضعيف إن أطعمته إذا كان جائعاً، كسوته إن كان عارياً، علّمته إن كان جاهلاً، آويته إن كان مشرّداً، أنصفته إن كان مظلوماً، عالجته إن كان مريضاً، عندها يتفضَّل الله على من أعانه بمكافأة من جنس عمله، فينصره على من هو أقوى منه.

الله عزَّ وجلَّ هو الكبير المتعالي تعالى عن كلِّ نقص، وأنت أيها المؤمن يجب أن ترتفع عن أي نقص في عقيدتك، وفي عبادتك، وفي معاملاتك، عن أيِّ نقص في فهم سنّة رسول الله ﷺ، عن أي نقص في فهمك لسيرته العمليّة، عن أي نقص في التّوحيد، والتّوحيد شيء مصيريّ، ينعكس سلوكاً منحرفاً، إن لم تُستكمَل أركانه.

والمؤمن يتعالى عن كل السَّفاسف.

«إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها ودنيها» [أخرجه الطبراني عن حسين بن علي].

المؤمن في أفق معرفة الله، في أفق الدعوة إليه، في أفق خدمة عباده، في أفق الأعمال الصالحة، في أفق تطهير قلبه من كل دنس.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من عبادة غير الله، وسلم من تحكيم غير شرع الله.

إذاً: كما تقول: يا رب يا متعال، وتعالى الله الملك الحقُّ عن كلِّ نقص، عن كلِّ ما لا يليق به، وأنت أيها المؤمن تَرفع عن الجهل في أمر دينك، تَرفع عن الجهل في أمر عبادتك، ترفع عن الجهل في أمر نبيك ﷺ، ترفع عن أن تظلم، ترفع عن أن تحبط عملك بجهل كبير.

أيّ: تقرّب إلى الله بكمال مشتقٍّ منه، لأنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الوارث

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم على سبيل الإطلاق والتّعظيم، معرَّفاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص:٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣].

وقد ورد في دعاء سيّدنا زكريّا عليه وعلى نبيّنا أفضل الصّلاة والسّلام: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

من معاني اسم الله (الوارث)

الوارث اسم فاعل للموصوف بالوراثة من غيره، يقال: ورث فلان أباه يرِثه وراثة وميراثاً، والوراثة في حقّنا: انتقال المال أو الملك من المتقدِّم إلى المتأخِّر.

الوارث هو الباقي، لأنّنا في حياتنا الدُّنيا نعرف أنَّ الذي لم يمُت هو الوارث، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ على الدَّوام فهو الوارث، وكلُّ ما بيدك مصيره إلى الله.

قد تقول: إنَّ هذا البيت ملكي، هذا كلامٌ فيه مجاز، فالبيت لله حقيقة، وقد سُئل أحد الأعراب وهو يقود قطيعاً من الإبل: لمن هذه الإبل؟ قال: لله في يدي.

واعلم -أيُّها المؤمن- أنَّ كلَّ شيء تحت يدك من بيت ومتجر ومركبة وممتلكات ليست لك، إذا أردت الكلمة الصحيحة التوحيديّة التي ليس عليها مأخذ فقل كما قال هذا الأعرابيُّ: لله في يدي.

بعض الأبنية يكتبون عليها: الملك لله، حينما تشعر أنَّ يدك على ممتلكاتك وعلى مالك يدُ أمانة، وليست يدَ ملك، فهذا الشعور يجعلك تتّصف بنفسيَّة من سيُحاسَب، هذا المال وُضع بين يديك مؤقتاً لينظر الله كيف تعمل، وأنت مستخلَفٌ فيه، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقد قال الله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد:٧].

أنت أمين صندوق مؤتمنٌ عليه، والله مطّلعٌ عليك سيحاسبك وسيُنبِّئك بما عملت.

وكلُّ شيءٍ في حوزتك مصيره إلى الله، وهو الوارث.

الوارث سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه... هذا المعنى نشعر به في حياتنا الدُّنيا، ندخل إلى بيت في أعلى المستويات وصاحبه تحت التراب، أولاده هم الذين يستمتعون بهذا البيت، فهم الورثة، وإذا تابعنا نجد أنَّ أحفاده يرثون آباءهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالوارث هو الباقي.

حدثني أحدهم عن إنسان من أهل العلم يملك مكتبة نادرة في بيته. له صديقٌ حميم رجاه أن يستعير كتاباً لليلةٍ واحدة فلم يوافق، لأنَّ الكتاب أغلى عليه من أولاده، هذا الصَّديق الحميم أقسم بالله العظيم أنّه بعد موت هذا العالم رأى الكتاب ملقى في

الطّريق، كيف كان صاحب هذه المكتبة حريصاً على كتبه، فلما مات أصبح الكتاب ملكَ أهله، لم يعبؤوا به فألقوه.

الشّيء بالشّيء يُذكر... أتمنى على كلِّ أخٍ مؤمن عنده مكتبة أن يحرص حرصاً لا حدود له على تعليم أولاده لئلا تُوضع هذه المكتبة في مكان مهمل من البيت، ولئلا تصبح يوماً من سقط المتاع، فتلقى خارج البيت على نحوٍ ما، حبِّب إليهم الكتاب ولا تجعلهم أعداءً له، كثيرٌ من الأسر تجد أنَّ المثقَّف الوحيد فيها هو الأب، وكلُّ من حوله يناهضون الكتاب، عوِّدهم أن يقرؤوا، اجعل القراءة متعةً في البيت، إنَّ أرقى هوايةٍ يهواها الإنسان هوايةُ القراءة، لأنّك بالقراءة تأخذ عصارة عقول النّابغين، عقل النّابغ كلُّه في مئة صفحة، فإذا قرأتها اطَّلعت على خبراته ورشفت من رحيق عصارة عقله فأخذت الكثير.

عود على بَدء... الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه، وهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠].

تدبَّر معي هذه القصة التي تكاد تكون من نسج الخيال؛ ذلك أنَّ أغنى أغنياء العالم يضع سبائكه الذهبيَّة في صناديق على مستوى غُرف، وأنَّ الغرفة لها باب حديدي، وهذا الباب محكم الإغلاق، دخل إلى غرفته يوماً وأُغلق عليه الباب خطأً، وهو رجل لا يكاد يلقي عصا الترحال فظنَّ أهله أنَّه مسافر، فمات من الجوع وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جرح أُصبعه وكتب على الحائط بدمه: أغنى رجل في العالم يموت جوعاً.

نمضي معاً في رحاب قصة أخرى واقعيَّة: رجل ركب ناقته ليقطع بها الصحراء، فضلَّ الطريق ونفد طعامه وزاده وشرابه، وأيقن بالهلاك، ثم لمح عن بُعدٍ واحةً فأشرق في نفسه نور من الأمل، هُرع نحو الواحة فإذا فيها بركة ماءٍ، شرب منها حتى ارتوى ثم تولَّى إلى الظلِّ، حانت منه التفاتة فإذا كيسٌ إلى جانب البركة فسُرَّ به سروراً عظيماً وهو يحسب أنَّ فيه خبزاً ليأكل ففتحه فقال: واأسفاه هذه لآلئُ... ما قيمة اللآلئ في الصحراء. وهو يحتاج إلى رغيف خبز لا يقدَّر ثمنه بمال الدنيا.

والإنسان ضعيفٌ أمام الله عزَّ وجلَّ، كلُّ شيءٍ تملكه قد يتلاشى أمام شربة ماء، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنَّه الوارث من حيث إنَّ الأشياء كلَّها صائرةٌ إليه، فماذا نفهم من قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بيد من كانت الأمور حتى قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾؟ أجاب العلماء: بأنَّ الأمور كلَّها بيد الله دائماً، فقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

ولكنَّ أهل الدنيا الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وانطمست بصيرتهم يرون أنَّ الأقوياء في الدُّنيا بيدهم الأمور كلُّها، هم يعبدونهم من دون الله، هم يرون أنَّ الأقوياء بيدهم أسباب الحياة، أمَّا يوم القيامة فهؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وتوهَّموا أنَّ الأمر بيد الأقوياء يرون أنَّ الأمر بيد الله عزَّ وجلَّ، فأنْ يصير الأمر بيد الله يوم القيامة؛ بمعنى أنَّ هذا الإنسان الجاهل كان يتوهَّم أنَّ الأمر بيد زيدٍ أو عُبيد، أمَّا يوم القيامة فلا يرى الأمر إلا بيد الله عزَّ وجلَّ.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد:١٠].

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾... بالمناسبة... النبي ﷺ لم يُورِّثْ درهماً ولا ديناراً، ولكن ماذا ورَّث؟ ورَّث هذا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر.

لذلك فالإنسان حينما يكون حظُّه من الدنيا مالاً كمال قارون نقول له: إنَّ الله أعطى قارون المال وهو لا يحبُّه، ثم سلبه منه فجأةً وما انتفع به، فقد قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا

بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٨١].

وحينما يكون نصيبك من الدنيا كنصيب فرعون نقول لك: إنَّ الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يُحبُّه، وسلبه منه فجأةً حينما غرق وقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فما نفعه إيمانه هذا ولا نفعه ملكه... في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس:٩٠].

لكنَّ الله تعالى إذا أحبَّك أعطاك في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:٢٢].

فإذا كان نصيبك من الدنيا علماً صحيحاً، معرفة بالله عميقة، فكراً نيِّراً، قلباً طاهراً، استقامة على أمر الله، عملاً طيباً، إخلاصاً لله، هذا الذي نال من الله عزَّ وجلَّ أكبر نصيب لأنَّه نال من ميراث النبي ﷺ.

ألا تسمع أنَّ بعضهم إذا أرادوا الثَّناء على عالم يقولون عنه: هذا وارث محمَّديّ. أي ورث عن النبي ﷺ العلم، والحكمة، والعمل... فينبغي أن يكون كلُّ واحدٍ منَّا وارثاً محمديّاً، يأخذ من ميراث النَّبيّ ﷺ وهو العلم، وفي الحديث: «إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [سنن الترمذي وأبي داود].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السُّوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نرَ فيه شيئاً يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في

المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلّون، وقوماً يقرؤون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ [رواه الطبراني في الأوسط إسناده حسن].

قد يأتي إنسان من مكان بعيد ويستغرق منه الطريق ساعة ليحضر مجلس علم، ليتلقى في المسجد بعضَ ميراث النبي ﷺ معنى ذلك أنّه أخذ بحظٍّ وافر، أخذ من ميراث النّبيِّ ﷺ.

من جماليّات القرآن الكريم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كلَّما أشار إلى شيء يعقِّب بجملة هي قانون محكَم، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص:١٤]. فلقد أعطاه حكماً وعلماً، وهذا شيء ثمين وجميل.

أجل، شيء جميل، لكن ماذا قال الله بعدها؟ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾... فهذا قانون، أي إذا أردت أن تنال علماً وحكماً فكن محسناً، فثمن العلم والحكمة الإحسان.

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد:١٠].

وقال أيضاً: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣].

لذلك ينادي ربُّنا جلَّ جلاله يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾... فيجيب الخلائق جميعاً: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾... فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر:١٦].

إذا كنت في الدُّنيا على صلةٍ محكمةٍ مع الله عزَّ وجلَّ وهو راضٍ عنك وأنت محبٌّ له متفانٍ في خدمة خلقه فهذا هو الفوز العظيم، أن يكون لك مكانٌ عند الله عزَّ وجلَّ فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [القمر:٥٤].

والله هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النَّجاح، هذا هو التَّفوُّق، هذا هو التألُّق، هذه هي البطولة. قال ابن الوردي:

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنَّما من يتقي الله البطل

في معجم تاج العروس: الوارث صفةٌ من صفات الله تعالى وهو الباقي الدَّائم بعد فناء الخلْق، وهو يرث الأرض ومن عليها، وما عليها، للعاقل ولغير العاقل.

يجول في خاطري قصَّة سأرويها: رجل من أصحاب النّشاطات الصّناعيّة الكبيرة، له ثروة طائلة جداً، وقد رأيت قصره في بعض المدن الشماليّة عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف، في ذاك الوقت كان ثمنُه خمسةً وثلاثين مليوناً، وتبلغ قيمته الآن عشرات الأضعاف، وقد توفِّي في عمر الثانية والأربعين وكان مديد القامة، دفن في قبرٍ ولعله كان صغيراً فما اتسع القبر لقامته المديدة فاضطُرَّ الحفار إلى أن يدفعه في صدره، فأصبح رأسه مع جسمه يشكل زاوية قائمة وهو الذي يملك أفخم قصر في إحدى مدن الشمال، بلاط أرضيّاته من الرخام الشَّفاف، وهو من أغلى أنواع الرخام، لمن هذا المنزل الفخم؟ لغيره، وبعد غيره؟ ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾.

معنى ذلك أنَّ يدك على كلِّ شيء يدُ أمانة؛ فهذا معنى مهمٌّ جداً، البيت مؤقَّت، والمركبة مؤقّتة، والمتجر كذلك مؤقَّت، كلُّ شيء تحوزه يداك فيدك عليه يدُ الأمانة، يد الاستخلاف والله ينظر كيف تعمل، وفي النِّهاية هذا كلُّه يؤول إلى الله عزَّ وجلَّ... لأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو المالك الحقيقيُّ، وملكه أوسع أنواع الملكيّة، إذا قلنا: الله هو المَلِك، أو المالك، مالك خلقاً، ومالك تصرُّفاً، ومالك مصيراً.

هو الذي خلق، وهو المتصرِّف ومصير كل شيء إليه، فهذا هو المالك، نحن نملك تملُّكاً مجازياً، قد تشتري بيتاً وتؤدي ثمنه نقداً، والبيت فخم وأنت لم تَبْنِه، بل بُني بيد غيرك، قد تنتفع به، وقد لا تنتفع به، إمّا أن تتركه وإمّا أن يتركك.

«دخل عمر رضوان الله عليه على النبي ﷺ وهو على سرير قد أثر في جنبه فقال: يا رسول الله! لو اتخذت فراشا أوثر من هذا، فقال يا عمر: ما لي وللدنيا وما

للدنيا ولي؟ والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها» [الترمذي عن عبد الله بن عمر].

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

والله عزَّ وجلَّ سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه في عدّة مواضع، فمن هذه المواضع... ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

ومن هذه المواضع أيضاً: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

في بعض أجهزة الحواسب يقرأ الحاسب أربعمئة وخمسين مليون حرف في ثانية، أمَّا الحواسب الشخصيَّة التي بين أيدي النّاس فهي تقرأ مليون حرف في الثانية، هل هناك حسابٌ أسرع من هذا الحساب؟ ومع ذلك ربُّنا عزَّ وجلَّ لعلمه أنَّه سيكون هناك حواسب ذات سرعات عالية سمح لذاته العلية أن يوازنها مع خلقه فقال: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾... هذا الذي يأخذ الحديد من فلزَّات الأرض، ويجعله صفائح ويشكّله على شكل مركبة، وهذه المركبة تزوّد بمحرِّك وعجلات وأبواب وفرش وكهرباء وتكييف... إلى آخره من المستلزمات، هذه المركبة سمَّى الله سبحانه صانعها -مجازاً- خالقاً.

قال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾... فأقرب شيء أن توازن بين كلية صناعية وكلية طبيعية، الكلية الصناعيّة حجمها كبير ولها صوت، ومن أجل أن تنقّي الدّم من البول تحتاج إلى ثماني ساعات، أمّا الكُلية الطبيعيّة فحجمها كقبضة الكفِّ فيها طريق طوله مئة كيلومتر وتعمل بصمت تامٍّ وأنت مستلقٍ، وأنت تمشي،وأنت تركب،وأنت نائم، وأنت يَقِظ، وأنت تحاضر في الناس وهي تعمل، والدَّم يمرُّ في هذه الكلية خمس مراتٍ في اليوم يقطع طريقاً يزيد على مئة كيلو متر وأنت لا تدري، وازن بين كلية طبيعيّة وكلية صناعيّة.

وازن بين آلة تصوير والعين، آلة التَّصوير تريك الصُّور صغيرة، أمَّا عينك فتريك الأشياء بحجمها الحقيقيّ، فتريك الجبل جبلاً، وملوَّناً، العين تدرك الفرق بين درجتين

من ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد، فلو أخذنا لوناً واحداً وقمنا بتدريجه ثمانمئة ألف درجة فالعين السليمة تدرك الفرق بين كلِّ درجتين، ربُّنا عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وازن بين الحاسب وذاكرة الإنسان... فقد قال بعض العلماء: ذاكرتنا بحجم حبَّة من حبوب العدس، هذه الذّاكرة تتّسع لسبعين مليار صورة، الإنسان الذي يعيش سبعين سنة تقريباً مخزَّن في ذاكرته سبعون مليار صورة كلُّها جمعت في مكان مقدارُهُ حبَّة العدس، فهذا خلق الله، ولو نظرنا إلى أيِّ أرشيف حوى ما حوى من إضبارات لوجدنا معلومات قليلة موضوعة في حجم كبير، وتحريكها بالغ الصعوبة، هذه الذّواكر الموجودة في الدماغ مفروزة، ذاكرة سمعية، ذاكرة بصرية، ذاكرة شمّيّة، ذاكرة ألوان، ذاكرة أرقام، ذاكرة وجوه، وهذه الحيزات في الذاكرة في مكان قريب كثير الاستعمال، وهناك مكان متوسِّط، ومكان بعيد، وهناك مكان تُمحى فيه المعلومات، إنَّ الذاكرة وحدها من آيات الله الدَّالَّة على عظمته، فوازن بين أرشيف، أو دفتر، أو حاسوب، والذاكرة البشريَّة.

وفي مجال الإرث كذلك فقد وازن ربُّنا عزَّ وجلَّ بينه وبين خلقه فقال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

تحضرني قصة خلاصتها أنَّ أحد الأشخاص في الشَّام ترك مبلغاً ضخماً يبلغ الألف مليون، أحد الورثة نصيبه من هذا الميراث تسعون مليوناً، فترك محلَّه التّجاريّ، وبدأ يسعى من دائرةٍ إلى دائرة ليأخذ براءات الذّمّة وينهي أمور الماليّة والتّركات، وهو في زحمة العمل من دائرة إلى أخرى، ومن مكتب إلى مكتب، ومن مستشار إلى مستشار ليحصل على هذا المبلغ الضَّخم البالغ تسعين مليوناً، وفي أحد الأيام دخل إلى الحمّام فوافته المنيَّة فيه قبل أن يقبض درهماً واحداً... فهل هذا وارث حقّاً؟ إنه لم يستطع أن يتنعَّم بمال مورِّثه إطلاقاً.

ومن الورثة من يستمتع بالمال عدد سنين، وفي النّهاية ما من وارثٍ إلا وسيموت، لأن كلَّ مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت، أمّا الله عزَّ وجلَّ فهو خير الوارثين.

أصبح لدينا ثلاث موازنات: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾... ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

مع قصة أخرى مفادها أنَّ إنساناً اشترى بيتاً مع أخته مناصفةً، ودفع كلُّ طرفٍ الثَّمن بالتَّمام والكمال، إلا أنَّ البيت سُجِّل باسم أخته لأنّها هي المعنيَّة في الجمعيّة التّعاونيّة، وكان ثمن البيت في البدء خمسمئة ألف فأصبح ثمنه بعد حين ثمانية عشر مليوناً، وتعمل أخته في المحاماة، فقالت له: لا بدَّ من أن تأخذ مليوناً واحداً وأن تخرج إلى بيت آخر فالبيت باسمي، فخرج منه لكن مرغماً... فهي ذات قوّة وتعرف دخائل القوانين، فأخرجته بطريقةٍ -في ظنها- ذكيَّةٍ قانونية، وعنده أكثر من أربعة عشر ولداً فشرّدتهم بين أهل زوجته، وأهله، وبقيت وحدها في البيت... وسارت عجلة الأيام مسرعة وأصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها وعانت منه شهرين ثم توفيت وأخوها هو وارثها الوحيد، فرجع إلى البيت وأولاده معه واستأثر به، فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أحد العلماء يرى أنَّ الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاَّك، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كلُّ شيءٍ ومصيرُه، وهو القائل إذ ذاك: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وهو سبحانه المجيب: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

إذا وقف أحدنا أمام سوق طويل وقرأ الأسماء على الصّفّين وغاب خمسين سنة، سوف يجد الأسماء كلّها مختلفة، فقد تسلّم هذه المحالَّ أشخاص جدد، كل خمسين سنة يتبدَّل الأشخاص ويأخذ الورثة الجدد، الأراضي، والمزارع، والمحالَّ، والبيوت من واحد إلى آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يتوهم الأكثرون أنَّ لأنفسهم مِلكاً، وينكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال أنَّ الملك ليس لهم لكنَّه للواحد القهَّار.

المؤمن يرى وهو في الدنيا ما سوف يراه جميع الناس عند الموت، هذه هي بطولته... والله لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقيناً... المؤمنون الرّاسخون الكبار يرون وهم في الدّنيا الحقائق قبل كشف الغطاء، أمَّا غير المؤمنين فهم هنا في الدّنيا في أوهام وفي ضلالات، أمّا إذا انكشف الغطاء فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ [الزمر:٤٧].

أؤكِّد ما قلته... إنَّ حكمة المؤمن أنَّه يرى الحقائق قبل فوات الأوان، يراها في الوقت المناسب فينتفع منها، وأمَّا كلُّ الناس فبعد فوات الأوان يرون جميع الحقائق قال تعالى: ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس:٩١].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فطوبى لمن يرى أنَّ كلَّ ما في يديه مستخلَفٌ فيه، محاسَب عليه، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ينظر ماذا يفعل به، لذلك يحاسب نفسه حساباً شديداً قبل أن يحاسبه الله تعالى، أمَّا الجاهل فهو الذي يظنُّ أنَّ الذي بين يديه ملكه وحصَّله بجهده وعرق جبينه، فهو في هذا كقارون الذي قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص:٧٨].

قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص:٨١].

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾... فهو يدّعي أنَّ عنده خبرات متراكمة، وقد حصَّلت هذا المال بجهدي وبذكائي، وبخبراتي، وبمتابعتي، وغاب عنه أنَّ الله سبحانه وتعالى وفَّقه، وهناك من هو أذكى منه ولم يحصِّل هذا المال، قال أبو تمام:

ولو كانت الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكن إذاً من جهلهنَّ البهائِمُ

فالحكمة أن ترى الشَّيء قبل أن تصل إليه، أو أن تصل إلى الشَّيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسدك، أن تعيش المستقبل، فهذا كلُّه صائرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

الإمام الرازي يقول: «الوارث: مالك جميع الممكنات وهو الله سبحانه وتعالى، ولكنّه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده، فالعباد إنْ ماتوا وبقي الحقُّ سبحانه وتعالى، فالمراد أنَّ الذي يكون وارثاً هو الله جلَّ جلاله»، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ مالك الملك، كل شيء يُملَّك هو مالكه، وهبه لك ليمتحنك، إذاً هو ملك الله في يدك، وهذا الجواب أبلغ جواب.

وقال بعضهم: «الوارث هو الذي تسربل بالصمديَّة بلا فناء، وتفرَّد بالأحديَّة بلا انتفاء».

وقيل: «الوارث الذي يرث بلا توريث أحد، الباقي الذي ليس لملكه أمد»، وذكر بعض العلماء: «الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق».

ويقول بعض العلماء: «الوارث هو الذي تفرَّد بالأحديَّة بلا انتهاء»، أي: وارثٌ واحدٌ أحدٌ وليس له وارثٌ، يرث كلَّ خلقه وليس له وارث، وتسربل بالصمدية بلا فناء الذي لا يرثه أحد.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (الوارث)

اسم الوارث ومشتقاته ورد في مواضع عدّة من كتاب الله ففي سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣].

وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم:٤٠].

وفي سورة القصص قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص:٥].

فهنا معنى جديد... إن الأرض لله يورثها عباده الصالحين، أحياناً الله عزَّ وجلَّ يورث الممتلكات لعباده الصالحين إذا استقاموا على أمره.

والوارث هو الذي أورث المؤمنين ديار الكافرين في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٧].

والوارث هو الذي أورث المؤمنين مساكنهم في الجنَّة، وفي الدّعاء للميت: اللهم أبدله أهلاً خيراً من أهله، وداراً خيراً من داره، وجيراناً خيراً من جيرانه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر:٧٤].

إنسان درس في الجامعة، ونال الدكتوراه، وفتح عيادة، وفتح الله عليه دخلاً وفيراً، وعاش في بحبوحة، مسكن فخم، وزوجة، وأولاد، ومكانة اجتماعية، إذا مرّ أمام الجامعة ماذا يخطر في باله؟ يقول: لولا هذه الجامعة والتحاقي بها، و دراستي فيها، ونيل الدكتوراه، ما كنت بهذه البحبوحة.

الله تعالى جعل العمل الصالح في الحياة الدنيا ثمناً للآخرة، فالإنسان وهو في الجنَّة يقول: لولا أن الله جاء بنا إلى الدنيا، فتعرَّفنا إلى الله، وتعرَّفنا إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، تعرَّفنا إلى عظمته، أطعناه، عبدناه، أدَّينا الصلوات الخمس، صمنا رمضان، حججنا بيت الله الحرام، أنفقنا من أموالنا، حضرنا مجالس العلم، لولا أنَّ الله

أورثنا الأرض، وفي الأرض تعرفنا إلى الله، وتبنا إليه، واصطلحنا معه، وقدّمنا الأعمال الصالحة، لما كنّا في الجنة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

وفي آية أخرى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

حين يكون الإنسان مؤهّلاً لإدارة الدّنيا يعطيه الله الدّنيا، فإن لم يكن مؤهّلاً لها لا يعطيه إيّاها.

فالدّنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظّلم، يقول ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الله ينصر الأمّة الكافرة العادلة، على الأمّة المسلمة الظّالمة.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:].

هذا المعسكر الكبير العملاق، الذي دام سبعين عاماً، يرفع شعار لا إله أين هو الآن؟ من حاربه؟ لقد تداعى من الدّاخل.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

ويقول تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

بطولة المؤمن لا أن يموت وتنتهي دعوته، بطولة المؤمن أن يكون حوله دعاة على شاكلته، هذا ما يسمى اليوم العمل المؤسساتي، العمل المؤسساتي لا يتأثر بموت أصحابه، العمل المؤسساتي حضارة، لا يتأثر بموت أصحابه، وأول من أشار إلى هذا العمل المؤسساتي سيدنا زكريا.

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

كان يبتغي الولد مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٣-٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

قال بعض العلماء: لعل معنى الصالحين غير المعنى المتبادر، الصّالحون أيّ الصّالحون لإدارتها، إذا أقاموا العدل يملكونها ولو كانوا كفاراً، وإذا ظلم المسلمون بعضهم بعضاً يخسرونها، ولو كانوا مؤمنين.

والنّبيّ ﷺ يقول في دعائه: «اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيك، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصيباتِ الدُّنْيا، وَمَتِّعْنَا بأَسْمَاعِنا وأَبْصارِنا وقُوَّتِنا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، واجْعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنا فِي دِينِنا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنَا» [سنن الترمذي، من حديث ابن عمر].

إذا فقد الإنسان بصره قبل أن يموت فمن ورث الآخر؟ هو ورث بصره، إذا فقد سمعه قبل أن يموت فهو ورث سمعه، أمّا إذا استمتع ببصره وبسمعه وعقله وقوّته إلى أن مات فهذه هي التي ورثته، ومتّعنا اللهمَّ بأسماعنا، وأبصارنا، وقوّتنا، وعقولنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا.

وفي بعض الأدعية: إلهي! أنت الوارث للعباد، المتجلّي بهذا السرّ لأهل الوداد، أشرق على قلبي نور اسمك الوارث الدائم حتى أرى الكلَّ لك وأقبل عليك بقلبٍ

هائم، ورِّثني يا رب! علوم أنبيائك، ومواهب أهل سمائك، ورثني أرض العبودية في نفسي حتى أتكمَّل، إنّك على كلِّ شيءٍ قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

نصيب المؤمن من اسم الله (الوارث)

من علاقة المؤمن بهذا الاسم، أولاً أن يتَّقي الله في حقوق الإرث، هناك حديث يقصم الظهر.

«إن الرجل ليعمل، وإن المرأة لتعمل بطاعة الله ستين عاماً، ثم يحضرهما الموت، فيضران في الوصية، فتجب لهما النار» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

صائم، مطبّق لكلِّ العبادات، لكن حرم البنات، كتب هذا المحلَّ الضّخم لابنه، وعنده أربع بنات، توهّم أنّه إذا أعطى البنات انتقل المال إلى أُسر أصهاره، وهل أنت مشرِّع؟ لقد تولَّى الله بذاته توزيع الإرث، كثير من الأسر المسلمة يحرمون البنات، الأخ الأكبر يأخذ وكالة عامة من أخواته البنات، ويتولّى الثّروة بأكملها، وتحت سمع الأب وبصره.

علاقتك بهذا الاسم الوارث أن تتقي الله في الإرث، أن تعطي كلاً حقَّه، الابن البار يأخذ كالابن العاق، والعاق كالبار، شأنهما مع الله، ولو حرمت العاقّ لزدته عقوقاً.

ومن علاقة المؤمن بهذا الاسم الوارث أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك، بل هو صائر إلى غيرك، يدك عليه يد الأمانة، وأنت مستخلف فيه، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً، لأنَّ الله ملكك ما ملكك لينظر ماذا ستفعل.

كنت في بلد عربي مكتوب على قصر الأمير عبارة رائعة: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك، اجعل هذا شعاراً.

يدك على ما تملك يد الأمانة، الملكيّة مؤقّتة، أنت ممتحن في هذا المال، ممتحن في هذا المنصب، ممتحن في هذا البيت، ممتحن في هذه المركبة.

ينبغي أن يوقن المؤمنْ من أجل أن تتوضّح علاقته بهذا الاسم الوارث أنَّ الله هو الذي يقسم الأرزاق، وأنَّ الميراث الحقيقيَّ هو ميراث العلم والأخلاق، وأكبر شيء تقدِّمه لأولادك أن تعرّفهم بالله، وتحملهم على طاعته.

علاقتنا بهذا الاسم... أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك صائرٌ، بل هو صائر إلى غيرك، يدك عليه يد الأمانة، وأنت مستخلفٌ فيه، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً لأنَّ الله ما ملَّكك ما ملَّكك إلا لينظر ماذا ستفعل.

اسم الوارث يجعل علاقة الإنسان بما في يده علاقة الاستخلاف لا علاقة التملُّك.

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تُهنَّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

الخلاّق

اسم (الخلّاق) ورد مطلقاً يفيد المدح والثّناء على الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر:٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١].

من معاني اسم الله (الخلاق)

«الخلّاق» صيغة مبالغة لاسم الفاعل (الخالق) وهو اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً وسيأتي الحديث عنه في الصفحات القادمة، والمبالغة في أسماء الله الحسنى تعني الكمَّ، والكيف.

فالله عزَّ وجلَّ خالق، وخلّاق، يخلق ما يشاء، أمّا الكمُّ فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣].

وأمَّا النوع فأُشير إليه من خلال كلمتي (أتقن، أحسن) في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل:٨٨].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التغابن:٣].

الخلّاق جلَّ جلاله خلق من لا شيء كلَّ شيء، على غير مثال سابق، لكنَّ الله جلَّ في علاه سمح للإنسان أن يُعطى هذا الاسم مجازاً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

فالإنسان أحياناً يصنع طاولة، يصنع شيئاً من كلِّ شيء، وعلى مثال سابق، فالمواد الأوليَّة كلّها يأخذها من الأرض، والفكرة يراها بعينه.

الله عزَّ وجلَّ أودع في جسم الإنسان كلية بحجم البيضة، صغيرة، تعمل بصمت، بلا ضجيج، بلا تكلفة، تعمل ليل نهار، وأنت نائم، وأنت تمشي، وأنت تتحرَّك، وأنت مسافر، وأنت مقيم، وكل كلية فيها عشرة أضعاف حاجتك، فالكليتان فيهما عشرون احتياطاً، أمَّا الكلية الصناعيَّة فهي كحجم الطَّاولة، يجب أن تستلقي على السَّرير، لساعات، وأن تدفع مبالغ طائلة، وأن تترك عملك ثلاث مرات في الأسبوع، وأن تتألم، هذه كلية صناعيّة، وتلك كلية طبيعيّة.

آلة التَّصوير، تحوي عشرة آلاف مستقبل ضوئي في كلِّ ميليمتر، بينما في العين مئة مليون مستقبل ضوئي.

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

نظام الزوجيَّة مطبَّق في كلِّ شيء، في النبات. ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد:٣].

تصوَّر لو لم يكن هناك بذور، وخلق الله لنا مليارات الأطنان من القمح، ثمَّ استُهلكت جميعُها! في النَّبات بذور، والبذرة بالقوة تغدو أشجاراً، في جسم السمكة مبيض، فهي ملايين البيوض، وكلُّ بيضة سمكة، هذا عطاء الله.

اسم الخلّاق يعني إتقان الصنعة، كما أنّه يعني الخلق اللانهائيَّ، فكلُّ شيء يخلقه الله عزَّ وجلَّ لا حدود لخلقه، وأمّا ما يُشاع عن أزمة مياه حيناً، وعن أزمة غذاء حيناً آخر، فكلام غير واقعيّ، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن:١٦].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

من ناحية أخرى، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١].

هذا مفهوم الرُّبوبيَّة، عطاء، الله عزَّ وجلَّ، خلق الكون، خلق الإنسان، خلق الحيوان، خلق النَّبات، هذا عطاء الله عزَّ وجلَّ، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، أمدَّك بالهواء، بالماء، بالنبات، بالحيوان، وأمدَّك بمقوِّمات حياتك، هذا معنى الرَّبِّ؛ خلق وأمدَّ، لكنَّه أرسل إليك رُسُلاً، افعل ولا تفعل، أمر، ونهي، حلال وحرام، وهذا مفهوم التَّشريع، مفهوم الإلوهيَّة.

والبشر في الأعمِّ الأغلب لم يختلفوا على مفهوم الرُّبوبيَّة، حتى الذين عبدوا الأوثان قال تعالى فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

إبليس آمن بالله خالقاً، قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢].

والحكمة بالغةٍ بالغة ربط الله تعالى بين مفهوم الرّبوبيّة، ومفهوم الألوهيَّة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ [البقرة:٢١].

الأمّ قد تقول لابنها: يا بنيَّ والدك لا يرضى أن تتأخّر خارج البيت، يغضب أشدَّ الغضب، إنَّه يطعمنا، يكسونا، يحبّنا، أيّ إنّها أعطته مبرر الطَّاعة وهو العطاء.

فالجهة التي ينبغي أن تطيعها هي الجهة الخالقة، الخالق وحده ينبغي أن تطيعه، الخالق وحده ينبغي أن تنصاع لأمره.

هذه البقرة معمل، يقدِّم لك الحليب، وهو أحد أسباب الغذاء، بلا صوت، بلا ضجيج، بلا تلوث، تأكل الحشائش فتعطيك الحليب، فتصنع منه مشتقات الألبان.

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

نصيب المؤمن من اسم الله الخلاق

اسم الخلّاق ينقلنا إلى عبادة من أرقى العبادات، إنّها عبادة التّفكّر، وهي حظُّ المؤمن من اسم الله الخلّاق، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان قوَّة إدراكيَّة، ونصب له كوناً ينطق بكلِّ تفاصيله بوجود الله، ووحدانيَّته، وكماله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

والله عزَّ وجلَّ جعل التَّفكُّر بآياته الكونيَّة والتكوينيَّة والقرآنيَّة سبيلاً إلى معرفته، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية:٦].

أي ليس هناك من طريق للإيمان بعظمة الله كالتَّفكُّر في آياته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ﴾ [النحل:١٠٤].

الكون متحرِّك، ولولا أنَّه متحرِّك وبناء على قانون الجاذبيَّة لاجتمع الكون كلُّه في كتلة واحدة، ولكن حركة الكوكب تنشأ عنها قوَّة نابذة تكافئ القوَّة الجاذبة، فالمحصِّلة حركة مع سكون، أو سكون حركيٌّ، شيء متحرِّك ويبدو ساكنًا.

الأرض متحرِّكة، تقطع في الثانية ثلاثين كيلومترا تقريباً، ففي السَّاعة الواحدة نقطع مئات ألوف الكيلو مترات، هذا شيء من مسلَّمات العلم الفلكي: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾.

حينما يعوِّد الإنسان نفسه بأن يجول في آيات الله الدالة على عظمته فإنّه يزداد معرفة بالله، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولكن العقول تصل إليه، فإذا كان بُعْد أقرب نجم ملتهب عنا أربعَ سنوات ضوئيّة، ولو أنَّ طريقاً معبّداً أنشئ لهذا الكوكب، ومعنا مركبة أرضية، وسرعتنا ١٠٠ كم/ سا فإنّنا نحتاج إلى خمسين مليون عام لنصل إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

وكلمة (إنما) تعني أنَّ العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله.

إذا كانت الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وجوف الشمس يتَّسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وبين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متراً، وهناك نجم صغير أحمر اللون في برج العقرب اسمه قلب العقرب يتَّسع للشَّمس والأرض مع المسافة بينهما.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر:٦٤].

هذا الإله العظيم يُعصى؟ ألا يُخطب ودُّه؟ ألا تُرجى جنته؟ ألا تُخشى ناره؟

تصوَّر أنَّ كلَّ عناصر الكون يحكمها قانون الانصهار، وكلَّما ارتفعت الحرارة ازدادت سرعة الذّرّات، فأخذ الجسم أو العنصر شكلاً، من الحالة الصلبة إلى الحالة اللزجة، إلى الحالة المائعة، إلى الحالة الغازيَّة، إذاً فالكون كلُّه إمَّا صلب، أو مائع، أو غاز، لكنّك ترى طاولة صلبة، ومقعداً وثيراً ليّناً، وماء تشربه، وهواء تستنشقه، من الذي خلق كلَّ عنصر في الأرض بدرجة انصهار مختلفة، لولا هذا التفاوت في درجات الانصهار لكان الكون كلُّه في حالة واحدة.

وزن الإنسان على الأرض ستون كيلو مثلاً، بينما يزن على القمر عشرة كيلو فقط، من خلق الأرض بحجم يتناسب معنا؟ هذا من نعم الله الكبرى، أنَّك موجود على كوكب وزنك فيه معتدل، لكن على كوكب آخر -فرضاً- قد يكون الوزن ستين مليون كغ، صارت الحركة أشغالا شاقة إذاً: من جعل هذه الأرض متناسبةً مع حاجاتك؟

لو أنَّ سرعة الأرض عالية جداً، فليل ساعة، ونهار ساعة، إذاً لاضطربت الحياة، لو أنَّها بطيئة، إذاً الليل شهر، والنَّهار شهر،

فدوران الأرض على محور ليس موازياً لمستوى دورانها ينشأ منه الليل والنهار، ولو أنَّ الأرض تدور حول الشَّمس على محور عموديٍّ على مستوى دورانها، إذاً هنا الصيف إلى أبد الآبدين، وهناك الشّتاء إلى أبد الآبدين، وليس هناك فصول.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧].

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف:١٠٥].

الهواء طبقة فوق الأرض، سمكها خمسة وستون ألف متر، والهواء يتحرّك مع الأرض، ولو أنَّ حركة الهواء منفصلةٌ عن حركة الأرض لنشأت أعاصير على سطح الأرض سرعتها ألف وستمئة كم/ سا.

وبعض الأعاصير في أمريكا تقترب سرعتها من خمسمئة كم/ سا فلا يبقى شيء على وجه الأرض، تُدمِّر مدنًا بأكملها.

الهواء وسيط، ولولا الهواء لما سمعت كلامي، هو ينقل لك الدفء، والحرارة، والصوت.

من الذي خلق الماء، لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

لو أن الفكر انطلق في التفكر في خلق السماوات والأرض لعرف الله، هذا الإله العظيم ينبغي أن يُخطب وده، وهذا الإله العظيم ينبغي أن يُطاع فلا يُعصى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢].

البصير

وردِ هذا الاسم «البصير» في أكثر من خمسين آية، ورد معرفاً بالـ، وورد منوّناً، وورد مقترناً باسم السميع والخبير، وورد غير مقترن، فمن الآيات التي ورد فيها اسم «البصير» معرّفاً قوله تعالى في مطلع سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وورد هذا الاسم أيضاً منوناً في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥].

هذا الاسم ورد أيضاً في السنة الصحيحة: «إِنَّكُم لا تَدْعُونَ أَصَمًّا، ولا غَائِبا، إنكم تَدْعُونَ سَمِيعا بَصِيرا» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله (البصير)

البصير: صيغة مبالغة، والمبالغة في اللغة تعني مبالغة الكم، ومبالغة النوع، أنت أحياناً تنظر إلى جهة واحدة، وليس في الإمكان أن تنظر إلى جهتين معاً، لكن الله

سبحانه وتعالى ينظر إلى كل الخلائق من دون استثناء ويرى أدقَّ شيء، ومهما خفي على الناس لا يخفى عليه.

الله جل جلاله هو «البصير» المتصف بالبصر، و «البصير» صفة من صفات ذاته، تليق بجلاله، في علم العقيدة يجب إثباتها من دون تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، نفوض معنى البصير إلى الله عز وجل، لا نجسد، ولا نعطل، إن ألغينا أنه بصير تجرأنا عليه، وإن مثلنا بصره كبصرنا وقعنا في خطأ كبير.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك، الله عز وجل يبصر جميع الموجودات في عالم الغيب والشهادة، يرى الأشياء كلها مهما دقت أو عظمت، مهما خفيت أو ظهرت.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ [غافر:١٩].

البصر: هو العين، أو حاسَّة الرُّؤية، وقيل: البصر هو النُّور الذي تُدرَك به المُبْصَرات، ومعلوم أنَّ العين مهما تكن حادَّة النَّظر ومهما يكن الشَّيء واضحاً فلا بدَّ من وسيط من النُّور يتيح للعين أن ترى، ويمكن أن تُسحب هذه الحقيقة على العقل، فالعقل مهما كان حادَّ الذَّكاء، ومهما كانت الأمور واضحة وضوح الشَّمس، فلا بدَّ من نور إلهيٍّ يكشف لهذا العقل حقيقة الأشياء، لذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال:٢٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد:٢٨].

ودون هداية الله، دون وحي السماء، دون خطاب الله للبشر، فإنّ العقل يَضِلُّ ويُضِلّ، وينحرف ويُحرف.

أزمة العالم أنهم اعتمدوا على العقل البشري وحده، وغفلوا عن وحي السماء، لذلك العالم يعاني ما يعاني، يعاني من الحروب، من القتل، من الظلم، من سوء توزيع الثروة، العقل البشري دون وحي السماء قاد إلى هذه المهالك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

لا ليقتل بعضكم بعضاً، لا ليستغل بعضكم بعضاً، لا ليقهر بعضكم بعضاً، لا ليمحق بعضكم بعضاً، البشر من دون وحي السماء كما ترون.

والبصر أيضاً نفاذ الحقيقة في القلب، والبصيرة قوَّة القلب المدركِة للحقائق، نقول: فلان ذو بصيرة أي: في قلبه قدرة على كشف الحقائق، والمُبصِر هو العالم والحاذق، والتبصُّر هو التَّأمُّل والتَّعرُّف والثَّبات في الدِّين.

قبل أن نمضي في التَّعرف إلى هذا الاسم العظيم ينبغي أن نوضِّح هذه الحقيقة، وهي أنَّ مشكلة معظم النَّاس هي في انحراف الرُّؤية وفي خطأ الرُّؤية، لأنَّ الإنسان في الأصل مفطور على حبِّ ذاته وحبِّ وجوده، كما يحبُّ سلامة وجوده، ويحبُّ كمال وجوده، كما يحب استمرار وجوده، فكيف يسلك طريقاً فيه هلاكه؟ فكيف يقترف المعاصي والآثام؟ فكيف يُهلك نفسه بمعصية ربه؟ يُهلكها لأنَّه رأى خطأ أنَّ المعصية مغنماً لا مَغْرَماً، لأنَّه رأى خطأ أنَّ كسب هذا المال من طريق غير مشروعة ربح له، فالإنسان يحبُّ ذاته، فحرصه على سلامة وجوده، وحرصه على كمال وجوده، وحرصه على استمرار وجوده، يقتضي أن يقوم بطاعة الله عزَّ وجلَّ ولا يتوانى.

هؤلاء الذين يقترفون المعاصي والآثام، وهؤلاء الذين يرتادون الأماكن المحرَّمة، لماذا ارتادوها؟ لماذا أقبلوا على المعصية؟ لأنَّهم توهَّموا أنَّها تُسعدهم، ولو عرفوا أنَّ طاعة الله عزَّ وجلَّ هي وحدها التي تسعدهم وأنَّ الإقبال عليه هو الذي يطمئنهم لما سلكوا هذه الطريق الآثمة.

فما الفرق بين مؤمن مستقيم على أمر الله، وعاصٍ تفلّت من أمر الله؟ إنّها الرُّؤية.

سيِّدنا يوسف حينها دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف:٢٣]، ما الذي جعله يحجم عن اقتراف هذه المعصية؟ إنّها رؤيته لما تنطوي عليه من هلاك ومن بُعد عن الله عزَّ وجلَّ، فهذا الذي إذا دعته امرأة ذات منصب وجمال أقبل على هذه المعصية ما الفرق بينه وبين الطائع؟... الرُّؤية فقط... إنْ صحَّت رؤيتك صحَّ عملك، وإن صحَّ عملك سعدت في الدّنيا والآخرة، وإن انحرفت رؤيتك فسد عملك وإن فسد عملك هلكت في الدّنيا والآخرة، أكاد أقول: إنَّ الفرق الوحيد بين الشقي والسعيد، بين المستقيم والمنحرف، صحة الرؤية أو خطأ الرؤية.

لذلك كان عمر رضي الله عنه يدعو: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه».

إنّ أحدنا حينها يرى أنَّ المعصية مهلِكة له، وأنَّ الطَّاعة مغنمٌ له، هذه نعمة، والله الذي لا إله إلا هو لا تُقَدَّر بثمن؛ لا تُقدَّر بثمن أن ترى الحقَّ حقَّاً، لأنَّ هناك من يرى الباطل حقاً، ومن يرى الحقَّ باطلاً، أمَّا أنْ ترى الحقَّ حقَّاً، وترى الباطل باطلاً فهذه من كبرى النِّعم.

وبعد فأنت بحاجة إلى إرادة قويّة تحملك على اتّباع الحقِّ وترك الباطل، رؤية وإرادة، أرنا الحق حقاً، والباطل باطلاً.

في الكون ملايين من البشر ترى الحقَّ باطلاً، وترى الباطل حقَّاً، فإذا جاءت رؤيتك مطابقة لمنهج الله، فرأيت الحقَّ حقَّاً والباطل باطلاً، فهذه نعمة دونها الكثير من النِّعم.

من عادتي أنني إذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً، فإنني أقول له: أعظم نعمة أنت فيها هي نعمة الهدَى، أنَّ رؤيتك صحيحة، أنَّ في قلبك نوراً يريك الحقَّ حقَّاً والباطل

باطلاً، والإنسان إذا اتصل بالله ولاذ بالله، وانطلق لتنفيذ أمر الله، فإنّ الله يلقي في قلبه النُّور.

ففي اللغة إذاً؛ البصر هو العين، والبصر حاسة الرؤية، والبصر نور يقذفه الله في القلب، والبصر هو النور الذي يتوسط بيننا وبين المبصَرات، والبصر قوة القلب في كشف الحقيقة، والبصير والمبصر هو العالم الحاذق، والتبصّر هو التّأمّل والتّعرّف والثّبات على الدّين، هذا ما جاء في معاجم اللغة حول كلمة البصير.

ومن بعد فاسم البصير من أسماء الله الحسنى، وهو المبصر لجميع المبصَرات، وكلُّ ما في الكون فالله سبحانه وتعالى يبصره، وكلُّ المبصَرات ربُّنا عزَّ وجلَّ بصير بها.

البصير؛ هو الذي يشاهد الأشياء كلَّها، ظاهرَها وخفيَّها، والبصر في حق الله تعالى عبارة عن الصّفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصَرات؛ الشيء إذا انكشف لك انكشافاً تامّاً فقد أبصرته، قد ينكشف لك ظاهره، إذا انكشف لك ظاهره فأنت لم تدرك كمال صفته.

قد تأتي بقطعة ماس ثمنها نصف مليون ليرة فتضعها في الوحل ثم تضعها في الشمس فتبدو لك كَدَرة، فإذا رأيت ظاهرها ظننتها كدرة، لذلك كمال الإبصار أن ترى حقيقة الشيء.

لذلك قالوا: الإبصار هو الصّفة التي ينكشف بها كمال نعوت الأشياء، هذه الماسة التي يزيد ثمنها على نصف مليون ليرة، إذا غمستها في وحل ثمَّ جففتها تبدو لهذه العين كدَرَة، أمّا البصير فهو الذي تنكشف له كمال صفات الأشياء؛ أنت بهذه العين تراها كَدَرة، لكن كمال اسم البصير يراها ماسة، وفرق كبير بين الرؤيتين.

وهذا يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعرف كلَّ شيء، لا يخفى عليه شيء، أما نحن فنرى ظاهر الأشياء، لكنَّ باطنها، وحقيقتها محجوبة عنّا، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحكم بالظاهر والله يتولّى السّرائر.

اسم البصير؛ يدلُّ على الصّفة التي ينكشف بها كمال صفة المبصرَات، لو افترضنا أنَّ إنساناً قصير القامة أسمر اللون أحنف الرّجل ناتئ الوجنتين غائر العينين مائل الذقن، وقد يكون أعلم علماء الأرض في علم من العلوم، فأنت إذا نظرت إلى شكله رأيته إنساناً قميئاً، لكن لو علمت ما ينطوي عليه من علم لأكبرته أعظم إكبار، فإذا نظرت بعينك إليه فأنت لم تكشف كمال صفات هذا الإنسان، أما إذا أدركت علمه وأخلاقه، أكبرته وأعظمته، طبعاً هذا ورد في التاريخ عن أحد التابعين وهو الأحنف ابن قيس وصفه من وصفه فقال: كان قصير القامة أسمر اللون مائل الذقن أحنف الرجل، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ليس شيء من قبح المنظر إلا آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب؟

لو أنَّ واحداً من النَّاس نظر إلى الأحنف بن قيس، فرأى فيه هذه الصفات التي لا تُرضي، فظنَّ أنَّه شخص عاديٌّ، فهل أدرك بعينه هذه كمال صفات هذا التَّابعيّ الجليل؟!

معنى اسم البصير؛ صفة لله عزَّ وجلَّ تنكشف بها كمالات نعوت الأشياء، بصير يعلم كل شيء، يبصر كلَّ شيء، ظاهر الشيء وباطنه وخلفيته، وما ينطوي عليه، أحياناً إنسان يضرب يتيماً، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ ﴾ [الضحى:٩].

والنبي ﷺ يقول: «أدن اليتيم منك وألطفه وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك ويدرك حاجتك» [البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي الدرداء].

ولكن قد يضربه، هذا حينما يضرب اليتيم كأنه ارتكب معصيةً، كأنه سقط من عين الناس، لكن إذا ارتكب هذا اليتيم عملاً قبيحاً يقتضي الحال أن يضربه ليؤدِّبه، وعن أسماء بن عبيد، قال: قلت لابن سيرين: عندي يتيم؟ قال: اصنع به ما تصنع بولدك، اضربه ما تضرب ولدك [البخاري في الأدب المفرد].

إنسان راقٍ جداً وعنده يتيم اقترف معصية كبيرة، فأراد أن يؤدِّبه فضربه، لو أنَّ إنساناً نظر إليه وهو يضربه لاحتقره.. هذا يتيم كيف تضربه؟ لكنَّ الله نظر إلى نيّته

الطيّبة، فالمعنى أنَّ الله بصير، تنكشف له بهذه الصفة كمال صفات هذا الضارب، هو يضربه لله، يضربه ليؤدّبه، يضربه ليحمله على الاستقامة.

البصير إذاً هو المبصر لجميع المبصَرات، والبصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخفيها، والبصر في حقّه تعالى عبارة عن الصفة التي تنكشف فيها كمالات نعوت الأشياء.

وقيل: البصير هو المُبصِر، المتَّصف بالبصر لجميع الموجودات، فيعلم تعالى جميع المبْصرات تمام العلم، وتنكشف له تمام الانكشاف.

نحن نسعد كثيراً حينما نعلم أنَّ الله يعلم النيّات، يعلم سلامة صدرك، يعلم حبَّك للخير، يعلم أنَّ هذا الخطأ لا تقصده، يعلم أنَّ هذا الوضع الحرِج الذي وقعت فيه لا تريده، يعلم أنَّ هذه الكلمة التي قلتها لم تكن تريد أن تقولها، أنت حينما تعلم أن الله يعلم حقيقة كلِّ شيء، هذا مما يسعدك، لأن الله قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

يجب أن تعلم أن الله يعلم، وحينما تعلم أن الله يعلم ترتاح نفسك.

مثلاً: إنّ الموظَّف يجلس وراء الطاولة سبع ساعات ثم يخرج ليقف على الشّرفة لدقيقة واحدة، يراه المدير العام يقف خلف النافذة، فيغضب ويثور. حالة غريبة، سبع ساعات وراء الطاولة يعمل، فلما وقف دقيقة واحدة خلف النافذة دخل المدير العام فرآه منشغلاً عن عمله فعنّفه، لأنّه لا يعلم حالهُ طوال سبع ساعات بل رآه واقفاً خلف النافذة فلامهُ.

فالإنسان علمه ناقص، لكنَّك مع الله مطمئنّ مرتاح لأنّه يعلم سلامة صدرك، يعلم أنّك ما أردت هذا الذي حصل، يعلم أنّك تُكِنُّ للنّاس كلَّ خير، يعلم أنّك بريء من هذه التّهمة.

قال أحدهم لي مرةً: الحمد لله على وجود الله، والحمد لله على علم الله، هو موجود ويعلم، الله عزَّ وجلَّ لا يحتاج إلى إيصال يثبت حقّاً، ولا إلى شهادة، ولا إلى حلف يمين، ولا إلى بيّنة.

الله عزَّ وجلَّ بصره كامل، ينكشف باسم البصير كمال صفة المبصر، وهذا مما يسعد الإنسان أيّما سعادة.

كم من إنسان مظلوم متّهم تهمة هو بريء منها، على نطاق الأسرة أحياناً يقول كلمة هو لا يقصدها تفسَّر تفسيرات أخرى، يفعل فعلاً لا يريده، مصادفةً يفسَّر تفسيرات أخرى، لكنَّ الضمانة العظيمة هي أنَّ الله يعلم.

وبالمناسبة، رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه، ولنضرب أمثلةً فالنبي ﷺ جاءته السيدة صفية إلى معتكَفه، أراد أن يوصلها إلى البيت، مرَّ رجلان من الأنصار قال النبي الكريم: «على رِسْلِكما»، وقفا، قال: «إنها صفية بنت حيي»، قالا: سبحان الله! يا رسول الله!، قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» [سنن أبي داود عن صفية].

صحيح أنَّ الله يعلم لكنَّك مكلف أن تبيّن، أن توضّح، الله جل جلاله يعلم، لكن لا يكفي أن تقول: الله يعلم، ثم تضع نفسك موضع التّهمة، لا يكفي أن تقول: الله ناظر إليّ، وأنت في وضع تُتَّهم فيه، هذا ليس من السّنّة، يجب أن تعلم أنَّ الله يعلم، ويجب أن تدفع عن نفسك كلَّ الشُبُهات.

لو دخل رجل إلى بيت فيه امرأة لا تحلُّ له، ليست من محارمه، وهو أنقى من ماء الثلج، وهو في طهر الملائكة، وجودك في بيت مع امرأة موقف متّهم فيه، لا تفعل هذا، الخلوة محرمة في الإسلام، لذلك سدُّ الذرائع باب عظيم. هناك مواقف لا شكَّ أنك طاهر ومستقيم ومتملّك لزمام نفسك، لكن أي موقف يضعك موضع التهمة، فالشّرعُ يأمرك أن تبتعد عنه، أحياناً تدخل إلى محلٍّ تجاريٍّ لا يوجد فيه أحد، يجب عليك أن تخرج فوراً، لئلّا تكون في موضع متَّهم فيه.

لذلك أروع شيء أن تطيع الله في خلوتك، لأن طاعة الله في خلوتك علامة إخلاصك وصدقك.

العبرة أن تطيعه في خلوتك كما تطيعه في جلوتك، أن تطيعه سرًّا كما تطيعه علانيةً، يشاهد ويرى ولا يغيب عنه ما في السموات العُلا ولا ما في الأرض وما بينهما ولا ما تحت الثرى، وهو الحاضر الذي لا يغيب.

إنسان يغادر مركز عمله، إذا كان مديراً لمعمل أو إذا كان مدير مستشفى أو مدير ثانوية، بعض الموظّفين قد ينصرفون قبل الدوام، فالمدير عليه أن يكون في مكان عمله، الإنسان إذا كان موجوداً يرى، أما إذا غاب فلا يرى. لكنّ الله سبحانه وتعالى حاضر لا يغيب.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (البصير)

ورد اسم البصير في كتاب الله في واحد وخمسين موضعاً. ففي البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وبعد وفي ضوء فهمنا الدقيق في الصفحات السابقة لمعنى البصير، يعني هذا العمل له ظاهر وله خلفية وله باطن وله نية، له ملابسات، سبحانه وتعالى بصير بما تعمل، يعني يُبصر حجم عملك، مقدار تضحيتك مقدار الصراع النفسي الذي سببه هذا العمل، إن الله بصير به، بصير بكل أبعاده، بكل منحنياته، بصير بخلفياته، بصير بملابساته، بصير بأهدافه، بصير ببواعثه، هذا معنى بصير.

أما أنت فتبصر عملاً أمامك، كأن ترى إنساناً يضرب ابنه، أما النيات والبواعث والأهداف والمقاصد والخلفيات والصراعات والتضحيات، هذا العمل لا يعلم حجمه إلا الله، ولا يعلم مقدار التضحية التي كانت من أجله إلا الله، ولا يعلم المتاعب التي تحملها صاحبه إلا الله، فربنا حين يقول: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

يعني بصير بحجم أعمالكم، ونياتكم وبواعثكم ومقاصدكم وأهدافكم وتضحياتكم، والصراعات التي في أنفسكم.

وفي قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾.

يعني يا محمد سمعنا قولك في الطائف، ورأينا معاناتك، وهذا ردنا، وأنت سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾ [آل عمران:٢٠].

هناك إنسان يكذب وإنسان لا يكذب، إنسان مغلوب على أمره، إنسان متأثر، والله بصير بالعباد جميعهم.

قد يُلقي إنسان كلمة على جمع غفير فإن صدى هذه الكلمة في علم الله، هذا صدَّق، وهذا استهزأ، وهذا لم يبال، وهذا ارتعدت فرائصه، وهذا خاف.

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ [المائدة:٧١].

وفي الإسراء: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء:١٧].

مرة وقفت في سفح جبل قاسيون، ونظرت إلى مدينة دمشق ممتدةً يمنةً يسرةً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، فهذه البيوت بطوابقها، بأقبيتها، ماذا فيها من طاعات أو معاصٍ؟ من يعلم؟ الله وحده.

منظر هذه المدينة من سفح الجبل مدينة هادئة وادعة أبنية مضاءة متلألئة. لكن داخل البيوت يا ترى أهناك صلوات أم موبقات؟ هل هناك نكاح أم سفاح؟ من يعلم؟... الله الذي يعلم.

وقد يسكن إنسان في مدينة وهو لا يعلم ما فيها، هو مؤمن يرتاد بيوت الله عزَّ وجلَّ، له إخوة كرام، يحسن الظن بجميع الناس، لكن حجم المعاصي في أي بلدة، حجم الموبقات، الذين يشربون الخمر، الذين يقترفون جريمة الزنى، من يعلم ذلك؟ لا أحد إلا الله.

وما كنت أصدق في حياتي أن امرأة في مكان رفيع كأنها ملكة تعقد مؤتمراً صحفياً يُبَثّ في جميع أنحاء العالم تقول: لقد زنيت مع فلان، فنحن في أي عصر نعيش؟! قال تعالى: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل:٢١].

يعني امرأة مرشحة لتكون ملكة في بلاد الغرب، تعقد مؤتمراً صحفياً وعلى كل أجهزة الإعلام، وقد بُثت كلمتها في محطات الفضاء وهي تقول للناس: إنني خنت زوجي وزنيت مع فلان... سبحان الله كم بيننا وبين أهل الفسق والفجور من مسافات شاسعة، البيت المسلم بيت شريف، بيت طاهر، بيت نقي، فالإنسان لو زلَّت قدمه يجب أن يستر نفسه.

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر:٢٠].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر:٥٦].

وفي سورة الملك: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك:١٩].

وفي الحديث: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» [رواه الطبراني في الأوسط، عن عبادة بن الصامت]، وأرقى حالات المؤمن أن يشعر أنه تحت مراقبة الله عزَّ وجلَّ.

أفضل حالات المؤمن أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، يعني أن تشعر أن الله يراك، هذه درجة في الإيمان عالية جداً، أن تشعر دائماً أن الله معك، أن الله معك في خلوتك وفي جلوتك وفي مجلسك، وعند ذكرك ونطقك، وفي سفرك وفي حضرك، هذا الشعور المستمر من نِعَم الله العظمى وهو درجة من درجات الإيمان العالية.

أحد العلماء يرى: أن البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزُب عنه ما تحت الثرى.

إبصاره منزّه عن أن يكون بحدقة أو أجفان، مقدّس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان كما ينطبع في حدقة الإنسان؛ فإن ذلك من التأثر والتغير المقتضي للحادث المنزَّه عنه القديم.

لا يُعقل ولا يليق بالله عزَّ وجلَّ أن يبصر بحاسة ولا بأداة ولا بتغير، يعني الشبكية إذا سقط عليها ضوء تحدث الرؤية، وتعريف الصورة؛ هي مجموعة نقاط متفاوتة في الإضاءة، لو أتيت بصورة وكبرتها، ترجع إلى نقاط، وكلما كثرت هذه النقاط كانت الصورة أكثر وضوحاً، لكنها في الحقيقة نقاط متفاوتة في الإضاءة، فهذه الصورة إما منبع ضوئي أو منعكس ضوئي إذا وقع على حدقة العين وانكسر إلى الشبكية، فانطبعت عليها، الشبكية فيها مادة كيميائية، تتأثر بالضوء، وتأثرها بالضوء يشكل تياراً كهربائياً، هذا ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ، وفي الدماغ تكشف حقيقة الصورة.

بشكل مختصر، في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، هذه العصيات والمخاريط فيها مواد كيماوية، تتأثر بالضوء، فإنْ تأثرتْ تَشَكَّلَ تيارٌ كهربائي هذا التيار ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ. الصورة تنطبع على شبكية العين إحساساً وتنتقل إلى الدماغ فتفسر هناك إدراكاً بحسب المفهومات السابقة، فالإنسان متى يرى، يرى الصورة التي هي مجموعة نقاط مضيئة أو متفاوتة في الإضاءة هذه تؤثر في تركيب

العصيات والمخاريط، من هذا التأثر والتأثير يتشكل تيار كهربائي، هذا التيار يسري عبر العصب البصري إلى الدماغ، في الدماغ تُفسر هذه الصورة في ضوء المفهومات السابقة، والمعنى أنه لو لم يحدث تغيير في شبكية العين والعصيات والمخاريط، ولو لم يحدث تأثر هذه المواد الكيماوية بالضوء لما انتقلت الصورة.

الله جل جلاله منزَّه عن أن يبصر بحاسة أو أداة أو تغيير في ذاته، وإذا نُزِّه الله جل جلاله عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي تنكشف بها كمالات المبصرات، صفة في ذات الله زائدة على علمه، تُكشف بها حقيقة كمالات صفات الأشياء. فالله تعالى ليس كمثله شيء، له عين هو أعلم بها والإيمان بها واجب والسؤال عنها بدعة.

نصيب المؤمن من اسم الله (البصير)

وبعد كل هذا الإيضاح فما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به حيال هذا الاسم العظيم؟ الله عزَّ وجلَّ بصير، ولأنك إنسان مكرّم، مخلوق مكرّم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

لأنك مخلوق مكرم، والله بصير ومن فضله وتكريمه لك مَنَحك حاسة البصر، لماذا أودع الله فيك هاتين العينين؟

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ ﴾ [البلد:٨].

العين السليمة لو درَّجنا لوناً أخضر أو أحمر أو أي لون آخر ثمان مئة ألف درجة، العين السليمة تدرك الفرق بين درجتين.

والعين السليمة تبصر مباشرة دون معالجة للأفلام، الفيلم يحتاج إلى تظهير، العين تبصر مباشرة، وتدرك الشيء بحجمه الحقيقي، انظر إلى الجبل تراه بحجمه الحقيقي، كذلك إذا نظرت إلى صورة الجبل مصوَّراً فإنك تراه بحجم أربع سنتمترات. أما العين فهي تدرك الشيء بحجمه الحقيقي.

هذه العين فيها مطابقة والمطابقة شيء لا يصدق، ففي علوم الفيزياء هناك العدسة البلورية: لو وضعنا أمامها شمعة وخلف هذه العدسة في محرقها لوحة، لا ينطبع خيال الشمعة على اللوحة إلا في مكان واحد فقط، فلو أزحناها قليلاً أصبح الظل أو المرتسم على هذه اللوحة غير واضح، إذا غيرنا مكان الشمعة نحتاج إلى تعديل مكان اللوحة لأنه تغيَّر المحرق لكن العدسة التي أودعها الله في الإنسان عدسة مرِنة، فإذا رأيت الشيء يتحرك فبدلاً من أن تحرك الشبكية، فإن العدسة يزداد احديدابها أو يَقِلّ، هناك عضلات اسمها عضلات هدبية، تضغط على هذا الجسم البلوري فتزيد احديدابه أو تقلله، هذه العضلات تزيد الاحديداب أو تقلله بالمكرونات.

وبعد هذا الشرح يطالعنا سؤال كبير، كيف ضُغط هذا الجسم حتى جاء الخيال على الشبكية؟ من حسب المسافة بينك وبينه؟... هل رأيته أولاً ثم حسبت المسافة؟ لا، إن رأيته فقد رأيته، وإن لم تره كيف حسبت المسافة؟ عملية المطابقة في العين من أعظم الأدلة الدالة على وجود الله وعلى عظمته، يعجز عن فهمها العلماء، المطابقة، ضمن ستة أمتار، لذلك الإنسان إذا سكن في مدينة مكتظة يضعف بصره، يحتاج إلى نظارات، أمّا أهل البادية فالعين عندهم مستريحة دائماً لأنها تنظر إلى مسافات بعيدة فلا تحدّها أو تقف دونها حواجز تضعفها.

هذه العين سميت كريمة الإنسان لأن الله كرَّمه بها، لماذا خلقها الله له؟ ليرى بها العورات؟! ليرى بها الموبقات؟! ليرى بها المحرمات؟! ليرى بها النساء الكاسيات العاريات؟! أم ليرى بها آيات الله الدالة على عظمته، فالعين التي تغضّ عن محارم الله، والعين التي تحرس في سبيل الله، والعين التي تنهمر منها الدموع من خشية الله هذه عين شريفة طاهرة مقدسة، الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب لا يُفجعك بها «اللهمَّ مَتِّعْنَا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا واجعله الوارث منا ما أحييتنا» [الطبراني في الدعاء من حديث ابن عمر].

يعني أي عين تغض عن محارم الله وتبصر آيات الله، وتسبح الله وتكبّره وتحمده، هذه العين المرجو من الله أن يحفظها لك إلى نهاية الحياة.

إذاً من أدبنا مع اسم البصير الذي منحنا نعمة البصر أن نستخدم العين في أن نبصر بها آيات الله الدالة على عظمته.

قيل: من كان نظره عبرة، ويقظته فكرة، وكلامه ذكراً فهو مؤمن، هذا أول شيء، يجب أن تستخدم العين في رؤية آيات الله الدالة على عظمته، الشيء الثاني: يجب أن تعلم أن الله يبصرك، الذي خلق نعمة البصر ألا يبصر؟... قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد:٦-١١].

الآية عميقة المعنى جداً، أيحسب أن لم يره أحد وهو يرى، فالذي خلق لك البصر ألا يراك؟ أيحسب أن لم يره أحد؟ ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟ فالذي خلق لك العينين يراك حين تقوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وهنا أيضاً نقطة أخرى مهمّة جداً، المؤمن الكامل لا يستهين بنظر الله إليه واطّلاعه عليه، قال بعضهم: لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، فالإنسان يكون أحياناً أمام شخص فيحسّن نفسه، يرجّل شعره، يتعطر، وإذا دخل إلى بيته يرتّبُه، لأنه يستحي منه، فلماذا يقارف الإنسان معصية وهو يعلم أن الله يراه، فكأنه جعل الله أهون الناظرين إليه.

وقد قيل: من أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله إليه، إحدى ثمرات الإيمان أن تشعر أن الله معك وهو ناظر إليك.

قال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي، إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم.

وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك واستحِ منه على قدر قربه منك، وقال له رجل: عظني! فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم ألا عين تراه غيرك، وقال بعضهم: ابن آدم! إن كنتَ حين ركبتَ المعصية لم تَصْفُ لك من عينٍ ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صَفَتْ لك معصيتُهُ ولم تستحِ منه حياءك من بعض خلقه، ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرتَ، وإن كنت علمتَ أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك مِن أضعف خلقه لقد اجترأت عليه.

دخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية مَن كان يراني؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة: ألا يعلم مَن خَلَقَ وهو اللطيف الخبير.

راود بعضهم أعرابية وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب! قالت: أين مُكَوْكِبُها؟

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما. وقال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره. وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ ... خلوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ الله يَغفُلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

وكان ابن السَّماك ينشد:

يا مُدمِنَ الذنبِ أما تستَحِي ... والله في الخلوةِ ثانيكا
غَرَّكَ مِن ربك إمهالُهُ ... وسَتْرُهُ طولَ مساوِيكا

مقترف المعصية إن علم أن الله يعلم فهو مجترئ وخاسر، وإن علم أن الله لا يعلم فهو جاهل وكافر، لأن الله يعلم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمانُ؟ قَالَ: «الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وبِلِقائِهِ ورُسُلِهِ وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ» قالَ: مَا الإِسْلامُ؟ قالَ: «الإِسلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وتَصُومَ رمَضَانَ» قالَ: ما الإِحْسانُ؟ قالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...» [صحيح البخاري].

وإذا عرف الإنسان أن الله تعالى هو البصير وكان الإنسان عاقلاً زيّن باطنه بالمراقبة، وزين ظاهره بالمحاسبة.

وكان بعض السلف يقولون: إذا عصيت مولاك فاعصه في موضع لا يراك فيه.

يقول الزمخشري:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخَّ من تلك العظام النُّحَّل
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأوّل

دعا بعضهم فقال: «إلهي أنت البصير بعيوبي، الخبير بذنوبي، المطلع على سري، بيدك زمام أمري، أسألك أن تجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً لأشاهد حقائق الأشياء، وأتأدب معك بالظاهر والخفاء. إلهي اجعلني لك من المشاهدين، وفي حماك من القائمين، إنك على كل شيء قدير».

وهناك أدعية كثيرة تتعلق باسم البصير، والآية الكريمة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه الموضوعات في أسماء الله الحسنى قفزة نوعية في معرفة الله، والحقيقة أنك إن آمنت أن الله خالق السموات والأرض دون أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، هذا الإيمان لا يرقى بك إلى النجاة ولا إلى السعادة، ومن أجلّ معطيات العلم أن تتعلم أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وتتعرف إليها، وتهتدي بها.

الحق

هذا الاسم العظيم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج:٦].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في دعاء النبي ﷺ أنه إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل قال: «اللهم أنت الحقُّ، ووَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ، ومحمدٌ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عباس].

من معاني اسم الله (الحق)

الحقُّ في اللغة اسم فاعل، فعله حقّ يحق حقاً، يقال: حققت الشيء، أحقّه حقاً، إذا تيقنت أنّه موجود، فالحقُّ هو الشيء المستقرّ، والموجود، والثابت.

والحقُّ بمعنى المطابقة، كلامه حق يعني طابق الواقع، إنسان ارتكب عملاً جئنا بشاهد شهد، نقول شهادته حق، لأنها مطابقة للواقع.

والحقُّ الشيء الثابت، والحق الذي لا يزول، و الحق هو العدل، والحق خلاف الظلم، والاعتقاد بالحق الشيء المطابق للواقع.

«الحق» في القرآن الكريم له استعمالات كثيرة، الحق هو الإسلام لأنه دين الواحد الديان.

و «الحق» هو العدل.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

و «الحق» هو الحكمة، العمل الحكيم عمل حق، والصدق، والوحي، والقرآن، والحقيقة، وأيضاً الحساب والجزاء: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

الله عز وجل هو الحق، لأنه متصف بالوجود الدائم، لا شيء قبله، ولا شيء بعده.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

هو الباقي على الدوام إلى أبد الآبدين.

الحق هو المتصف بالوجود الدائم، وبالحياة والقيوميّة.والبقاء، فلا يلحقه زوال، ولا فناء، وكلُّ أوصاف الحق كاملة جامعة للكمال والجمال والعظمة والجلال، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

بربكم كم ملة وكم اتجاه وكم طائفة ظهرت في الأرض؟ كلها تلاشت والإسلام باقٍ كالطود الشامخ، لأن الإسلام حق، وأي فرقة ضالة باطلة.

و «الحق» هو الذي يحقّ الحقّ بكلماته، لذلك قال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

هنيئاً لمن كان مع الحق، والويل لمن كان مع الباطل، هنيئاً لمن كان مع الثابت، والدائم، والباقي، والكامل، و الحق نقيض اللعب.

لا بد من ضرب الأمثلة: معك جهاز كهربائي، وبحاجة إلى طاقة كهربائية، توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط، فالآلة لم تتحرك، فهذا المأخذ ليس فيه كهرباء إذاً، فتوجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فدارت الآلة، المأخذ الأول باطل، والثاني حق... فما معنى الحقّ إذاً؟...

الحقيقة أن الله هو الحقّ، وإذا توجّهت إلى غيره فلن تجد شيئاً بل سراباً في سراب، ووعودٌ كاذبة، وأقوال فارغة، وكلمات طنانة، لكنها هراء وهواء، وإذا توجهت إلى الله عز وجل وجدت كلَّ شيء، فأول معنى من معاني الحقّ هو الشيء الموجود، وأول معنى من معاني الباطل الشيء المعدوم، والإنسان إذا وعدك وعداً ونفّذَ وعده فوعده حق، فإن لم يُنفِّذ فوعده باطل، وإذا توهمت أن الجِنّ بإمكانهم أن يفعلوا كذا وكذا فهذا مجرّد وهم.

الحقّيقة أن الله سبحانه وتعالى ما أعطى الجن قوةً خارقة خياليّة أبداً، فاعتقادك أن الجنَّ بإمكانها أن تفعل، وأن تؤذي، وأن ترفع، وأن تخلِّص، فهذا اعتقاد باطل، لأنه لا

يُطابق الحقيقة، وإذا قُلت مثلاً: فلان بإمكانه أن يفعل شيئاً خارقاً فأنت مخطئ، إذ هو في الحقيقة عبد مثلك لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، فقولُك باطل، فالشيء الموجود والاعتقاد بوجودِهِ والاعتراف بوجودِهِ، هذا هو الحقّ، والشيء المعدوم أن يتوهَّم الإنسان أن هذا الشيء موجود، وهو ليس بموجودٍ فهذا الوهم باطل، وأن تعتقد أن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا اعتقاد باطل، وإذا قلت: إن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا قول باطل، والصواب أن الحقّ هو الموجود، والباطل هو المعدوم، والاعتقاد الحقّ حينما يوافق الواقع فهو حقٌّ وإذا خالف الواقع فهو باطل، والقول الحقّ حينما يوافق قولك الموجود فقولك حق، وحينما يخالف قولك الموجود فالقول باطل.

وأخطر ما في الحياة أن تتجه إلى جهة لا تملك شيئا، وأخطر ما فيها أيضاً أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي أبداً، وأخطر كلام تقوله أن تنطق بشيء لا يرتبط بالواقع، فما الذي ضيّعَ الناس؟ إنّه الباطل، وقد تعتقد اعتقاداً وبعد سنين طويلة ينكشف للعالم كلِّه أنه اعتقاد باطل، وأن هذا المبدأ غير صحيح، وأن هذا المبدأ ما حقق نفعاً للإنسان، بل زاده شقاءً.

فإذا كنت مع الحقّ فأنت في سعادة كبيرة، لأنك مع الثابت ومع الموجود، وهذا ملخص الفكرة، أو هذه هي الخطوط العريضة لها.

والشيء الموجود إمّا أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود، فالخالق لا بد أن يكون موجوداً، ولا يمكن إلا أن يكون موجوداً، والعقل لا يقبل هذا الإتقان البالغ في الخلق دون إلهٍ خالق، ودون إلهٍ مبدع، ودون إلهٍ خبير، حكيم،عليم، قدير، فالموجود واجب الوجود، أما الممكن فهو ما كان ممكن الوجود، فنحن مثلاً ممكن أن نكون أو لا نكون، ولا يكون وجودنا حقاً إلا إذا شاء الله أن نكون، ولذلك ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠

بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

وعدُ الشيطان باطل، والشيطان يخوّفك، وتخويفه باطل وأحياناً يَعِدُكَ بالفقر، ووعده باطل، والقضية ليست قضية فكرة تتعلمها بل القضية قضيةٌ مصيرية، فإن كان لك -مثلاً- مبلغ كبير جداً في مدينة بعيدة، ولن تقبضه إلا من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة من يوم السبت، وهذا المبلغ إذا قبضته يحل كلَّ مشكلاتك، فإن توجهت إلى المحطة، وركبت قطاراً يوصلك إلى تلك المدينة، وصلت إلى غايتك، لكنك قد تخطئ وأنت راكب في هذا القطار عشرات الأخطاء ولكن ما دام هذا القطار في طريقه إلى وجهتك وسوف تصل إلى هذه المدينة قبل الساعة الثانية عشرة، فأنت في الحقّ، أما إذا ركبت قطاراً متجهاً إلى مدينة أخرى في مسار معاكس فهذا القطار باطل لأنه لن يوصلك إلى هدفك، إنه قطار ولكن يتجه بك إلى عكس هدفك، وأنا أحاول أن أبدد كل حيرة من أجل توضيح هذا الأمر لأنه دقيق وعميق جداً، وقد يحتاج الإنسان لتوضيح الحقائق إلى ضرب الأمثلة.

الله هو الحقّ، وهذا الكون حقٌّ لأنَّ الله خلقه، وكذلك لأنه موجود فهو حق، ولكن هذا الشيء ممكن الوجود، فيمكن أن يكون ويمكن ألا يكون، لكن أن تعتقد بوجود الله سبحانه وتعالى فاعتقادُكَ حق، وأن تُقِرَّ بوجودِهِ فإقرارُكَ حق، وإذا اعتقدتَ بأنَّ زيداً من الناس بإمكانه أن ينفعك فاعتقادُكَ باطل أو بإمكانه أن يضرَّكَ فاعتقادُكَ باطل، وإذا قلت هذا فقولك باطل، فصار الموجود هو الحقّ، والاعتقاد بالوجود هو الاعتقاد الحقّ والإقرار بالوجود هو الإقرار الحقّ، وهذه الفكرة النيّرة تقودنا إلى فكرةٍ أخرى، بأنَّ الحقّ في الكون لا يتعدّد، بل إن الحقّ واحد، لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس:٣٢].

فإن اعتقد أحدٌ خِلافَ ما في هذا القرآن فهو بالدليل القطعي ضالٌّ، وعليه أن يقيل عثرة نفسه.

وإذا اعتقد أن الأجل بحسب العناية بالصحة -والعناية بالصحة واجب- فإذا اعتقد أن الأجل متعلّق بذلك فهذا اعتقادٌ باطل، لأنّ الإنسان لا يموت إلا إذا انتهى أجله.

أخٌ كريم من إخواننا الكرام حدثني قصة، فقال: أنا وُلدتُ في بيتٍ، ولي عمّانِ، فوالدي له غرفة، وعمي له غرفة، وعمي الآخر له غرفة، وفي الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء ولدت في غرفتنا، والغرفة الملاصقة لها هي غرفة عمي، وفيها زوجته، وقد أصيبت بمرض عضال خطير، واستُدعي أربعة أطباء لمعالجتها، ومن غرائب الموافقات أن الأطباء الأربعة اتفقوا على أنها لن تعيش أكثر من ساعة، فأنا ولدت، وكبرت، وترعرعت، ودخلت المدرسة، وتخرجت فيها، وعملت مع والدي، وتوفي والدي، وتزوجت، وانتقلت من بيت إلى بيت، واشتريت آخر بيت وهو الذي أسكنه وأقيم فيه، وأصبح عمري خمسة وأربعين عاماً وجاءت زوجة عمي لتزورني قبل أيام، فرغم قول الأربعة أطباء أنها ستموت بعد ساعة، فلقد عاشت بعد ذلك خمسة وأربعين عاماً.

إنّ الطبيب له علم يدلّ به ... إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته ... حار الطبيب وخانته العقاقير

عزيزي القارئ؛ هل تعرف من الحكيم؟ الحكيم هو الذي يأتي اعتقادُهُ مطابقاً للواقع، ويأتي حديثه مطابقاً للواقع، وتأتي حركاته مطابقة لمنهج الله عز وجل، ولنا مثل في آلة غالية الثمن، معقدة التركيب، عظيمة النفع، وأنت حريص حرصاً لا حدود له على أن تستعملها وفق تعليمات الشركة، فكيف بك وأنت المخلوق الأول؟

إذاً: كلمة (حق) ذات شأن خطر، وإني لأتمنى على كل أخ أن يراجع نفسه وحقيقة أفكاره عن الدين ليتبين هل هي صحيحة؟ وهل معتقداته صحيحة؟ وهل تصوّراته عن الله صحيحة؟ وهل معتقده بالنبي ﷺ صحيح؟ وهل آراؤه في القضايا المعاصرة صحيحة؟

ذكرت ذات مرةً أنه قد جرت حرب أهلية في بلد مجاور دامت أربعة عشر عاماً، وانتهت -والحمد لله- هذه الحرب الأهلية، ويمكن وقد مضى عليها زمن، أن تُفسر

تفسيراً عربياً فنقول: هذا البلد أصبح ساحة صراع للقوى العربية، ويمكن أن تُفسر هذه الأحداث الدامية تفسيراً طائفياً، كما يمكن أن تُفسر تفسيراً دولياً، إنه مركز مالي قوي جداً نافَسَ مراكِز أخرى، ويمكن أن تُفسر تفسيراً قرآنياً، دينياً، إلهياً، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

هذا التفسير الديني، تفسير خالق الكون لما حدث، فأي هذه التفاسير هو الحقّ؟ إنه التفسير الديني.

إذاً: إذا توجهت إلى تفسيرات أخرى فتكون في باطل، لقد حصل زلزال، فهُدمت مدينة بأكملها، هناك تفسير ساذج إذ يقال: إنه مجرّد تصدّع بالقشرة الأرضية أو التواءات داخلية، فهذا تفسير علميّ صحيح، لا يتناقض مع التفسير الديني، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧].

فلن تكون بطلاً إلا إذا استطعت أن تتعرف إلى الحقّ، وأن يكون اعتقادك حقاً، وأن يكون كلامُك حقاً، وأن تكون حركتُكَ حقاً.

وإذا كنت تعاني من مشكلات، وفسّرت هذه المعاناة بقلّة الحظّ، فهذا تفسير باطل، وهناك تفسير آخر أن تقول: لي حُسّاد كثيرون رموني بحسدهم، وهذا تفسير باطل أيضاً، لأنه لا يستطيع أحد أن يَضُرَّ أحداً، إلا إذا كان مستحقّاً أو غافلاً، ولكن إذا قلت ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر، فهذا التفسير حق، وأنت في اليوم الواحد أمام آلاف المقولات الباطلة، فالبطولة أن تتعرف إلى الحقّ وأن تعتقد الحقّ، وأن تنطق بالحقّ، ولن تكون على حقّ إلا إذا عرفته، ولن تعتقد به، ولن تنطق به إلا إذا عرفته، لذلك أصل الدين معرفة الله.

ومثلاً عن أصحاب الصنعات، فلو افترضنا أن إنساناً تصرّف في صنعته تصرُّفاً خاطئاً، فنقول: إن هذه الطريقة باطلة، ولو أشاد إنسان بناءً على الشاقول، فسوف

نقول: هذا البناء حق لأنه سيستمر، ولو أشاد بناء بلا شاقول فنقول: هذا البناء باطل، لماذا؟ لأنه سيسقط وينهار. فما هو الحقّ إذاً؟ هو الشيء الموجود، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك شيئاً فعندما قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر:٨٥].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم:٨].

وآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

الباطل: هو الشيء الزائل، والحقّ: هو الشيء الموجود الثابت، ومن معاني الحقّ الشيء الموجود الثابت، والآن سنضيف شيئاً، الموجود حق، أما الدرجة الأعلى، فدائم الوجود، وهناك أعلى من ذلك، ولا موجود آخر معه، إنه واحد في وجوده، ثم انتهينا إلى درجة أعلى: كامل في وجوده. فهو دائم وواحد وكامل، هذه حقائق ثابتة عن الله عز وجل.

الله موجود، بل هو أبدي الوجود، لا شيء بعده، وهو واحد في وجوده، وكامل في وجوده، فإذا عرفته بهذه الصفات فقد عرفت كلَّ شيء، وإن فاتتك هذه المعرفة فاتك كلُّ شيء، ووالله ما حصَّلتَ شيئاً، ولو ملكت أموال الدنيا، أو ارتقيت إلى أعلى مكانة في الحياة، ولو حصّلت كلَّ الشهوات وما عرفتَ الحقّ، فلست بشيء، لأنَّ وجودكَ ليس ذاتياً، فلو كان وجودُكَ ذاتياً فليس هناك مانع، لكن وجودك مرتبط بالله سبحانه وتعالى، فإذا شاء الله أن يُلغي وجودك فعندئذٍ ينتهي أمرك كلُّه.

لقد كنّا مدعوين إلى حفلٍ في دمشق، والذي دعاني وقدم لي بطاقة الدعوة أحد إخواننا الأكارم، فتوجهت إلى مكان الحفل، وفي مدخله رجال عديدون يقفون لاستقبال المدعوين، صافحتهم واحداً واحداً، وسألت الذي دعاني في الطريق: من

الذي أشرف على هذا الحفل؟ قال لي: عمي فلان والد زوجتي، قلت له: أين عمك؟ قال: هو في الداخل فلما دخلت، رأيت رجلاً مكتمل الرجولة، يرتدي الثياب الأنيقة، مورّد الوجه، نشيطاً، ولم أكن أعرفه من قبل، فرحّبَ بي ترحيباً حاراً، وأفاض، فدخلت إلى مكاني في الحفل، وكان أحد الإخوة الأكارم يلقي كلمة، وفي أثناء إلقاء كلمته، تحرك اثنان من المدعوين، فما فهمت لِمَ تحركا، ثم ألقيت كلمتي التي استغرقت عشرين دقيقة، وبعد أن أنهيت كلمتي، جاء رجل وهمس في أذني هذا الذي استقبلك قد توفي، وما استمع إلى كلمتك.

لا تعجب فأنت ممكن الوجود، والدليل أن الله أنهى وجوده بثانية، فقد كان ينتظر أن ألقي كلمة، فما استمع إليها، وبعد أن دخلت وقع ومات، ونحن والله لم نُصدِّق، أُنهِيَ الحفل، وذهبنا إلى المستشفى، ودخلنا إلى غرفة العناية المشددة فإذا هو مسجى، قد فاضت روحه إلى بارئها، فأنت لست واجب الوجود بل ممكن الوجود، وأنت لست حقاً، فالله هو الحقّ ولو كنت حقاً لسرى عليك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧].

نعم. إنني مدين، وكلنا مدينون.

وإذا هطلت الأمطار عمّت الفرحة وشملت العباد والبلاد، لكن لو أنَّ السماء انحبست، فما مصيرنا، وما وجودنا؟ إذ ستجفُّ الآبار والأنهار، والنباتات تصير إلى الذبول واليبس، والسؤال الذي يطرح نفسه، هل وجودنا ذاتي؟! نحن وجودنا متعلِّق بمشيئة الله وبالمطر، وبكل شاردة وواردة، وبكل صغيرة وكبيرة.

وكم يكون هذا الإنسان غبياً إذا ظنَّ أنه موجود، وأنه يعمل، وأنه يكسب المال، فهذا هو الباطل، وهو اعتقاد باطل، فأنت كُلما تعرفت إلى الله صَغُرَت نفسك في عينك، وكَبُرَ في عينك الله سبحانه وتعالى، فمن هو المؤمن إذاً؟ الذي لا يرى إلا الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾ [الأنفال:١٧].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود:١٢٣].

قد تسأل: لماذا يتكلم فلان بما ليس مقتنعاً به؟... لأنه لم يرَ أنَّ الله هو كلُّ شيء، فلعله رأى الله عظيماً، كما رأى فلاناً عظيماً، فهو يرى أنّ زيداً وعبيداً وفلاناً بإمكانهم أن يفعلوا، ويرفعوا ويخفضوا، وينفعوا ويضرّوا، وكلما نقص توحيدك ازداد شِركُك، فاعتقادك غير صحيح.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود:٥٥-٥٦].

فالقضية أخطر بكثير من أننا استمعنا إلى محاضرة معانيها مقنعة، مؤثرة، هادفة ثم تفرّقنا إلى بيوتنا، فالأمر يتعلق بحياة أبدية، هل أنت على حق وهل اعتقادُك حق، وهل تصوراتك حق، أو أفعالُك حق، ومواقِفُك حق، وهل أعطيت بالحقّ أم بالباطل؟ وهل منعت بالحقّ؟ وغضبت بالحقّ؟ ورضيت بالحقّ؟

هناك غضب بالحقّ، ورضا بالحقّ، وإعطاء بالحقّ، وصِلة به أو قطيعة، وحينما تعرف الحقّ وأنه أبدي الوجود، وأنه واحد في وجوده، وكامل في وجوده، ولا موجود سواه، وإليه المصير، فعندئذ تقطع كلَّ العلائق مع أيٍّ كان، وتتجه إلى الخالق، فالقضية أخطر بكثير من أن الإنسان حضر مجلس علم، وأخطر بكثير من أنّه صلى ركعتين ودفع ليرتين، لأنّ الأمر أمر مصير أبديٍّ، والقضية قضية حق أو باطل قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ [يونس:٣٢].

وشيء آخر: ثم اعلم أيّها القارئ العزيز أنك لو اعتقدت اعتقاداً ليس قطعياً، إذ سألك سائل: هل أنت مؤمن بالجنة؟ فقلت: والله أغلب الظن أنّ هناك جنة، فهل

علمت أن هذا اعتقاد باطل، ولن يغنيك شيئاً وهل أنت مؤمن أنَّ الله عز وجل سيسألك عن كل صغيرة وكبيرة؟ فقلت: لن يُحاسِب، ولن يحاسبنا إلا على قدر عقولنا... فهذا اعتقاد باطل أيضاً، وهل أنت مؤمن بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر:١٩].

فالله سبحانه يخاطب النبي ﷺ، أي: يا محمد - ﷺ - أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار؟!

وقد تقول كما يقول بعضهم: لقد حكى لنا فلان حفظه الله؛ أن رسول الله ﷺ لن يدخل الجنة حتى يُدخل كلَّ عصاة أمته، فنحن إذاً -والحمد لله- مصيرنا معروف، فهذا اعتقاد باطل، وإن هي إلا أمانيّ، وإن هم إلا يظنون، ولا بد من مراجعة حساباتك، إذ الإنسان أحياناً ومن خلال دروس متقطّعة في المساجد ومن خلال خُطب غير موثوقة ومن خلال أقوال في جلسات غير صحيحة، يتسرّب الباطل إلى ذهنه وعند ذلك سوف يتصرّف بالباطل، فمثلاً لِمَ تغشُّ يا فلان؟ فيقول: أنا عندي أولاد والنفقات باهظة فماذا أفعل؟ فهذا كلام باطل، إذ غاب عن ذهنه أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، وأنّ لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً، فأولى بك وأجدر أن تُنقّح عقيدتك من كل غلط: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

فتبادر إلى القول: هذا نبي وقد همَّ بالزنا، وإن هذا اعتقاد باطل، وهذا التفسير للآية باطل ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فهذا من التفسير الحقّ، عن الأنبياء.

الله عز وجل يلقي نوراً في قلب المؤمن يريهِ الحقّ حقاً والباطل باطلاً.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣].

فيجبُ أن تفهم القرآن فهم حق وليس فهم باطل، وأن تفهم كلام النبي فهم حق: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» [صحيح مسلم].

ماذا يعني بهذا الحدث؟ هل نسارع إلى اقتراف الذنوب؟ ليس هذا هو المعنى... المعنى إذا بلغتم درجة لم تشعروا بذنوبكم فأنتم موتى، لَذَهَبَ الله بكم، فإذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يشعر بشيء فهو ميت، أما المؤمن فيملأ ليله ونهاره بالعمل الصالح.

فيجب عليك أن تكون عقيدتك صحيحة، عن الله عز وجل، والله قال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وهناك خلق كثير أكثر أفكارهم عن الله ورسوله مغلوطة، وأكثر تصوراتهم ومعتقداتهم وفهومهم خاطئة، فمثلاً يقولون: إن رسول الله كان ماشياً في الطريق فطرق باب زيد، ففُتِحَ الباب، وبدت زوجته زينب من دون ثياب وقد وصل شعرها إلى أسفل ظهرها فأُعجب بها النبي ﷺ وقال: سبحان الله، سبحان مُقلِّب القلوب!.. من قال لك إن هذه القصة صحيحة؟ من قال هذا؟ فهل يفعل هذا نبي عظيم؟ فأنت إن كنت مؤمناً فلن تفعله، لذلك فهذه الخرافة باطلة، مدسوسة دساً على الإسلام ونبيه.

أما عن النبي داود فيقولون: عنده تسعٌ وتسعونَ امرأة، وأحبَّ زوجة أحد قوّاده، فقال: قدموه في الحرب لعله يموت ونأخذ زوجته، فعاتبه الله عز وجل وقال: يا داود أعرض عن الهوى، هذا تفسير غير صحيح، والصواب أن سيدنا داود انشغل بعبادته عن حل مشكلات الخلق، فأرسل الله له ملكَين تسوَرا المحراب، وافتعلا خصومة وسمع من الأول ولم يسمع من الثاني، وقال للأول متسرعاً: قد ظلمك، ليعود إلى مصلاه، فالهوى الذي نهي عنه هوى رفيع، هواه في الإقبال على الله عز وجل فيجب أن تُفسّر التفسير الذي يليق بالأنبياء، ويليق بهذا الدين العظيم، ونحن نريد أن نعتقد اعتقاداً صحياً، ونقول قولاً صحيحاً، وأن نُطبّق تطبيقاً صحيحاً لنكون على الحقّ.

وأعود فأقول: الحقّ؛ هو القول المطابق للواقع، بدليل أنك لا تقبل كلاماً غير صحيح، لا يطابق الواقع، إذ هناك دجّالون كثيرون، يزخرفون القول فيدّعون مثلاً أن هذه علاقتها مع زوجها سيئة، فيقولون لها: إنك تحتاجين إلى خروف أسود وأبيض، تذبحينه لكي يحبك، فهذا كلام باطل، كلُّه دجل وكذب، وليعلم كل مسلم أن بين أظهرنا كتاب الله القرآن الكريم، فلنأخذ بما فيه، إذ به انتصر الصحابة وفتحوا الأمصار، ونشروا الإسلام، لو أن مريضاً يشكو آلاماً مبرِّحة في المعدة، وزار طبيباً، فقال له انتظر، ونصب حبلاً في العيادة، وصعد يمشي عليه فرأى المريض أعمالاً خارقة، وهو مريض ويحتاج إلى دواء وعلاج، فماذا يستفيد إذا سار الطبيب على حبل وكان بهلواناً؟!

سردت هذه الأمثلة وأطلت لأننا بحاجة إلى علاج، وإلى راحة نفسية وإلى توازن، وإلى سعادة وإلى حقيقة ثابتة لا تكشف الأيام أنها زائفة، ويمكن أن يعتقد المرء اعتقاداً ما إلى أمدٍ طويل وفي النهاية يظهر أن هذا الاعتقاد باطل، ولا أساس له من الصحة، وما سبَّبَ إلا دمار المسلمين، إذاً الله هو الحقّ.

لا بد أن يعرف المسلم أن اعتقاده إذا كان مطابقاً للواقع فهذا الاعتقاد حق، وأنَّ قولَه إذا كان مطابقاً للواقع فهذا حق.

وما قولك إذا ركب أحدهم سيارة، فقيل له: لِمَ هذا الضوء، وما فائدته؟ وهو ضوء صدر عن ساعة الزيت، فأجاب: إنه يتألق لِيُسليك في الطريق، وليس له غاية أخرى، فهذا التفسير صحيح أم غلط؟ وهل التصديق صحيح أم غلط؟ وهل الكلام صحيح أم غلط؟ كله غلط، لأنَّ هذا الضوء لو تألق وبقيت ماشياً لاحترق المحرك، فيكفلك خمسين ألفاً، أما لو تألّق ووقفت مباشرة فيُكلِّفُكَ مئة ليرة فقط.

يجب أن تكون معلوماتك، وتصوراتك، واعتقادك، ومواقفك، وعطاؤك ومنعك، وصلتك وقطيعتك، وغضبك وسرورك، كلُّه بالحقّ، والنبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً، فيمكن أن تمزح ولكن مزح حق، لا خدشاً لمشاعر إنسان، ولا تحقيراً لأحدٍ، ولا تحقيراً لِحرفة أو مهنة، ويمكن أن تروي طُرفة ممتعة وأنت صادق وبحق، فالنبي ﷺ كان يمزح، ولا يقول إلا حقاً.

كلمة «حق» أتمنى أن تكون واضحة، وفي القرآن وردت مئات المرات، والله هو الحقّ، أما معنى إحقاق الحقّ، وأنَّ كل ما سِوى الله لا وجود له إلا بالله، وفي أية لحظة إذا أراد الله لشيء أن يزول فإنه يزول، كن فيكون، زُل فيزول، إذاً ما سوى الله ممكن الوجود وإذا وُجِدَ فبالله، وإذا استمر فبالله، وإذا انتهى فبالله، وهناك دعاء للنبي ﷺ: «أنا بك وإليك» [رواه مسلم من حديث علي بن أبي طالب].

معنى أنا بك: يعني قائم بك، والله سبحانه يقول: (قل اللهم مالك الملك) وكل شيء يُمَلَّك فالله مالكه فعينك ملكه، وأنت ترى بها ما دام قد سمح لك أن ترى بها، وفي أية لحظة لو شاء أن تفقدها لفقدتها بلا سبب فالله حق.

والسمع يُمَلَّك، والأصل أن الله مالكه، واللسان يملَّك، حدثني أخ قال لي: في مشفى الأمراض العقلية، هناك مهجع خطير جداً، هذا المهجع نزلاؤه عراة كما خلقهم الله عز وجل، يمزقون كلَّ ثيابهم، ويأكلون من نجاساتهم ودمائهم وشعورهم، أي شيء يوضع في هذا المهجع يُتلف، أقوياء البنية، لكنَّ عقولهم معطلة، فأنت لك مركز، ولك عمل، وتتقن حرفة، وأنت قائم بالله، فلو أخذ ما أوهب انتهيت، وبيتك أنت عمَّرته، ورتبته وزيَّنته فلو صار في عقلك خلل، فأهلك يطرقون أبواب المسؤولين حتى يسمحوا لهم أن يضعوك في مستشفى الأمراض العقلية، ويتوسلون ويرجون، في حين كنت أنت الأب وأنت مالك البيت، وأنت الذي اشتريته ورتبه، لكنك الآن سلبت ما تملك، وفي أية لحظة قد يفقد الإنسان عقله، أو يفقد بصره، أو سمعه، وأنت عندك كليتان تعملان بانتظام، وإلى الآن لم يعرف الطبّ سبب هبوط وظائف الكليتين الفجائي، فجأةً تقف الكليتان عن العمل، فتصبح الحياة جحيماً لا يُطاق، فتحتاج إلى غسيل كلَّ أسبوع مرتين، وكلَّ مرة سبع ساعات، مرة بهذه اليد ومرة بالأخرى، ومرة بالقدم، ويبقى بالمئة عشرون من حمض البول (الأوريه) بالدم، تسبب لك مواقف عصبية صعبة ونرفزة وضيق نفس، أين آمالك، هل تملك كليتيك؟ لا والله، وهل تملك دسام القلب؟ لا والله، وهل تملك الشرايين التاجية وأن تبقيَها واسعة؟ وعندما تضيق تمشي مترين فتقع ولا تستطيع أن تُكمل سيرك.

قال لي أخ: كنت أصعد إلى الطابع الرابع بسهولة فصرت إلى الثالث أتعب، ثم إلى الثاني، ثم إلى الأول، ثم بعد درجتين أتعب، أجريت له عملية بكلفة مليون وما نجحت، فهل أنت تملك شرايين قلبك؟ لستَ بمالِكها، وهل تملِك البنكرياس لتعطيك الأنسولين بشكل منتظم؟ إنك لا تملكه، وإذا قصَّرَ بواجبه هرولت مستغيثاً: أدركوني. أدركوني.

حياتك مرهونة بسلامة الطحال بحيث لا يزيد نشاطه، والأنسولين ألاّ ينقص، والدسام ألا يخطىء والشريان ألا يضيق، والكلية ألا تقف، والأعصاب والعضلات، واعلم أن نقطة دم في الدماغ تسبب الشلل، وأنتَ لا تملِكُ شيئاً: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وأما عن وجودك أيها الإنسان وسعادتك، فأحياناً يعطيك الله الدنيا مع الانقباض، فكل المال ليس له قيمة، ولو أعطاك المال وسَلبَ منكَ الطمأنينة فحياتك في قلق، ولو أعطاك المال وسَلَبَ منك الصحة، أو الاستقرار والشعور بالأمن، فحياتك لا قيمة لها، قال تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

أهم ما في حياتك أن تعرف الحقّيقة! ابتدأتُ الحديث معك أن لو كان لديك آلة وأنت مضطرٌّ إلى تشغيلها، وهي تحتاج إلى طاقة كهربائية، فتوجّهت إلى مأخذ لا طاقة فيه، فهذا المأخذ باطل، ثم توجهت إلى آخر فكان المأخذ الآخر صالحاً، إذاً هو حق، فالحقّ الشيء الموجود، بل هو دائم الوجود، وواحد في وجوده، وكامل في وجوده، فهو دائم واحد كامل، واعتقادك هذا حق، واعترافك هذا حق.

لذلك أعود فأقول: إن (الحقّ)؛ كلُّ قول وافق الواقع بدليل، أما بلا دليل فهو تقليد فإذا قال أحدهم: أشهد ألّا إله إلا الله، فحقيقة الكلام حق، وما الدليل؟ إنه لا يعرف، فهذا كلام بلا دليل، فالحقّ أن يأتي كلامك مطابقاً للواقع مع الدليل.

وبعد، لو كان اعتقادكَ بالحقّ اعتقاداً غير قطعيٍّ، فلا قيمة له، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥].

فلو كان في اعتقادك ارتياب، أو تردّد، أو عدم قطع، أو كان اعتقادك بالشيء ثلاثين بالمئة فما دون فهذا اسمه وهم، وإن كان اعتقادك خمسين أو حول خمسين بالمئة فهذا اسمه شك، وإذا كان اعتقادك سبعين بالمئة فما فوق فهو ظن، ولو كان اعتقادك تسعين بالمئة فهذا أطلقوا عليه «غلبة ظن»، أما إذا كان مئة بالمئة، فهذا هو الحقّ وإيمانك بالجنة والنار والحساب لا بد أن يكون قطعياً، وأن المُرابي سوف يمحقُ الله ماله وأن الزاني سوف يفتقر، وأن الذي يُطلق بصره لا بد أن يشقى في بيته، وأنَّ الذي له مال حرام سوف يُتلفه الله، أن هناك وقفة بين يدي الله عز وجل، فإذا اعتقدت بهذه الأمور اعتقاداً قطعياً جازماً مئة بالمئة، فأنت على حق، فالحقّ لا يقبل الظنَّ، ولا غلبة الظنِّ ولا الشكَّ ولا الوهم، قال المعري:

زعم المنجّم والطبيب كلاهما ... لن تُبعث الأجساد قلت إليكما
إن صحَّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخَسار عليكما

هذه عقيدة باطلة: إذا كان هناك آخرة نجونا، وإن لم توجد فما خسرنا شيئاً، فهذا ليس ديناً، بل هو شك؛ وعدم تصديق بكلام الله.

الحقّ لا يتحمّل وهماً ولا شكّاً ولا ظنّاً ولا غلبة ظن، ولا يناسبه إلا القطع.

أكرر: الحقّ هو كل قول مقطوع به، موافق للواقع، وأي قول خالف الواقع فهو باطل فيمكن أن تنفي عن الدين آلاف الأفكار، وآلاف المعتقدات الزائفة، وآلاف القصص الباطلة، وكل شيء خالف الواقع كذلك...

عزل سيدنا عمر سيدنا خالداً، هذا الذي خاض مئة معركة أو زهاءها وفي كل هذه المعارك كان منتصراً، ففي كثير من كتب التاريخ يقول مؤلّفوها: كان بينهما حزازات في الجاهلية، فلما صار خليفة شفى غليله وعزله! أهكذا كان أصحاب رسول الله؟! لو كانوا كذلك والله الذي لا إله إلا هو ما خرجوا من مكة، ولم يفتحوا مصراً واحداً.. وأنت تسمع تفاسير كثيرة جداً حول عزل عمر لخالد رضي الله عنهما ولقد عثرت أخيراً على تفسير حق، جاء سيدنا خالد إلى سيدنا عمر، فقال له، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني؟ فقال: والله إني أحبك يا أبا سليمان، فقال: لِمَ عزلتني؟ فقال: والله إني أحبك، فقال: لِمَ عزلتني؟ قال: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله.

«كاد الناس يظنون أنك أنت الذي تنصرهم، خفت على العقيدة، فأردت أن أريهم أنني لو عزلتك... يبقى النصر ما دمتم مؤمنين»، هذا التفسير للحادثة يليق بسيدنا عمر، ويليق بسيدنا خالد، وهذا تفسير حق.

وأحياناً تقرأ تفاسير للأحداث وتقرأ قصصاً غير صحيحة وغير معقولة، فتهتز بها الصورة المتألقة للصحابة الكرام، وهذا من عمل الشيطان وأهل الزيغ والباطل.

إذاً: الحقّ لا يقبل الشك ولا الوهم ولا الظن ولا غلبة الظن، ولا يقبل إلا القطع.

ونسمع من يقولون في زماننا: إن هذا الكلام واقعي إلى حدٍّ ما! فقولهم: «إلى حدٍّ ما» ليس حقاً، بل يحمل كل معاني الشك، وواقعي بالمئة ثمانين فليس حقاً، وواقعي بالمئة خمسين فليس حقاً، وواقعي نوعاً ما، فليس حقاً، الحقّ واقعي مئة بالمئة، دائماً وأبداً.

وهو ما كان مقطوعاً به، وموافقاً للواقع، وعليه دليل، ولو ألغي الدليل لصار تقليداً، لو اعتقدت تقليداً فعقيدتك غير مقبولة.

وإذا قبلنا التقليد بالعقيدة، كأن يقول لك إنسان: الله عز وجل ليس رحيماً وهذه الكوارث والمصائب والأمراض دليل على ذلك، فتقول: صحيح وأنا سأقلدك الآن،

فإذا كان يوم القيامة، فيقول لك الله عز وجل: لِمَ اعتقدت أنني غير رحيم؟ تقول: يا رب أنا قلدت فلاناً هو قال كذلك فصدقته، فيقال لك: أين عقلك؟ لذلك لا يمكن أن تقبل من الإنسان العقيدة بالتقليد، فلا تقبل بلا دليل، ولا ترفض بلا دليل، بل عود نفسك المنهج العلمي، فإن حدثك أحد بقصة، فقل: ما مصدرها؟ وإذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مدّعياً فالدليل، ولا يُبنى شيء على أغلب الظن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

الحقّ يحتاج إلى دليل، وإلى مطابقة للواقع، وإلى قطع، فإذا استطعتَ أن تراجع كلَّ أفكارِك وكُلَّ معتقداتِك وكلَّ تصوراتِك حتى تجعلها كلَّها مطابقة للواقع قطعية الثبوت وعليها دليل فأنت من الفائزين، وإنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، كما روي عنه ﷺ: «يا ابن عمر! دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا» [الخطيب في الكفاية في علم الرواية عن ابن عمر].

فالله هو الحقّ، وكلامه هو الحقّ، والجنة حق، والنار حق، والحساب حق، والعذاب حق، والصراط حق، والحوض حق، وغضُّ البصر حق، فما معنى حق؟ أي لو طبقته عملياً لقطفت ثماره، والأمانة حق، فلو كنت أميناً لوثِقَ الناس بك، فالأمانة غنى، وأي شيءٍ تُطبِّقُهُ، تقطف ثمارَهُ، فالوقت ثمين وغال والحياة لا تحتمل إلا التطبيق، وإن كنت من رواد المساجد، فإن لم تطبق ما تتعلم فلن تقطف شيئاً، وتكون كلُّ حركاتك عشوائية، والتطبيق هو الجانب العملي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ [التوبة:١٠٥]. وهذا الكلام مؤداه خطير، فمؤداه أن تتعامل مع الدين تعاملاً جدياً، تصل إلى الغاية والهدف.

ثم انظر ملياً فحينما تقول: إن في الدار الآخرة حياة أبدية والحياة الدنيا زائلة، فهل عملك يتوافق مع اعتقادك؟ قد يكون الاعتقاد حقاً، ولكن التطبيق باطل، وهل تقبل من طبيب أن يقول لك: إياك والدخان فإنه سرطان في الرئة، وضيق في الشرايين، وجلطة، وهو يُدخن أمامك، فهذا كلامه باطل، ولو كان يوقن بما يقول ما فعل هذا.

نصيب المؤمن من اسم الله (الحق)

الله تعالى هو الحقّ، ومعنى هو الحقّ؛ أي إنّه لا بد أن يظهر الحقّ، وإن كنت على حق فلا بد أن ينصرك ولو بعد حين، أما إن كنت على باطل فلا بدَّ أن يخذلَك ولا بد أن يفضحك، فكُنْ مع الحقّ أبداً، وإلا فهناكَ خذلان وفضيحة، ولكن الله عز وجل يُرخي الحبل، ومعنى يرخي الحبل، أي يتركك إلى أمد بعيد لتفعل ما تشاء وأنت سالم، وتتصرف باختيارك، ولو عاجلك بالعقوبة عند كل خطيئة لاستقمت ولكنّ استقامتك ليست عن حبٍّ لله عندئذ، ولا عن طاعةٍ له، بل تستقيم خوفاً منه، وعندئذ أنت لست مخيّراً بل مسيّرٌ، ومعنى مخيّر، أي: يمكنك أن تأكل مالاً حراماً وتستمتع به سنوات طويلة، وبعدئذ تلقَى العقوبة المروعة، وقس على ذلك الشيء الكثير من الحرام.

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [التكاثر:٥-٧].

كذلك إذا رأيت دخاناً وراء جدار فستحكُم مئة بالمئة أنه لا دُخان بلا نار، ثم ذهبت خلف الجدار، فرأيت لسان اللهب، فمشاهدة الدخان عِلمُ اليقين، وعندما وقعت عينك على ذات النار فهذا عين اليقين، فإن قربت يدك منها فلسعتك بحرارتها فهذا حق اليقين، الحقّ مئة بالمئة وهو يقين، علمُ اليقين وعين اليقين وحقُّ اليقين. ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾.

إذاً لا بد أن نتعرف إلى الحقّ، ولا بد أن نعتقد حقاً، وأن نقول حقاً، وأن نسلُكَ المنهج الصحيح لنكون على حق وحتى نستحقّ أن يرفعنا الله عز وجل، وحينما يُحقّ الله الحقّ يسمح لعباده الطائعين أن يرتفعوا، وليس سوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص:٨٨].

إذاً المُلَخَّص الذي ينطق بالحقّ هو: يا رب! ماذا فَقَدَ من وَجَدَكَ وماذا وجد من فقدك؟! وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

وهناك في الكون حقيقة واحدة وهي الله، كل شيء يُقرِّبُ منها فهو حق، وكل شيء يُبعِدُكَ عنها فهو باطل، فعليك أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، وأن تُطبقه، وهذا هو الحقّ، وما سوى ذلك كلُّه باطل، والمؤمن يرى بأمِّ عينه، أنّ الباطل قد يصمد سبعين عاماً، وبعدئذ يتهاوى كبيت العنكبوت، لأنه باطل، فالفكرة باطلة، والمبدأ باطل، والتطبيق باطل، وإذا رأيت بأم عينك جداراً بُني بلا شاقول، فالمهندس لا بد قائلٌ: إن الدار سينهار لا محالة، لأن بناءه باطل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

إن الباطل من صفاته الثابتة أنه زَهوق، وإن كان الاعتقاد باطلاً فهو زهوق وإن كان السلوك باطلاً فهو زَهوق.

أنتم تعلمون حينما يقام معرض لأسبوعين، معظم الأجنحة إن كان الوقت صيفاً تُنشأ من القماش، أو من ورق مقوّى، من مواد رخيصة جداً، فالمدّة قصيرة، لكن حينما نبني جامعة، قد يستغرق بناؤها عشر سنوات، هذا البناء وُجد ليبقى، وله هدف كبير، هدفه الكبير إنشاء قادة للأمة، نشر العلم، تخريج علماء، أطباء، علماء نفس، علماء اجتماع، علماء تربية، علماء رياضيات، تخريج مدرسين، موجهين، اختصاصيين، خبراء في المعامل، هذا البناء له هدف كبير، له هدف عظيم، له هدف نبيل.

الحق الشيء الهادف، المرتبط بأهداف نبيلة، والعابث شيء ليس له هدف.

إنسان يلعب النرد حتى الساعة الثالثة ليلاً، هل ازداد علماً؟ أو ازداد قرباً؟ أو ارتقى مستواه؟ أو ازداد دخله؟ إنه مضيعة للوقت، فلعب النرد شيء عابث.

أما أن تعكف على كتاب ديني فتقرأه، فهو شيء هادف، حينما تأتي إلى مسجد لتحضر درس علم فهذا شيء هادف، مقدّس، أما حينما ينطلق الإنسان إلى ملهى، فشيء عابث.

الملخص أن الله سبحانه وتعالى هو الحقّ، وكلامه هو الحقّ ووعده هو الحقّ، ووعيده هو الحقّ، وأفعاله هي الحقّ. وينبغي للمؤمن أن يتعرف إلى الحق وأن يقول ويفعل حقاً وأن يقترب من الحق ويبتعد عن اللعب والعبث.

المبين

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في آية واحدة، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

وقد ورد معرّفا بـ (ال) مثلاً: راشد اسم علم، أما إذا عرفت الاسم لقلت: جاء الراشد، أنت تريد أن تؤكد اتصاف هذا الإنسان بالرّشد، فحين يعرّف اسم العلم يقصد منه مع التعريف دقّة اتّصاف صاحب الاسم بصفته.

هذا الاسم يفيد المدح والثناء، والعبد عبد والرب رب، شأن العبد الافتقار، وشأن الرب المدح والثناء، لكن لو أن غنياً تواضع، وقال لمن يسأله عطاءً: أنا لا أملك شيئًا، ليس هذا المقام مقام تواضع، مقام أن تذكر له أنك يمكن تساعده، فشأن الله المدح والثناء، وشأن العبد الافتقار.

من معاني اسم الله (المبين)

المبين اسم فاعل من أبان، أظهر، أما بائن فمِن الفعل (بان)، وهو فعل لازم، واسم فاعله بائن، أما أبان: فاسم فاعله مبين.

ويقال: بانت المرأة؛ انفصلت عن زوجها، وفي الطلاق الثالث تكون البينونة الكبرى.

و (المبين) هو الواضح: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٧].

السحرة جاءوا بأنابيب، وطلوها على شكل ثعبان، ووضعوا فيها زئبقًا، ثم وضعوها على مكان ساخن، فتمدّد الزئبق، فتحرّكت هذه الأنابيب المطاطية ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان:١٠-١١].

وحينما يرى الإنسان أنه خسر الأبد، وخسر الآخرة قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر:١٥].

الخسارة الحقيقية أن تخسر الله، أن تخسر الجنة، أن تخسر الأبد.

البيان أرقى أداة اتصال بشري، فلو فرضنا دولة فيها نظام، لكن ما فيها لغة، وأراد حاكم هذه البلدة أن يمنع التجوّل، ماذا يفعل؟ يحتاج إلى شرطي لكل مواطن يدفعه إلى البيت، لكنّه يصدر بلاغا في أربع كلمات لا تجد بعد ذلك إنسانا في الطريق.

«وإن من البيان لسحرا» [أخرج مالك أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر] .

يقول الله جلَّ جلاله في سورة الرحمن: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن:١-٤].

البيان هو الإفصاح والتعبير والكشف والإبانة والتوضيح، ولأنَّ البيان يطرد الشيطان؛ وضِّحْ، بيِّنْ، فصِّلْ، ونَوِّهْ، واشرح: ائتِ بالدليل.

البيان هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو الفهْم وذكاء القلب، بل إنَّ صفة البيان من امْتنان الله عز وجل على الإنسان، ومن أخصِّ خصائص الإنسان البيان والقدرة على التعبير، والتعبير عن الأفكار وعن التصوزات والمشاعر وعن العواطف، والتعبير

عن الحاجات وعن الطموحات، وكلُّ ما يعْتلج في نفْس الإنسان من أفكار وتصورات وأهداف، ومن مشاعر وعواطف وخواطر يمكن أن يعبِّر عنها، فالبيان من أخص خصائص الإنسان، فيمكن أن يعبِّر عنها بلسانه، ويمكن أن يعبِّر عنها بقلمه، ويمكن أن يصغي إليها بأُذُنه، ويمكن أن يفهمها بعقله، فإذا كان الكلام إلقاءً وتلقِّياً بقيَ محصوراً في المتعاصرين، أما إذا كُتِب وقُرِئَ انتقل من جيلٍ إلى جيلٍ، ومن أمةٍ إلى أمة، ومن قارةٍ إلى قارة، لذلك قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

ثمانيةٌ وعشرون حرفاً يمكن أن يُصنع منها بلايين الكلمات، وملايين وملايين الأفكار والمشاعر والمقولات.

الحقيقة أن هذا الاسم فيه وصف للذات، فالله سبحانه وتعالى بائن؛ أي ظاهر، من بان واسم الفاعل من هذا الفعل بائن.

أما إذا بيّن الله للناس آياته فهو (المبين)، وهذا وصف للأفعال، فاسم (المبين) بين أن يكون وصفاً للذات، وأن يكون وصفاً للأفعال.

والمبين جل جلاله يبيّن للنّاس آياته لعلهم يعقلون ويتفكّرون ويشكرون ويهتدون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٤٢﴾ [البقرة:٢٤٢].

هناك آيات كونية، وهي خَلْق الله عز وجل، وهناك آيات تكوينية هي أفعاله، وهناك آيات قرآنية أي كلامه، فمن أجل أن نعرفه، ومعرفة الله أصل الدين ينبغي أن نتفكر في آياته الكونية، وأن ننظر في آياته التكوينية، وأن نتدبر آياته القرآنية.

لو وقفنا وقفة متأنية عند آياته الكونية، فالله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في السماوات والأرض، وكما تعلمون كلُّ أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

من بعض آياته الكونية: أن بين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كم تقريباً، فإذا كان لهذا النجم طريق سالكة، ومعنا مركبة أرضية، وسرنا بسرعة مئة في الساعة، لو قسمنا المسافة على مئة يكون الجواب كم ساعة تستغرق الرحلة، لو قسمنا الناتج على ٢٤ ساعة نجد كم من يوم تستغرق الرحلة؟ لو قسمنا الناتج على ٣٦٥ نجد كم من عام، من أجل أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى الأرض بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام، متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا ٤٠٠٠ سنة ضوئية؟ بل متى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، ومتى نصل إلى بعض المجرات التي اكتشفت حديثاً، وتبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، إذا فتحت كتاب الله، وقرأت قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

فالموقع يعني أن صاحب الموقع قد لا يكون في الموقع، لأن هذا النجم، أو هذه المجرة، أو هذا النجم الذي يبعد عنا عشرين مليار سنة كان في هذا المكان، وأرسل ضوءه إلى الأرض، وبقي الضوء يقطع في الفضاء الخارجي مسافة يستغرق قطعها عشرين مليار سنة، أين هو النجم الآن؟ ليس في هذا المكان، سرعته تقترب من سرعة الضوء.

أما آياته التكوينية فهي أفعاله.

تصوروا فرعون، وما أدراكم من فرعون، بجبروته، بقوته، باستعلائه، باستكباره، بقسوته، بظلمه، بطغيانه، هذا فرعون وراء سيدنا موسى بقوته، سيدنا موسى معه أصحاب قليلون من بني إسرائيل، وصلوا إلى ساحل البحر: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء:٦١].

احتمال النجاة صفر، فرعون بأسلحته، بحقده، بطغيانه، باستعلائه، باستكباره، وراء نبي كريم مع قليل من بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

والقصة معروفة لديكم، حيث إن هذا النبي الكريم ضرب البحر بعصاه فأصبح طريقاً يبساً، سار فيه موسى ومن معه، تبعهم فرعون، وكان موسى قد خرج من الطرف الآخر، وفرعون في منتصف البحر، فغرق، وكان إغراق فرعون آية من آيات الله عز وجل.

وهذه القصة لنا من أجل ألا نيأس، من أجل أن نثق بالله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن عباده المؤمنين.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩].

هذه آية من آياته التكوينيّة، قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام:١١].

هؤلاء الذين عارضوا النبي الكريم كأبي لهب وأبي جهل، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ، هؤلاء الذين وقفوا معه أين هم؟ في أعلى عليين.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾.

وفي آية أخرى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل:٦٩].

أحياناً يأتي التدمير سريعاً، وقد يأتي متأخراً لحكمة أرادها الله عز وجل، فآياته الكونية أُمرنا أن نتفكر فيها، وآياته التكوينية أُمرنا أن ننظر فيها.

بقيت آياته القرآنية فقد أُمرنا أن نتدبر آياته القرآنية، والقرآن الكريم يُقرأ قراءة صحيحة، وفق قواعد اللغة، لأن هذا القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وإن أمكن

ينبغي أن يُقرأ وفق أحكام التجويد، هذا مندرج تحت قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

ثم ينبغي أن نفهمه، ثم ينبغي أن نتدبره، ما الفرق بين أن نفهمه وأن نتدبره؟ أن نفهمه أي نفهم المعنى الذي أراده الله عز وجل وفق علم الأصول، أما التدبر فتقول: أين أنا من هذه الآية؟ هل أنا مطبق لها؟ مثلاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

هل أنا متوكل؟ فالمؤمن الصادق حيث ما قرأ آية في كتاب الله يسأل نفسه: هل أنا مطبق لها؟ هذا هو التدبر، وأعلى شيء في تلاوة القرآن الكريم التطبيق، إذاً: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

بدءاً من تلاوته وفق أحكام اللغة العربية الصحيحة، ثم قراءته وفق علم التجويد، ثم فهمه، ثم تدبره، ثم تطبيقه.

إضاءات على الآيات التي ورد فيها البيان

البيِّنة هي الدلالة الواضحة، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة:١].

وفي هذه الآية إشارةٌ إلى مجيء سيدنا عيسى عليه السلام؛ البيِّنة؛ الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة، وفطرية كانت أو واقعية، وكلُّ مثقّف يعلم أن هناك دليلاً فطرياً ودليلاً عقلياً ودليلاً نقلياً ودليلاً واقعياً.

الحقُّ دائرة يتقاطع بها خطّ النقل مع خط العقل مع خط الفطرة وخط الواقع، الحق الذي ينبغي أن تعتقد به جاء به النقل الصحيح، وأيَّدَهُ العقل الصريح، واطمأنَّتْ إليه الفطرة السليمة، وأكَّدَه الواقع الموضوعي؛ الحقُّ هو الذي ينبغي أن تعتقده وتؤمن به وأن تدافع عنه، وأن تُفنِيَ شبابك من أجلِهِ وأن تستهلك عمُرَك الثمين في سبيله؛ هو

الذي جاء به النقل الصحيح، وأقَرَّهُ العقل الصريح، واطمأنَّت إليه الفطرة السليمة، وأكَّدَه الواقع الموضوعي. والحق هو الله، ومن أسمائه جل جلاله الحق، الله جل جلاله خلق الكون، فالكون خلْقُهُ، وأنزل القرآن، والقرآن كلامُهُ، وجبل النفوس جِبِلَّةً خاصة، فالفِطرة ما جبلنا عليه، والعقل مقياسٌ أوْدعَهُ في الإنسان وخلق الواقع على نظام دقيق، فالواقع خلْقُه، والقرآن كلامه، والعقل أداةٌ أودعها فينا، والفطرة جبلَّة جُبِلْنا عليها، فالحقّ هو الذي يأتي به النقل الصحيح مع العقل الصريح مع الفطرة السليمة مع الواقع الموضوعي.

سُمِّيَ الكلام بياناً لأنه يكشِف عن المعنى المقصود؛ مثلاً طفلٌ صغير دخل دبّوس في ثيابه الداخلية فبكى بُكاءً مُرّاً، فحار أهلُهُ في سبب البكاء ساعاتٍ طويلة، أطْعموه فلم يقبل، وسَقَوْهُ فلم يقبل، وحملوه فلم يسكت؛ لو قال: إنَّ في جِسْمي دبوساً انْزعوه مني لانتهى الأمر، عِوَض أربع ساعاتٍ من البكاء، لكنّ الطفل الصغير لا يُبين ولا يستطيع أن يُعَبِّر عن حاجاتِهِ إلا بالبُكاء، والبكاء لغةٌ ضبابية عامة؛ فهو يبكي يا ترى أجائِع هو أم عطشان أم متألِّم أم أصابه مَغْص هضمي؟ لا ندري؛ فالبيان من أخص خصائص الإنسان.

وقال بعضهم: التبيان هو الكشف والإيضاح والتبيين والتثبّت، وقد وردت مادة البيان والإبانة في مواطن من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩].

الإنسان أحياناً يتوهَّم جهْلاً أو تجاهُلاً أو تقصيراً في البحث العلمي أو غباءً؛ يتوهَّم أن الدين لا يقوم على أي أساس، بل إن كلَّ شيءٍ سوى الدين لا يقوم على أساس؛ لستم على شيء ولستم على حقيقة ولا على بيِّنة، ولستم على دليل ولا على برهان إلا بالدين، من أخصِّ خصائص الإنسان أنه يملك الحجة البالغة، والدليل القاطع، ويتحرَّك وفْق مبادئ، ويتَّجِهُ نحوَ أهداف ثابتة، ولا يمكن أن يُفاجَأ المسلم في وقتٍ من

الأوقات بأنه اعتقد خطأً ما دامت عقيدتُهُ مستمدَّةً من كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

يقولون أحياناً: إنَّ فلاناً إيمانُهُ في قلبِهِ ولا يستطيع أن يجهر بِهِ؛ ما قيمة هذا الإيمان إذا بَقِيَ على شاكلةِ أُناسٍ متفلِّتين؟! وقال: أنا إيماني في قلبي! هذا كلام غير مقبول، إن الإيمان إذا استقرّ في القلب حقيقةً لا بد أن يُعبِّر الإنسان عن وجودِهِ بكلامٍ ينطِقُهُ، أو بسلوكٍ يسلُكُه، أو بدعوةٍ ينشرها، أو بعملٍ يمارسُهُ، أو بصداقةٍ يُنشئها، أو بخير يفعلُهُ، وعلامة الإيمان التحرُّك، والإيمان حركة ولا يوجد مؤمن سكوني، والمؤمن لا يكون سلبياً، وليس هناك مؤمن لا يرجو هداية الخلق، ولا يبحث عن طريقٍ يُعرِّف الناس إلى ربِّهم، لذلك ما إن تستقرَّ حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى يعبِّر عن إيمانِهِ بحركة وبدعوةٍ وكلام ونُصْح وأمرٍ ونهي وإعطاء ومنعٍ وصلة وقطيعة وولاءٍ وبراءٍ، فلا بدَّ من حركة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال:٧٢].

لذلك أنْ تكتُم علماً ولا تُبيِّنَهُ، يعني أنك وقعت في كبيرةٍ من الكبائر؛ فكتمان العلم أمر خطير، وربنا عز وجل وصف دُعاتَه الصادقين بصفةٍ واحدة، وهذه الصفة تُغني عن آلاف الصفات؛ فالداعية الصادق لا يخشى إلا الله، فلو خَشِيَ أحداً غير الله لتكلَّم بالباطل إرضاءً لمن يخافُهُ، ولسكت عن الحق خوفاً ممن يخافُهُ، فإذا تكلَّم بالباطل وسكَتَ عن الحق ماذا بقِيَ من دعْوَتِهِ إلى الله تعالى؟! قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

أذكر مرةً أني قرأتُ خبراً واحداً لكنَّهُ معبِّر؛ وذو دلالة بالغة، عمر بن هبيرة والي البصرة جاءَهُ كتابٌ من الخليفة يزيد بن عبد الملك يأْمُرُه بشيءٍ لا يُرضي الله عز وجل،

وكان عنده الإمام الحسن البصري من الأئمة الأعلام ومن التابعين؛ ووقع هذا الوالي في حيرة، أَيُنفِّذ أمر يزيد ويُغضب الله عز وجل؟ أم يرفُض أمر يزيد فيرضي الله ويُغضِب يزيد؟ ولعلهُ يَخْلَعُهُ من عمَلِه، فاستشار الإمامَ الحسن البصري، فقال هذا الإمام كلمةً تُكتَبُ بماء الذهب، قال: «إنَّ الله يمْنَعُك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله»، وفي الحديث الصحيح:

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، الجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ» [رواه الترمذي].

لكن بالمقابل لو سُئلت عن شيءٍ وأنت لا تعْلَمُهُ قل: لا أدري بملء فمِك ولا تخجل، لأنّ نصف العلم لا أدري، أحمد بن سنان قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر حمَّلني أهل بلادي مسألة قال: سل، فسأله عنها، فقال: لا أُحسن، قال: فأي شيء أقول لأهل بلادي؟ قال: تقول: قال مالك لا أُحسن.

كُنْ موضوعياً فهذا النبي ﷺ حينما كان يُسْأل عن أمر أو مسألة لم ينزل عليه الوحي فيها لا يجيب وهو سيد العلماء وسيد الخلق.

لذلك قال العلماء: «أمانة الأنبياء أمانة التبليغ، أما أمانة العلماء فأمانة التبيين».

وفي الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

عَنْ عَبْدِ الرحمنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْها القُلُوبُ، قُلْنا: يا رَسُولَ الله إنَّ هذه لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَماذا تَعْهَدُ إلَيْنا؟ قَالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضاءِ لَيْلُها كَنَهارِها، لا يَزِيغُ عَنْها بَعْدِي إلا هالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختلافاً كَثيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ

مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وإنْ عَبْداً حَبَشِيّاً، عَضُّوا عَلَيْها بالنَّوَاجِذِ، فإنَّما المُؤْمِنُ كَالجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُما انْقِيدَ انْقَادَ» [رواه أحمد].

فللمؤمن ميزة قد يغْفَل عنها، أنت على الحق، ومعك الدليل، والحجةُ القاطعة، وأنت تستنير بنورٍ من الله، وتقرأ الوحي الذي أُنزِل على النبي ﷺ والوحي نِداء السماء إلى الأرض، فأنت حينما تجلس إلى آلةٍ بالغة التعقيد وتحاوِل أن تفهمها من خلال تحريك الأزرار قد تُعْطِبُها، وقد لا تفهم حقيقة عمَلِها ولا طريقة استعمالِها ولا طريقة إيقافِها ولا طريقة صيانَتِها، وقد تسأل فتأتيك أجوبةٌ متناقضة، وقد تأتيك التعليمات فلا تفْهَمُها، وقد تسأل مَن عنده مثل هذه الآلة ويغْفَلِ عن بعض حركاتِها، أما إذا جلسْت إلى مُختَرِعِها وصانِعِها وسألتَهُ فجوابه صحيح، حقٌّ مئةً بالمئة.

لذلك هناك علوم تجريبية، وعلوم دينية أصْلُها الوحيُ، فالوحيُ قطْعيٌّ في صحته لأنه من عند الله عز وجل ولا يُنَبِّئُك مثل خبير، أحد الأطباء وهو من العلماء استنْبَط من حديث رسول الله ﷺ أنَّ للإنسان أن يشرب ما شاء مع الطعام من قول النبي ﷺ:

«ما مَلأَ آدَمِيٌّ وِعاءً شَرّاً مِنْ بِطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فثُلُثٌ للطَّعامِ، وثُلُثٌ للشَّرابِ، وثُلُثٌ للنفَسِ» [رواه ابن ماجه من حديث المقدام ابن معدي كرب].

وبقي هذا الطبيب وهو أستاذٌ جامعي يؤكِّد لطلابه خلال عشرين عاماً أنه لا مانع من شرب الماء مع الطعام بالقدر الذي تريد، على حين أن بقية الأطباء يرَدِّدون نظرية درسوها في الجامعات الغربية، من أنّ شرب الماء مع الطعام يمدِّد العصارات الهاضمة ويُضعِف الهضم، فلا بد من أن تنتظر ساعاتٍ ثلاث حتى تشرب من الماء كما تشاء، وهذا الأستاذ الذي استنبط من حديث رسول الله هذه الحقيقة يدافع عن رأيه بشكل مختصر.

فالنبي ﷺ لا ينطِق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، والنبي ﷺ ينطق عن الوحي والله الخبير. إلى أن ثبتَ علمياً قبل سنوات وقد نُشر هذا في مجلة أبحاث

علمية مرموقة جداً، أن شُرب الماء مع الطعام يعين على الهضم، فمهما أكثرت من شرب الماء فلا يضرّك ذلك، لأنه يحثّ العصارات الهاضمة على الإفراز، والطعام إذا تخلّله الماء أمْكن للعصارات الهاضمة أن تتغلغل في كلِّ أنحائِه وأن تُعين على هضمه، فالأصل هو الوحي فكُلّ شيءٍ يخالف الوحي فيه خطأٌ؛ بدت لك حقيقتُهُ أو لم تبْدُ؛ فالمؤمن يصدِّق الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة:١١٨].

المشكلة في حلقة مفرغة، فالجاهل ينتظر أن يهديَهُ الله وأن تأتيه معجزة، وأن يرى الله جهْرةً، وأن يرى كتاباً أُنزل من السماء، وأن يرجع ميتٌ من قبرِهِ فيُحدِّثه.

الحقيقة بيّنها الله، وانتهى الأمر إلى ما هو في وضوح الشمس، والكون كلُّه ينطق بعظمة الله، وبوحدانية الله، وبكمال الله، والقرآن كلُّه ينطق أن كلام الله من خلال إعجازِهِ، والقرآن ينطق أن هذا الذي جاءَهُ الكتابُ هو رسول من عند الله، فالله بيَّنَ وانتهى الأمر إلى غاية الوضوح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الليل:١٢-١٣].

فالله هدى الناس، وبقي أن تستجيبوا أنتم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

بقي لك أن تستجيب؛ هداك بالكون، وأعْطاك العقل، وجَبَلَك على فطرةٍ سليمة، وجعل الحوادث كلَّها تؤيِّد كلامه في القرآن، بل إن حوادث الكون تأويلٌ للقرآن الكريم، النقطة الدقيقة هنا أنّك إذا أردت الهدى وجَدْتَهُ في كلِّ شيء، وإذا أعْرَضْت عنه لم تجِدْهُ في أوْضَح الأشياء، فهناك من عاش مع النبي ﷺ؛ ألَمْ يرَ النبيَّ

ﷺ وكمالَهُ ومنطِقَهُ وأخلاقَه ومعجزاته؟ ألَمْ يقرأْ هذا الكتاب الذي أُنزل عليه؟ ومع ذلك لم يؤمن، وقد يأتي إنسان في آخر الزمان، ولم يرَ النبي ﷺ ولم يجلس إليه ولم يستمِع إلى أقوالِهِ ولم ير معجزاتِه والنورانيات التي كانت تُشِعُّ منه ﷺ، ومع ذلك يؤمن به، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٧].

والحقيقة أنَّ الإنسان كلما ارتقى يخافُ بعقلِهِ، وكلما هبط مستواهُ يخافُ بعينِهِ، فالحيوان يخافُ بعينِهِ، والإنسان الذي أنكر إنسانيته وعطَّل عقله، لا يخافُ إلا بعينه، والكافر متى يَفْزع؟ حينما يأتيه ملك الموت، ومتى يخاف؟ حينما يقترب أجلُهُ، ومتى يضطرب؟ حينما تأتيه المصيبة، أما وهو في البَحْبوحَة والرخاء فلا يُبالي إطلاقاً بهذا الحق؛ لذلك فالذي يخاف بعَيْنِه أقل مرتبةً من الإنسان الذي يخاف بعقله، أما الذي يخاف بعقلِهِ فهو الإنسان العاقل.

وأما الأمر الثاني فقد قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

هناك معنى مهمّ جداً، أحياناً يتناول الإنسان مادة أولية ليُصَنِّعها، فهو لا ينتفِعُ بها إلا إذا صَنَّعها، فالخشب مثلاً: لو اشترى إنسان شجرة ووضَعَها في البيت ماذا يفعل بها؟ إنَّ هذه الشجرة تُشرح إلى ألواح، وتصنّع قطعة أثاث يستخدمها وتُطلى بطلاء جميل، فهناك مواد أولية كثيرة جداً ليست لها قيمة بذاتِها إلا إذا صُنِّعَت، وبعض النبات لا يؤكل إلا إذا طُبخ، فهذه الآية لها معنى مهمّ، يقول الله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

وفي آية أخرى ورد فيها البيان والتبيين: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [المائدة:٨٩].

يجب على المؤمن أن يتناول هذه الآيات وأمثالها بالدراسة والتفكر فيها، كي يعقلها ويستفيد منها، ولتكون متكأً للوصول إلى الله عز وجل.

إذاً عليك مهمة، فالشمس موجودة وكلُّ إنسان يرى الشمس ساطعة، لكنك محتاجٌ إلى أن تُفكِّر فيها كآية من آيات الله، بل إنَّ بعض الحيوانات حينما تميل الشمس للغروب تتجه إلى اصطبْلِها؛ البقر والدّواب والأنعام حينما تميل الشمس إلى الغروب تتجه إلى اصطَبْلِها، معنى ذلك أنّ الحيوان يُدْرِك أن الشمس مالَتْ للغروب، أما الإنسان فعليه أن يُفكِّر مَنْ خَلَقَها ومن كوَّنَها ومَن رفعها ومَن جعلها مُلْتَهِبة؟... ويدرك أنها مصدر حرارة للأرض وإنارة: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

ومعلوم يقيناً أن هناك في الكون آياتٍ لا تُعَدّ ولا تُحصى، وأينما التفت المرء وسار واتجه وجلس ونظر رأى الآيات تحيط به من كلِّ جانب، لذلك فالعبرة أن تعكف على هذه الآيات وتفكِّر فيها، ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

هناك آيةٌ تحمل العظَةَ، والدلالة واضحة جداً في سورة النساء، يقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

البيان الإلهي من ثمرات إرادة الله عز وجل؛ أحياناً الإنسان يضرب ابنه ولا يريد أن يضربه، وأحياناً يتناول الدواء وكان يتمنى ألا يتناولَهُ، فليس كلّ فعل متوافقاً مع الإرادة، فالإنسان يفعل أشياء مضطراً لكن هذه الآية دلالتها واضحة جداً؛ فالله يريد ليبين

لنا، وليعرفنا، وينقلنا من الجهل إلى العلم، ويُخرجنا من الظلمات إلى النور، ومن الضياع إلى الوجدان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

يقول له: لِمَ لا تُصَلي يا أخي؟ فتجد الجواب: إلى أن يهديَني الله، فهذا الكلام مضحك، وغير علمي، فالله عز وجل خلقَك ليهديَكَ.

الذي أراه أن الله سبحانه وتعالى رحمةً بعباده ينوِّعُ لهم أساليب الهدى، وأوْدَعَ فيهم العقول ليهتدوا، وأوْدَعَ فيهم الفِطَر السليمة لتكون مقياساً لهم لأعمالهم، وسخَّر لهم السموات والأرض؛ ليكون هذا الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وجعل أفعاله متطابقة مع أقوالِهِ كي يحصل الانسجام في الكون، فالله وعد المُرابي بحرب، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٩].

تجد دائماً وأبداً الذي يجمع المال الحرام يدمِّر مالَهُ، تَوافُقُ أفعالِ الله مع كلامه شيءٌ مهم جداً، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

حياة المؤمن طيبة، وهو شيء جميل ينوّه الله تعالى إليه في القرآن وتؤكّده الدراسة الميدانية، فإذا اجتمعتَ مع الشباب المؤمن تجدُهُم حقاً يعيشون حياةً طيبة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

لو تتبَّعْتَ أحوال أهل الدنيا لَوَجَدْتهم يعيشون معيشةً ضنكاً، تطابُقُ أفعالِ الله مع كلامِهِ نوع من البيان، فالكلام نظري والتطبيق عملي.

ويقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

كلمة سلام؛ فالسلامُ مريحٌ جداً، والسلام الذي أرادَهُ الله عز وجل هو السلام الذي من أسمائِهِ تعالى، لأن الله جل جلاله أصل كلِّ سلامٍ في الأرض والإنسان قد يسْلم مع نفْسِهِ فهو مطمئنٌ إليها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

والإنسان قد يكون في سلامٍ مع من حوله، وعلاقاته واضحة، وصادقٌ، وأمين، وليس بينه وبين من حوله مشكلة، ومُرْتاح البال، وهو في سلامٍ مع كل من يلوذ به، والإنسان المطيع في سلامٍ مع ربِّه.

من أسماء الله المُبين يبين بأقواله وأفعاله وأنواره وتجلّيه وخلقِهِ والفِطَر والعقول، والله عز وجل يُعلِّمنا دائماً، ومن هنا قال بعض العلماء تفسيراً لهذه الآية ولهم فيها وجهة نظر، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

يفهمها بعض المسلمين على الشكل التالي: إنْ اتَّقَيْتم الله يعلِّمكم، فلو كان المعنى هكذا، لجاء النص على الشكل التالي: واتَّقوا الله يعلمكم الله، جواب الطلب، أما الآية واتقوا الله ويعلمكم الله؛ يعني: لِمَ لا تتقون الله؟ والله يعلِّمكم دائماً، يعلِّمكم بالوحي والعقول والفِطَر وخلقه وأفعاله وبآلاف الطرائق.

وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٥].

والحقيقة أن التناقض بين ما يعتقدُهُ الإنسان وبين سلوكِهِ لا يُحتمل، تجد أناساً يستمعون إلى خطبة في مسجد، أو إلى كلمة في عقد قِران، أو إلى موعظة بمناسبة وفاة ويتأثرون بها آنياً، فإذا انطلقوا إلى بيوتهم كأن لم يسمعوا شيئاً، وهذا شيءٌ مريع، أن تسمع للحقِّ وأن تفعل عكْسَهُ، أن تأتي إلى بيت الله، تستمع إلى الآيات والأحاديث والأحداث، وتهمل بيتك ويكون على خلاف ما أمر الله تعالى، وأن تطلب العلم ولا تعمل به، وأن تتزَيّا بزيِّ المسلمين ولا تفعل ما يفعل المسلمون، وأن تدَّعي أنك مؤمن ولم تُدرك حقيقة الإيمان؛ فهذا هو الذي ورد في هذه الآية، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، أي: ينصرفون عما فيها من بيان وإيضاح لحقائق الإيمان.

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٧].

شيءٌ عظيم ومفيد جداً أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه على النبي ﷺ وفيه كلُّ الحق وفيه البينات والنور والمنهج؛ ثم من العجيب جداً ألا يأخذ منا كلام الله تعالى مأْخَذَ التطبيق.

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٤].

من هو المجنون؟ هو الذي عصى الله تعالى، فالمجنون الذي نراه في الطريق ليس مجنوناً، هذا مُبْتلي بعُصاب ذِهني أو بمسٍ شيطاني، لكنَّ المجنون حقيقةً هو الذي عصى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم:٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:٢٨].

المؤمن على شيءٍ من الهدى، والمؤمن مُنْغَمِسٌ في رحمة الله تعالى، لكن هذه الرحمة عُمِّيَت عن الخلق، والخلق ماديون يقيِّمون كلَّ شيءٍ بمقياس مادي، فأنت مهما كنت على خلقٍ عظيمٍ، وعلم غزير، أو على معرفةٍ بالله، أو على إخلاصٍ شديد، فلا تُقَيَّم إلا من خلال دخْلِك عند هؤلاء المادِّيين.

وفي سورة يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ [يوسف:١].

المُبين يعني: الواضِح؛ ولذلك ليس من المناسب أن تفهم كلام الله فهماً لم يرده الله، علماً بأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وبلسانٍ عربيٍّ مبين؛ هناك أُناسٌ يتعامون عن المعنى الجليِّ الواضح ويصرفون عنه النظر، ويبحثون عن معانٍ لا تُدرَك إلا بشقِّ الأنفُس أو بالتكلف الذي لا يُحتمل، ومن أخطاء المفسِرين أن تُؤوّل الآية لغير ما تُفصِح عنه، فهذه التأويلات التي ما أنزل الله بها من سلطان هي التي شتَّتَت المسلمين وفرَّقَتْهم، مع أن هذا القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين؛ بعض القراءات المعاصرة فسَّرت قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف:٤٦].

البنون: البناء هل في العالم العربي من يفهم كلمة البنون أنها تعني البناء؛ المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، فينبغي أن نفهمه وفق لغة العرب.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل:٦٤].

هناك اختلاف أساسُهُ نقْص المعلومات، وهذا اختلافٌ طبيعي، لكن الوحيَ يحْسُمُ هذا الأمر، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ

بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

وهناك اختلاف أساسه البغي والحسد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩].

الاختلاف الأول طبيعي؛ وهو الاختلاف القائم على نقص المعلومات، أما الاختلاف الثاني فهو قَذِر أساسُهُ الحسد والبغي والعدوان، أما الاختلاف الثالث فاختلافٌ محمود، وهو التنافس في حقل الدين وفي دائرة الحق، وفي سورة النور قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٨].

الحق واضح، لكنّ الناس في الدنيا نِيام وإذا ماتوا انتبهوا، وعند الموت يُكشف الغطاء قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٩].

أيها المؤمن لا تَخَفْ، فإن النبي ﷺ خاطب عدي بن حاتم فقال له: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة لترين الظّعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخْرِجُ مِلءَ كفه من ذهب أو فضة يطلب مَن يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقينّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فلَيَقُولَنَّ: ألم أبعث إليكَ رسولاً فيبلغَكَ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأُفْضِلُ عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من

الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النبيّ أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه» [رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم].

فتوكَّل على الله إنك على الحق المُبين، وعلامة المؤمن الصادق لو أن الناسَ جميعاً تنكَّروا للدين ولم يعبَؤوا به ولم يلتزموا بتعاليمه، يكفيه أنه على الحق المُبين، والإنسان العاقل لا يأخذ بالكثرة، بل هدفه الحقّ ولو قلَّ ناصروه، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم:٢٨].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٧].

فالآيات تحتاج إلى تفكُّر وإعمال عقل، والآيات إنْ صحّ التعبير مواد أوليّة تحتاج إلى تصنيع، ولا بد أن تُصَنِّعَها بعقلِك وبفكرِك، ولا بد أن تتفكَّر فيها أو أن تتذكرها، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

أحداث العالم كلّه تتجه لتأكيد ما في القرآن.

لا يغيب عن بالِكم أن العالم فيما سبَقَ شرْقاً وغرباً؛ كان شرقاً يؤمن بالمجموع والقيود، وغرباً يؤمن بالفرد والحرية، والآن الشرق والغرب عادا إلى الإسلام قهْراً لا عبادةً، واضطروا إلى أن يعودوا إلى أصول الدين؛ فمثلاً هناك بلادٌ طويلةٌ عريضةٌ عاتيةٍ بعيدة حرَّمت الخمر، والآن في بعض الجامعات تُحَرِّم الاختلاط بين الطلاب والطالبات،

فكلما تقدم العلم ونضج في البشرية اتجه قهراً إلى تعاليم الدين لا إيماناً ولا تعبُّداً، لذلك الشرق والغرب عادا إلى وسطية الإسلام، والشرق عاد مقهوراً لا مخيَّراً، والغرب سيعود كذلك، وسوف ترَوْن بعد حين أن هذا الدين الإسلام العظيمَ هو دين المستقبل قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٨-١٩].

حتى الآيات الكونية في القرآن الكريم، كلما تقدم العلم تكشَّفت للعلماء حقائق الإعجاز القرآني العلمي.

نصيب المؤمن من اسم الله (المبين)

المؤمن يدعو الله تعالى باسمه المبين ويتخلّق بهذا الاسم الجليل فيبيّن العلم ولا يكتمه، ويبيّن للنّاس فلا يوقعهم في الشّكّ والرّيبة.

لذلك فإنّ النبي ﷺ حينما كان مع زوجتِه صَفِيَّة مرّ به صحابيان أنصاريان في الطريق فقال: «على رِسْلِكما إنها صَفِيَّة»، فقالا: سبحان الله! يا رسول الله؟ قال: «إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» [رواه البخاري من حديث صفية].

«البيان يطْرد الشيطان». وأنا أعرِف أناساً كثيرين مشكلتهم في صمْتِهم؛ يسكت ولا يوضِّح، قد يكون بريئاً وطاهِراً وسليم الصدر، حَسَن النيَّة، لكنّ صمْتَهُ الدائم يثير حوْله الشُّبُهات؛ إذاً وضِّحْ، بيِّنْ، ولا تجعل للشيطان سبيلاً.

أنت مسافر، وكلّفت أخ زوجتك بتفقّدها في غيبتك، بلّغ الجيران، أنا مسافر، وسيأتي أخو زوجتي يتفقد شؤون أخته، لئلا يظنّ النّاس أنّ هذا الإنسان غريب دخل إلى بيتك في غيبتك، لذلك لا تضع نفسك موضع التّهمة، ثم تلوم الناس إذا اتّهموك.

البطولة أنّ كلَّ عمل يقتضي تفسيرين يجب أن تبتعد عنه، وإن كنت مضطراً فبيّن ماذا تريد من هذا العمل، هذه من صفات المؤمن، يبيّن، فكلّما بيّنت أزلت الشكوك، وأبعدت نفسك عن التّهم، والمؤمن حريص على سمعته، وعلى كلام الناس في غيبته، ورحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه.

من أدعية هذا الاسم الجليل: اللهم أنت المُبين للحق، والهادي إليه، والموفِّق لاتباعِه، فاجعل بين أيدينا نوراً من قُرآنِك وهدايةً من بيانِك، فإنك أنت الحقّ المُبين.

وليس هناك أسْعَد من إنسانٍ عرف الحق، ونعْمةُ الهدى أعظم نعمة، بل إن بعض العلماء قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ ﴾ [المائدة:٦].

قالوا: تمامُ النعمة الهدى، فاللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفتاح

سمّى الله ذاته العليّة بالفتّاح في نصٍّ واحد من النصوص القرآنية؛ وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

ولم يرد هذا الاسم في السّنّة.

من معاني اسم الله (الفتاح)

الفتَّاح على وزن فعَّال، وصيغة فعَّال من صيغ مبالغة اسم الفاعل، وحينما يصاغ اسم الله عز وجل الفتَّاح، صيغة مبالغة فالمعنى أن الله عز وجل يفتح كلَّ الأبواب ويفتح ما استعصى من الأبواب، إمّا مبالغة تكثير أو مبالغة نوع فقد يستعصي باب على الخلق، فالله سبحانه له ولغيره فتّاح.

قد يصاب الإنسان بمرض عضال، والأطباء جميعاً أعطوا قرارهم، لا شفاء لهذا المرض، لا أمل يُرجى من هذا المريض، لا بد أن يموت المريض بعد أيام، ولا تُجدي

معه العملية، ولا ينفعه أن يسافر إلى بلاد الغرب، ولا أن يفعل، ولا أن يدع، باب الشفاء أُغلق وأُرْتِج وأحكم الإغلاق، وتواترت آراء الأطباء بذلك.

أعرفُ صديقاً لي أنجب مولوداً بولادة عَسِرة، سُحب الجنين من رحم الأم بآلة تُستخدم في الولادة العسرة، حينما وضع الجهاز على رأسه وسحب أصيب دماغه بخلل، فصار هذا الطفل الصغير كلما مضى وقت قليل ينتفض، فسأل صديقي هذا أول طبيب فقال له: هذه إصابة في الدماغ، ولا بد أن يكون هذا الطفل مستقبلاً أعمى، أو أبله أو مشلولاً، قلنا: هذا الطبيب حديث عهد بالعلم، فسألنا أشهر طبيب أطفال في دمشق يُعرف برسوخ قدمه في مجال طبِّ الأطفال، فقال الكلام نفسَه، ما أضاف ولا أنقص، سألنا طبيباً ثالثاً ورابعاً وخامساً ثم أُدخِل الطفل مستشفى الأطفال، وآراء الأطباء وأقوالهم لم تتغير، لأنّ الاختلاجات أساسها إصابة الدماغ، وإصابة الدماغ لا شفاء منها، لأنَّ الخلية العصبية لا تنمو وهذه قاعدة طبيّة معروفة.

لو أن الأعصاب تنمو لمات الإنسان ألماً، فمن رحمة الله بالإنسان المصاب بهذه الإصابة أن أعصابه لا تنمو، فالأطباء جميعاً أجمعوا على أن هذا المولود قد يكبَر ويبقى أبله أو مشلولاً أو أعمى، وصدقوني أن أباه كان يتمنى أن يموت طفله، لأن موت الطفل الصغير أهون بكثير من أن يكبر على هذه الحالة، ثم أُخِذَ إلى طبيب آخر، وهذا الطبيب على شيء من الإيمان، قال: لعل الله يشفيه، فأجرى تخطيطاً للدماغ، وأعطى الدواء وما هي إلا ستة أشهر حتى صار الطفل سوياً كغيره من الأطفال الأسوياء لا شيء يقلق في صحته، الآن عمره اثنتا عشرة سنة ويتحرك ويلعب وهو متفوق في دراسته، فهل في الأمر سرّ؟ نعم: إن الله هو الفتَّاح، لقد أغلقوا كلَّ الأبواب، وربُّنا عز وجل فتح باب الشفاء.

المعنى البسيط إما أن يفتح كلَّ باب، يفتح لك باب الرزق، يفتح لك باب العمل، يفتح لك باب الزواج، يفتح لك باب الراحة النفسية، يفتح لك باب التوفيق، يفتح لك باب الطمأنينة، يفتح لك باب العمل الصالح، يفتح لك باب الدعوة إلى الله.... أو أنَّ أحد الأبواب التي استعصت على كلّ طبيب مثلاً يفتحه الله عز وجل.

إذاً فتّاح صيغة مبالغة اسم الفاعل الفاتح، يفتح ما أُغلق من الأبواب أو ما استعصى من الأبواب، أو يفتح كلَّ باب، قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

يفتح باب رحمته، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فإذا أمسك ليس في الأرض كلِّها قوة تستطيع أن تفتح، وإذا فتح ليس في الأرض كلِّها قوَّة تستطيع أن تغلق، قوى الأرض مجتمعةً ليس في إمكانها أن تفتح ما أغلقه الله ولا أن تغلق ما فتحه الله، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

إذاً الأمر بيد الله وحده، وإذا أيقنت أن الأمر بيد الله وحده لا بد أن تتجه إليه، هذه الآية تترك صدىً طيباً جداً في نفس المؤمن، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمْسِك لها، علاقتك محصورة مع الله عز وجل، ما سوى الله أشباح، لا تقدِّم ولا تؤخر، إن النبي ﷺ وهو سيد الخلق وحبيب الحق وهو النبي الرسول الذي يُوحى إليه، وهو أكرم الخلق على الله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الأعراف:١٨٨] قل لهم يا محمد: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، فإذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى، الله هو الفتّاح.

كلمة يرددها الصالحون كلما التقوا بإنسان متوثب، متفتح، مندفع، يقال لهذا الشاب: «فتح الله عليك فتوح العارفين» فهي كلمة متنوعة النتائج، الله يفتح لك باب رزق، الله يفتح لك باب علم، الله يفتح لك باب قرب، الله يفتح لك باب رُقيّ، الله هو الفتَّاح.

الآية الأولى إذاً، قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

الفتَّاح له معنى آخر مستنبط من قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٩].

أحياناً الأمور تشتبك، قوى تتصارع، فلان يدَّعي أنه على حق، وفلان يكيل التُّهم للآخرين بغير حساب، الآخرون يكيلون له الصاع صاعين، ترى الحياة صراعات وتبادل تهم، تبادل تهاترات، توزيع ألقاب سيئة أو راقية، من عنده قول الحق؟ من الذي يعرف حقيقة هذا الإنسان بالضبط؟ إنَّه الله عز وجل، فمعنى الفَتْح هنا معنى آخر معنى الحُكْم ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا ﴾.

يعني كلٌّ يدعي أنه على حق، كلٌّ يكيل للطرف الآخر التُّهم، هو مؤمن والآخرون كفّار، هو مستقيم والآخرون منحرفون، هو قريب والآخرون ضالّون، فمن هو الحَكَم، مَن صاحب الكلمة الفاصلة؟ من هو الذي يقول: أنتم على حق وأنتم على ضلال؟ الله عز وجل هو الفتَّاح، هذا المعنى الثاني مستنبط من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

ما علاقتك بهذا المعنى من هذا الاسم، فإن كنت على حق فلا تخف لأن الله هو الفتَّاح، قد يقول الناس عنك الأقاويل، قد يتهمونك بتهم لا أساس لها من الصحة، إذا كنت على حق لا تخف، ولا تنسَ قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام:٩١].

إذا آمنت أن الله هو الفتَّاح وهو الحكم، هو الذي يرفع ويخفض، هو الذي يكشف الحقائق، هو الذي يُجلي الأمور، هو الذي يزيل الالتباس، هو الله عز وجل الذي بيده الخير كلُّه، إذا آمنت بأنه هو الفتَّاح فلا تقلق، ولو أنَّ الناس أساؤوا فهمَك، ولو أن الناس أساؤوا الظنَّ بك، ولو أنهم اتهموك تهماً باطلة لأسباب تافهة، لا تخف، من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس فيه.

ما الذي يُقلق الإنسان في زمننا هذا؟ يقلقه أنه متمزِّق بين جهات عديدة؛ موظّف في شركة بل في معمل له عشرة أرباب عمل، شركة فيها عشرة شركاء في معمل كبير وهو موظف عندهم، ولو أنّ هؤلاء الشركاء متفقون متفاهمون، فعلى الرغم من ذلك فكلّ شريك سيعطي هذا الموظف أمراً مناقضاً للآخر، الأول تعالَ، الثاني اذهب، الأول كن غداً في المكتب، الثاني سافِر، الأول تأَخَّرْ بعد الغداء، الثاني تعال بعد الظهر واذهبْ باكراً، هذا إذا كانوا متفاهمين، فكيف إذا كانوا متخاصمين، فكيف إذا كانوا شركاء متشاكسين، فالحياة عندئذٍ لا تطاق.

الإنسان المشرك أو غير المؤمن أو ضعيف الإيمان حياته ممزقة، كذلك الموظف الذي مر بنا فهو بين أن يُرضي رئيسه وأن يُرضي مرؤوسه، بين أن يُرضي زوجته، إن أرضى من حوله في العمل تغضب امرأته، وإن أرضاها يغضب شركاؤه، وإن أرضى جيرانه يغضب الله عز وجل، وإن امتنع عن حضور هذه الحفلة أغضب أقرباءه، حياة كلُّها تعب ونصب وهو مشتت، لكن المؤمن يعلم أن الفتّاح هو الله، هو الحكم، إذا أرضى جهة واحدة استراح، وفي الحديث الشريف:«من جعل الهموم همّاً واحداً همّ آخرته كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أيِّ أوْديتها هلك» [سنن ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود].

ولا تنسوا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحد أكبر عذابات النفس أن تشرك بالله، أن تدعوَ مع الله إلهاً آخر، ليس معنى أن تدعو مع الله إلهاً آخر أن تقول: فلان هذا إله فحسب، بل أن تعامله كما تعامل الإله، أن تعتمد عليه، أن تتكل عليه، أن تُعلِّق عليه الآمال، أن تطيعه وتعصي خالق الأكوان، هذا معنى أنك اتّخذته إلهاً.

المعنى الأول: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [فاطر:٢] الأبواب المغلقة كثيرة، قد يقال لك: الأبواب كلُّها مغلقة، الطرق كلُّها غير سالكة، كلما اتجهتُ إلى جهة أُغلق

الباب في وجهي، هذا تعبير يستعمله عامّة الناس، من هو الفتَّاح؟ هو الذي يفتح لك الأبواب المغلقة أو الأبواب المستعصية، أو الأبواب الكثيرة إنه الله الفتَّاح، وحينما يَطْهُر الإنسان، حينما تصبح سريرته سليمة، حينما يستحق الإكرام تأتيه الدنيا وهي راغمة.

إذا كنت في المستوى الذي يستحقُّ الإكرام، إذا سرت في موجبات رحمة الله عز وجل تأتيك الدنيا وهي راغمة، وفي هذا الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه:

قالَ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهارِ قُلْتُ: ما بَعَثَ إليْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إلا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ، فَسَالتُهُ، فَقَالَ: سَأَلَنا عَنْ أَشْياءَ سَمِعْناها مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كانَتِ الدُّنْيا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيهِ أمْرَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا ما كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَه، جَمَعَ اللهُ لَهُ أمْرَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وهِيَ رَاغِمَةٌ».

ما تعلق أحد بحب الدنيا إلا أُصيب منها بثلاث: شغل لا ينفكُّ عناه، وأمل لا يُدرَك منتهاه، وفقر لا يُدرك غناه، لكن حال المؤمن كما قال الله: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ ﴾ [هود:٣].

متاع المؤمن حسن، تلفّه راحة نفسية تامة، ولديه أمل بجنة عرضها السموات والأرض، ولكن متاع الكافر كلُّه قلق، ينوبه شعور بالمستقبل المجهول، شعور قاتل بأنه مُقدِم على مجهول، ولا سيما الموت المتربص به، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦].

أجابه ربنا: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦ ﴾ ما الفرق إذاً بين متاع المؤمن ومتاع الكافر؟ متاع المؤمن تتخلله راحة نفسية يمازجها شعور

بأن الله عز وجل ادَّخر له نعيماً كبيراً في الآخرة، أما الكافر فإنه وفي قمّة استمتاعه في الدنيا يشعر بقلق من مجهول أقلّه الموت، أقلّه أن تُسلب منه هذه النعمة، لذلك الدعاء الذي أدعو به وأكرر: «اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء ومن شماتة الأعداء ومن السلب بعد العطاء» قاصمة الظهر أن يُسلب منك شيء قد نلته من الله عز وجل، فالله عز وجل، من إكرامه للمؤمن يجعل خير عمره آخره، يتعبه في أول حياته ولكن يريحه في آخره، أما أهل الدنيا فيُعزُّهم في مقتبل حياتهم ثم يأتي العقاب والذلُّ والهوان والفقر.

«اللهم! اجعل خير عمري آخره، اللهم! اجعل خواتيم عملي رضوانك، اللهم! اجعل خير أيامي يوم ألقاك» [أخرجه الطبراني في الأوسط، من حديث أنس].

﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٩].

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

كلمة فتح باللغة تعني أن هناك شيئاً مغلقاً، فهل تقول لإنسان: افتح هذا الباب وهو مفتوح؟! كلمة ليس لها معنى، فأنت لا تقول: افتح إلا لما هو مغلق، إن أُغلق باب بوجهك يجب أن تذكر اسم الفتَّاح، حتى لو ضاعت مفاتيحك، لو ضاعت محفظتك، لو ضاع شيء ثمين.

حدثني أخ قال: كنت ذاهباً إلى ميناء اللاذقية لتخليص بضاعة، ومعي مستندات كثيرة جداً، وهناك أشخاص كلّفوني بإيصال مستندات لهم إلى بعض الموظفين في الميناء، محفظة كلُّها مستندات، ذهبت إلى مركز انطلاق المركبات لأركب، تفقدت هذه المحفظة الممتلئة بهذه المستندات لبضاعة وصلت إلى اللاذقية فلم أجدها، أقسم بالله؛ إن الدم جفَّ في عروقه، قال: اصفرَّ وجهي، بضائع بالملايين له ولزملائه، قال: وقفت على مدخل المركز وأدعو يا فتاح، قال: وقفت ساعة كاملة لا أجد عندي حلاً، وألغيت سفري، فما عدت أذكر السيارة التي أقلتني إلى المركز، ثم دعوت بدعاء شديد وبدعاء

فيه إلحاح، وقفت أمامي سيارة، فقلت لنفسي: أذهب ماشياً على الأقدام ولا أريد الركوب، قال له السائق: ألست الذي ركبت معي قبل قليل؟ ثم قال: خذ هذه المحفظة فهي لك، ببركة الدعاء، عادت المحفظة، هو لم يعد يتذكر في أية سيارة ركب، ولكن السائق بيد الله عز وجل، وإذا أراد الله عز وجل للسائق أن يعود يلهمه العودة، ويلقي عطفاً في قلبه، أو يلقي فيه خوفاً منه، قال لي بعد ساعة، وقفت أمامي السيارة، وظننتها تعرض عليّ الركوب، فأشرت للسائق أن اذهب، لكنه قال لي: ألست الذي ركب معي قبل ساعة؟ قلت له: بلى. أليست هذه محفظتك؟ فتلقفتها منه وكدت أطير فرحاً، وعدت إلى الحياة من جديد.

إذاً فكلمة فتح تعني أنّ هناك شيئاً مغلقاً، والفتّاح صيغة مبالغة لِلْكَمّ والنوع، فقضية مستعصية جداً تدعو بـ: يا فتاح يا عليم، أبواب كثيرة يا فتّاح يا عليم. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القمر:١١].

يعني أنها كانت مغلقة، يقولون في النشرة الجوية: منخفض متمركز في قبرص اتجاهه نحو القطر، توقع هطول أمطار غزيرة، تتلبد السماء بالغيوم ولا تنزل أمطار، تعاد الكَرَّة بعد يومين، توقع هطول أمطار، توقع هطول أمطار، أسبوعاً أولاً، أسبوعاً ثانياً، وثالثاً ورابعاً، مضى أيلول والتشرينانِ لم تنزل أمطار، توقع هطول أمطار لا أمل بنزول أمطار، ومن بعد توقع هطول أمطار بإذن الله، وبعدها: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾، يعني أن السماء مغلقة ومفتاحها بيد الله عز وجل.

والفتح في الحرب الظَّفر، فالبلاد المفتوحة، كانت مغلقة محصنة، جيوش، قوى، فُتحت الأبواب كلُّها للمسلمين، أصبحت بلاداً إسلامية، هذه البلاد كانت محتلة من قِبَل الرومان ففُتحت للمسلمين.

كذلك من معاني الفتَّاح، هو الحاكم بين الخلق، لأنه كلما استغلق أمر خلافي بينهم يفتحه الله عز وجل.

ولدينا معنى آخر لكلمة فتح، هناك فتحٌ لكبار المؤمنين، أي أن المؤمن أحياناً يفتح الله عليه يلقي في قلبه نوراً، يلقي في قلبه معرفة، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥].

أحياناً تشعر أنك لم تكن ترى فأصبحت ترى، رؤيا قلبية، أحياناً يرى الإنسان أنّ تجارته تروج مع الكذب، ويربح الكثير فهذا أعمى البصيرة، إلى أن يرى أن الصدق وحده هو الذي ينجيه، هذه رؤيا قلبية، يرى أن الاستقامة في الحياة هي سبب الكرامة، هذه رؤيا، بعض الناس يكذب ويغش ويخدع، ويظن نفسه ذكياً، لأنه أعمى القلب، فما هو الفتح بالمعنى الجديد؟ الفتح أن يفتح الله على بصيرتك، أن يكشف الله على بصيرتك، أن يجعل بصيرتك صافيةً ترى بها الخير خيراً والشرَّ شرّاً.

إذاً بعض العلماء قالوا: «الفتّاح هو الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته، وفتح على العاصين أبواب مغفرته، فإن كان عاصياً فالله عز وجل يفتح له باب المغفرة، وإن كان مؤمناً يفتح له باب معرفته».

إذا سألت نفسك عما كنت عليه قبل خمس سنوات من الآن، هل مشاعرك النفسية في المستوى ذاته أم صرت تشعر أن لك رؤية جديدة ولك الآن بصيرة نافذة، لك إدراك أعمق، لك قيم أمتن؟ إن كنت تغيرت عِما كنت عليه فهذا هو الفتح، كلما كشف لك عن بعض الحقائق فقد فتح عليك، إلى أن يفتح عليك الفتح المبين.

المؤمن يتفاوت مع المؤمن باليقظة والغفلة، فهناك مؤمن أغلب وقته في غفلة، مؤمن بالله ولكن في غفلة، أما المؤمن الأرقى، أكثر وقته مع الله عز وجل، دائماً يدعوه، يستعيذ به يرجوه، يهتدي بهديه يستلهمه، والله عز وجل يتجلّى على قلبه، يلقي في قلبه نوراً، يلقي في قلبه معرفةً، هذا معنى الفتح.

الكثير من العوام، إذا فتح محلاً بشارع فيه رواج شديد مثلاً، والبضاعة ألبسة نسائية، والنساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، وعنده موظفون غارقون في المعاصي والآثام، يكتب على محله التجاري: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح:١].

هذا هو الفتح؟! أن تربح، أن تبيع النساء الكاسيات العاريات، وأن تدير معهن أحاديث ماجنة تدعو إلى المعصية، هذا هو الفتح المبين؟ هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

الله عز وجل فتح للنبي ﷺ مكة المكرمة فتحاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، هذا هو الفتح حقاً وحقيقة.

إذاً الفتَّاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته، وفتح للعاصين أبواب مغفرته، وقيل الفتَّاح: الذي يعينك في الشدائد وينيلك وجوه الزوائد، يعينك في الشدة وفي الرخاء يرفعك، يعطيك عطاءً زائداً، إذاً هو فتاح.

بعضهم قال: الفتَّاح هو الذي يفتح أبواب الخير على عباده، ويسهل عليهم ما كان صعباً، هذا الفتح يكون تارةً في أمور الدين، يقول لك أحدهم: لديّ كتاب أقرؤه، ولكني لا أفهم ما فيه، صعب، بعد حين يفتح الله على قلبه، فيقرأ ويفهم، يقرأ ويتعمق، يقرأ ويستمتع، يقرأ ويفقه، يقرأ ويحفظ، يقرأ ويتكلم، فأجرى الله الحكمة على لسانه، ولكنه سلك طريق العلم والتعلّم طبعاً، أول الأمر يقول: هذا كتاب لا أفهمه كأنني أنحت في صخر، ما هذ الكتاب، أقرأ القرآن لا أفهمه أبداً، أقرأ الحديث لا أفهمه، ثم وافاه وقت آخر فبدأ يفهم وبدأ يتعمق وبدأ يطرح أسئلةً، وبدأ يتلقى أجوبة، بدأ يحفظ، بدأ يتمتع، بدأ يدعو.

إذاً فالله هو الفتَّاح، يفتح عليك أبواب العلم، يفتح عليك أبواب الحكمة فتنطلق على لسانك، فإذا أخلصت لله أنطق الله لسانك بالحكمة، فأول أنواع الفتح يفتح عليك في أمور الدين وهو العلم، ويفتح عليك في أمور الدنيا، تكون فقيراً فيغنيك، تكون ضعيفاً فيقويك، تكون مظلوماً فينصرك على أعدائك، تكون مكروباً فيزيل هذه الكربة ويحل محلها الفرحة، لذلك فالإنسان إذا كان بعيداً عن الله عز وجل لا يمكن أن يسعد، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) ﴾ [طه:١٢٤].

إنه الانقباض، سل أهل الدنيا، سل أصحاب مئات الملايين، سل من يملكون ألوف الملايين، سل من أوتي قوةً لا حدود لها، من أوتي مالاً كمال قارون، سلوهم أيها القراء الكرام، أستحلفكم بالله، قد يقولون: نحن أشقى الناس، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾.

ماذا يعني فتّاح، يفتح لك باب الأنس به، يفتح لك باب الإقبال عليه، يفتح لك باب الرضوان، يفتح على قلبك باب الرضا، ترضى أن تسكن في غرفة ونصف تحت الأرض، وتقول: الحمد لله، وتدخل على رجل بيته خمس مئة متر، ثمنه ثلاثون مليون ليرة، يقول لك: السوق كاسدة، وخسارة هذه السنة كذا مليون، يعني تدني مستوى أرباحه كذا مليون، وعنده مال يكفي الأولاد والأحفاد، تراه معكراً، أما الفقير فقد فتح الله عليه باب الرضا، فتح الله عليه باب السكينة باب الشكر، الصحة طيبة والحمد لله، أنا أسعد الناس، وهذا الذي ما عرف الله عز وجل دائماً في ضيق وضنك وسخط على الله عز وجل ولو حاز الملايين.

إذاً يفتح لك باب الدين بفتح باب العلم على قلبك، أو يفتح لك باب الغنى إن كنت فقيراً، إن كنت ضعيفاً يفتح لك باب القوة، وإن كنت مريضاً يفتح لك باب الصحة، إن كنت مكروباً يفتح لك باب الفرحة. قال المؤيد في دين الله:

يـــا رب أنـــت المرتجـــي ... ومَـــن ســـواك أرتجـــي
أم هـــل ســـواك فـــاتح ... لكـــل بـــاب مـــرتج

قيل: الفتَّاح هو الذي يفتح على النفوس باب توفيقه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨].

قال بعض العلماء: «لا يمكن أن يحدث شيء في الكون إلا بتوفيق الله تعالى»، فحينما بنوا سفينة الفضاء: (شالنجر) ومعناها المتحدي، أرادوا أن يجربوا تجربة فريدة،

أن يخرج إلى الفضاء الخارجي لمدة تسعة أشهر أو سنة سبعة رجال وامرأة كي تنجب المرأة وهي في الفضاء، وأعدوا لكل شيء عدّته، ولكلّ جهاز في المركبة جهازان للمراقبة، وقد ضبط الجهاز بعدّ تنازلي محكم جداً وأطلقت المركبة إلى الفضاء وسماها أهل الدنيا المتحدي هذه المركبة بعد سبعين ثانية، أصبحت كتلةً من اللهب، فالله ما فتح عليهم، أغلق دونهم باب التوفيق، فلذلك ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

فإذا فتحتَ محلاً تجارياً، أو أسست معملاً، أو أسست مدرسة، إن أزمعت الزواج، فقُل: يا فتاح وتخلَّ عن ذاتك، ولا تقل: أنا خبير سأستخدم كل خبرتي وسأستشير، وسأسأل محامياً.

أعرف رجلاً، متبرماً دائماً، مشمئزاً دائماً، جمع وطرح وضرب وانتهى رأيه إلى أنه إذا باع معمله، وبيته، ومحله التجاري بالملايين، ووضع ماله هذا في بنك في أوروبا والفائدة بالمئة ثمانية عشر، يعيش في أوروبا ملكاً، ثم نفّذ الخطة، باع المحل وباع المعمل وباع البيت وباع السيارة، ثم أخذ تأشيرة خروج، وذهب إلى السويد، في باله أن يضع الأموال في المصرف ويشتري بجزء منها بيتاً وسيارة فخمة، ثم يعيش على فوائد المبلغ في بحبوحة، فماذا جرى؟ إن البنك يطلب وثائق معينة لوضع المبلغ لديه، والمبلغ كبير جداً فوضعه باسم شخص آخر، إما قريب له أو صديق له هناك، وفي اليوم التالي سأله إعادة المبلغ، قال له: مَن أنت؟ لا أعرفك وأنكره، كل ثروته ضاعت بساعات قضاها، لتأمين وثيقة معينة، وفي اليوم التالي أنكره، فأين الذكاء؟!

هذه أبقِها في بالك، مع الله لا ينفع ذكاء، قال ﷺ: «لا يغني حذر من قدر» [أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة] ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ لن يقع شيء إلا بأمر الله.

نصيب المؤمن من اسم الله الفتاح

وبعد فما علاقتك بهذا الاسم؟

أولاً هذه الآية لا بد للمؤمن أن يفهمها كما أراد الله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فلو أنه قال: ومفاتح الغيب عنده، هل تغير المعنى؟ هو سبحانه قال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾، هل يستفاد معنى آخر من تقديم عنده؟ نعم، فلو قال: ومفاتح الغيب عنده، فقد تكون عند غيره أيضاً، أما إذا قال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ فالتقديم فيه قصر، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وعنده مفاتح الغيب وحده والعوام يقولون كلمة صحيحة: «الذي عند الله ليس عند العبد»، مرَّ وقت قال الناس فيه: انحبست الأمطار، جفاف دائم، ففي عامٍ مضى بعض ضفاف نهر بردى زُرعت، والناس في الغوطة استيأسوا من أن ترجع هذه الأنهار متدفقة كعادتها، فهم في جفاف مستمر، فجأة تدفق نهر بردى بشكل كبير وبكميات دافقة ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ والناس خاب ظنهم، فلو قال الطبيب: لم يبقَ هناك أمل في المريض، فلا تصدق، وقل:

إن الطبيب له علم يدلُّ به   إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حارَ الطبيب وخانته العقاقير

على حسب عمر الإنسان، فإذا انتهى عمره وقال الطبيب: لا يوجد أمل، فلا أمل فيه فلا أمل حقاً، أما إذا كانت هناك بقية في حياه فقد أخطأ الطبيب.

أذكر طبيباً قال عن مريض: بعد أربع ساعات ينتهي عمره، اشترى أهله السواد وكتبوا النعي، ثم شفاه الله عز وجل، هذا الإنسان عاش ثلاثين سنة بعدها والطبيب مات بعد اثني عشر عاماً ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾، ليس من باب التكذيب، ولكنَّ الطبيب يتكلم بحسب علمه، أمّا ما سيكون فلا يعلمه إلا الله عز وجل، فمثلاً: هناك بلاد في الشرق آمنة مطمئنة رخاء مال، بترول، غنى، من يصدق أنها مع رخائها تلتهب فيها نيران الحروب، ليس هذا في الحسبان.

لبنان في عام ١٩٧٤ كان جنة الله في الأرض، الأمن والرخاء والبذخ والترف، كل ما في العالم في هذا البلد، من يصدق أن الدمار يغطيه والذين زاروه يصفونه بأنه صار قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هناك تفسيرات إلهية، نحن نفهم التفسيرات الأرضية، على أنها صراع، حرب أهلية، مشكلة عربية، دولية، ولكنَّ هناك فهماً دينياً آخر، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

دائماً اعتمِد التفسير القرآني للأحداث، هناك تفسير أرضي معين، هناك تفسير من زاوية معينة، تفسير عربي، تفسير دولي، هناك تفسيرات كثيرة جداً، حتى هناك تفسير نسائي لأحداث لبنان، قلن: «أصابتها عين» فالصواب أن تعتمد التفسير الديني، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

لبنان وغير لبنان، شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ هذه الآية إذا فهمتها تكذّب الدجالين، والكهان، والسحرة، والمنجمين، والأفاكين، تسمع في هذا العصر أنه في كل بلد متقدم جداً هناك فلكيٌّ أو عرّافٌ يأتيه كبار الشخصيات يسألونه عن مستقبلهم المالي مثلاً، أو الإداري أو السياسي، فلو قرؤوا هذه الآية لامتنعوا عنهم وعلموا كذبهم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

انتهى الأمر، ووضحت الرؤية، فلمجرد أن تسأل إنساناً عن الغيب فأنت لا تعرف الله، ولمجرد أن تطرح سؤالاً على كاهن، تأكد أنك لا تعرف الله، والدليل قوله ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد» [رواه الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح من حديث أبي هريرة]، كلّ هذا القرآن بصدقه، ووضوحه، ورؤيته الصحيحة، الصافية تتغافل عنه، والله سبحانه يقول: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠].

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن:٢٥-٢٧].

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ هذا موقف الإنسان المؤمن، هذه الآية خطيرة جداً، قد تطالع مقالة تتحدث عن تنبؤات عام كذا من الأعوام الميلادية؛ فتسمع بعض الصحفيين وبعض المفكرين يتنبؤون بما سيكون في المستقبل، مثل هذه المقالات لا تُقرأ لأنه ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ إلا إذا كان تنبؤاً لا من باب الجزم بل من باب التكهين حسب معطيات الحاضر، كاحتمال أن العالم مقبِل على أزمة معينة، مقبل على كذا، ولكن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، هذه الآية إذا فهمتها استرحت من اللهاث حول سلبيات كثيرة واطمأنت نفسك.

قالوا: «ما مضى فات، والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها»، أنت، لا تملك إلا وقتك الحاضر، في هذا الوقت بالذات بإمكانك أن تتوب.

كانت تحضر عندنا في المسجد أخت كريمة، منذ ستة عشر عاماً، ولها صهر بعيد عن الدين بُعداً شديداً، بل إنه ينكر وجود الله عز وجل، فكانت تدعو ابنتها أن تدعوَ زوجها لدرس المسجد، وقد دعته لأكثر من عامين، ليحضر ولو درساً واحداً لكن دون جدوى، قال: ذات مرة دخلت ابنتها إلى الدرس ففرحت فرحاً شديداً، قالت لها: أزوجك معك؟ قالت: نعم، كادت ألاَّ تصدق، هذا الرجل حضر درسين وبعدها أصابته أزمة قلبية، ونُقل إلى المستشفى على شكل إسعاف، هو على الحمالة، قال لأولاده: كل شيء قلته لكم في الماضي باطل، الحق هو ما جاء في القرآن... لا أنسى هذه الكلمات، ربّى أولاده على شاكلته على أنه لا إله، حضر درسين ووافته المنية، وهو على فراش الموت قال لأولاده، وله ولد مهندس، قال: كلُّ شيء قلته لكم باطل، الحق هو ما جاء في القرآن، نرجو الله أن يقبله ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

لماذا قال بعض العلماء: إن الحج على الفور؟ من أين انطلقوا؟ لأن الإنسان لا يعرف متى يموت، ما دام الحجُّ فرضاً على المستطيع، فحينما تصبح مستطيعاً يجب أن تحجَّ، لأن العمر ليس بيدك، قال ﷺ: «تَعَجَّلُوا إلى الحَجِّ - يَعْنِي: الفَرِيضَةَ- فإنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ» [رواه الإمام أحمد بسند حسن من حديث ابن عباس مرفوعاً].

أي ما يعرض له من مرض أو مشكلة، أو موت مفاجئ. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

علاقتك بهذا الاسم أن تسعى جاهداً كي يفتح الله على قلبك باب العلم، والشيء الثاني أن تفتح أنت على العباد باب خيراتك، لا تكن قابضاً، ولتكن باسطاً.

الشكور

من أسماء الله الحسنى الشكور، وقد ورد هذا الاسم مقترناً باسم الغفور في موضعين، الأول في قوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر:٣٠].

والثاني في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر:٣٤].

وقد ورد هذا الاسم مقترناً باسم الحليم في قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧].

إن وقعت في الذنب فهو غفور، وإن عملت عملاً طيباً فهو شكور، وإن زلّت القدم فهو حليم.

من معاني اسم الله (الشكور)

الشَّكُور في اللغة على وزن فعول، وفعول من صيغ المبالغة من اسم الفاعل شاكِر، فعله شكر، يشكُر، شكراً، وشكوراً، وشكراناً، وأصل الشكر الزيادة، والنَّماء، والظُّهور، وحقيقة الشُّكر الثَّناء على المحسِن بذكر إحسانه.

الحقيقة أن تعرف أنّ الله خلق السموات والأرض وكفى، فأنت إذاً ما عرفته حقَّ المعرفة، لأنَّ الإيمان بوجود الله يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين الناس كلِّهم جميعاً قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

حتى الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

إذا أقررت بوجود الله عز وجل، فأنت لم ترتفع عن أيِّ مستوى من مستويات الناس العاديين، ولكنَّ معرفة الله تقتضي أن تعرف أسماءه وما من معرفة لها علاقة وشيجة بحياتك الدنيا وبمآلك إلى الآخرة كمعرفة أسمائه الحسنى، فكلما ازددت معرفة به ازددت حباً له، وازددت استقامة على أمره، وازددت عملاً صالحاً تتقرّب به إليه، وازدادت سعادتك في الدنيا والآخرة.

إذاً شيء في غاية الأهمية أن تتعرف إلى الله من خلال أسمائه الحسنى، اسم الشَّكُور ثابت بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

الشَّكُور صيغة مبالغة من شكر ودائماً صيغ المبالغة إذا اقترنت بأسماء الله الحسنى فتعني إما عدد الشّكر أو حجم الشُّكر، أما حجم الشُّكر؛ فأنت قد تعيش في الدنيا لسنوات معدودات، سنوات قد تزيد على الستين سنة أو السبعين، فإذا أطعته في هذه السنوات المعدودات فإنّه يَهَبُك حياةً أبدية لا تنقضي، وكلمة (أبد) قد لا ننتبه إلى معناها، وها أنا ذا أُخاطب الإخوة الرياضيين، الذين يدرسون الرياضيات، لو أن «واحداً» في دمشق ووضعنا أصفاراً وبين كل صفرين ميلمتر، وتابعنا الأصفار إلى حمص إلى حماة إلى حلب إلى أنقرة إلى موسكو إلى القطب الشمالي إلى المحيط الهادي إلى القطب الجنوبي إلى إفريقيا إلى... إلى... حتى عادت هذه الأصفار حول الأرض إلى أن

استقرت على شمال «الواحد»، هذا الرقم كم هو؟ هذا الرقم «واحد» في دمشق والأصفار حول الأرض، لو وُضِعَ هذا الرقم صورة لكسر عادي، وفي مخرج الكسر إشارة اللانهاية، هذا الرقم يساوي صفراً في الرياضيات، يعني: أي رقم مهما بدا لك كبيراً إذا قيسَ إلى اللانهاية فهو صفر، فأنت إذا عشت في الدنيا سنوات معدودات، وفي هذه السنوات المعدودات أطعت الله عز وجل، ونهيت نفسك عن الهوى، وضبطت جوارحك، وحرّرت دخلك، وتعرّفت إلى الله، وجلست في مجالس العلم، وتلوت القرآن وفهمت القرآن، ودعوت إلى الله، وأنفقت من مالك ومن جاهك ومن علمك وجاء الأجل، إذا قِستَ هذه السنوات المعدودة إلى الحياة الأبديّة فأنت ما فعلت شيئاً، فمعنى «شكور» أنه يعطيك على الشيء القليل الشيء الكثير.

أيعقل أن تدفع ربع ليرة، لتشتري بها محالَّ شارع تجاريّ في وسط المدينة؟ الطوابق والمخازن والمستودعات، هل من الممكن شراؤها بربع ليرة؟ أؤكد لكم أنَّ كل عمل الإنسان إذا قيسَ بما أعدَّ الله له من نعيمٍ مقيم، والله إنه أقلّ من هذه النسبة.

انظر في هذه الشركات الكبرى في العالم، فقد سمعت عن شركة عندها فائض، هم في حيرة من توظيفه، مليار دولار، فائض ليس له وظيفة يوظَّف بها، هناك شركات كبرى في العالم ميزانياتها وأرباحها بقَدَر ميزانيات مجموعة دول، هذه الشركة هل تُشترى بليرة؟ ها أنا ذا أقول ودون أن أبالغ: إن ما أعدَّه الله للمؤمن من نعيم مقيم نظير ما يُقدمه من طاعةٍ لله في الدنيا، كالنسبة بين ما قدّم وما سيأخذ، وهي لا تتعدى أن تكون كمَن يشتري إحدى أكبر الشركات في العالم بليرة سورية.

هذا معنى «الشَّكُور»، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، إنه يعطي اللانهاية، يعطي الأبد.

مرةً سمعت أن بعض القضاة في بلد معين ليس لهم رواتب، بل لديهم أوراق نقدية مفتوحة، أيَّ مبلغ يريده القاضي يأخذه، لو طلب مبلغاً فلكياً يأخذه فوراً، معنى «الشَّكُور» إذاً، أنه يعطي الشيء الذي لا نهاية له، الذي لا حدود له. عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [صحيح البخاري].

الحقيقة أنّ هذا الكلام نقرؤه ونردده كثيراً، ولكن لو وقفنا عند مدلول هذه الكلمة، كل واحد منا له دائرة مشاهدات، فأنت مثلاً إلى أين ذهبت؟ تقول: ذهبت إلى لبنان وإلى الأردن، وذهبت إلى الحج، وذهبت إلى مصر وإلى قبرص، فقط؟ أجل، فقط.

وقد تجد شخصاً يعرف أمريكا، يعرف اليابان، يعرف روسيا، يعرف إفريقيا، وشخص آخر يعرف جنوب شرقي آسيا أيضاً، وتجد آخر ذهب إلى أستراليا، وغير أولئك من ذهب إلى القمر.

على كلٍّ دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فلا تعدُّ شيئاً، سمعت بالمريخ ولكن لم تذهب إليه، وسمعت بالمشتري وسمعت بنجم القطب، وسمعت بألاسكا، وسمعت بسيبيريا وسمعت بالقطب الشمالي، دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فهي لا شيء، أما دائرة الخواطر فقد يخطر ببالك جبل طوله من هنا إلى الشمس، هذا خاطر، ما دام الخاطر ليس له واقع فالقضية سهلة، قد يخطر ببالك إنسان إذا وقف على الأرض اقترب من القمر، طوله ثلاث مئة ألف كيلومتر، هذا خاطر.

فعندما حدثنا النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [متفق عليه من حديث أبي هريرة]، هذا معنى «الشَّكُور»، نظير ثلاث وستين سنة عشتها، انقضى خمسها حتى أصبحت مكلفاً، يعني هذه السنوات المعدودة كل يوم خمس صلوات، كلما رأت عينك امرأةً غضضت البصر عنها، وكلما لاحَ لك مبلغ من شُبهة قلت: معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، يعني مجموعة صلوات ومجموعة أيام صمتها، ومجموعة مواقف خِفت فيها من الله عز وجل، فاستحققت هذا العطاء الكبير. وربنا عز وجل قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٠].

أحدهم قال لي: كنت ببلد أجنبي، ودعانا مدير الشركة إلى قصره، فشُدهنا إذ رأينا ما يفتن العقل والنظر، دخلنا في غابة بقيت السيارة منطلقة ربع ساعة في هذه الغابة المحيطة بقصره، في حين يحتاج المرء في بلدان كثيرة إلى بيت مساحته مئة متر، يأوي إليه، في حين أن الغابة مساحتها مئات الكيلومترات، غابة صنوبر وبالمنتصف

قصر كبير، بل ملك كبير، قصر وحوله حديقة مترامية، غابة صنوبر، فربنا عز وجل قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

الله سمَّى ما أعد لك في الجنة ملكاً كبيراً، هذا معنى «الشَّكُور»، شيء لا يُقدّر بثمن، مقابل شيءٍ قليل جداً قدمته نلت به شيئاً كثيراً.

والمعنى الآخر لكلمة «شكور» هو المعنى العددي، يعني لا يمكن أن تقدم شيئاً لله عز وجل إلا ويشكرك عليه.

حينما علم أبو لهب بميلاد النبي ﷺ أعتق ثويبة، فقيل: إنه يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين(١)، وأنه أعتق هذه الجارية فرحاً بميلاد النبي ﷺ، كل شيء محفوظ عند الله سبحانه، ولو أنقذت نملة، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

قد تخدم شخصاً، الخدمة لا يمكن أن يشكرك عليها إلا إذا عرفها، مثلاً، كأن تزور مريضاً، فتحمل هدية وتتوجه إليه، في مدخل البيت أخذها منك ابنه، ولم يبلغه، ثم جلست عند المريض فهل يعقل أن يشكرك هذا المريض؟! إنه لم يدرِ بالهدية، فكيف يشكر وهو لا يعلم، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ فهو يعلم، يعلم أي عمل مهما بدا صغيراً، لو أنقذت فراشةً، لو رحمت إنساناً، لو أمّنت إنساناً خائفاً، أو هدَّأت من روع إنسان خائف، لو طمأنت إنساناً، لو أطعمت إنساناً جائعاً، كل شيء محفوظ عند الله، فكلمة «شكور» إما لحجم «الشُّكر» وإما لعدد مرات الشُّكر، وهي مبالغة اسم فاعل.

قال العلماء: معنى «الشَّكُور»، في اللغة: الشُّكر في الأصل الزيادة، فلان شكير، أي: عياله صغار، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار، وناقة شكيرة

(١) قال ابن حجر في الفتح [٩/ ١٨٠] وذكر السهيلي أن العباس قال: لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كلَّ يوم اثنين، قال: وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها.

وشَكْرى إذا كانت ممتلئة الضرع، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطى من العلف، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور، هذا ما ورد في كتب اللغة عن كلمة شكور.

أما الشكر في حق العباد فله طريقان، ويمكن أن نضيف لهما طريقاً ثالثة، شكر باللسان، وشكر بالعمل، نقول: لن يكون الشكر لا باللسان ولا بالعمل إلا إذا عرفت النعمة، أساس الشُّكر المعرفة، إذاً أنت تعرف ثم تشكر، لا تشكر ما لم تعرف.

فشكر العمل، مثلا: هناك شخص قدم لك بيتاً، فهو إذاً قدّمَ لكَ شيئاً ثميناً، أو كنتَ واقعاً في ورطةٍ كبيرة فأنقذك منها، ثم رأيت ابنه في الطريق، فإذا قدمت لهذا الصغير قطعة حلوى فهذه الحلوى في الحقيقة شُكر لوالده، فأنت عبّرت عن امتنانك من أبيه بإكرام ابنه، هذا بشكل مبسط.

لذلك فالمؤمن إذا أسدى للعباد خدمات، أو إذا رحم العباد أو أكرمهم، طمأنهم، أطعمهم، أسقاهم، كساهم، رحمهم، حينما تُسدي معروفاً إلى مخلوق كائناً من كان، لِقِطة، لجروٍ صغير، فقد ترى حيواناً قد مرض وتأخذه إلى مشفى بيطري أو إلى طبيب بيطري فإذا أردت الحقيقة فهذا هو عين الشُّكر، لأنك تُعبّر عن شُكرِكَ لله عز وجل وعن امتنانك له بخدمة مخلوقاته، وإذا أردت أن تعرف سرَّ العمل الصالح في الدنيا، ولماذا يعمل المؤمن الأعمال الصالحة، ليس لها تفسير إلا أنها تعبير عن شكر العبد لله عز وجل من خلال خدمة عباده، إذا نصحت زبائنك نصيحةً صادقة، فهذا شكر منك لله، إذا رحمت الناس، إذا عطفت عليهم، إذا أنصفتهم، إذا خففت من مآسيهم، إذا مسحت جراحهم، إذا أمّنتهم من خوفهم، إذا قدمت لهم المعونة، إذا فعلت أي عمل صالح هو في الحقيقة تعبير عن امتنانك لله عز وجل من خلال عباده، ومألوف عند الناس على نحوٍ واضح جداً أن تكرمَ الأب من خلال إكرام الابن، إذا رأيت رجلاً تحبُّه يصحبه ابنه فيمكنك -حدّاً أدنى- أن ترحب بالابن، كيف أنت يا عم؟ ما اسمك؟ بأي صف؟ وإذا كانت معك قطعة حلوى أعطيته إياها، إذا وجدت لديك قلماً ثميناً، وهذا الإنسان له فضل عليك أعطيته القلم، وهذا طبيعي جداً، وهو شكر عملي حقاً.

تريد شيئاً يريح قلبك، تريد لهذا الإنسان الذي أكرمك، أن تعبّر عن امتنانك له، فتلقى أمامك ابنه وتكرمه، الله عز وجل غنيٌّ عن العالمين، يُطعِم ولا يُطعَم، مستحيل أن تقدم هدية إلى الله لكن ليس أمامك إلا عباده، كلُّهم عباده، حتى الكفار، حتى الذين أنكروا وجوده هم عباده، إذا أحسنت إليهم فهذا عمل خيرٍ عند الله محفوظٌ، فإن كنت طبيباً وجاءك مريض، والمريض تعرفه غير مؤمن بالله ولا دين له، فهذا عبد لله أمامك يجب أن تقدِّم له كلَّ شيء، كل ما في إمكانك لأنَّه عبد لله.

مَثَل آخر في مجال الحيوان، فإذا وجدت حيواناً يحتاج إلى أن يأكل، فتطعمه، نعرف أُناساً يطعمون الطيور ويشعر أحدهم بلذّة عارمة وبسعادة، فيشتري كميَّةً من الحبوب، التي تصلح للطيور يضعها على السطح فترى مئات الطيور تسقط على السطح وتأكل يقول: كأني أتغذى، شعور نبيل سام، هؤلاء مخلوقات لله عز وجل، لذلك فالمؤمن وهو يقود مركبته يحرص حرصاً كبيراً على ألا يؤذي بها مخلوقاً، فمثلاً لو قتل غنمة لقطع أصحابها عنقه، ويقطعون عليه الطريق، ثمنها ثمانية آلاف، يغرمونه الثمن. لكن إذا قتل كلباً لا أحد يُحاسبه، ترى في الطرقات منها عشرات مقتولة، أما المؤمن فهو يعلم أن هذا الكلب حتى لو لم يكن ملكاً لأحد، ولو لم يكن هناك من يحاسبه عليه، سوف يحاسبه الله عليه، لذلك فالمؤمن يحرص حرصاً بالغاً ألا يدهس حيواناً، وإذا وقع منه من غير قصد يبادر إلى أداء صدقة فلعلَّ الله سبحانه وتعالى يعفو عنه.

هذا هو الشُّكر، فالشُّكر بالأفعال أن تعمل عملاً صالحاً مع كل مخلوق، وأنا أؤكد أنك إن خدمت المسلمين فقط أو إن خدمت المؤمنين فقط فهذا أرقى وأجدى عند الله تعالى، أما أن تخدم إخوانك ممن تلتقي بهم في المسجد، فهذه نظرة ضيقة جداً ولا تُرضي الله كثيراً، بل يجب أن تخدم الخلق عامة.

عن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«لن تؤمنوا حتى تراحموا» قالوا: يا رسول الله! كلُّنا رحيم قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبَه ولكنَّها رحمة العامة» [رواه الطبراني].

حدثني أخ قال: رجل مُنعَم يركب سيارته الفخمة يمشي في طريق بين مدينة وأخرى، رأى شاباً راكبا درَّاجة أصابها خلل، والرجل له مكانته التجارية والاجتماعية، وقف وأصلح له الدّرّاجة، فكان هذا العمل سبب هداية الشاب وإيمانه، وأصبح من أخلص إخوانه.

إذاً، هذا هو الشُّكر؛ الإسلام نظرته أمميّة، وليست نظرته ضيّقة، هذا مسلم وذاك غير مسلم، هذا مؤمن وذاك غير مؤمن، هذا من إخواننا وهو من جماعتنا، هذه كلها عنجهيَّة جاهلية، إذا كنت فعلاً تعرف الله فهؤلاء جميعاً عبيده.

والله الذي لا إله إلا هو ما من مخلوق ترحمه إلا شكر الله لك، بغيّ، والبغيّ معروفة، رأت كلباً يأكل الثرى من العطش فسقته فشكر الله لها وغفر لها [انظر صحيح البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)]، والحديث الشريف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:

«بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ فَنَزَلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فإذا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذا مِثْلُ الذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لَنا في البَهائِمِ أجْراً قالَ: «في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [صحيح البخاري].

ذات مرة رأيت في مزرعة سمكاً، صاد بعض من في المزرعة من هذا السمك وأرادوا فوراً أن ينظفوها، بحجة أنها تستغرق وقتاً طويلاً لتسكن، قلت: فما المانع أن تنتظر ولا تعذب مخلوقاً؟ انتظر حتى تسكن الأسماك، هو يريد أن يفتح البطن وهي حيّة، فهذا تعذيب لبعض خلق الله، أشاهد أحياناً بائع دجاج يذبح الدجاجة ويلقيها فوراً في ماء يغلي، قبل أن تموت، إنّ هذا خطأ يحاسب الله عليه، فاحذر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج:٣٦].

لماذا الدين ضروري؟ هذا مخلوق، قدّم جسمه لك، فوق هذا المعروف تلقيه حياً في الماء المغليّ، ففي الحديث الشريف:

عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فإذا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [صحيح مسلم].

هذا هو الشُّكر.

إذا عرفت الله عز وجل ورأيت فضله عليك، فقد عرفت كيف تتعامل مع مخلوقاته أياً كانت، اقرأ هذه الآية مثلاً: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣].

أوجدك من عدم، عمرك الآن ثلاثون سنة، افتح كتاباً قد طبع سنة ألف وتسع مئة وثمانيةٍ وخمسين، فأثناء صفِّ الحروف أين كنت أنت؟ أكان لك وجود؟ أكان لك ذكر؟ أكان لك حجم؟ أكان لك جُرم؟ أكان لك أهمية؟ لم تكن موجوداً أصلاً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

فأنعَمَ الله عليك بنعمة الوجود، وأعطاك صورة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر:٦٤].

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:٨-١٠].

إن العبد إذا أطاع ربه، ثم إنّ الرّبّ جل جلاله كافأه على طاعته، كان ذلك شكراً للعبد، فكيف بالجزاء الأوفى الذي سيجزي الله به عباده؟! فهذا يعني أن الله شكور.

والشكر المُفسَّر بالثناء، يعني إذا عملت عملاً طيّباً فلك الجنة، أنفقت من مالك فلك جنة عرضها السموات والأرض، أنفقت من وقتك أنفقت من خبرتك من علمك، عاونت، أخلصت، أتقنت عملك، ونصحت للمسلمين، يعني قدمت الحد

الأدنى، كأن تكون لك مهنة تتقنها ثم تعمل العمل بإتقانٍ وتأخذ أجراً معتدلاً، فالحد الأدنى أن تنفع المسلمين بطريقة ما.

فالحد الأدنى أن تتقن عملك، وأن تتقاضى ثمناً معتدلاً، والحد الأعلى حدِّث ولا حرج، تطعم الطعام، تعين الضعيف، فليس كل مصلٍّ يصلي، إنما يتقبل الله الصلاة ممن تواضع لعظمته، وكف شهواته عن محارمه، ولم يصرَّ على معصيته، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك له.

هذا الاسم العظيم ورد في السنة بالمعنى، ففي صحيح البخاري ومسلم يقول الله عز وجل:

«أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرتُه في مَلأٍ خيرٍ منه، وإن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرا تَقَرَّبتُ إليه ذِراعا، وإن تقرَّب إِلَيَّ ذِرَاعا اقْتَرَبتُ إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَةً» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة]

لمجرد أن تتحرك نحو الله، أن تتقرب إليه، وأن تخطب وده، أن تغضَّ بصرك، أن يصدق لسانك، أن تُحسن إلى فقير، أن ترعى يتيماً، أن تنقذ حيواناً صغيراً من الهلاك، لمجرد أن تتقرب إلى الله بعمل، والله عز وجل يردُّ عليك بالإحسان، بالقبول، كيفما تحرَّكت، أيَّة حركة نحو الله، ترى الرد سريعاً وإيجابياً، وأضعافاً مضاعفة، وما من أخ كريم، إلا وله مع الله تجربة، إن أنفق من ماله يضاعف الله له أمواله، إن أعان ضعيفاً أعانه الله على من هو أقوى منه، إن أطعم مسكيناً غمره الله من فضله.

حدثني أخ والقصة قديمة منذ ثلاثة عقود تقريباً في أثناء أحداث لبنان قال: جئت من «الهامة» فرأيت رجلاً واقفاً في ضاحية «دُمر» أيام البرد الشديد حاملاً طفلاً صغيراً يلفه بسترته، وبجانبه امرأة، وكانت الساعة الثانية عشر ليلاً، فقلت: أوصلهم لدارهم، وإذا بالطفل حرارته مرتفعة جداً، وهذان أبواه أتيا من لبنان أثناء أحداث لبنان، سكنا في بيت في (دمر) ولا يعرفان أحداً في الشام، قال: أركبتهم بالسيارة وأخذتهم إلى طبيب مناوب عالج الصغير واشترينا الدواء من صيدلية مناوبة، ذهبنا إلى

مشفى لأعطي الطفل إبرة، وانتهينا الساعة الرابعة صباحاً، بقيت أسبوعين أو ثلاثة مغموراً بسعادة لا تُوصف.

قصة ثانية: لي صديق من لبنان، سكن في دمشق، وضعه المادي جيد جداً، ارتكب حادثاً مرورياً مع سيارة سورية، صاحب المركبة يُفترض أن يغضب، وأن يثور، وأن يتكلم الكلام القاسي، وأن يشتم، نظر إلى المركبة اللبنانية، وقال له: لا مشكلة، سامحك الله، رغم أنه يحتاج مبلغاً لإصلاح السيارة، هذا الأخ اللبناني انهمرت دمعة على خده، ما فهمت تفسيرها، إنسان ميسور مالياً فرح أنّه وفّر خمسة آلاف! سألته لماذا تأثرت لهذا الموقف؟ قال لي: أنا قبل سنتين في بيروت صدم سيارتي إنسان مركبته سورية، ومعه نساء محجبات، ما أردت أن أزعجه وهو في نزهة، قلت له: سامحك الله!

يقول بعضهم: والله نحنُ نريد السعادة، السعادة بين يديك، إذا أردت أن تَسعَد فأسعد الآخرين، كل واحد منا يذوق لذّة الأخذ، هو يقبض المال فيفرح ويمرح، ولكن قليل من ذاق لذة العطاء، العطاء له لذة أكبر، العطاء تمسح به جراح أسرة، فمثلاً شخص لهفان تحلُّ له مشكلته، بلا مأوى أمّنت له بيتاً، بلا زوجة ساعدته على الزواج، أو رجل مريض دللتَهُ على طبيب مُخلص لا يَغشُّهُ، لا يبتزّ أمواله، له قضية بالقضاء دللتَهُ على محامٍ صادق.

لا تعرف طعم السعادة حقاً إلا إذا خدمت الناس.

مرةً سمعت متهجداً، يقول: يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك.

على المسلم أن يزور مريضاً أو أن يقدم معونةً: «ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجةٍ أحب إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً» [رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج بسند حسن عن ابن عمر]. الشُّكر الثاني: أيها الإخوة أن تُثني على الله: يا رب أنت اللطيف، أنت الرحيم، أنت القوي، أنت الغني، أنت الرؤوف، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا غفّار الذنوب، يا ستّار العيوب، أنت الذي تعطي ولا تسأل، تحلُم ولا تعجل.

لسانك ينطلق: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، يعني إذا أثنيت على الله، هذا شُكر أيضاً.

يا ربِّ لقد خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك.

أن ينطلق لسانك بذكر الله، بالثناء عليه، يا رحمن الدنيا والآخرة، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أعوذ بك من أن تنزل بي سخطك أو أن تحل عليّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى، لكنَّ عافيتك هي أوسع لي.

إذا رأيت مؤمناً من غير روّاد مسجدك، ورأيته مستقيماً محباً لله إن لم تحبه فلست مؤمناً، لِمَ تُعمّق انتماءك فقط لجماعتك؟ إذن أنت طائفي، أنت عُنصري محدود الأفق، بل عليك أن تنطلق إلى الناس جميعاً... فالدعوة عامة...

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قالَ: وَعَظَنا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، قُلْنا: يا رسولَ الله إنَّ هذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذا تَعْهَدُ إلينا قالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ، لَيْلُها كَنَهارِها، لا يَزِيغُ عنْها بَعْدِي إلا هَالِكٌ...» [أخرجه أحمد في «مسنده»].

الإسلام للناس جميعاً، يجب أن تعمل تحت ضوء الشمس، لا معميات في الإسلام، كل شيء واضح، خالق الكون هذا كتابه وهذا منهجه، وهذه سُنّة نبيه ﷺ، فأنا أُلِح ألا يقتصر العمل الطيّب على من يلوذ بك أو ممن تعرف من العباد، لا.. بل خيرك للنّاس كافّة، ولا تدري في أيّة لحظة يُشرق في نفس هذا الإنسان الذي أسديت إليه الجميل؛ فهذا هو الإيمان، لعلَّ الله عز وجل يهدي بك وأنت لا تدري.

كان لأبي حنيفة النعمان جارٌ مغنٍّ، تارك صلاة، شارب خمر، لا ينيمه الليل وهو يغني:

أضـــاعوني وأيَّ فتـــى أضـــاعوا ليـــوم كريهـــة وســـداد ثغـــر

ذات ليلة لم يسمع أبو حنيفة غناءه في البيت المجاور، يعني أن المغني لديه عارض عرض له، تفقّده فوجده في السجن لقضية ما، فذهب إلى مدير السجن وشفع له، مدير السجن لم يُصدّق، وجد الإمام الأعظم عنده في المكتب، فأطلق إكراماً له كلّ من أُلقي القبض عليهم في تلك الليلة، وهو في طريقه قال له: يا فتى هل أضعناك... هل نسيناك؟! فكان هذا المعروف سبباً لتوبته.

اجتهادك وبطولتك ليس في إسداء خدمةٍ إلى مؤمن فحسب، المؤمن سويٌّ مثلك، تجلس إلى مؤمن فتقول: لقد أقنعته، وهو مقتنع أصلاً قبل أن تؤثّر فيه، إذا كنت بطلاً فأقنع إنساناً تارك صلاة، تُقنع إنساناً عنده شكوك بالله عز وجل، هنا البطولة، أن تُدخل إلى المجتمع المؤمن عنصراً جديداً، تجلس إلى عدو للدين عنده شبهات، ولا يعبأ بالعلماء، ولا يعبأ بالدين تقنعه، تحلم عليه، وتعطيه الأدلة القطعية، ويرى منك خُلُقاً حسناً، لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة فيشرح الله صدره، ومن بعد يصلي ثم يتوب، ويأتي إلى المسجد، ويعتاد المساجد وحلقات العلم، فهذه البطولة حقاً وليست البطولة أن تُفسد الناس على شيوخها، ولا الشيوخ على تلاميذها لا، فأنت مهمتك أن تُحدث عنصراً جديداً في المؤمنين، البطولة على قدر المشقة وبحجم العمل الإيجابي النافع.

مرة ذكرت كلمة قالها رجل يدعو إلى الله عز وجل، قال لتلميذه: يا بني، السليم لا يحتاجُ إليك، يحتاج إليك السقيم السيئ، فالفهيم والذكي والمتفوق والورع والتقي والنقي، إذا حدثته عن الله فأبكيته فماذا فعلت؟ عنده مشاعر ولديه عواطف صادقة فلما ذكّرته تأثّر، أما إذا كنت تستطيع أن تجلس مع البعيدين والمنكرين والمتشككين تمنحهم من علمك وأدلتك وحجتك، وتزيل عنهم كل الشبهات وتأخذ بيدهم درجة درجة، مرحلة مرحلة تأخذ بيدهم، تعينهم، تكرمهم، حتى يحبوك، وترقى بالعليل والسقيم إلى السعادة فهذا العمل طيّب مشكور.

وبعد، فإن الشُّكر يكون بالثناء، فالربّ سبحانه وتعالى إذا اثنى على عبده فقد شكره، أن تثني على الله في مجالسك والناس يحبونك لأحاديثك هذه ويمدحونك في

غيبتك، هذا شُكر الله لك، إذا أحسنت للعباد أحسن الله إليك: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن:٦٠].

والإمام الغزالي له كلمة، قال: «إذا كان الذي أخذ فأثنى شكوراً فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً».

فالذي قبض المال قال: شكراً، والذي أعطاك، وبعد أن أعطاك وسمع ثناءك أثنى عليك، أيهما أحق أن يكون شكوراً أكثر، فالله سبحانه وتعالى الذي أعطى هو الشَّكُور، فالذي أخذ فأثنى على الله يُعدُّ شكوراً، أما الذي أعطى وأثنى مرتين هذا هو الشَّكُور الحق، مرةً أكرمه بعطاءٍ مادي، ومرةً أثنى عليه عند الخلق.

روى الشيخان وأحمد حديث أبي هريرة ﷺ قال يقول الله عز وجل: «إن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

أنت تكلّمت بين خمسة طلاب أو ستة، والله عز وجل جعل ذكرك بين ثلاث مئة رجل، فلما ذكرت قام أحدهم وتكلّمَ عليك كلاماً تعطّرَ المجلس بذكرك، الله شكور، أنت أثنيت على الله أمام خمسة أشخاص من عامة الناس، والله عز وجل أثنى عليك أمام عِلْيَةِ القوم، «لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى» [الطبراني بسند حسن من حديث معاذ بن أنس].

هذا هو الشَّكُور، إن عملت يعاملك بالإحسان فهو شكور، وإن تحدثت عن الله عز وجل يعاملك بالعرفان فهو شكور.

الشكر يتوجه لمن؟ إما إلى الخالق وإما إلى المخلوق، ومن ثم فشكر الخالق مستحيل، أي: أنك يستحيل عليك أن توفيه حقَّه بشكرك له، لماذا؟ قالوا: لأن شُكر النعمة مشروط بمعرفة هذه النعمة، وما دامت معرفة النعمة مستحيلة فالشُّكر مستحيل، والدليل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل:١٨].

انظر إلى نعم الله عليك، فإذا أردت أن تجري إحصاء: فالطحال والكلية والكظر ومركز التوازن، ومركز توازن السوائل، مراكز عديدة في جسمك، وبإيجاز: إنك إن تعدَّ نعمة الله عليك لا تحصها.

ما دام يستحيل عليك أن تعرف نعمة الله كما هي؛ إذاً يستحيل أن تشكر الله حقَّ الشُّكر، لهذا قال النبي ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

الثانية: الشُّكر نعمة من الله، فأنت تشكُر على نعمة والشُّكر نفسه نعمة، فأنت في نِعم، يا رب كيف أشكرك وشُكرك لا يتم إلا بنعمة منك جديدة، إذاً أنت مفتقر إلى أن تكون شاكراً لله عز وجل.

هناك نقطة مهمّة: رؤية النعمة نعمة، الله عز وجل يعطيك مع استغنائه عنك، لكنك تشكُرُهُ مع افتقارك إليه، وشتان بين هذا وذاك، وهناك أدلة كثيرة على أنه يستحيل أن تشكُر الله كما ينبغي، لكن أخذُ القليل خير من ترك الكثير، وما دام مستحيلاً أن تشكُر الله كما ينبغي فلذلك قل: يا رب! لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، يا رب! ليس في قدرتي أن أشكرك كما ينبغي لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع.

آخر ما ينبغي شدُّ أفكار القارئ إليه في الموضوع يتلخّص بالسؤال التالي والإجابة عنه: أسدى مخلوق إليك نعمة فلمن الشُّكر؟ الجواب: لله فقط، فهذا المخلوق الذي أكرمك مِن خلقه، أعطاه الله عز وجل قوةً وحياةً، والله عز وجل هو الذي سمح له أن يخدمك، كما ألهمه أن يخدمك، بماذا خدمك؟ أعطاك مثلاً طعاماً، مَن خلق الطعام؟ الله عز وجل، أعطاك مالاً، وهذا المال قيمته بقيمة مشترياته، مَن خلق النِّعم؟ الله عز وجل، أعطاك طعاماً كيف تأكل الطعام؟ تحتاج إلى أجهزة؟ إذاً الذي خلق والمُنعِم هو الله، والذي ألهَمَهُ هو الله، والذي مَكَّنَهُ هو الله، والذي خَلَقَ النِّعمة التي هي

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي.. الحديث

موضوع عطائك هو الله، والذي مكّنَكَ من أن تستفيد من هذه النعمة هو الله، إذاً الشُّكر لله عز وجل، ولكن هذا المخلوق ما دام مُخيّراً، إذاً يستحق أن تشكُرَهُ بعد الله عز وجل، وكيفية الشكر لا أن تقول: لله وفلان، بل قُلْ: لله ثم لفلان.

هذه (ثم) ضرورية جداً، الحمد لله على هذه النعمة التي أنعم الله بها عليّ ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه، لهذا قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ» [الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري].

لو افترضنا أنه جاءك معروف من جماد، رجل ماشٍ في طريق مرَّ بشرفة من إسمنت ومشى تحتها فوقع حجر من آخر البناء عليه، هذه الشرفة تَلَقَّت الحجر، لولا هذه الشرفة لهلك، فهل يشكر الشّرفة، هذه شرفة جامدة لا تعقل، إذا جاءك خير من جماد أو من حيوان أو من مخلوق غيرِ مكلَّف فالشُّكر لله فقط، أمّا إذا جاءك خير من مخلوق مكلّف مخيّر، قلت: إنَّ الله سخَّرَهُ لي، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الجحود، إذا جاءك الخير من إنسان مكلّف يجب أن تشكُرَ الله لأنه خَلَقَهُ، وألهَمَهُ، وسَمَحَ لَهُ، ومَكَّنَه، وخَلَقَ الله النِّعمة التي بين يديه، وجعلك تنتفع بها، كلُّه لله، لكن ما دام مخيّراً، وقدّمَ لك هذه النِّعمة باختياره، إذاً نزجي له الشُّكر ثانياً بعد الله عز وجل.

وبعد، وقفة أخيرة في الموضوع وهي لطيفة؛ موازنة بين نعمة أسداها الله إليك ونعمة أسداها زيد إليك، قالوا: أولاً: إن إنعام الأمير مكدَّر من وجوه، أحدها: أنَّك ربما احتجت إلى شيء ولا يعطيك إيّاه لأنَّه محتاج إليه، مرّة كنت في الحج احتجتُ إلى ماء، فسألت حاجّاً قال: والله يلزمني الماء، فمعه حق لأنَّ الماء يلزمه، فأنت قد تطلب من إنسان شيئاً هو بحاجة إليه، وإن كنت في المطار مثلاً وأردت أن تكتب بطاقة وليس معك قلم، فتقول لواحد: إذا سمحت أريد قلمك، يقول لك: أحتاجُ إليه والله، فأنت إذا طلبت من إنسان حاجة قد يكون هو محتاجاً إليها فلا يعطيك إياها، أما إذا سألت الله عز وجل، فإنه يلبّيك ولا يمنعك، وهذا أول فرق.

الأهم من ذلك أنه يمكن لفلان أن يعطيك، ولكنَّ فلاناً ليسَ حاضراً الآن، فأنت مسافر وهو في الشام وعطاؤه مستحيل لبُعد المسافة بينكما، أمَّا الله فهو معك دائماً، هذه

النقطة الثانية. النقطة الأولى قد يكون الشخص قادراً على العطاء، لكن هذا الشخص يحتاج إليه قبلك، النقطة الثانية: أنك قد لا تستطيع أن تصل إلى هذا المنعم لسبب ما.

النقطة الثالثة؛ أنك إذا قصّرتَ مع إنسان فإنه يقطع عنك فوراً، لكن كما قال نبينا ﷺ: «ليس أحد أصبر على أذىً سمعه من الله تعالى، إنهم ليدعون له ولداً ويجعلون له أنداداً، وهو مع ذلك يرزقهم» [متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري].

والأمير إذا أعطى يقول لك: اللحم الذي على أكتافك من خيري! صاحب معمل عنده أجير، يمنُّ عليه، وإذا أعارَهُ بزة، فإنه يمنُّ عليه بها أمام الناس، ويفَضَحُهُ أمام الناس، كأن يقول له: حافظ عليها ولا تفسدها.

فأول نقطة أن الأمير قد لا يعطي لأنه بحاجة لهذا الشيء، وقد لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا قصّرتَ في خدمته حَرَمَكَ هذا العطاء، وقد يمنُّ عليك.

الشَّكُور الذي إذا نَوَّل أجزل، وإذا أطيع بالقليل قبل، وهو الذي يقبل القليل ويعطي الجزيل، وهو الذي يقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات.

ومن شكر الله سبحانه وتعالى، أنه يجازي أعداءه بما يفعلونه من خير، أعداؤه الذين كفروا به، بل الذين أنكروا وجوده، بل الذين تفلتوا من منهجه، بل الذين انغمسوا في ملذات محرَّمة، يجازيهم إذا فعلوا الخير، فلا يضيّع عليهم ما يعملونه من إحسان، وهم من أبغض الخلق إليه، لن تفعل شيئاً ويضيع عليك أجره.

أما الحديث الذي يؤكّد هذا المعنى، فما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

«تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ، فقال له عمرو بن العاص: أَبْصِرْ ما تقول: قال: أقول ما سمعتُ من رسولِ الله ﷺ، قال: لئن قلتَ ذلك إنَّ فيهم لَخِصالاً أربعاً، إِنَّهُم لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَة وأَسْرَعُهُم إفَاقَة عند مُصِيبة، وأَوْشَكُهُم كَرَّة بعد فَرَّة، وخَيْرُهُم لِمِسْكِين ويَتِيم وضَعِيف وخَامِسَة حسنة جَميلة: وأَمْنَعُهُم منْ ظُلْمِ المُلُوك» [أخرجه مسلم].

يفكرون، يخطّطون بهدوء، بينما تثور شعوب أخرى، وتهوج، وتموج، ثم تخمد.

هذا الرَّسام الذي رسم، المفروض أن نتلقى هذا بهدوء، وأن نخطط لتعريف الغرب برسول الله، يصورون الشعوب حينما تهوج وتموج، ويسخرون، أما الذكاء والعقل أن نخطط، أن نُعرف الناس بهذا النبي الكريم، أن نطبق سنته، حتى يأخذ الناس فكرة عن هذا الدين العظيم، من هم الذين أساؤوا للنبي ﷺ؟ أنا أرى أن المسلمين هم أول من يسيء إليه، إذ لم يطبقوا سنته، أكلوا المال الحرام، اعتدوا على بعضهم بعضاً، سفكوا دماء بعضهم بعضاً، فالعالم الآخر يراهم متخلفين، يظن أن هذا دينهم، نحن أسأنا إلى نبينا ابتداء، فكان ردّ فعل الغرب أن أساؤوا إليه.

هؤلاء الغارقون في المعاصي والآثام، الذين يعتدون على شعوب الأرض، يعاملون شعوبهم معاملة تفوق حدّ الخيال، مع أنهم أعداؤهم، مع أنه يبغضهم لكنّه يشكرهم على هذه الأفعال.

أيُّ إنسان، مؤمن، أو غير مؤمن، مستقيم، أو غير مستقيم، إذا قدّم عملاً صالحاً لمن حوله، فالله عز وجل يشكره عليه، لا يمكن أن يضيِّع عليك عملاً طيباً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، و لو أن تبتسم في وجه أخيك.

ما أحسن عبد من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة.

نصيب المؤمن من اسم الله الشكور

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥].

يجب أن تكون أيها المؤمن صبّاراً شكوراً، أي ينبغي أن تشتقَّ من كمال الله كمالاً تتقرّب به إليه، ينبغي أن تكون صبّاراً شديد الصبر عند المصيبة، شديد الشّكر عند العطاء، فأنت بين حالين، حالٍ تتمنى ألا يكون فكن صبوراً، وحالٍ تتمنى أن يدوم فكن شكوراً.

والإيمان نصف صبر، ونصف شكر، وقال ﷺ: «عَجَبا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [اخرجه مسلم عن صهيب الرومي].

أروع ما في هذا الإيمان العظيم أنّك في كلِّ الأحوال مع الله؛ إن كانت الأمور على خلاف ما تشتهي فأنت صبور، وإن كانت وفق ما تشتهي فأنت شكور.

«يا عبادي، لو أنَّ أوّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ -ذلك لأن عطائي كلام، واخذي كلام- فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٩].

المؤمن شكور، أي شيء قُدم له، أي خدمة، أي هدية يشكر عليها إما بلسانه، أو بقلمه، أو برسالة، أو بابتسامة، أو بعمل طيب، أو بهدية، من صفات المؤمن أنَّ النعمة تعظم عنده مهما دقّت، إنسان قدّم لك شيئاً، لابدّ من أن تشكر، لابدّ من أن تعبر عن شكرك له، بأي طريقة، أمّا شكر العبد على الحقيقة فهو إقرار القلب بإنعام الرب، ونطق اللسان عن اعتقاد الجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

وللشّكر مستويات وأولها أن تعزو النّعمة إلى الله، والمستوى الثاني أن يمتلئ القلب محبة لله.

أمّا المستوى الثالث وهو أرقى المستويات فأن تقابل نعم الله عز وجل بخدمة عباده، أن تنصح لهم، أن تحسن إليهم، أن تخلص لهم، أن ترعى فقيرهم، أن تعين ضعيفهم، أن تطعم جائعهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٣].

الشكر بأعلى درجاته عمل صالح، إنسان قدم لك خدمة كبيرة، تقول له: شكراً، لا يكفي هذا.

«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه» [النسائي و أحمد عن عبد الله بن عمر].

كافئ المعروف بمعروف، الهدية بهدية.

في الحديث: «تهادوا تحابوا» [مالك في الموطأ عن مالك بن عطاء الخراساني].

حقيقة الشُّكر الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم.

الدول البعيدة العلمانية ماذا ترى بعينيها؟ النعمة فقط، وكل شيء عندها ثمين وله ثمن لكن المؤمن ماذا يرى؟ المُنعم، وملخّص الدرس كله، أنك إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المُنعم فأنت شكور.

يسمع أحدنا النشرة الجوية أن هناك منخفضاً، وأمطاراً، وثلاثون ميلمتر من الأمطار نزل، فهو في النشرة مع النعمة وفي النعمة، أما المؤمن فيقول: يا رب لك الحمد، فهو مع المنعم.

المجيب

سمّى الله جلّ جلاله ذاته العلية باسم المجيب على سبيل الإطلاق، وورد هذا الاسم معرفاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥].

وقد ورد أيضاً منوّناً، في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١].

ولم يرد هذا الاسم في السُّنّة.

من معاني اسم الله المجيب

المجيب اسم فاعل، وفعله أجاب، يجيب، فهو مجيب، فهو اسم فاعل من الفعل الرباعي على صيغة المضارع، بعد إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة، وكسر ما قبل الآخر.

والإجابة: صدى الكلام، أو ترديده، أو المحاورة في الكلام، هناك حوار، وهناك جدال، والفرق بينهما واضح، الحوار شيء جيد جداً، أما الجدال فشيء مذموم، والإجابة: ردُّ السؤال.

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت في حديث الإفك:

«فوجدتُ عِقْدِي بعد ما اسْتَمَرَّ الجيشُ، فجئتُ منزلَهم وليس فيه أحد - ومنهم من قال: فجئتُ منازلهم وليس بها منهم دَاعٍ ولا مجيبٌ» [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة].

وفي اللغة: الإجابة والاستجابة بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٣١].

فالاستجابة والإجابة بمعنىً واحد، إلا أن الإجابة فِعلها رباعي، والاستجابة فِعلها سداسي؛ أجاب، أو استجاب. والمجيب اسمٌ من أسماء الله الحسنى له معنيان:

المعنى الأول: الإجابة.

المعنى الثاني: أن يُعطي الله السائل مطلوبه.

فإذا سألت إنساناً يجيبك. وإن سألته حاجةً، يعطيك. فإما أن تكون الإجابة بيانيَّةً، وإما أن تكون الإجابة عطاءً؛ إجابة بيانيةٌ، وإجابةُ عطاء، معنيان من معاني الاستجابة التي وردت اسماً من أسماء الله الحسنى.

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، فأنت في العلاقات الاجتماعية. لو سألت إنساناً يسمع ويرى ويتمتَّع بأخلاقٍ عالية لو سألته شيئاً لا بد أن ترى استجابةً؛ أو اعتذاراً أو ترحيباً أو وعداً أو بياناً: فالاستجابة صفة من صفات الإنسان، لكنّها اسم من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

لا أُبالِغ إن قلت: إن أكثر ما يحتاج إليه الإنسان في الدين هو الدعاء، حينما يدعو ربه، يعلم أنه سميعٌ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه بصير، وحينما يدعو ربه يعلم أنه قدير، وحينما يدعو ربه يعلم أنه رحيم، وحينما يدعو ربه يعلم أنه عفوّ، فبالدعاء يتوجّه الداعي إلى معانٍ كثيرة، فأنت حينما تسأل، تسأل غنياً، وحينما تسأل، تسأل قوياً. وحينما

تسأل، تسأل رحيماً، وتسأل مُحِباً. فلو أنّ هناكَ شخصاً لا يحبك فإنك لا تسأله، لو أنّه ضعيف لا تسأله، ولو أنّه فقير لا تسأله، لو أنّه عدو لا تسأله، ولو أنّه حاقد لا تسأله؛ إذاً من تسأل؟ تسأل من يسمع، تسأل من يحبّك، تسأل من يقدر على إجابة طلبك، تسأل من يستجيب لك، تسأل من يُبصر حالك. من يعلم ومن يسمع، وبمجرد دعائك لله يعني أنك تعرفه. والإنسان له إحساس عام. فأحياناً يمشي في طريق يسأل عن شخص، فتجده يسأل البقال إذْ يقول: هذا الذي يسكن هنا لا بد من أن يتردَّدَ على هذا البقال. فأنت لا تسأل إنساناً عابراً في الطريق، وإنما تسأل بقالاً. فراقِب نفسك حينما تسأل؛ تجد أنك تسأل مَن يعلم، ومن يبصر ومن يسمع، والذي يقتَدِر، والغني، والرحيم، المحب، العفوّ.

فلذلك: المجيب اسم من أسماء الله الحسنى. وزوال الكون أهون على الله من أن تدْعُوَه فلا يستجيب لك، واستجابته لك، إما أن يُطمئنك، وإما أن يعطيك، وإما أن يُلْقي في رُوْعِك أن هذه الحاجة لا تناسِبك، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إذا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتَيْنِ» [رواه الترمذي من حديث سلمان الفارسي].

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف. مثل أضربه لكم كثيراً وأردّدهُ، لو أنك في زمن الشتاء، وترتدي ثياباً سميكةً ومُحكمةً، وتحمل بيَدك اليمنى حاجةً ويسألك الطفل الصغير كم الساعة؟ أنت مضطرّ إلى أن تضع حاجتك على الأرض لترَى الساعة وتجيبه، فهذا طفل صغير يسألك فتشعر بالواجب أن تُجيبه، وأنت إنسان في قلبك ذرّة من الرحمة لا تعدل شيئاً بالنسبة لرحمة الله، ولا تستطيع إلا أن تجيبه؛ هو طفلٌ وقد يسألك ترَفاً أو عبثاً، وعن غير حاجة، إذا كان فيك أيُّها الإنسان ولو ذرّة كمال لا تستطيع إلا أن تجيب، فكيف بخالق الأكوان وبالواحد الديان؟

لذلك المجيب في حق الله تعالى: هو الذي يقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، ويقابل دعاء الداعين بالإجابة، ويقابل ضرورة المضطرين بالكفاية.

بل إنّ من معاني المجيب أنّه يُنعِم قبل النِّداء، الأب الرحيم المقتدر والغني إن رأى ابنه بحاجة إلى مِعطف في أيام البرد، هل ينتظر الأب أن يسأله ابنه شراء هذا المِعطف؟ يشتريه له ويعطيه إياه قبل أن يسأله. فمن معاني المجيب أنه يُنعِم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء. ولكن لماذا أحياناً يتأخّر العطاء إلى ما بعد الدعاء؟ هنا نقطة عميقة الدلالة جداً مفادها أن الله تعالى يحبُّ أن تدعُوَه، وأن تلجأ إليه، وأن تتصل به، وأن تناجِيَه، وأن تُمرِّغ وجهك في أعتابِه، ويحبُّ أن يُسْعِدك بالاتصال به؛ فيَجْعل حاجتك وسيلة لهدف هو الاتصال والتعبّد. وهذه نقطة مهمة جداً، قد يُحوِجك إلى شيء وقد يخيفك من شيء، وقد يلوح لك شبح مصيبة من أجل أن تسأله، وتفزع إليه، وتتصل به، وتلوذ بحِماه، ومن أجل أن تُصلي وتدعوه، ومن أجل أن ترجوه؛ لأنك بهذا الدعاء، وذاك الاتصال، وهذا الرجاء تسعد، وإجابة السائل هي الوسيلة.

إنّ التضرّعَ في الدعاء هو الهدف، فأحياناً تمسك بيَدك حاجةً يحبُّها ابنك الصغير وتلوّح بها، والقَصد من هذا أن يأتي إليك، فإتْيانه إليك هو الهدف، والحاجة هي الوسيلة. فإذا فهِمت على الله قصده في إسعادك رأيت المصائب وسائل والاتصال بالله هو الهدف. فالله خلقك ليُسعِدك، وهو تعالى يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، والدليل: خلقنا وخلق ما نحتاج إليه، هل تعلم مكوِّنات الحليب؟ إنها تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان! وهل تعلم أن مكونات الحنطة تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان؟ وهل تعلم أن جوّ الأرض الطبيعي يتوافق توافقاً تامّاً مع حاجة الخلق؟ وهل تعلم أنَّ حجم الأرض الذي يقتضي لك وزناً في الأرض، يتوافق توافقاً تامَّاً مع أنسب حالة تعيشها؟ الأرض مَلأى بكل ما تحتاج إليه؛ فأنت تحتاج إلى معادن تنصهر بدرجة معيَّنة كالرصاص، وتحتاج إلى معدن يتمدد عند التبريد من أجل أن تعامل الحديد مع الحجر، وتحتاج إلى معدن خفيف ومتين من أجل أن تصنع منه بعض الأواني والأدوات، وتحتاج إلى معدن ثمين يكون قِيَماً للأشياء. وتحتاج إلى معدن كثيف ومتين كالحديد. فلو درست حاجات البشر كلَّها لعرفت أنّ الله علمها ووفَّرها لهم قبل أن يخلقهم. وأنت بحاجة إلى أزهار تبعث فيك البهجة، فخَلَق لك أنواعاً منها لا يعلمها

إلا الله. وبحاجة إلى مادة تُرمِّم جسمك، خلق لك اللحوم والحيوانات التي ذلَّلها لك؛ فهذا كلُّه قبل أن تسأله. فكِّر في ظاهرة النبات فأنت بحاجة إلى أن تنظِّف أسنانك، خلق لك الخلّة والسواك. وبحاجة إلى أن تنظِّف جسمك، فخلق لك اللِّيف الطبيعي. وبحاجة إلى ظلٍّ ظليل، فخلق لك أشجار الزينة. وبحاجة إلى نبات يكون حدًّا بينك وبين جارك، فخلق لك النّبات الحدوديَّ. وبحاجة إلى الفواكه كي تتنعَّم بها فخلق لك الفواكه بأنواعها التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. وبحاجة إلى أولاد يؤنسون وحشتك فشرع لك نِظام الزواج. وبحاجة إلى زوجة تكمِّل وجودك فخلق الذكر والأنثى.

فهذه كلُّها حاجات خلقها لك قبل أن تسأله إياها. أنت بحاجة إلى ماء وإلى هطول أمطار، خلق المسطحات المائية الواسعة، أربعة أخماس الأرض بحار، وخلق الشمس وجعلها قريبة بعيدة -فالمجال لا يتسع لذكر كلِّ شيء- ولو أمضيت حياتك كلَّها في تعداد النِّعم التي خلقت لك وأنت لا تعلم، ومن قبل أن تُخلق، لعرفت ما معنى أن الله يعلم ما تحتاج إليه قبل أن تسأله. هو مجيب ومن معاني مجيب أنه يجيبك قبل أن تسأله! والشواهد حول هذا الموضوع تفوق الحصر؛ الطفل الصغير يشرب الحليب من ثدي أمه، وحليب الأم ليس فيه حديد، وهو محتاج إلى الحديد من أجل تكوين خِضاب الدم، إذاً أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين إلى أن يأكل! والوليد بحاجة إلى رضعات تذيب الشحوم التي أودعها الله في جهازه الهضمي؛ فأول أربع وعشرين ساعة من عمر الطفل يأخذ من ثدي أمه مادة ليست حليباً، ولكن هي مادة مذيبة تذيب الشحوم التي في جهازه الهضمي. أنت بحاجة إلى دورة دم داخلية قبل أن تولد، الله جعل ثقب بوتال بين الأُذينين؛ فالدورة الدموية داخلية. فحينما يولد الطفل الصغير يحتاج إلى هواء تأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب فتنتقل الدورة من دورة صغرى إلى دورة كبرى فبيَدِ من هذا؟ أنت بحاجة إلى قلب يدفع الدم وبحاجة إلى أوردة وشرايين مرِنة ليندفع الدم فيها، فالله جل جلاله يجيب قبل أن تسأل: كل ما في الكون مسخّر للإنسان؛ والدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

الكون كلُّه مسخّر لك بدْءاً من الأرض وانتهاءً بالمجرات، مسخَّر لهذا الإنسان الذي قَبل حمْل الأمانة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فهو يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم. يخلق الأطعمة والأقوات، وييسِّر الأدوات والآلات الموصِلة إلى جميع المهمات. فهذه البقرة بحاجة إلى حليبها فكيف تستفيد منها؟ لا بد من أن تكون مذلّلة، كيف تعلم أنها مذلّلة؟ تصاب أحياناً بمرض التوحّش فتقتل الإنسان مما يضطر صاحبها إلى قتْلِها ليمنع أذاها عن الناس. إذاً هي مذلّلة ويجب أن تعلم أنها مذللة، خلق ثقب بوتال بين الأُذينين وينبغي أن تعلم أن هناك ثقباً يؤدي وظيفة خطيرة والجنين في رحم أمه فهناك حالات نادرة يبقى فيها الثقب مفتوحاً، وهذا المرض اسمه داء الزَّرَق، والطفل عندها يموت بعد حين، لكن الله تعالى له حِكم، وله أحكام، له خلق، وله تربية، ولم يخلق الخلق عبثاً.

وقيل: إن المجيب هو الذي يقابل الدعاء بالقبول، والسؤال بالعطاء، تدعوه فيقبلُك، تسأله فيُعطيك، بدأنا البحث ببيان أن اسم المجيب يعني شيئين: الإجابة عن دعاء، والعطاء عن سؤال. تدعو فيجيبك وتسأل فيُعطيك. ثم إن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء المضطرين؛ فهذا المضطرُّ من له غير الله؟ لا شك أنّ كلَّ إنسان يمرُّ بحالات اضطرار شديدة، ويكون فيها على أحَرّ من الجمر؛ يا رب، يا الله، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢].

إنه المجيب، فلا تخيبُ لديه آمال الطالبين. قيل: هو الذي يجيب دعاء الداعين ويكشف ضرورة الطالبين، وحول هذه الكلمات آلاف وآلاف الوقائع والأحداث، بل إني متيقن أنه ما من واحد من خلقه، إذا كان صادِقاً مع ربه، مؤمناً بوجوده وبأسمائه الحسنى ووحدانيته، إلا وله تجربة مع الله. دَعَوْته فأجابك، وسألته فأعْطاك. والإنسان حينما يعاني من مشكلة، وحينما تحلّ به محنة، لو سألت العارفين بالله ما حكمتها؟ هذه المحنة التي تحِلُّ بالإنسان المؤمن لا بد من أن تنقله نقْلةً نوعية على محورين؛ محور معرفته،

ومحور محبّتِه. فكل محنة فيها نقلة، فعلى محور محبته تزداد حباً له وعلى محور المعرفة تزداد معرفة. وهذه فيما أعتقِد هي الحكمة العظمى في سَوْق المصائب للناس ولا سيما للمؤمنين. أنت في درجة فإذا أراد ربك أن ينقلك نقلةً إليه، يرسِل إليك مشكلة، تدعوه، وتسأله وتتوسل إليه، وتلوذ به، وتستعيذ به، وتلجأ إليه من أجل أن يجيبك، فإذا أجابك تقول: لقد سمعني وهو يُحِبني وها هو ذا قد أكرمني، ها هو قد استجاب لي.

أيها القارئ الكريم، إنّ المحنة وراءها نقلة نوعية على محور معرفته، وعلى محور محبَّتِه. فوراء كل محنة هناك معرفة جديدة، ومحبة جديدة. والله عز وجل رب العالمين، يُقَلِّب حال عِباده من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن منزلة إلى منزلة، ومن درجة إلى درجة، إلى أن يصل به إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه.

إضاءات على بعض الآيات التي فيها معاني الإجابة والاستجابة

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١].

هو في السماء لكنَّك إذا دعوْته فهو معك بعلمه وقدرته، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف:٨٤].

أنت لا تنادي بعيداً، لا تنادي إلا قريباً، لا تنادي إلا من يسمعك، لا تنادي إلا من يقتدر على أن يجيبك ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

وفي سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥].

أحياناً يضع ذو حاجة ثقته بإنسان، يزوره ويعرض عليه حاجته، يخرج صفر اليدين، وخاليَ الوِفاض، يخيِّب ظنه، قد يعتذر إليه بأسلوب لطيف، أو بأسلوبٍ قاسٍ، على كلٍّ ليس هناك بأس إلا أنه قد خاب ظني، وندِمت على تلك الزيارة. أما الله عز وجل فيقول: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، نِعم الذي يجيب هو الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٤-١٩٥].

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وكتعليق سريع على هذه الآية فقد يتبادر لبعض الناس أن يقول: هؤلاء أنبياء؛ وبدوري أقول: فما داموا أنبياء فهم من جنس البشر، وضرب الله الأمثال بهم لتعلم أنَّ إجابتك كإجابتهم إذا تحقق شرط السؤال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

ولولا أنهم بشر، وتجري عليهم كل خصائص البشر، لما كانوا سادة البشر، لماذا ذكر الله لنا قصصهم؟ لسببٍ بسيط وهو الاقتداء بهم، والسَّيْر على منهجهم، واقتفاء أثرهم، وأن تجعلهم قدوةً لك. قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

ما الذي يمنعك إذا مسّك الضر؛ أن تصلي قيام الليل، وأن تقول: يا رب إني مسَّنِيَ الضر، وأنت أرحم الراحمين. أنت تخاطب مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض، وكل الجهات التي في الأرض بيده ناصِيَتُها، أجلْ، بيَده، قال تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ [هود:٥٦].

قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤].

فالله عز وجل هو وحده أهلٌ أن تسأله؛ أجَلْ، أهلٌ أن تسأله، وأن تدعُوَه، وأن ترجُوَه، وأن تحطّ رحالَكَ عنده، وأن تُعَلِّق الآمال عليه، وأن تستجير به، وأن تلوذ به، وأن تستعيذ به، هو وحده الأهل. وحينما تضع الثقة في غيره. الله جل جلاله غيرةً عليك ومحبةً لك، يلقي في قلب الذي وضعت الثقة به أن يُخَيِّب ظنك تأديباً لك، وفي سورة النمل: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢].

وفي سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال:٩].

وفي سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

أيها القراء الكرام: قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾. فيجب أن تؤمن أولاً بوجوده، وكماله، ووحدانيَّته، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى. وهذه الأبحاث من صُلْبِ العقيدة الصحيحة. ما من بحث أنت بأمسّ الحاجة إليه مثل أن تعرف الله عز وجل، كي تُقْبل عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

وقد وردت في كتاب الله آيات تبدأ بكلمة يسألونك قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

أكثر من عشر آيات وردتْ بهذه الصيغة (يسألونك) ثم يأتي الجواب مبدوءاً بكلمة (قلْ)، إلا هذه الآية الوحيدة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

قالوا: لأنه في الدعاء ليس بين العبد وربه حِجاب، وليس بين العبد وربه وسيط، وليس بين العبد وربه وسيلة، هو قريب سميع مجيب، ما عليك إلا أن تسأله. لكن من أجل أن تعرف ماذا تسأله؛ عليك أن تؤمن به أولاً، وأن تستجيب له ثانياً، حتى تُحسِن أن تسأله، وحتى يستجيب لك ثالثاً. وقال ربكم ادعوني أستجِب لكم. وبالمناسبة ما أمرك أن تدعُوَه إلا ليستجيب لك. يتوهَّم بعض الناس ويقولون: دعَوْنا كثيراً ولم يستجب لنا، والمشكلة أنك ما دَعَوْتَه كما يريد، مثلاً قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:٥٥].

أحياناً تدعو الله عز وجل دون تضرّع، وبصوتٍ جهير هدفك أن تُسمِع الناس، فأنت اعتديت على شرط التضرع، وشرط الخُفْيَة، واعتديت على خلقِه، أنى يُستجاب لك؟ لذلك الذي يعتدي على خلق الله دُعاؤه لا يُستجاب. والذي يأكل مال الحرام دُعاؤُه غير مُستجاب، الذي مطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، أنّى يُستَجاب له؟ وأنا أبيّن هذه الشروط؛ أن يكون الدَّخل حلالاً، وعدم الاعتداء، وعدم الجهر بالدعاء، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

لذلك شرط إجابة الدعاء: صدق الإيمان والولاء، فالله حكيم في إجابته، قد يعجل أو يؤجل، على حسب السائل والسؤال، أو يلطف بعبد فيختار له ما يناسب الحال، أو يدخر ما ينفعه عند المصير والمآل، لكن الله تعالى يجيب عبده حتماً، ولا يخيب ظنه أبداً، كما وعد وقال وهو أصدق القائلين.

وفي الحديث الشريف: «ما من رجل يَدْعُو اللهَ بِدُعَاءٍ إلا استُجِيبَ لَه فإمَّا أنْ يُعَجَّلَ له في الدنيا وإمَّا أنْ يُدَّخَرَ له في الآخرة وإمَّا أنْ يُكَفَّرَ عنه من ذُنُوبِهِ، بِقَدْرِ مَا دَعَا ما لَمْ يَدْعُ بِإِثم، أو قَطيعةِ رَحِمٍ، أو يَسْتَعْجِلْ قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يَسْتَعجِلُ؟ قال: يقول: دَعَوتُ رَبِي فما استَجَابَ لِي» [متفق عليه عن أبي هريرة].

ومن شروط الدعاء: أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس، فسلوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل» [أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر].

من آداب الدعاء: أن يتخير وقت الدعاء، الذي ندب إليه النبي ﷺ، كيوم عرفة، وفي جوف الليل، وقبل الفجر ودبر الصلوات المكتوبة.

«إذا مضى ثلث الليل أو نصف الليل نزل إلى السماء الدنيا جلّ و عزّ فقال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من داع فأجيبه؟» [البخاري و مسلم عن أبي هريرة].

من آداب الدعاء: ألا يتعجل الداعي في دعائه، بمعنى يقول: دعوت فلم يستجب لي، وألا يجهر بالنداء اتقاء للفتنة والرياء، وأن يحذر من التجاوز والاعتداء.

ومن آداب الدعاء: أن يكون المسلم متواضعاً، هيّناً، ليّناً، مجيباً لدعوة إخوانه.

وتعدُّ حالة عدم استجابة الدعاء مصيبة كبيرة، ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذ بك من العجْزِ، والكَسَلِ، والجُبنِ، والبُخْلِ والهَرَمِ، وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نَفسي تَقْوَاها، وزَكِّها أَنت خَيرُ مَنْ زكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفعُ، ومن قَلبٍ لا يَخشَع، ومن نَفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تُستَجَاب لها» [أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

هناك في الآية ما يلفت النظر، الإنسان على حَسَبِ تصوّره، فالله سبحانه لم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، بل قال: عن عبادتي؛ لأن الدعاء هو العبادة. والعبادة كلُّها في الدعاء، بل إنَّ الدعاء مخ العبادة، وهو أفضل ما في العبادة.

يقول تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩].

للتوضيح: طبيب مرّ على مريض أخذ لائحة الفحوصات، وجد الضغط مرتفعاً، أعطى أمراً بإيقاف الملح في الطعام، والطعام دون ملح لا يستساغ، ولكن هذا قرار الطبيب، لأن شأن هذا المريض ارتفاع الضغط، فالموقف المناسب أن تمنعه من الملح.

وجد الضغط معتدلاً جداً، وجسم المريض بحاجة إلى غذاء دسم فأمر أن يُطعم أطيب الطعام.

فأنت إن كان شأنك مع الله الطاعة فقرار الله الإكرام، وإن كان شأنك مع الله لا سمح الله ولا قدر المعصية فشأن الله معك التأديب.

أنت مقبل، والقرار الإلهي هو التكريم، جزء من المال حرام، فالقرار الإلهي تطهير مالك من هذا المال الحرام، أنت متواضع شأن الله عز وجل أن يكرمك، أن يرفع شأنك،هناك تكبر، شأن الله عز وجل أن يحجّمك، أنت منفق شأن الله أن يرزقك، أنت مقتّر شأن الله أن يضيق عليك ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

إن أردت أن يكون الله لك كما تريد فكن له كما يريد.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة في استسقائه ﷺ، ونحن نعاني الجفاف أحياناً، لكن الطريق إلى الأمطار الغزيرة لا نسلكها، النبي ﷺ ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه استسقى ربه فقد كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال:

«فقام الناسُ، فصاحوا، فقالوا: يا رسولَ الله، قَحَطَ المطر، واحمَرَّت الشجرُ، وهلكتِ البهائِمُ، فادْعُ الله أن يَسْقِيَنَا، فقال: اللهم اسْقِنا -مرتين- وايْمُ الله، ما نرى في السماء قَزَعة من سحاب -سماء صافية، جو حار- وايْمُ الله، ما نرى في السماء قَزَعة من سحاب، فنشأتْ سحابة فأمطرت، ونزل عن المنبر فصلَّى بنا، فلما انصرف لم تَزَلْ تُمْطِرُ

إلى الجمعة التي تليها، فلما قام رسولُ الله ﷺ يخطُب في الجمعة التالية، صَاحُوا إليه: تهدَّمت البُيُوتُ، وانقطعتِ السبلُ، فادْعُ الله يَحبِسْهَا عنا، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثم قالَ: اللهم حَوالَينا ولا عَلينا وتَكشَّطت المدينةُ، فجعلت تُمْطِرُ حولها، ولا تُمْطُرُ بالمدينةِ قطرة، فنظرتُ إلى المدينة وإنها لَفِي مثْلِ الإكليل» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن أنس بن مالك].

والله الذي لا إله إلا هو لو طبقنا صلاة الاستسقاء كما أراد الله، وكما بيّن النبي ﷺ لكنا في وضع آخر.

وقد وردت الاستجابة في القرآن لغير الله قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى:٢٦].

أنت مؤمن دُعيت إلى الله، فاستجبت. وإلى عملٍ صالحٍ، فاستجبت. وإلى إقامة الصلاة، فصَلّيت. وإلى دفْع الزكاة، فزكّيت. وإلى حج بيت الله، فحججت. وإلى مساعدة زيْدٍ أو عُبيْد، ففعلت، الاستجابة وردت في كتاب الله منسوبةً لغير الله، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي سورة الرعد قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرعد:١٨].

أما أجمل آية متعلقة بالاستجابة فهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

أنتم حينما تُدْعَون إلى طاعة الله، فإنما تُدْعَون إلى الحياة. والمؤمن قبل أن يعرف الله ميِّت قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

قال عدي بن الرعلاء الغساني:

ليس من مات فاستراح بمَيتٍ إنما الميت ميِّت الأحياء

الميت الحقيقي: هو الذي يتمتع بأعلى درجات الصحة، لكنَّ قلبه ميت، لا يعي خيراً، ولا يستجيب، لا يذكر الله، لا يعطي لله، ولا يمنع لله، ولا يحبُّ لله، ولا يُبغض لله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وليعلم كلُّ مؤمن أن استجابة الله بالعطاء، وإجابته للدعاء على أنواع كثيرة؛ أحياناً ربنا عز وجل لحكمةٍ يريدها يجيب العبد قبل أن يَدعُوَه، بمعنى أنّه يتفضل عليك لتُقبِل عليه، هو الذي بدأ، إذ إن المرء يغفل ويلهو فإذا أتاه فضل من الله من غير سؤال، تجد الذي معدنه طيِّب حينما يغمره الله تعالى بفضْلِه يستجيب، فهو إما أن تَدعُوَه فيُعطيك، وإما أن يُعطيَك لتدْعُوَه.

فقد يأتي الدعاء قبل العطاء وقد يأتي العطاء قبل الدعاء فإن كان الدعاء قبل العطاء، فالمبادرة منك. وإن كان العطاء قبل الدعاء، فهذه حكمة بالغة أراد الله أنْ يمتَحِنك بها. فتُطيعُه ليُكرِمك، وأحياناً يُكْرِمك لتُطيعَه. ربما ضيَّق على عباده الحال ابتلاءً وامتحاناً ورفْعاً لدرجاتهم بصبرهم وشكرِهم في السراء والضراء. فهو تعالى يستجيب بعد الضيق أو يُكرِم قبل الدعاء.

قال بعض العلماء: حتى إذا يئسوا تداركهم بجميل عوائده وآلائه، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف:١١٠].

ابن النحوي يوسف بن محمد التلمساني نظم قصيدة بدأها: باشتدِّي أزمةُ تنفَرِجي قال فيها:

اشــتدّي أزمَــةُ تنفرِجــي ... قــد آذنَ لَيْلــكِ بــالبَلجِ
وَظَــلامُ اللَّيــلِ لَــهُ سُرُجٌ ... حَتَــى يَغشَــاهُ أبُــو السُّــرُجِ
وسَــحَابُ الخَــيرِ لَــهَ مَطَــرٌ ... فــإذا جــاءَ الإبَّــانُ تَجِــي
وَفوائِــدُ مَولانــا جُمَــلٌ ... لِــسُرُوحِ الأنفُــسِ والمهَــجِ
وَلَهَــا أَرَجٌ مُحْــيٍ أبَــداً ... فاقصُــد مَحْيَــا ذاكَ الأرجِ
فَلَــرُبَّما فــاضَ المَحْيَــا ... ببحُــورِ المَــوجِ مِــنَ اللُّجَــجِ
وَالخَلــقُ جَميعــاً في يَــدِهِ ... فَــذَوُو سَــعَةٍ وذَوُو حَــرَجِ
ونُــزُولهُم وَطُلُــوعُهُمُ ... فَعَــلى دَرَكٍ وَعَــلَى دَرَجِ
وَمَعائِشُــهُم وعَــواقِبُهُم ... لَيسَــت في المَــشيِ عَــلى عِــوَجِ
حِكَــمٌ نسِــجَت بيَــدِ حَكَمَــتْ ... ثُــمَّ انتَسَــجَتُ بالمُنتَسِــجِ
فــإذا اقتَصَــدَتْ ثُــم انعَرَجَــتْ ... فبمُقتَصِــدِ وبمُنعَــرِجِ
شَــهِدت بعَجائِبِهــا حُجَــجٌ ... قامَــت بــالأمرِ عَــلى الحِجَــجِ
وَرِضــاً بقَضــاءِ الله حَجــاً ... فَعَــلَى مَركُوزَتِــهِ فَعُــجِ
وإذا انفَتَحَــت أبــوابُ هُــدَّى ... فاعْجِــلْ لخزائِنَهــا وَلِــجِ
وإذا حاوَلْــتَ نِهايَتَهــا ... فاحــذَرْ إذْ ذاكَ مِــنَ العَــرَجِ
لِتكُــونَ مِــنَ السُّــبَّاقِ إذا ... مــا جِئــتَ إلى تِلــكَ الفُــرَجِ

والأمور إذا ضاقت اتَّسعت. أحياناً تضيق:

ضــاقت فلــما اســتُحكِمت حلقاتهــا ... فُرِجــت وكنــت أظنّهــا لا تُفْــرَجِ

الحكمة؛ أن تفهم عن الله؛ أن تفهم عن الله حِكمته؛ أن تفهم عن الله كماله؛ أن تفهم عن الله رحمته. لكن الله يضمن للعبد إجابة الدعاء بما يعلم أنه خير للعبد بحَسَب عِلمه، لا بحسب علمك. في الوقت الذي يريده الله، لا في الوقت الذي يريده العبد.

فأنت لا تعلم والله يعلم. وأنت لا تعرف ما يناسبك والله يعلم المناسب. دَعْوَتُك له أمر مرغوب؛ لكن لا ينبغي لك أن تحدد متى يستجيب لك؛ فهذا سوء أدبٍ مع الله، يستجيب لك في الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، وفي الطريقة المناسبة، فما عليك إلا أن تدعُوَه وكفى.

الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦].

حدّثني أخ أنه كان مسافراً من بلدٍ إلى بلد، يدرس في كلية الطب وحجمه صغير نسبياً، ركِب في سيارةٍ عامة ليَذهب إلى بلدِه فقال لي: جاء رجلان ضخما الجثة فتح أحدهما باب السيارة، وحملني ووضعني على الأرض، وركِب هو وزميله مكاني. يقول هذا الأخ: تألَّمت ألمًا لا حدود له، وما تمنَّيت في حياتي أن أكون مجرماً إلا تلك الساعة، إذ إن هذا هو منتهى الإهانة والقسوة. ثم قال: وبعد ساعة ركبت السيارة الثانية، وأنا في الطريق إلى بلدتي كانت هناك تلة صغيرة، فرأيتُ تلك السيارة قد تدهورت وكلّ الركاب قد ماتوا، ثم قال: في ثانية واحدة انقلب حِقدي إلى شكر قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله (المجيب)

أما التطبيق العملي لهذا الاسم؛ فيا أيها العبد، يجب أن تعلم أن الله مجيب، وينبغي أن تعلم أن الله تعالى دعاك إلى طاعتِه، وأنت تدعوه ليُرْضيك، فإن أجبت دعاءه، أجاب دعاءك. أي: كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. دعاك إلى طاعته، وأن تدعوه إلى حاجَتِك. استجِب ليستجيب. كن له كما يريد، ليكن لك كما تريد. أنت تريد وأنا أريد؛ فإذا سلَّمت لي فيما أريد، كفَيْتُك ما تريد. وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد، أتْعَبْتُك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

أجِب دعاء الله، وأجِب دعاء الناس أيضاً. دعاك أحد الخلْق، وضع أمله فيك، وضع ثِقَته فيك، كُنْ ممّن يتخلّق بكمالات الله، قال الفرزدق يصف زين العابدين ﷺ:

ما قال لا قط إلا في تشهده … لولا التشهد كانت لاؤه نَعَمُ

ما قال: لا، قطّ في حياته، فإذا وثِق أحدٌ فيك، ووضَع أمله فيك، وطمع فيك، هذا هو تطبيق الاسم مع الناس.

قال: فإذا سألك أحدٌ فلا تزجُره فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى:١٠].

حظ المؤمن من هذا الاسم أيضاً؛ أن يقضِيَ حوائِج الطالبين، ليقضيَ الله حاجَته. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. عبادي إن أردتم رحمتي، فارحموا خلقي.

الإمام أحمد يقول: «اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لغيرِك، فَصُن وجهي عن مسألة غيْرِك، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواك»، ومن الأدعية الواردة عن سيدنا عليٍّ ﷺ: اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فنسأل شرّ خلقِك، ونُبْتَلى بحمد من أعطى وذمّ من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء.

يقول العلماء: «إن العبد ينبغي أن يكون مجيباً لربِّه تبارك وتعالى أولاً فيما أمره به ونهاه، وفيما ندبَهُ إليه ودعاه، ثم لعباده فيما أنعم الله عليه بالاقتدار، وفي إسعاد كلِّ سائلٍ بما يسأله، وفي لُطْفِ الجواب إن عَجَزَ عن الإجابة»، فأنت اسْتَجِب للناس؛ دعاك، أجِبْهُ. سألك، أعْطِهِ. فإذا طُلِب منك شيء لا تستطيع تنفيذه ماذا تفعل؟ رُدّه رداً لطيفاً. قل له: والله أتمنى أن أخدمك وأُلَبِّيَ حاجَتَك، فالردّ اللطيف إجابة.

النقطة المهمة أنك لا تستعْظِم شيئاً تسأله الله، فالله عز وجل لا يُعْجِزُه شيء، فهل يمكنني أن أشتريَ بيتاً؟ وهل يمكن أن أصبح داعية؟ وهل يمكنني أن أحصل على شهادةٍ عُلْيا؟ وهل يمكنني أن أصبح في منصب رفيع؟ كل هذا ممكن. ولا تستعظم السؤال إطلاقاً، فالله على كل شيء قدير، قال ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله وإذا

استعَنت فاسْتَعِن بالله» [الترمذي، عن ابن عباس]. وفي الحديث الشريف: «إن الله -حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيها خيراً» [الحاكم عن أنس].

من أدعية هذا الاسم؛ إلهي أنت المجيب لمن دعاك، والمغيث لمن ناداك، تنصِف المظلوم من الظالم؛ لأنك فوق الكل حاكِم. إلهي إن نفسي ظلمت روحي، فحَجَبَتْها عن الأنوار ومَنَعَتْها من الأسرار، فانصُر الروح على النفس، بفضلك، وأسْعِدها في رياض وصلِك. إلهي لا تردّ الدعاء فأنت المجيب، ولا تؤاخذِنا بما فرَّطنا فمن دعاك فلا يخيب، واجعَل لنا نوراً موْروثاً من نور اسمك المجيب، فنسْتَجيب بأمرِك ونقوم بشُكرِك وذِكرِك إنك على كل شيء قدير.

وأخيراً، أعتقد أن هذا الاسم ولا أُبالِغ من أقرَب الأسماء إلينا؛ اجعل عنده كلَّ حاجاتك. حُطّ رحالَكَ عنده. الزَمْه واسْأله وتذلّل له ومرِّغ جبهتَك في أعتابِه فهو السميع المجيب، فلا تنسَوا أنّ المجيب اسم من أسماء الله الحسنى وينبغي أن يكون في قلبك دائماً.

الغفّار

مع اسم جديد من أسماء الله الحسنى، وهو «الغفّار». وقد سمّى الله سبحانه وتعالى نفسه بهذا الاسم على سبيل الإطلاق، مقروناً باسمه تعالى العزيز، في ثلاثة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص:٦٦].

وقد ورد مطلقاً منوّناً دون اقتران باسم آخر في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

وفي السّنة الشّريفة: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا تَضوَّر من الليل؛ قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما؛ العزيز الغفار» [ابن حبّان].

من معاني اسم الله (الغفار)

«الغفار» في اللغة من صيغ المبالغة، على وزن فعّال، أي كثير المغفرة، كمّاً ونوعاً، والفعل غفر، يغفر، غفراً، ومغفرةً، وأصل المغفرة التغطية والستر.

«الغفار» سبحانه وتعالى هو الذي يستر الذنوب بفضله، ويتجاوز عن عبده بعفوه، فمن كمال الله عز وجل أنه يسامحك بهذا الذنب فحسب، لكنه يستره عليك أيضاً.

الإنسان أحياناً يتكلم كلمة غير لائقة، فإن لم ينسها فإن حياته تصبح جحيماً لا يطاق. فالله عز وجل يغفر ويستر عنك هذا الذنب، ومن نعم الله الكبرى أنك تنسى.

أما إذا كان العبد موحّداً فذنوبه تحت مشيئته الله وحده، فالله عز وجل طليق الإرادة إن شاء عفا لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة، وإن شاء أدب، ويعفو بعدها، فالله عز وجل لحكمة بالغة قد يعفو من دون تأديب، وقد يؤدب فيعفو، أي شأنك مع الله أن تثق بكماله، وأن تثق بحكمته، وأن تثق بمحبته.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٦].

فأنت عبد، ومهمتك أن تطيعه.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ .

وانتظر الخير، وانتهى الأمر.

(الغفور) و«الغفّار» قريبان في المعنى من بعضهما، لكن «الغفار» أبلغ من الغفور، الغفور من يغفر الذنوب العظام، أما «الغفار» من يغفر الذنوب الكثيرة، الغفور للذنوب العظام، أما «الغفار» فللذنوب الكثيرة، يعني غفور للنوع، وغفار للكم، هذا هو الفرق بين الغفور و«الغفار».

قال بعض العلماء: «الإنسان إذا عصى الله عز وجل وُصف في القرآن بأنه ظالم وبأنه ظلوم، وبأنه ظلّام» قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق:٢٩].

وظَلَّام صيغة مبالغة. وفي حق الله تعني أنه لا يظلم، فجميع عباده ينعمون بعدالته.

فإذا كان العبد ظالماً فالله غافر، وإذا كان ظلوماً فالله غفور، وإذا كان ظلّاماً فالله سبحانه وتعالى غفّار، بأية صفة أتى بها العبد المعصية فهناك اسم لله عز وجل يقابل هذه المعصية.

النقطة المهمّة في هذا الاسم أن صفات الإنسان متناهية، ومعنى متناهية: أنّ الإنسان إذا فعل ذنباً فذنبه له حجم، وقع في معصية، ومعصيته لها حجم أيضاً، فمهما تكن المعاصي والذنوب فإنها متناهية تنتهي عند حدّ معيّن، لكنّ مغفرة الله عز وجل ليست متناهية ولا حدود لها، وغير المتناهي يغلب المتناهي، إذاً، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الكفور، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجهول، لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجحود.

إذا كان ذنبك متناهياً، ومغفرة الله عز وجل ليست متناهية، فمن الغباء والحمق والجهل والجحود وقلة العلم أن تيأس من رحمة الله، لذلك، فاليائس كافر، اليائس جاهل، اليائس جاحد.

هناك شيء آخر بالنسبة لهذا الاسم أن الآيات التي وردت في فعل المغفرة وردت مرة بصيغة الماضي، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢٤-٢٥].

ووردت أيضاً بصيغة الفعل المضارع قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ووردت بصيغة الأمر الذي يفيد الدّعاء، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٣].

ووردت بصغية المصدر قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:٦].

أي يغفر لك ما مضى، ويغفر لك الآن، ويغفر لك في المستقبل، وهو ذو مغفرة، بأي زمن كنت هو غفّار، لأي ذنب فعلت هو غفّار، إن كان الإنسان ظالماً فالله غافر وإن كان ظلوماً فالله غفور، وإن كان ظلاَّماً فالله عز وجل غفَّار، وإن فعل الذنب في الماضي غفر الله له، وإن فعله الآن يغفر الله له، وما سيفعل من ذنب في المستقبل فإن الله عز وجل يغفر بعد الانكسار والدعاء، بأي شكل وبأي زمن فإن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم.

قال تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٩]، ما معنى توبة الرّبّ إذا سبقت توبة العبد؟ وما معنى توبة الرّبّ إذا تأخرت عن توبة العبد؟

إذا سبقت توبة الرّبّ توبةَ العبد، أي: إن الله عز وجل ساق له من الشدائد والمحن والمصائب ما دفعه إلى التوبة، فما أكثر التائبين على أثر مصيبة نزلت بهم، الله عز وجل تاب على العبد قبل أن يتوب، أي: ساق إليه الشدائد والمحن والبلايا بحيث يحمله على التوبة، وفتح له باب التوبة وإذا قال الله عز وجل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المدثر:١١-١٤].

فحيثما جاءت كلمة «ذرني» يعني يا محمد إن لم يستجب فلان لك فدعه لي، فأنا أسوق له من الشدائد ما أحمله على التوبة، فالله عز وجل من رحمته أن يسوق لك إنساناً لطيفاً يقدم لك نصيحة هادئة رقيقة بينك وبينه، يدعمها بالآيات والأحاديث والقصص، فأنت إما أن تستجيب وإما ألا تستجيب، فإن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى عنده من الوسائل والأساليب والأدوية والطرائق والمضايقات والشدائد ما يدفعك إلى بابه دفعاً، فأيهما أرقى لك أن تأتيه طائعاً أو أن تأتيه مكرهاً، هذا ما فسره النبي ﷺ: «عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل وهم كارهون» [الطبراني عن أبي أمامة وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسنده حسن].

فأنت أخوف ما يجب أن تخاف منه، أن تدعى إلى الله عز وجل دعوة هادئة لطيفة فيها ستر بينك وبين أخ كريم ينصحك بغض البصر، بتحليل الدخل، بترك الظلم، بترك العدوان، ثم لا تستجيب له، فإنك إن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى كفيل أن يسوق للإنسان من الشدائد ما يحمله على التوبة، هذا معنى التوبة، إذا سبقت توبة الرب توبة العبد ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [التوبة:١١٨]، أما إذا جاءت توبة الرب بعد توبة العبد فهي قبول التوبة ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة:٣٩] أي: يقبل توبتهم.

إن الإنسان إذا قرأ عن المغفرة فإنه يجد الله واسع المغفرة، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال فيما روى عن الله تعالى أنه قال: «يا عِبادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي،

وجَعلتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظالَمُوا، يا عِبادِي! كُلُّكُمْ ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي! كُلُّكُمْ جائِعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُهُ فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادي! كُلُّكُمْ عارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ... يا عِبادي! لوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعيدٍ واحِدٍ فسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادي! إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثَمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ].

معنى هذا الحديث القدسي؛ أن الإنسان إذا عاد إلى الله طواعية ضَمِنَ حفظ الله له وتأييده وإكرامه، فإذا أبى ولم يستجب عندئذ سيأتيه العذاب من حيث لا يشعر، لذلك ربنا عز وجل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

إن لم تأته طائعاً دفعك إلى بابه دفعاً.

وفي بعض الأدعية المأثورة: يا من أظهر الجميل! وستر القبيح! يا من لا يؤاخذ بالجريرة! ولا يهتك الستر! يا عظيم العفو! يا حسن التجاوز! يا واسع المغفرة! يا باسط اليدين بالرحمة! يا صاحب كل نجوى! ويا منتهى كل شكوى! يا كريم الصفح! يا عظيم المن! يا مبتدئ النِّعم قبل استحقاقها! يا ربنا! ويا سيدنا! ويا مولانا! ويا غاية رغبتنا! أسالك يا الله أن لا تشوي خلقي بالنار

لذلك قال عبد الله بن محمد القحطاني في نونيّته:

والله لـو علمـوا قبـيح سريـرتي ... لأبـى السـلام علـيَّ مـن يلقـاني

ولأعرضـوا عنـي وملّـوا صـحبتي ... ولبـؤت بعـد كرامـة بهـوان

لكـن سـترت معـايبي ومثـالبي ... وحلمـت عـن سـقطي وعـن طغيـاني

فلـك المحامـد والمـدائح كلهـا ... بخـواطري وجـوارحي ولسـاني

شريكان، لو اطلع الأول على ما يدور في خلد الثاني لترك شراكته، لو اطّلع الزوج على ما يدور في بال زوجته لطلقها، ولو اطلعت الزوجة على ما في ذهن زوجها لتركته، لو اطلع الأب على ما يدور في بال ابنه عند تفكيره بموت أبيه لكرهه، يقول الابن لأبيه أحياناً: أعطني يدك لتقبيلها، وفي باله خاطر آخر، لو اطلع الأب على ما يجول في خاطر ابنه لكرهه وطرده، فالله عز وجل جميل الستر.

أنت في حصن حصين، فكل خواطرك الداخلية وكل المشاعر وكل الأفكار وكل الطموحات، هذه كلها مستورة، فهذا من معنى المغفرة، أي: ستر عن الناس العيوب الفكرية.

والمعنى الثاني: أن المؤمن في الجنة يستر الله عنه ذنوبه، فلو أن المؤمن اطلع على جاهليته لاحترق، وهذا شيء فوق طاقة البشر لأنه مع الكمال المطلق، لو أن مؤمناً تاب إلى الله توبة نصوحاً وغفر الله له، فإذا تذكر ما فعل في الجاهلية قضم أنامله على تفريطه، فمن رحمة الله بالمؤمن أنه يستر عنه عيوبه، وهذا ما فسره بعض العلماء في سر فناء الجسد، إن هذه الصور في الذاكرة فإذا فني الجسد بقيت النفس، النفس طاهرة مقبلة مطهّرة معطرة مرتبطة بالكمال الإلهي، أحد المؤمنين له جاهلية وتاب، إذا تذكر جاهليته، وكيف كان، وفي أي مستوى كان، وفي أي منطق، وفي أية مخالفات، وفي أية معاصٍ يحترق، يحرقه كماله، هذا في الدنيا.

قالوا: لا بد للمؤمن من ذلَّة أو قلَّة أو علَّة، فما الذلة؟ هذه ذلة الجاهلية التي كانت قبل أن يتوب إلى الله عز وجل، لو أن الإنسان إذا تاب من معصيته، وشفيت

نفسه منها، ثم تذكرها فإنها تحرقه أسفاً لتفريطه في الدنيا، فمن رحمة الله بالمؤمنين أنه في الجنة يستر الله عنه ذنوبه كلها، أبداً لا يرى شيئاً، ربّنا عز وجل في سورة غافر قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:٣].

قال بعض المفسرين: «غافر الذنب إكراماً، وقابل التوب إنعاماً، وشديد العقاب بالكافرين، وذي الطول، أي: ذي العطاء الكبير للسابقين والمقربين».

في الآية تجد ثلاثة أسماء وصفات من أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى للمؤمنين واسماً واحد للكافرين، فربنا عز وجل غافر الذنب، وقابل التوب، ذي الطول شديد العقاب، فقال: غافر الذنب لمن ظلم نفسه، وقابل التوب للمقتصد، وذي الطول للسابق، فبعض المؤمنين مقصرون مخالفون، وبعضهم مستقيمون، وبعضهم متفوقون، فربنا عز وجل للمقصرين غافر الذنب، وللمقتصدين قابل التوب، وللسابقين ذي الطول، وللكافرين؛ شديد العقاب، لماذا كانت صفة واحدة من صفات الله عز وجل للكافرين لأن الكفر ملة واحدة فماذا بعد الحق إلا الضلال، الكفر واحد، أما الإيمان فمراتب.

بعضهم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يمحو هذه السيئة من دفتر أعمالك، وأما الغفور فيمسحها عند الملائكة، وأما الغفار فينسيك هذا الذنب، فإما أن تمحى من دفترك، وإما أن ينساها الملك، وإما أن تنساها أنت، هذا منتهى الكرم، أن تأتي يوم القيامة وليس لك جاهلية، وليس لك ذنب، كمال في كمال، لذلك تسعد في جنة الله التي عرضها السموات والأرض إلى أبد الآبدين.

إذا تاب الإنسان في سن مبكرة هذا رائع جداً، ولكن إذا عرف الله في سن متأخرة فلا مانع، فضل الله كبير.

والحكاية التي أرددها كثيراً ولا أنساها؛ أحد شيوخ الأزهر الكبار رأى خطيب مسجد شاباً فتمنى أن يكون مثله، والرجل عمره آن ذاك خمسة وخمسون عاماً، رجل من صعيد مصر أميّ لا يقرأ ولا يكتب، لكن لا تنسوا أن مراتب الله العليا لا لمن سبق،

ولكن لمن صدق، فساق دابته إلى القاهرة، وسأل عن الأزعر، وهو يقصد الأزهر، وكان المسؤول رجلاً صالحاً، قال له: يا أخي اسمه جامع الأزهر، وليس جامع الأزعر، فتح الله عليك فتوح العارفين، وهذه الحكاية سمعتها من أحد العلماء، ثم قرأتها في كتاب وهي ثابتة، وتكاد لا تصدق، هذا الإنسان الأمي الصعيدي الجاهل الذي تمنى على الله أن يكون عالماً وشيخاً جليلاً، وساق حماره إلى الأزعر!! وصوبه له ذاك البائع، توجه إلى هذا المسجد، وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وما زال يتقلب في مراتب العلم حتى عاش ستة وتسعين عاماً، ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر، ففي الخامسة والخمسين تاب هذا العبد إلى الله وهو في سن الشيخوخة، فإذا ناجى ربه كان يقول: يا رب لقد أبطات في المجيء إليك، تأخرت كثيراً...

وإذا تاب المرء، وذاق طعم التوبة يقول لك: قلبي يتلظى حرقة، كيف أمضيت هذا العمر في معصية الله عز وجل، بعد أن ذاق طعم الطهر، طعم القرب، طعم الإقبال على الله، طعم العمل الصالح، طعم العلم، طعم الشرف، يقول: يا ليتني عرفت الله قبل هذه السن، في المناجاة كان يقول: يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك، فوقع في قلبه أن يا عبدي لا تقل هكذا، إنما أبطأ في المجيء إليّ من مات ولم يتب، ما دام قد بقي يوم واحد فإنك تستطيع التوبة، ما دام القلب ينبض فالأمل كبير، كلما بكرت كان أفضل لكن إنما أبطأ في المجيء إليّ من مات ولم يتب.

نصيب المؤمن من اسم (الغفار)

وبعد، فنحن كوننا عبيداً ما علاقتنا بهذا الاسم؟ الله غفار؟ وأنت أيها الإنسان... ألا تنسى أخطاء الآخرين؟ ألا تغفرها؟

قال العلماء: حظ المؤمن من اسم الغفار أن يستر من غيره ما يستره الله منه، أدق حق يعنيك من اسم الغفار أن تستر من إخوانك المؤمنين وغير المؤمنين ما ستره الله منك.

أتى عمرَ رضي الله عنه رجلٌ فقال: إن ابنةً لي كنت وأدتها في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنى الإسلام فأسلمت ثم أصابها حدٌّ من حدود الله فأخذت

الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أدواجها فداويتها حتى برأت، ثم أقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذي كان؟ قال عمر رضي الله عنه: أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؛ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار، أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.

فأنت بوصفك مؤمناً لك أخ صديق زلّت قدمه، وقع في معصية، وعلمتها أنت فلا ينبغي أن تذكرها لأحد إذا كنت مؤمناً، وعرفت اسم الغفار، كما أن الله غفر لك وتاب عليك يجب أن تغفر لإخوانك، وأن تستر ذنوبهم، وما يعرفه كثير من المسلمين أن: «الذنب شؤم على غير صاحبه، إن عيره ابتلي به، وإن اغتابه إثم، وإن رضي به شاركه».

لك أخ وقع في ذنب إن تكلمت عن ذنبه فقد اغتبته، وإن عيرته ابتليت به، وإن رضيت منه هذا الذنب شاركته في الإثم، إذا بلغ أحدنا أن أخاه أكل مالاً حراماً فيكفي أن يقول: «جيد ما فعل، استطاع أن ييسر معيشته» فهو بهذه الكلمات يأثم معه، فثناؤه على معصيته، واستحسانه لعمله مشاركة في الإثم، واحتقاره بقوله: كيف فعل هذا؟ سوف يبتلى بهذا الذنب لأنه عيره به، وذكرُ معصيته للناس استغابة له، هذا كله على من لم يفعل الذنب فكيف بالذي فعل الذنب؟

فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب عظيم من الفضل، عوّد نفسك أن تكون إيجابياً، عوّد نفسك أن تذكر في الناس النواحي الإيجابية والمحاسن، في تعاملك مع الناس تغافل عن عيوبهم وأبرز محاسنهم، يحبوك، ومن الناس من يتغافل عن المحاسن كلها.وفي بعض الأدعية:

«اللهم! إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر».

من أقبح تصرفات الإنسان أن يستر الجميل، ويذكر القبيح، وأن يستر المحاسن، ويظهر القبائح، أما المؤمن فإنه يتغافل عن القبائح، ويبرز المحاسن، والعرب تقول: الشرف معوان.

لك ابن تعرفه صادقاً أثنِ على صدقه، من الآباء من يبحث عن الغلط في ابنه ويقول: أنت كذا وأنت كذا، دوماً يزرع اليأس في ابنه، ألا يحمل ابنك أية ميزة؟!

قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله! ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله. قلت: يا نبي الله! إن مع الإيمان عمل.

قال: يرضخ مما رزقه الله، قلت: يا رسول الله! أرأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ به؟ قال: يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر. قلت: يا رسول الله! أرأيت إن كان عييا لا يستطيع أن يأمر بمعروف و لا ينهى عن منكر؟ قال: يصنع لأخرق. قلت: أرأيت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئا؟ قال: يعين مغلوبا.

قلت: أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مظلوما؟! فقال: ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! تمسك الأذى عن الناس [الترمذي].

ليس من إنسان كلُّه مساوئ ولا ميزة له، عندك موظف مقصر لكنه أمين، قل له: أنا مسرور من أمانتك، شخص دخل على النبي ﷺ، دخل المسجد ليلحق ركعة مع رسول الله فركض، وأحدث ضجة وجلبة وصخباً وضجيجاً، وشوش على الصحابة صلاتهم فالنبيُّ الكريم ﷺ ماذا فعل؟:

عَن أبي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهى إلى النبيِّ ﷺ وهُوَ راكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى الصَّفِّ ثم مشى إلى الصف، فَذَكَرَ ذلِكَ للنبيِّ ﷺ فقال: «زَادَكَ اللهُ حِرْصاً ولا تَعُدْ» [صحيح البخاري].

كان أحد أمراء الأندلس شاعراً، قال ذات مرة، وهو في حديقة قصره: «نثر الريح على الماء زرد» ولم يتمكن من إكمال البيت، وكانت وراءه جارية قالت له: «يا له درعاً منيعاً لو جمد» أعجب بذكائها وشاعريتها فتزوجها، ثم أصبح هذا الإنسان ملكاً من ملوك الأندلس، وهو ابن عباد، وعاش معها حياة ناعمة، اشتهت مرة حياة الفقر

فأرادت أن تسير في الطين فجاء بالمسك والكافور، فجبلهما بماء الورد وقال: هذا طين امشِ عليه، وحدث خلاف ذات يوم بينهما، فماذا كانت النتيجة قالت هذه الجارية التي أصبحت ملكة وأكرمها إكراماً ما بعده إكرام قالت له: ما رأيت منك خيراً قط، فأجابها: ولا يوم الطين؟! ثم جاء ابن تاشفين من إفريقيا وحارب ملوك الطوائف وقضى عليهم، وأودعهم في السجن، وساءت حاله، وله قصيدة تبكّي كلَّ إنسان.

لك زوجة صالحة، لا تكثر من ملامتها، عندك ابن لا تكثر من ملامته وذمه، ألا يحمل أية ميزة؟ لقد حطمته، هذه الزوجة ألا تحمل أية ميزة أليست شريفة؟ إذا ذهبت إلى عملك ألست مطمئناً لعفتها وشرفها، فالإنسان المؤمن لا يغفل عن ميزات الناس، النبي الكريم رأى صهره أبا العاص بن الربيع مع الأسرى، أتى ليقاتل رسول الله يوم بدر، فهو صهره، زوج ابنته زينب، لم ينسَ أنه صهر ممتاز فقال: «ما ذممنا صهر أبي العاص» [أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى].

أرقى شيء في صفات الإنسان أن يكون منصفاً، حولك زوجة، أولاد، إخوان، أصحاب، وجيران، وأتباع، وموظفون، أنت تعلم ميزاتهم صراحةً، وتعرفها حق المعرفة اذكرها لهم من حين لآخر، يحبوك جميعاً، عندئذٍ يتقبلون منك أية ملاحظة وأي نقد، وقد قال ﷺ لأبي بكرة: «زادك الله حرصاً ولا تعد».

أنت كونك مؤمناً يجب أن تظهر الجميل، وأن تستر القبيح، أما تصيّد الأخطاء وتصيُّد العيوب فليس هذا من أخلاق المؤمنين، بل هذا من أخلاق أهل الدنيا.

يروى أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مرّ بجيفة كلب ولا أعتقد أن في الأرض أبشع لا في المنظر ولا في الرائحة من الجيفة، فقال الحواريون: ما أنتن ريحها! فقال عليه السلام: بل قولوا: ما أشد بياض أسنانها! ألم أقل لكم أحسنوا المحضر! لعل مغزى هذا الخبر: لن تكون أباً ناجحاً، ولا معلماً ناجحاً، ولا داعياً ناجحاً، ولا تاجراً ناجحاً، ولا مدير معمل ناجحاً، ولا مدير مستشفى ناجحاً، إلا إذا عرفت ميزات الذين حولك، ذكرتها وقدرتها، وبعدئذ وجه لهم ما شئت من النصائح

فيقبلونها منك، أما إذا غفلت عن ميزاتهم، وتتبعت أخطاءهم فهذا مما يبعدهم عنك وينفرهم منك.

على كلٍّ هذا ما استطعت بيانه حول هذا الاسم من أسماء الله الحسنى، وأسأل الله التوفيق دائماً، وكما يعلم القارئ الكريم: لا يعرف الله إلا الله، وقد ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي وردت حول اسم الغفار، ويجب أن يدفعنا اسم الغفار جميعاً إلى طلب المغفرة من الله عزَّ وجل على الدوام.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا(١)، ولقد كان هذا الدعاء من أحب الأدعية إلى النبي ﷺ فلنكثر منه الحين بعد الحين.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أرأيتَ إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني [رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه].

الولي

هذا الاسم ورد مطلقاً معرفاً في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى:٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى:٢٨].

وقد ورد هذا الاسم مقيداً (أي مضافاً) في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥].

وورد في السنة الصحيحة، كما في البخاري من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا غير سِرّ: إِن آل أبي ليسوا بأوليائي، إِنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين ولكن لها رحم أَبُلُّها بِبلالها» [البخاري من حديث عمرو بن العاص].

أي أصِلُها بصلتها التي أُمرت بها، فالولاء شيء والواجب شيء آخر.

ولائي، محبتي، إخلاصي، تعاوني مع المؤمنين، يقول ﷺ: «لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِنا، ولا يأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيّ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري].

أنت لا ترتاح إلا مع المؤمن لأنه صادق، متواضع، منصِف، رحيم، متعاون، تتعامل مع المؤمن بالولاء، وتتعامل مع الآخر ولو كان قريباً بالواجب.

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥].

هناك واجبات، وهناك حقوق، يجب أن تصله، أن تحسن إليه، أن تقدّم له ما يحتاج لأنه أبوك، أمّا إذا كان الأب مؤمناً فيجتمع له الولاء والواجب، ينبغي أن يكون ولاؤك لله، ولرسوله، وللمؤمنين، وينبغي أن تؤدي واجبك لكل من يلوذ بك شئت أم أبيت.

«إِن آل أبي ليسوا بأوليائي، إِنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين ولكن لها رحم أَبُلُّهَا بِبِلالها» [البخاري من حديث عمرو بن العاص].

هذا الكلام مفاده: أن المؤمن يتمتع بما يسمى بالولاء والبراء، يوالي المؤمنين، يحمل همَّهم، ينصرهم، يتعاون معهم، يتألّم لألمهم، يسعد لسعادتهم، يفرح لنجزاتهم، يدافع عنهم، أما أقرباؤه فلهم حق عليه، يؤدي هذا الحق بالتمام والكمال، لكنّ قلبه مع المؤمن، هناك حالات كثيرة جداً، أن إنساناً تعرف إلى الله، واستقام على أمره، ومن حوله من أقربائه ليسوا كذلك، يؤدي لهم واجب القرابة لكنّ ولاءه للمؤمنين، هذا موقف متوازن، معتدل، هذا موقف تؤدَّى فيه الحقوق، أما قلبك فلا تملكه، قلبك مع المؤمنين، قلبك مع الصادقين، مع المتواضعين، مع المنصفين، مع المحبين لله ولرسوله.

من معاني اسم الله الولي

الوليّ في اللغة، صيغة مبالغة من اسم الفاعل الوالي، فعله ولي، يلي، ولاية.

والوليُّ هو الذي يلي غيره، بلا فاصل، يعني ليس بينهما أحد، إنسان جالس بمكان فمن جلس إلى جانبه تماماً فهو الوليّ الذي يليه، ويكون هذا التقارب في المكان، أو النسب.

ويطلق الوليّ على الوالد، والناصر والحاكم وأولي الأمر، والسيد.

أما الولاية فهي تولي الأمر كقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

من يتولى أمرك، من يدير شؤونك، من يرعاك، من ترجع إليه، من تستشيره، من تعتمد عليه، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذا صنعَ لأحدكم خادمُهُ طعاماً، ثم جاءه به وقد وليَ حرَّه ودخانه، فليُقعده معه فليأكل» .

لك خادم صنع لك طعاماً، فليأكل معك، من تواضع النبي ﷺ أنّه كان يأكل مع الخادم.

ابن القيم رحمه الله تعالى، يرى أنّ ولاية الله جلّ جلاله لخلقه ولايتان، ولاية عامة، وولاية خاصة، فالولاية العامة هي ولاية الله لشؤون عباده، وتكفله بأرزاقهم، وتدبيره أحوالهم.

بستان فيه شجر التفاح، الشجرة السابعة، الغصن الرابع، التفاحة الخامسة، هذه لفلان، قُسمت له، وفلان مخير، إمّا أن يشتريها بماله الحلال، وإما أن يأكلها ضيافة، وإما أن تقدّم له هدية، وإما أن يتسوّلها، وإما أن يسرقها، وهي له، لكن طريقة وصول رزق الإنسان باختياره.

أما هذا الشيء الذي أكله أو انتفع به فهو في الأصل له، إما أن يأكله حلالاً فيرقى أو أن يأكله حراماً فيسقط.

الولاية العامة تقتضي العناية، والتدبير، وتصريف الأمور، وتدبير المقادير، فالله من فوق عرشه قريب من عباده، هو معهم بعلمه، يرى ما يفعلون، يسمع شكواهم، يعلم أحوالهم، والآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

أما الولاية الخاصة: فهذه تعني المؤمنين، ولاية الله للمؤمنين ولاية حفظ، وفي الآية الكريمة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١].

أيها الأخ المؤمن، أيها المستقيم على أمر الله، يا من تخطب ودّ الله، يجب أن تؤمن يقيناً أنَّ الله لن يتخلّى عنك، ولك معاملة خاصة، يؤكد هذا آيات كثيرة: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

أتمنى أن يكون واضحاً لديكم أن وعد الله فوق كل ظرف، بأي بلد متقدم، متخلف، غني، فقير، في شدة عامة، في غلاء، في وضع صعب، إذا وعد الله المؤمن بحياة طيبة فلا بد من أن يصل إليها.

إذاً الله عز وجل يدبر حياة المؤمنين من ولايته الخاصة، المؤمن ينصره الله.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧].

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء:١٤١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى﴾ [النور:٥٥].

وعدك بالحفظ.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

وعدك بالتأييد، وعدك بالتوفيق.

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود:٨٨].

لا يتحقق شيء في الكون إلا بمشيئة الله، الولاية الخاصة ولاية نصر، وتأييد، وحفظ، وتمكين.

المعنى الأول للوليّ هو المُتَوَلِّي، والمتولي هو الذي يقوم بالأمر كوَلي اليتيم يرعاه بدراسته وصحته وجسمه وغذائه وطعامه وأخلاقه وعلمه، أيُّ خلل يسارع إلى معالجته، يعطيه ويحفظه ويوَلِّيه، الوليّ من الفعل تولى، وتولى الأمر: دَبَّرَهُ وأقام عليه، إذ يستحيل أن يكون الابن في دمشق مثلاً والأب في لندن ويربي الأب ابنَه تربيةً جيِّدة، فالقرب من لوازم الوليّ؟ أجل، القرب، ولا تستطيع المرأة أن تربي أولادها وهي غائبة عنهم، لا طعام ولا عناية ولا غسيل ولا نظافة ولا تربية ولا دراسة، فالوليّ هو المُرَبِّي

الذي يتولّى شؤون عبده كلَّها، حاله كحال الصحة، فإذا خالف الإنسان منهج صحته هناك أجهزة الإنذار، لا يموت مباشرة، فأجهزة الإنذار تنبهه، هذا أهمل أسنانه تأتيه آلام، فالآلام جرس إنذار مبكِّر، فربنا عز وجل تولى تربية أجسامنا؛ فهذا النسيج اللحمي يلتئم حسب الظاهر من تلقاء نفسه، لكن لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقه بطريقة يلتئم بها لما التأم، هل سمعت مرةً أن شخصاً كسرت سيارته والتأم الكسر وحده؟! هل يتم هذا في عالم السيارات؟ أما في عالم البشر فممكن، إذ وظيفة الطبيب العظمي أن يضع العظمة بجانب العظمة وانتهى دوره، ويتولى الله جل في علاه أن تلتئم العظمَتان، إذ الخلايا العظمية بعد اكتمال نمو الإنسان تنام وتدخل في سُبات: ثلاثين سنة، خمسين سنة، فإذا حصل كسر تستيقظ ويلتئم الكسر، فالله هو الوليّ، يتولى أمورك، يعتني بك ويربيك، ويلاحظ أحوالك: إقبالك وإدبارك وانحرافك واستقامتك وإخلاصك ورياءك؛ بل إن الإنسان يعالج في كل ثانية، لا يحدث شيء على وجه الأرض إلا بحكمة مطلقة وخير مطلق ومعالجة مطلقة، وهذا هو معنى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهو ولي كُلِّ خَلْقِه حتى الكافر، فالكافر يتولاه الله تعالى ولكن بطريقة أخرى.

الوليُّ هو المتولّي لأمور خلقه، القائم على تدبير ملكه، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٥].

مثل بسيط: كتلتان مغناطيسيتان، وضعناهما على مستوٍ، وجئنا بكرة فولاذية وضعنا هذه الكرة بينهما، في مكان لو أزحته واحد من مئة من المليمتر تنجذب هذه الكرة الحديدة إلى إحدى الكتلتين، أما في مكان وسط هندسي دقيق جداً تتوازن جاذبيات كلّ كتلة فتبقى في مكانها، هذه حالة، الكتلتان متساويتان في الحجم، لو كتلة أكبر وكتلة أصغر الحساب صار أدق، يجب أن تكون في مكان بين الكتلتين لكن ليس في المنتصف، في مكان يتناسب مع جذب الكتلة الأكبر، وجذب الكتلة الأصغر، لو كانت

ثلاث كتل، لكان الأمر أصعب، لو أنّها خمس كتل متفاوتة في الحجم، وأنت يجب أن تضع كرة حديدية بين هذه الكتل فالحسابات لا تنتهي، وقد يكون شيئاً مستحيلاً، وإن كانت هذه الكتل في الفراغ شيء أعلى، شيء أدنى، شيء أقرب، شيء أبعد، شيء أكبر، شيء أصغر، هذا يسميه العلماء التوازن الحركيّ.

هكذا الكون، مجرات، وكواكب، ونجوم، وكبير، وصغير، وكثيف، وغير كثيف، والمحصلة توازن حركي، هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

المعنى الثاني لكلمة ولي: الناصر، قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [التوبة:٧١].

ينصر بعضهم بعضاً، وقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت:٣١].

أي: ننصركم على عدوكم في الدنيا والآخرة، وأولياء السلطان: أنصاره، فالمعنى الأول: الوليّ هو المربي الذي يتولى أمر عباده جميعاً، والمعنى الثاني الوليّ: الناصر.

قال بعضهم: الوليّ من نصر أولياءه وقهر أعداءه، والوليّ بحُسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور، والأمور تدور، وحياتنا لا تستقر إلا بنصر المؤمن وقهر الكافر، فالعبرة بالاستقرار، المؤمن يُبتلى لكن لا تستقر حياته إلا بإكرام الله له، والكافر تجده مشتتاً ولا تستقر حياته إلا على الهلاك، إذا أردت الجواب الدقيق فراقب شيخوخة مؤمن وشيخوخة كافر، المؤمن كلما تقدمت سنه ازداد عقلاً وعلماً ونوراً ومكانة بين أولاده وإخوانه وجيرانه ومجتمعه، جالسه وانظر إلى وجهه، فلعل مجالسة العلماء قربة إلى الله، انظر طيبَ سريرته، وانظر إلى علاقاته الطيبة، تراه عفُوّاً سمحاً كريماً متواضعاً، ثم انظر إلى إنسان أمضى عمره في الشهوات، انظر إلى شيخوخته، وإذا بلغ أرذل العمر.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل:٧٠].

لذلك لا يُعتَمد على فترة الشباب لأن المعوّل عليه خريف العمر، هناك رجل صالح ذهب إلى المدينة المنورة ليجاور النبي ﷺ، قيل: رأى النبي ﷺ في منامه يقول له: عملك في بلدك خير من مجاورتي، إذا جاورتني تسعدُ ولا ترقى وتوقف عملك، في الحج نسعد جداً عند رسول الله ﷺ، أما في بلدنا فنعمل الصالحات فنرقى، هناك نأكل وننام ونزور ونبكي، ونعود إلى بلدنا، لكن في بلدنا نعين على الإنفاق، فهناك أماكن يسعد بها الإنسان ولا يرقى، وأماكن يرقى ويسعد فعاد إلى الشام وأسس مدرسة دينية وهي موجودة حتى الآن، وعلَّم فيها ثمانين عاماً حتى كان يقول لبعض تلاميذه: يا بني كان أبوك تلميذي، كان جدّك تلميذي، وعاش ستّة وتسعين عاماً بقامة منتَصبة، وبصرٍ حاد، وسمع مرهف، وأسنان منتظمة، ونشاط في الجسد، وقوّة في الروح، وكل من سأله: ما هذه الصحة يا شيخ؟ يقول: يا بني هذه جوارح حفظناها عن معاصي الله في الصِّغر، فحفظها الله علينا في الكبر! لا أظن أن إنساناً غضّ بصره عن محارم الله إلا حفظ الله له عينيه، وما أصغى بأذنيه لكلام الله ولكلام النبي العدنان ﷺ إلا حفظ الله له سمعه، وآخَرُ سار إلى المساجد يحفظ الله له رجليه، وذاك أنفق بيده اليمنى صان الله يديه، واعلم أنه ما من عثرة ولا اختلاج عِرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر، فالوليّ بحُسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور، وهناك إنسان يموت وهو غارق في الشهوات والزنى والانحراف، فإذا أمضى حياته في المعاصي يكون هيِّناً على الناس.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان:٢٩].

أمّا المؤمن فهو غالٍ على الله عز وجل وعلى الناس، وفي الحديث الشريف: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». مرةً كنت متجهاً إلى سوق الحميدية وجدت

شخصاً ميتاً، غِبْتُ ست ساعات ورجعت ولم يأتِ قاضي التحقيق بعد. ومرة كنت في تعزية وجلس أمامي عالِمٍ جليل سألته عن صحته وحاله ثم قام من التعزية وخرج فشاهده شخص لا يعرفه -واحتراماً لهذا العالِمِ- أوصله بالسيارة إلى بيته، وبيته في الطابق الرابع وبعدها صعد ودخل بيته وغيَّر ثوبه، وأسلم روحه إلى ربه، فلو أراد أن يستأجر مركبة لما وصل، فسبحان الله ذاك مات في الطريق وهذا مات بفراشه، وتجد من يموت بالمرحاض، قال ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» [الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة]، ألا تريد شيخوخة منوَّرة؟ وشيخوخة فيها وقار، خالية من خرف فكن ولي الله، أسمعُ قِصصاً عن المتقدِّمين في السن، زوجته تعيِّره وأولاده يقولون له إذا تكلم: اصمت! لقد سمعنا هذه القصة منك آلاف المرات، ويصبح عبئاً عليهم، فهذا لم يحفظ نفسه وجوارحه في الصِّغَر، لذا فاحْفظها في الصَّغَر يحفظْها الله عليك في الكِبَر، فمن عاش تقياً عاش قوياً. زرت عالِماً عمره خمس وثمانون سنة ما يزال قوياً، يذهب إلى عمله كل يوم، وله عمل رسمي فهنأته على نشاطه وسلامة جسمه، وهناك بعض العلماء في مصر عاش مئة ونيّفاً ويتمتَّع بأعلى درجات الصحة، فالقاعدة: الأتقى هو الأقوى، والعاقبة للمتقين، والقضية واضحة تماماً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، حدثني طبيب أنَّ مريضاً أصيب بضيق في الشرايين والحلُّ هو أن يُكثر الناس الكلام معه كي يفكر فإذا فكر توسعت الشرايين وتغذى الدِّماغ، أما قارئ القرآن والمصلي فيحدث معهما نشاط ذهني من هذه الصلاة فقلما تجد إنساناً مصلياً ومن المكثرين لقراءة القرآن يصل إلى درجة الخرف.

والمعنى الثالث: المُحِبُّ، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

أي: يحبهم، إذاً هو يرعاكم وينصركم ويحبكم، لكن لو فتحنا كتب اللغة على معنى الوليّ لوَجدنا أن الوليّ يُطلق على المُعْتِق والمُعْتَق، أي: على السيِّد والعبْد في وقت واحد، وعلى الناصِر وعلى الجار، وعلى ابن العم وعلى الحليف وعلى القيِّم بالأمر، فهذه

المعاني المتباعدة المختلفة أليس لها خيط يضمها جميعاً؟ قالوا المعنى الذي يجمعها جميعاً؛ الوليّ: القريب، والدليل حينما قال الله عز وجل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة:٣٤].

ومعنى أولى لك فأولى، أي: اقترب منك ما أنذرك الله به، أو قاربك ما يهلكك ويكاد أن يتحقق، أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

فكل معاني الولاية تصل فيما بينها أواصر معنى واحد يجمعها، وهو أن الله جل في عُلاه مع عباده والدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤].

هذه المعية العامة وقوله تعالى: ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

هذه المعية الخاصة، موضوع القرب يحتاج إلى تفصيل.

إذا أمسك أحدهم مذياعاً موصولاً بمأخذ كهربائي، وضمه إلى صدره، وجعله بين جوانحه، واشتد عليه، أيهما أقرب إلى المذياع الشخص الذي ضمه بين جوانحه، أم الكهرباء التي يعمل بها؟ لا شك أن الكهرباء التي تغذيه هي الأقرب ولذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ فمهما شعرت أنَّ زوجتك أو ابنك، أو جارك أو شريكك قريب، فالله عز وجل أقرب إليك من نفسك.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فالمراقبة أساسها الشعور أن الله معك، أحياناً في الصيف يرتدي الإنسان قميصاً داخلياً، فإذا طُرق بابه، فأول شيء يفعله أن يرتدي عباءته لأنه يستحي أن يظهر أمام الضيف بقميص داخلي. من أرقى

أحوال المؤمن حال المراقبة، فيوقن أن الله معه في خلوته وجلوته وفي سفره وحضره، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا هو حال المؤمن مع الله، هو حال الإحساس أنَّ الله معه يستحي من الله عز وجل، أخرج عبد الرزاق في «مصنفه» عن ابن جريج قال: بلغني أن النبي ﷺ خرج فإذا هو بأجير له يغتسل في البَراز -أي في الفضاء الخالي من الشجر ونحوه- فقال له النبي ﷺ: «لا أراك تستحيي مِن ربك، خذْ أجارَتَكَ لا حاجةَ لنا بك».

بلغني أنه في بعض الدول التي تؤمن أنه (لا إله) والتي أزالها الله، أن طالباً جامعياً ذهب ليدرس في جامعتها فوجد مراحيضها بلا حواجز، فمئة طالب يدخلون إلى هذا البهو الكبير، يقضون حوائجهم بعضهم أمام بعض، والحمامات كذلك كلُّهم لا يستحيون من الله، فالإنسان يظهر حياؤه في ستر عورته، ويحرص على أن يظهر أمام الناس بأجمل مظهر، أما هذا الذي لا يبالي ولا يرعوي فهو إنسان لا يستحي من الله، قال له: «لا أراك تستحيي من ربك خذ أجارتك لا حاجة لنا بك»، فالله قريب وهو الوليّ الحميد، تُوكل تربية ابنك إلى معلم يكون قاسياً، يضربه ضرباً مبرِّحاً أو بالعكس يهمله، قد يكون هناك معلم يدخل إلى الصف يُلقي درساً ولا يعطي وظيفة، فالطالب طيلة السنة مستمع، والمعلم ألقى الدروس، والطلاب في وادٍ وهو في وادٍ، ما أمسك بيده قلماً ولا شرح بيتاً شعرياً مثلاً، فهذا الطفل لا تنمو قدراته العلمية، إذ نمو العلم بالممارسة، فهذا ولي غير حميد.

إضاءات على بعض الآيات التي ورد فيها اسم (الولي)

الله سبحانه وتعالى وليّ الذين آمنوا، والحياة كما ترون محفوفة بالمخاطر، يمكن أن تنقلب حياة الإنسان إلى كتلة من الشقاء لأتفه الأسباب، فمن هي الجهة التي تحمي المؤمن وتحفظه وتربيه وترشده وترعاه وتؤيده وتنصره وتدافع عنه وتوقظه وتلفت نظره؟ الله هو الوليّ، هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في آيات كثيرة، أول هذه الآيات

وأوضحها: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يعني أن صاحب الأسماء الحسنى هو خالق الكون الربُّ المسيِّر العليم الحكيم الرحيم الغني القوي، هذه الذات الكاملة، هذه الذات التي لا حدود لقدرتها ولا لرحمتها ولا لقوتها ولا لغناها، الله هو ذاته على علوِّه وعظمته وجلاله، الله وليُّ الذين آمنوا، مثلاً يمكن أن يكون في قصر العدل آلاف المحامين إلا أنّ أربعة أو خمسة منهم في قِمّة هؤلاء، إذا سألت واحداً له قضية: مَن محاميك؟ يقول لك: فلان يذكر اسمه بملء فمه ويفتخر، المحامي الفلاني اللامع القدير المتمرّس الخبير القوي صاحب الحجة صاحب الاطلاع هو وكيلي، ألا تكفينا آية؟ ألا تكفينا هذه الآية أنك إذا آمنت وإذا استقمت كان خالق الكون وَلِيَّك، خالق السموات والأرض، هل لك خصوم؟ كلُّهم بيده، حركتهم وأفكارهم وخططهم وقوتهم وأسلحتهم، كلُّها بيد الله عز وجل، فإذا كنت مع الله عز وجل فمن يستطيع أن يقف في وجهك؟! من يستطيع أن يكيد لك؟ من يستطيع أن ينال منك؟ من يستطيع أن يقهرك؟ من يستطيع أن يحيف عليك؟ ألا تكفينا هذه الآية؟

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ما عليك إلا أن تؤمن، دعونا نقترب من طبيعة الحياة، هذا الذي له صلة بشخص قويٍّ يعتزّ به، ويثني عليه، ويحتمي به، ويهدّد به، ويستعلي به، ويتطاول به، يقول لك: معي رقم هاتفه، وهو الذي قال لي: خبِّرني عند كل بادرة، والله عز وجل الذي رفع

السموات بغير عمدٍ يقول لك: إذا آمنت بي فأنا وَلِيُّك، وأنا أُدافع عنك، وأنا أنصرك، وأنا أحفظك وأُؤيِّدك، وأنا أحميك وأنت بعيني وأنت برعايتي.

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. الكفر ظلمات بعضها فوق بعض، متاهات تُرّهات أضاليل أكاذيب حقائق مزوَّرة، أفكار هدامة، تناقضات، تمزّقات، أفكار مهترئة لا تقف على قدميها، هذا هو الكفر أباطيل وظلمات، المعاصي ظلمة، الكفر ظلمة، الشرك ظلمة، فهذا مشرك عاصٍ ملحد فاسق منافق منحرف دجال أناني، قال تعالى: ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور:٤٠]، أمّا المؤمن فيخرجه الله من الظلمات إلى النّور، نور الحق، نور الهدى، نور المنهج، نور معرفة حقيقة الحياة، وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان وماذا قبل الدّنيا؟ وماذا في الدنيا؟ ماذا بعد الدنيا؟ هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

تشير إلى أنه لا بد لك من ولي، فإما أن يكون الله وليَّك، وإما أن يكون الشيطان وليَّك، إما أن تتحرك بإلهام الملائكة من الله، وإما أن تتحرك بوساوس الشياطين، فلا بد أن تكون عبداً، عبداً لله أو عبداً لعبدٍ لئيم، تجد الذين استنكفوا عن عبادة الله أذلهم الله أمام من هم أصغر منهم وحقرهم أمام الآخرين، فإما أن يكون الله وليك، أو لا بد أن يكون الشيطان وليَّك، فالشيطان يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا يعلمون، ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥] يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

سيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته؟ ألقَوْه في غيابة الجب، تآمروا على قتله، حسدوه، ضاقت نفوسهم به، ومع أن الله عز وجل مكَّنهم أن يضعوه في غيابة الجب، ومع أن الله عز وجل أقدرهم على أن يضعوه في قعر بئر، لكن انظروا إذا كان الله وليَّ

المؤمن كيف يكون المصير؟ صار عزيز مصر هذا الذي أُلقي في البئر ليموت يقيناً، كيف أنَّ الله ألهَم قافلة وأحوجها إلى الماء، وأرسلت واردها، فأدلى دلوه.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف:١٩].

قال: يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة، وباعوه في مصر، واشتراه العزيز وقال لامرأته: أكرمي مثواه. إذا تولى الله عز وجل أمرك، فوالله الذي لا إله إلا هو لا تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن ينالوا منك، وإذا تخلى الله عنك فإنّ الحياة تنقضي على أتفه سبب، يموت حَتْفَ أنْفِه، ماذا قال سيدنا يوسف حينما توجَّه إلى الله جل وعلا؟، قال: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، فيا أخي المؤمن ناج ربك، قل له: يا رب ليس لي رب إلا أنت، أنت وليّي، حسبي الله ونِعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، أليس لك مع الله ساعة مناجاة وابتهال وتضرع وخشوع وإقبال ودعاء؟ هكذا ناجِهِ وتوسل إليه، لا تعتمد على زوجتك ولا على ولدك ولا على أخيك ولا على صديقك ولا على صحتك ولا على مالك.

تجد طبيباً ذا اختصاص بجهاز الهضم من الطراز الأول مصاباً بقرحة؛ لأنه يتوهم أنه طبيب يعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، اعتمد على علمه ولم يعتمد على الله عز وجل، فأصيب في اختصاصه، وهذا من حكمة الله عز وجل.

أيها القراء الأكارم؛ أكاد أقول: هناك حالتان لا ثالث لهما: -وأنا والله أعني ما أقول- أنت بين حالتين: إما أن يتولّى الله أمرك، وإما أن يكلك إلى نفسك: يتولى الله أمرك إذا كنت عبداً له وافتقرت إليه وتوكلت عليه وأقبلت عليه، ويتخلّى عنك أو

يكِلك إلى نفسك إذ قلت: أنا. ولا أدلَّ على ذلك من قصتين شهيرتين عظيمتين قرآنيتين لمعركتين من معارك رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

أنت في عملك وفي بيتك وفي اختصاصك ومع زوجتك وجيرانك ومع دراستك وكسبك للمال، حينما تعتمد على الله يتولى الله أمرك، وحينما تعتمد على نفسك يكلك الله إليها، قال سيدنا يوسف: أنت وليي في الدنيا والآخرة، دعاء لطيف، والمؤمنون ماذا يقولون؟

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

الإيمان ليس كلاماً تسمعه ولا أفكاراً تتوهمها ولا طقوساً تؤديها، الإيمان اعتقاد يقيني واتصال بالله، وأن تكون حسن العلاقة مع الله عز وجل، تسأله وتناجيه تدعوه وتتوكل عليه ترجوه وتستغفره.

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

ما معنى كلمة الحق؟ أي: لا مولى بحق إلا الله، فالناس لضعف إيمانهم ولشركهم الخفي يعتقدون أنَّ زيداً أو عُبيداً قويٌّ ويدْعَمُهم ويأخذ بيَدهم ويحفظهم، هذا وليٌّ باطل، الوليّ الحقُّ هو الله جلَّ في علاه. أيُّ جهة دون الله إذا اتخذتها ولياً فأنت مبطِل، لأنّ الذي اتّخذته ولياً باطل، والباطل لا يقوم على قدميه، إنّه زائل ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ

ٱلْحَقِّ﴾ اسمعوا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

مثلهما مثل طفلين: أحدهما بلا أب ولا أم ولا مال ولا بيت، ينام في الطرقات والحدائق، قلبه ممتلئ خوفاً، وآخر له أب مقتدر وعالم وغني، وللطفل غرفة خاصة به، إذا مرض فإنّه يُؤخذ فوراً إلى الطبيب، ويقدَّم له أحسن دواء وأرقى مستشفى، إذا لم يحرز قصب السبق في الرياضيات يوفر له أساتذة يأتونه إلى البيت، هذا الطفل له أب وليٌّ يقوم عليه، والآخر دون أب ولا أم ولا جهة تحميه، حالته تعيسة جداً، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

ولله المثل الأعلى، فالكافر لا وليَّ له لأنه رفض أن يكون الله وليَّه وأدار ظهره للدين والقرآن، والحياة كلُّها مفاجآت؛ تجد إنساناً بأعلى مكان وأعلى مرتبة، وفجأةً يصبح أشلاء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

الله ولي الخلق جميعاً صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، ولايته للصالحين إكرامهم، وولايته للكافر تربيته وتأديبه، والدليل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧].

وفي آية أخرى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى:٩].

فالله هو الوليّ، وهذه تعني شيئاً في علم البلاغة، هذه تعني القصر، أي: لا وَلِيَّ إلا الله، فمن اتخذ غير الله ولياً بقي بلا ولي؛ لأن ما سوى الله لا يسمى ولياً.

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى:٢٨].

تحوي هذه الآية معنىً إضافياً، فأول آية ﴿ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ أي: لا ولي إلا الله، أما الآية الثانية فهي ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ تشير هذه الآية إلى أن ولاية الله مطلقة في كمالها، مثلاً قد تجد أماً مهملة وأباً مهملاً ومقصراً، أما الله عز وجل إذا تولى مؤمناً فولايته مطلقة في كمالها وصوابها.

ويقول جلّ جلاله: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية:١٩].

الولاية هنا مجازية لا بمعناها الحقيقي وإنما بمعناها المعاكس، أي: الظالمون يورِّط بعضهم بعضاً في التهلكة والهلاك، قال الله عز وجل: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ والمتقون هم الطائعون، فالله يتولى المتقي، والظالم يتولى الظالم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد:١١].

آية أخرى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٦].

إذا جاء التولي مع الصالحين كان ذلك تولياً بالإكرام، أما إذا لم يكن الإنسان صالحاً فإن الله يتولاه بالمعالجة.

آية أخرى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة:٥٦].

إذا نظرت في التاريخ طالعك: أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف؛ هؤلاء ما مصيرهم؟ قُتلوا في بدر ثم قذفوا في البئر، وخاطبهم النبي ﷺ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ ترك قَتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال:

«يا أبا جهل بن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَف، يا عُتبةَ بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وَعَدني ربي حقاً» فسمعَ عمر بن الخطاب قولَ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يَسمعوا؟ أو أنَّى يُجيبوا، وقد جَيَّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يَقدرونَ أن يُجيبوا»، ثم أُمر بهم فسُحبوا، فأُلقُوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

والنبي ﷺ وأصحابه الكرام رفعهم الله مكاناً علياً، انظر عبر التاريخ فكل الذين والوا الله ورسوله أكرمهم الله عز وجل ورفع قدرهم وحفظهم، والذين وَالوا الشيطان أُهلكوا ودُمِّروا وأصبحوا في مزبلة التاريخ، إذاً هي إحدى المنزلتين، إما في سجل الخالدين وإما في مزبلة التاريخ، الذي وقف مع الحق ونصر دين الله عز وجل نصره الله عز وجل: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالله يعطيك في هذه الدنيا بعض النفحات وبعض التجليات وبعض المؤانسات، والرصيد يوم القيامة.

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

لكن لهم البشرى في الحياة الدنيا، والدليل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

فالأولى في الدنيا، إذاً ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٤].

الآية الأخيرة: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فبفضل تولية الله للمؤمنين صاروا أولياء متحابين بعدما كانوا أعداء متباغضين.

وكذلك قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء:٤٥].

فالله عز وجل إذا تولى أمر قوم كفاهم، ولقد تقوم ذات يوم بزيارة طبيب ثم تقول: والله ما استفدت شيئاً، أريد طبيباً آخر، أو توكل محامياً فلا يعجبك فتريد آخر، لكن إذا تولاك الله تعالى فهو الذي يطمئنُك.

نصيب المؤمن من اسم الله (الولي)

حظُّ المؤمن من هذا الاسم أن يكون وليّاً لله عز وجل، وتعريف الوليّ هو: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فإذا كنت تحبّ أن يكون الله وليَّك؟ فكن وليّه بالإيمان به والاستقامة على أمره، وعندها يصبح خالق الكون وليَّك.

تشعر أن الله هو الذي ساق لك هذا وصرف عنك هذا، وفرّج عنك وضيَّق عليك... فأنت مؤمن لشعورك أن الله هو مربيك، لا لأنَّ الإيمان منطقي فحسب. كما يحلو لبعضهم أن يدَّعي، حدثني أخ أنه ذهب متنزهاً يومَ جمعةٍ، ومن عادته حضور درسِ عِلْمٍ في هذا اليوم، ففقد في رحلته هذه وثائق سيارته ومبلغاً من المال، لقد ربّاه الله ولقّنه درساً، والنبي ﷺ يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ» [متفق عليه من حديث عائشة]، أفضل خروج تخرجه من بيتك هو أن تتجه إلى مجلس علم، إذا خرجت من بيتك متجهاً إلى مجلس علم، أتُحِبّ أن يكون الله وليَّك؟ إن كان كذلك وضعت الملائكة لك أجنحتها رضاً بما تصنع، وهذا ملخَّص مفيد إن شاء الله تعالى.

الحياة ممتلئة بالمخاطر ومخيفة، وفيها منزلَقات؛ زرتُ صديقاً لي في بيته وهو في أوج صحته وفي أعلى درجات الترف، بعد يومين شعر بضيق التنفس فإذا به يعاني من مرض خطير، فالإنسان بلحظة تصبح حياته جحيماً، إذا كنت صالحاً وألمَّ بك مرض فقل الحمد لله، لكن المصيبة أن تكون غارقاً في المعاصي والشهوات، وحقوق العباد متعلقة برقبتك ويداهمك المرض العضال، فهذه الصحابية الجليلة وهي امرأة من بني دينار أصيب أبوها وزوجها وأخوها بمعركة أُحد، وهي تقول: ما فعل رسول الله! أرونيه حتى أنظر إليه! حتى رأته بأم عينيها فقالت: يا رسول الله! كل مصيبة بعدك جَلَلٌ [ابن هشام بسند حسن إلى سعد بن أبي وقاص].

فإذا كنت مستقيماً على شرع الله، دَخْلُك حلال، وتغضُّ بصرك، وتخشع في صلاتك، وتتلو كتاب ربك، ولك مجلس علم، فكل مصيبة بعد هذا تهون، لي قاعدة ألتزمها في حياتي خلاصتها أنني لا أيأس: فإذا وقعت مشكلة أقول: هذه لا تتعدى اليومين إن شاء الله، وهذه لا تتعدى ساعة، فكل حال يزول مع الزمن، فكلُّ مصائب الناس تجد أولها صعباً وآخرها سهلاً، مات شخص تحزن عليه وبعد شهرين تنساه، أُذكِّر القارئ الكريم: إذا كنت مع الله كان الله معك.

وإذا أردت أن يكون الله وليَّك يجب أن تكون وليَّه، وكي تكون ولياً لله فالقضية سهلة جداً؛ إذ يكفي أن تكون مؤمناً به ومستقيماً على صراطه.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

تواجه الشاب عدّة عقبات فيما يخص مستقبله، هل هو مشرق أو عابس مكفهرّ؟ هل زواجه ناجح؟ هل ذريته صالحة؟ إذا كان هذا الشاب مؤمناً بالله فإنه يقول: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

كلمة هو مولانا لها معنى عميق، أي: لن يصيبنا إلا الخير، فما دام الله هو مولانا فلن يصيبنا إلا الخير.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

أهمُّ شيء في بحثنا هذا أن تكون ولياً لله، حتى تستحق أن يكون اللهُ وليَّك، والحياة مزرعة الآخرة، بها ترقى، وليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، فهذا الذي ينسحب من الحياة دراسة وعملاً، وهو عبء على الآخرين فهو ليس كاملاً في إيمانه، ولا من ترك آخرته لدنياه، أهمل الآخرة وغاص في الدنيا ثم فوجئ بالموت ولكن من أخذ من كليهما فإن الأولى مطية للثانية.

الرزّاق

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

وفي الحديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ» [الترمذي].

من معاني اسم الله الرزاق

الرزّاق صيغة مبالغة، وإذا جاء اسم الله عز وجل بصيغة المبالغة فمعنى ذلك أنه يرزق العباد جميعاً مهما كثر عددهم، ويرزق الواحد منهم رزقاً وفيراً إذا شاء وبلا حدود، إما على مستوى مجموع المرزوقين، وإما على مستوى كميّة الرزق، وإذا أعطى أدهش.

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٠].

ومن دعاء سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، اللهم يا رازق البُغاث ارزقنا، (للبغاث حكاية)، ولا بأس من التعريف بها للقارئ الكريم: البغاث من فراخ الغراب، أضعف أنواع الطير، والمثل العربي الشهير: «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، لشدة ضعفنا فإن البغاث وهو أضعف الطيور غدا حيالنا كالنسر(١).

البغاث فرخ من فراخ الغراب فإذا انفقأت البيضة عنه خرج البغاث أبيض كالشحمة، يعني قطعاً من الشحم، فإذا رآه الغراب أنكره لبياضه، لأن الغراب أسود اللون، فيسوق الله تعالى له بعض الحشرات يتغذّى عليها إلى أن ينبت ريشه ويسودّ لونه عندئذ يتعرف عليه الغراب.

فمن أغرب هذه القصص أن فراخ الغراب وهي البغاث عبارة عن شحمة بيضاء لا تقوى على شيء، والله سبحانه وتعالى يسوق لها الرزق، إذاً ورد في بعض الأدعية: يا رازق البغاث في عشه ارزقنا.

والحقيقة أن من الخطأ والسذاجة أن تحصر الرزق في الطعام والشراب، قال سبحانه: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٧].

فقال العلماء: «رزق الأبدان بالأطعمة ورزق الأرواح بالمعرفة»، والمعرفة أشرف الرزقَين، فإذا خصك الله بدخل وفير أكلت به أطيب الطعام، وخصَّ عبداً آخر برزق المعرفة، فاعلم علم اليقين أن العبد الآخر أكثر حظوةً عند الله منك، لأنه منحه رزق النفوس، رزق الأرواح وهي المعارف، قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص:١٤].

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميداني، ١/ ١٢.

هذا هو الرزق... وقد ورد في بعض الأحاديث: «أبيت يطعمني ربي ويسقيني» [متفق عليه من حديث أبي هريرة] وكأن النبي ﷺ استعمل كلمة الطعام والشراب للرزق الروحي وهو أشرف أنواع الأرزاق.

أخي القارئ الكريم، هذه بشارة: من أسباب سَعة الرزق الصلاة.. ما الدليل؟ قال الله عز وجل: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه:١٣٢].

استنباط من الآية لطيف جداً، فإذا أردت أن يزداد رزقك لن أقول لك: صلِّ، فأنت مصلٍّ، إنما أقول لك: أتقن صلواتك، فالخشوع من فرائض الصلاة لا من فضائلها، وربنا عز وجل حينما أثنى على المؤمنين، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

ومن آداب العبودية أن يرجع العبد إلى ربه في كل ما يريد، في الأشياء النفيسة وفي الأشياء الخسيسة، هذا من آداب العبد مع الله عز وجل، أن يرجع إليه في كل شيء خسيساً كان أو نفيساً، أي: إن الله يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة... إذا أضعت مكان موعد اللقاء مثلاً فاستفد من الواقعة التالية:

ذكر لي أحد الإخوة أنه توجه إلى المدينة المنورة للزيارة، ونسي العنوان الذي سوف يتوجه إليه، فدعا الله في الطريق فساقه إلى البيت بشكل يسير، بينما إنسان آخر بقي عشر ساعات ضائعاً عن مكان البيت.

إذاً اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة، وهذا من تمام العبودية لله عز وجل.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع» [رواه الترمذي].

الدليل... سيدنا موسى عليه السلام ماذا سأل الله؟ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهذا من الأسئلة النفيسة من أرقى الأسئلة، ولما جاع قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص:٢٤]، وهذا دليل على أن العبد يجب أن يسأل ربه كلَّ شيء.

سيدنا علي رضي الله عنه يقول: «لستَ مطالباً بطلب الرزق ولكنك أُمرت بطلب الجنة» فما الذي فعلته؟ تركت ما أمرت بطلبه وطلبت ما أُمرت بتركه، وهذا انحراف من الإنسان لقلة ثقته بربه، والله سبحانه وتعالى ضمن لهم الرزق بأدلةٍ كثيرة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم:٤٠].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام:١٥١].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء:٣١].

أدلة كثيرة... قال الله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات:٢١-٢٣].

إذاً ربنا سبحانه وتعالى طمأننا بأنه تكفّل لنا رزقنا، ومع ذلك يجهد الناس ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل من أجل الرزق، تكّفل لنا بالرزق، وأمرنا أن نسعى للدار الآخرة، فقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم:٣٩].

ما الذي يحصل، إنَّ الذي كُلِّفت في طلبه، توانيت في طلبه، والذي ضمنه لك سعيت إليه.

إذاً أقبلوا على ما كُلِّفتم ودعوا ما ضُمِن لكم، قال سالم بن أبي الجعد حدثت أن عيسى عليه السلام كان يقول: اعملوا لله، ولا تعلموا لبطونكم، وإياكم وفضول الدنيا! فإن فضول الدنيا عند الله رجز، هذا طير السماء يغدو ويروح ليس معه من أرزاقه شيء، لا يحرث ولا يحصد ويرزقه الله، فإن قلتم: إن بطوننا أعظم من بطون الطير، فهذه الوحوش من البقر والحمير تغدو وليس معها من أرزاقها شيء لا تحرث ولا تحصد يرزقها الله [أخرجه ابن أبي الدنيا].

إنسان توفي أخوه وترك له خمسة أولاد ليس لهم مورد رزق، فصار يبكي، ثم التقى بشيخه فقال له: ما بالك يا ولدي قال: توفي أخي وترك لي خمسة أيتام، قال: ألم يترك لهم شيئاً؟ قال: بلى شيئاً يكفيهم سنة، قال: جيد، حينما تنتهي هذه المؤونة ابدأ بالبكاء، فيروى أن هذا الرجل توفي قبل أن ينتهي الرزق بثلاثة أشهر.

أعرِفُ شخصاً سيُهدم منزله، لسبب تنظيمي، فضج وزمجر وأرعد، وتمزق وبكى واستعطف، وقد وُعِدَ وَعْداً قطعياً بتأمين بيتٍ لائق به، رغم كل الوعود والمواثيق بقي مضطرباً وضَجِراً ومات بعد أشهر عدة قبل أن يُهدم بيته.

الإنسان لا ينبغي له أن يهتم للشيء أكثر مما ينبغي، فالله الرزّاق موجود.

قال بعض العلماء: «الرزّاق من غذّى نفوس الأبدان بتوفيقه، وحلّى قلوب الأخيار بتصديقه»، دائماً الرزق رزقان: رزق الأبدان، ورزق النفوس، فإذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت.

وبعض العلماء فسر القوت برزق الأرواح، يعني إذا صليت صلاةً وأعجبتك، إذا صليت وبكيت، إذا قرأت القرآن وخشع قلبك تطمئن، فالمعنى أنك قريب من الله عز وجل، وأن هناك حياة ونبضاً، وأن هناك شيئاً من الإخلاص فيك ولذلك خشعت، إذاً إذا أحرزتِ النفس قوتها اطمأنت، بالمعنيين الأول والثاني.

قال بعض العلماء: «الرزاق من خص الأغنياء بوجود الرزق»، ترى بين يدي الغنيِّ المالَ الكثير، يأكل ما يشتهي، يشتري أجمل بيت، يقتني أجمل أثاث، يذهب إلى أي مكان يشاء، يختار أجمل مركبة، يختار أجمل الثياب، يختار أجمل الأماكن، قال: «الرزاق هو الذي خص الأغنياء بوجود الرزق، وخص الفقراء المؤمنين بشهود الرزّاق».

أعطاك طعاماً وأعطى الغني طعاماً وشراباً وبيتاً ودخلاً ومركبة وأعطى الفقير المؤمن شهود الرزّاق، إما أن تجد الأرزاق، وإما أن تشهد الرزاق، المجموع ثابت، هناك نظرية رائعة جداً، معناها لو جمعت كل شيء أعطاك الله إياه وجمع الآخَرُ كل شيء أعطاه الله إياه لكان مجموع الاثنين واحداً، فإذا أخذ منك بعض البحبوحة عوضك عنها ببعض التجلي، وإذا أغرقك في النعيم المادي حرمك من نعيم القرب.

فهناك توازن يعبّر العلماء عنه؛ بأن المجموع واحد ثابت، وهناك نظرية أخرى ليست في المعنويات بل في الماديات، فلو أعطى الإنسان علامة للزوجة، وللبيت علامة، وللدخل علامة، ولوظيفته علامة، ولصحته علامة، ولوسامته علامة، تجد أن معظم الناس ينالون مجموع علامات واحداً، لكن متفاوتة فيما بينها، مثلاً ثماني علامات على الزوجة، اثنتان على الأولاد، خمس على الرزق فالمجموع خمس عشرة، اثنتان على الزوجة ثمانٍ على الأولاد خمس على الرزق المجموع خمس عشرة، عشر على الرزق ثلاث على الزوجة اثنتان على الأولاد المجموع خمس عشرة، فلو أمعنت النّظر فإنك ترى من له دخل أقل من حاجته منعماً براحة البال التي لا يحلم بها من آتاه الله رزقاً وفيراً، «من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديته هلك» [ابن ماجه بسند حسن عن الأسود بن يزيد] وروي عنه ﷺ: «من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر» [رواه الديلمي في الفردوس من حديث أنس].

وهذا شيء آخر عن الرزق، فالرزق عزيزي القارئ هو ما يُنتَفع به: المال ينتفع به، العلم ينتفع به، الخلق ينتفع به، شعور القلب بالطمأنينة ينتفع به.

جاء رجل إلى حاتم الأصم، فقال: من أين تأكل؟ فقال: من خزائنه، فقال الرجل: أيلقي الله عليك الخبز من السماء، فما هذا الكلام؟ قال: لو لم تكن الأرض له لألقى علي من السماء الخبز، يرزقني من الأرض، هكذا تجد أن الإنسان حينما يطلب الرزق من الله عز وجل فيسوق الله له الرزق، فقد يلتقي أحدهم مصادفة بإنسان عاطل عن العمل فيسأله: أتعمل؟ يقول: لا، يقول له: هناك عمل في مكان كذا، وعند فلان، فاذهب إليه.

الموضوع طويل وله آلاف الشواهد، قد ترزق من حيث لا تحتسب، قد ترزق بسبب تافه جداً، قد ترزق بنظرة، قد ترزق برسالة جاءتك خطأً، قد ترزق ببضاعة كاسدة.

الشيء الذي يلفت النظر حقاً: أنك إذا علمت أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين أفردته بالقصد، الناس أحياناً يتجهون إلى زيد، إلى عُبيد، إلى فلان، إلى هذه الجهة يطمعون ليأخذوا، ولكن إذا علمت أن الله وحده هو الرزاق فإنك تفرده بالقصد ولا تسأل أحداً سواه، تكسب العزة والكرامة والطمأنينة والحظوة عند الله عز وجل بتفويضك الأمر إليه، وصدق التوجه والتوكل عليه.

قيل لإنسان آخر: من أين تأكل؟ قال: من خزائن مَلِكٍ لا تدخلها اللصوص، ولا يأكلها السوس، خزائن الله عز وجل مفتوحة، وخزائنه مملوءة، وخزائنه فيها كلُّ شي، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١].

من أسخف النظريات أن يقول كثير من علماء الغرب الماديين وغيرهم: إن موارد الأرض تشحّ شيئاً فشيئاً، وإن الأرض مهددة بمجاعة، إن ازدياد السكان ازدياد هندسي، «مالتوس» يقول: الانفجار السكاني سيوقع الناس بمجاعة كبيرة، هذه كلها كلمات من لا يعرف الله عز وجل، لأن كل تقتير أو تقليل في الرزق هو تقليل من نوع التأديب لا من نوع العجز، والإنسان وحده إذا قتّر فعن عجز فيما بين يديه، أمّا الإله إذا قلل فلغاية التأديب فقط.

همَّ رجلٌ من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ قالت: زوجي عرفته أكّالاً وما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق، يذهب الأكّال ويبقى الرزاق.

فمن الأخطاء الشائعة أخطاء في التوحيد، يقولون: فلان «معيل» أي: عنده عائلة كبيرة، والصواب: فلان مُعال وليس مُعيلاً، المُعيل هو الله عز وجل، والناس كلهم على مائدة الرحمن.

كما قلت قبل قليل: إن الله عز وجل خصّ الأغنياء بوجود الأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزّاق، فمن شهد الرزّاق ما ضره ما فاته من الأرزاق، من علامة المؤمن أنه إذا عرف الله وصل إليه، ما تألم على شيء فاته من الدنيا قط، إذا تألمتَ ألماً شديداً، وإذا احترق القلب حرقة لاذعة على شيء فاتك من الدنيا فهذه علامةٌ على أنك لا تعرف الله، وأنك ما وصلت إليه، فلو وصلت إليه لما تألمت، ولما حزنت على شيء فاتك من الدنيا إطلاقاً، وقد قيل: إن سيدنا الصديق رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، أحياناً تجلس مع إنسان تحس قلبه يحترق حسرةً وندماً لأن هذه الأرض باعها ثم ارتفع ثمنها إلى مئة ضعف، متألم ألماً شديداً لا حدود له، بل إن معظم الأمراض اليوم أمراض القلب والشرايين وأمراض المعدة وأمراض الأعصاب وأمراض الأوعية، هذه الأمراض أكثرها بسبب الآلام والندم، دائماً يتألم، أما إذا شهدت الرزاق ما ضرك ما فاتك من الأرزاق.

ومن عرف أن الرزاق واحد قصده ولم يسأل أحداً سواه، عن سفيان بن عيينة قال: دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال: سلني حاجة، قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا قال: والله! ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها.

هذا العِزّ عزُّ التعفف، فما أجمل أن يعطي الغني الفقير، والأجمل من ذلك أن يتعفّف الفقير عن مال الغني، وأن يقول: الحمد لله.

قال بعض العلماء: «كما أن الله لا شريك له في خلقه، لا شريك له في رزقه، وكما أنه لا إله إلا الله، أيضاً لا رازق إلا الله». يقولون دائماً: إذا أعطى أدهش.

ولـو كانـت الأرزاقُ تجـري عـلى الحِجـا ... هلكـــنَ إذنْ مِـــنْ جهلهِـــنَّ البهـــائمُ

قد ترى إنساناً ذكياً جداً رزقه قليل، وقد تجد إنساناً في منتهى البساطة والسذاجة رزقه وفير، فالمعنى أن الرزق له عامل آخر غير عامل الذكاء وعامل السعي، لكن ليتيقن كل إنسان أن للرزق علاقةً بالاستقامة، العوام يفهمون أن هذا الرزق مكتوب ولا حيلة لأحد في كسبه ودفعه، هذا الكلام صحيح من جانب واحد، فالله يقول: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

روي عن رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» [أخرجه أحمد في مسنده، وابن ماجه من حديث ثوبان] إذا أردنا أن نوضح هذه الحقيقة، مثلاً إذا رأيت أن ابنك ليس أهلاً لتملك المال، فإنك تعطيه الحد الأدنى، تعطيه مبلغاً يسيراً يكفي حاجاته الضرورية، أما إذا كان ابنك من أهل الصلاح، ورعاً واستقامةً واتزاناً وحكمةً تقول له: أبقِ معك الخمس مئة ليرة ولا شيء عليك، أما أن تعطي خمس مئة لولد آخر قد يذهب لأماكن لا ترضي الله عز وجل فلا يصح، بل تعطيه ثمن شطيرة وأجرة ركوب سيارة، الحد الأدنى... لذلك قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧].

الفكرة خطيرة ومهمة جداً، التقليل تقليل تأديب لا تقليل عجز، أو الأصح من ذلك التقليل تقليل حكمة لا تقليل حاجة.

يروى في بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، سأل الله في مناجاته، قال: يا رب إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أحياناً، أفأطلبها منك

أم أطلبها من غيرك؟ فأوحى الله إليه: لا تسأل غيري، أي: إنّ الإنسان أحياناً يحتاج شيئاً بسيطاً فليسأل الله حاجته كلَّها صغيرها وكبيرها، فهل هناك رزاق سواه؟ فمرةً حدثني طبيب ناشئ، افتتح عيادة في الريف، ووالدته مريضة في دمشق، وهو يحتاج إلى مبلغ معين، فتوجه إلى الله سبحانه يسأله ذلك المبلغ، فعلى خلاف العادة أتاه مريض وراء مريض... إلى أن اجتمع المبلغ بكامله.

تترتب على الإنسان أحياناً مدفوعات... فليقل: يا رب أنا محتاج فقير لعطائك فأعطني، عوِّد نفسك الطلب من الله، فإذا رأيت الزوجة متصلبة برأيها فقل: يا رب! رأيت الشريك مزعجاً... فقل: يا رب! لطِّفْه.... وجدت الابن منحرفاً... يا رب! أدّبه... وجدت العمل مزعجاً... قل: يا رب! بدّله، عوِّد نفسك أن تسأل الله عز وجل كلَّ شيء، قال: يا رب! إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أفأسألها منك أم أطلبها من غيرك؟ فأوحى الله تعالى إليه: لا تسل غيري.

أحياناً الإنسان يقول لأخيه المؤمن حفظاً لماء وجهه وإكراماً له: إياك أن تسأل أحداً غيري، فكلما سنحت لك حاجة تعالَ إليّ وخذها مني، هذه منتهى المودة، فإنك إذا أحببت إنساناً حباً شديداً، فإنك لا ترضى أن يبذل ماء وجهه لزيد وعُبيد من الناس، فإنك تقول له: إياك وأستحلفك بالله أية حاجة تعرض لك فائْتِ إليّ، وكأن الله عز وجل لشدة حرصه علينا وحبه لنا يقول لنا: لا تسألوا غيري.

عفان بن مسلم قال: قال لي حماد بن سلمة -الذي قال فيه الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام-: ألح المطر علينا سنة من السنين وفي جواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام فوكف السقف عليهم فسمعتها تقول: يا رفيق ارفق بي! فسكن المطر، فأخذت صرة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها فقالت: اجعله حماد بن سلمة فقلت: أنا حماد وقد تأذيتِ بالمطر فقلتِ: يا رفيق ارفق بنا! فما بلغ من رفقه بك؟ فقالت: سكن المطر وادفأ الصبيان وجفف البيت، قال: فأخرجت الدنانير وقلت: انتفعي بهذه، فإذا صبية عليها مدرعة من صوف تستبين خروقها قد

خرجت علي، وقالت: ألا تسكت يا حماد! تعترض بيننا وبين ربنا ومولانا؟ ثم قالت: يا أماه قد علمنا أنا لما شكونا مولانا أنه سيبعث إلينا بالدنيا ليطردنا من بابه، وألصقت خدها بالتراب ثم قالت: أمّا أنا وعزتك لا زايلت بابك وإن طردتني.

ثم قالت يا حماد! رد عافاك الله دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه، فإننا رفعنا حوائجنا إلى من يقبل الودائع ولا يبخس المعاملين.

أحياناً ينالك الخير من الله مباشرة وفي ذلك عزّ، إذ لا أحد له عليك مِنَّة، وأحياناً أنت تشتكي، فإذا اشتكيت لمؤمن قد يرقّ لك قلب هذا المؤمن، لكن الآن سيأتيك العطاء لا من الله مباشرة بل عن طريق هذا المؤمن، فإذا اشتكيت إلى كافر يشمت بك، وقد يعطيك، لكن هذا منتهى الإهانة أن يعطيك عن طريق كافر، فإذا كان هناك منظر يهز أعمق مشاعري أن أرى مؤمناً يتذلل أمام كافر، يبذل ماء وجهه، يتشكى، يتضعضع.

إنَّ الذي يحرّك الإنسان حبُّه أكثر مما يحركه عقله، فالإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس، بدافع الحب يقدّم كلَّ شيء، بدافع العقل قد يقتنع، وقد يعتقد، وقد يوقن، ولكنّه لا يتحرك.

لذلك فالدعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقت واحد، ربما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النجاح، أما إذا أحدثوا في الإنسان، بالإضافة إلى قناعة العقل، موقفاً أساسه الحب فهذا كلُّ النجاح، أنت قبل كل شيء إنسان ذو عقل ولك قلب، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله، وإذا أدركت النعم الإلهية أحببته بقلبك، وإذا أحببت الله فقد أحسنت التوجّه، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحبَّ.

مرةً كنا في الجامعة وقد أحيل أحد الأساتذة إلى التقاعد وأقيمت له حفلة طيبة، وهو أستاذ علم النفس، قال هذه الكلمة ولا أنساها:

«الإنسان الذي لا يشعر برغبة في أن يُحِب ولا يشعر برغبة أن يُحَب فليس من بني البشر»، لا يمكن أن تُسمَّى إنساناً إذا كان قلبك صخراً، أو إذا كان قلبك جلموداً.

إذاً لا بد من أن تُحِبَّ، الشيء الذي يلفت النظر هو أن أصحاب النبي ﷺ عليهم رضوان الله، لماذا فعلوا المستحيلات؟ لماذا باعوا أنفسهم؟ ولماذا ضحوا بكل شيء؟ أحدنا لو جرحت يده أو إصبعه لصاح ولضمدها ولاعتذر عن لقاءاته ولأخذ إجازةً... سيدنا جعفر تأتيه ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله فيمسك الراية بعضديه إلى أن يخِرَّ شهيداً، ما هذا الحب الذي أدى بصاحبه إلى التفاني ثم للاستشهاد؟!

هناك من يقول: «لا أطلب من مولاي غير رضاه»، أي: لا أطلب من الله إلا رضاه ومحبته، وإذا كان شيءٌ حقير أطلبه من أهل الدنيا.

ولكن روي في الحديث: «لِيَسْأل أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ المِلْحَ، وحَتّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ» [أخرجه الترمذي عن ثابت البناني مرسلاً].

إن الله عز وجل يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر، أؤكد لك إذا أنت صليت صلاة صحيحة، أو إذا أكرمك الله بالحج مثلاً فاعلم أن هذا رزق عظيم ساقه الله تعالى إليك، فأحدهم وقف في عرفات وبكى حتى انتشى، وبعضهم بقي شهراً في نشوة هذا البكاء، أو هذا القرب أو هذه الرحمة، إذا صلى فرض صلاة وشعر أن هذه الصلاة أدّاها بخشوع، وهذه هي الصلاة التي أرادها الله عز وجل، وشعر فيها بخشوع، وفتح الله عليه في فهم ما تلا من قرآن، هذه أرزاق، إذا صام رمضان صياماً مقبولاً وشعر أن صيامه كان صحيحاً، ليس فيه معاصٍ، كان منيباً إلى الله فيه، وصلى التراويح بنشاط، هذا فوز عظيم. إذ تحرَّى رضا الله والالتجاء إليه وسعد بالقرب منه.

قال العلماء: إن الله يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر، وأرزاق القلوب الكشوفات والمعاني، كما أن أرزاق الأجساد الغذاء والأحاظي، (جمع حُظوة)، الكشوفات، أي: إنّ المؤمن يرى ما لا يرى الآخرون، عنده رؤية، عنده شعور، يعرف جوهر الحياة، يعرف أين كان وإلى أين المصير، يعرف أثمن ما في الحياة.

أحياناً الإنسان يضيع وقته بأشياء تافهة، وأحياناً يمضي وقته بأشياء ثمينة، وهذا أيضاً رزق، هناك نقطة أخرى، وهي عكس اليسر في الرزق، أي: العسر في الزرق بالنسبة إلى بعض الناس قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر:١٥-٢٠].

تراه ذكياً، يحمل شهادة عليا ودخله قليل، ليس له وظيفة ولا عمل، هذا بتقدير الله عز وجل فكما أن الله عز وجل، يضيّق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، يصلي صلاة لا معنى لها جوفاء ليس فيها خشوع، يشرد في الصلاة، قال لي شخص يعمل محاسباً: إذا وقعت في غلط بالمحاسبة فلا أذكر الصواب إلا في الصلاة، وقد تكون حسابات لم تسجل سهواً، فإذا صلى ذكرها في الصلاة، قال مكرراً: بالصلاة كل المشكلات تأتي إلى خاطري، فمعناها: هناك سد، كما أن الله عز وجل يضيق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، هذا التضييق له تفسيران، الأول أن هناك معصية، هناك مخالفة، هناك تقصير، هناك حقوق لم تؤدِّها، هذا حجاب، نعوذ بالله من أن نتردى فيه، كل معصية لها حجاب.

وهناك تفسير آخر، قد تكون مستقيماً على أمر الله لكن هذا التضييق سببه التعطيش وصلتَ لمرتبة أنت راغب بأن تبقى فيها، والله عز وجل أراد لك أن ترتقي عن هذه المرتبة، فكيف تنتقل من مرتبة إلى مرتبة، يحجب الله عنك الأحوال والمواجيد والتجليات، فتضجّ وتقلق، وتخاف ثم تشمر وتعمل الصالحات، تصعد درجة، تعيش فيها فترة لا بأس بها ثم تألفها وترضى بها، لكن الله لا يرضى لك في هذه الحالة أن تستمر، فيحجب عنك الأحوال، فلا صلاتك صلاة، ولا ذكرك ذكر، ولا تلاوتك تلاوة، قلب متصحّر، حالٌ فيه ضيق واشمئزاز.

هو مستقيم، ولكن لا شفافية ولا أحوال ولا سرور ولا تجلِّيات، فيدفعه هذا إلى أن ينطلق إلى المزيد من العمل الصالح فيرفع المستوى فيقفز قفزة تبلغه أعلى درجة أرادها الله له بهذه الطريقة، إذاً هذا تفسير قد يضيق الله على عبده رزق الأرواح ليندفع بعد ذلك إلى الأرقى.

أنت كونك مؤمناً، إن سعدت بقربك من الله عز وجل فأنت مؤمن ورب الكعبة، وإذا كانت نشوتك وسرورك وطلاقتك وراحة نفسك وجدتها بإقبالك وقربك، فهذه علامة إيمانك، أما إذا تألقت عيناك وتورّد خداك وانطلق لسانك لأرباح حققتها أو لمكسب وصلت إليه فهذه علامة أخرى، فمن أنت؟ أمِنْ أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ إذا سرك عطاء البشر فأنت من أهل الدنيا، أما إذا سرك عطاء الله عز وجل فأنت من أهل الآخرة.

قال أحدهم: دخلت على داود الطائي فرأيته منسبطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً، المؤمن إذا أنكر قلبه وضعفت صلته بالله عز وجل يصبح كاليتيم، تراه هادئاً، تسأله: ما الخبر، خير إن شاء الله؟ يقول: لا شيء، قال الحسن البصري: إذا تلوت القرآن وذكرتَ الله عز وجل وصليت ولم تجد بشراً وانشراحاً فاعلم أنك محجوب، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

ذاك حجاب الآخرة، ولكن هناك في الدنيا حجاب، إذا شعرت أنك محجوب انتبه وابحث عن السبب، لعلك مقصر، لعلك معتَدٌّ بنفسك، لعلك مستغنٍ عن الله، لعلك وقع في نفسك سوء ظن بالله وأنت لا تدري، لعلك وقعت في سوء ظن بالنبي ﷺ وأنت لا تدري، فإذا شعرت أن بينك وبين الله حجاب فابحث عن السبب، وإياك أن يزداد الحجاب، والحجاب يرق ويثخن، فإذا كان الحجاب كثيفاً فالمشكلة خطيرة جداً، كما قال سيدنا عمر: «تعاهد قلبك»، يعني راقب قلبك، راقب أحوالك، راقب طمأنينتك، لو أن إنساناً استيقظ بعد صلاة الشمس فإذا لم يشعر بانقباض فحالته خطيرة جداً، لكن إذا شعرت بانقباض شديد وألم وشعور بالخزي والعار من الله عز

وجل وشعور بالضياع فهذه مشاعر إيمان وصلاح، أما إذا قال: مثل بعضها، ماذا جرى؟ فهذه أيضاً مشكلة كبيرة جداً.

«دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً فقلت: أي شيء حالك؟ فقال سقاني البارحة شرابَ أُنسِهِ فأردت أن أجعل اليوم يوم عيد»، يعني صار له صلة بالله، أقبلَ على الله، وشعر بنشوة الاتصال، هذا أجمل ما عنده، فقال: أردت أن أجعل ذلك اليوم يوم عيد، لذلك إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السموات والأرض: أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

نشوة المؤمن في تقربه من ربه، أرجو أن يتسع صدرك لهذه الكلمة، إذا سعد الإنسان في الدنيا فهذه علامة سلبية خطيرة فليحذر، الأهم والأولى أن تسعد بالله، وفي هذا الإيجابية والفلاح، والحقيقة الأخرى التي لا بد من التذكير بها: أن الإنسان لا يمكن أن يسعد إلا بالله، إذا سعد إنسان بما سوى الله فهذا شتاته وهوانه!! فالقرآن كلام الله، وربُّنا عز وجل قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

سأل رجل: ما بال الملوك والأغنياء فالدنيا كلُّها بأيديهم؟ كل شيء عندهم، وكذلك الأغنياء؟ والجواب: ضيق القلب، في قلوبهم من الضيق والتبرّم والشقاء ما لو وزع على أهل بلد كفاهم، لذلك فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا، ويأخذ منك راحة قلبك، وقد يعطيك راحة القلب، ويسلب الدنيا منك، فالعبرة أن يكون قلبك غنياً بالله عز وجل.

قال: سقاني البارحة شراب أنسه فأردت أن أجعل من ذلك اليوم عيداً، فقلت: أتأذن لي أن أحمل لك طعاماً حتى تفطر؟ فقال: لست أشير إلى هذا، وشتان بين شراب يدار على الكف وشراب يكون في موجب لطف وروية كشف، هناك شراب مادي وهناك شراب معنوي.

إذاً الرزاق هوا لله عز وجل.

نصيب المؤمن من اسم الله (الرزاق)

وأخيراً فما علاقتنا بهذا الاسم؟ وهذه خلاصة مهمة جداً، أولاً عليك أن ترضى بقسمة الرزاق بدءاً من أمك وأبيك، فأنت ابن فلان وفلانة، هذا تقدير الله عز وجل.

عليك أخي المسلم أن ترضى بوالديك لأن هذا منتهى الحكمة، ويجب أن ترضى بشكلك، فالله أقامك بهذا الشكل، طول، قصر، وسامة، دمامة، صحة، ضعف، هكذا أقامك الله، فإذا اعترضت على الله فلست مؤمناً، يجب أن ترضى عن اختيار الله لك من أي رجل وامرأة كان سبب وجودك، وبأي شكل كان وجودك، وأن ترضى عن رزقك وعن زوجتك، فالله اختار لك هذه الزوجة، أكثر الأشخاص غير المؤمنين يمضي كلَّ حياته في عذاب، يقول: لم أُوفّق في هذه الزوجة، فالله اختارها لك، علم فيك خيراً فضمّها إليك لعلك تهديها إلى الله، انظر إلى المؤمن عنده حُسْن ظن بالله، لو أن الله ساق له ولداً سيئاً لا يتبرم، يقول: إن الله عز وجل هكذا اختاره لي، ولو كانت زوجه امرأة سيئة، رضي باختيار الله له.

هذا يعني أن ترضى عما رزقك الله.

والمعنى الثاني: أن تجعل يدك على مالك يد الرجل الأمين على مال الله، وأن تجعل مالك خزانة ربك، يدك على المال يد الأمانة لا يد الملك، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

إذاً المعنى الأول من معاني الرزق أن ترضى بما قسمه الله لك، وإذا رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، أما المعنى الثاني: فأن تجعل مالك مال ربك وأنت عليه أمين، ولستَ مالكاً.

المتين

ورد هذا الاسم معرّفاً في آية واحدة في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٨].

وقد ورد هذا الاسم أيضاً في السنة من حديث عبد الله بن مسعود حينما قال: «أَقْرَأَنِي رسولُ الله ﷺ إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ» [أخرجه أبو داود والترمذي].

من معاني اسم الله المتين

المتين في اللغة صفة مشبهة باسم الفاعل، للموصوف بالمتانة، والمتين هو الشيء الثابت في قوته، أحياناً يوجد قوّة طارئة تزول، أما القوة الثابتة الأبدية فتعني المتانة، الشيء الثابت في قوته، الشديد في عزمه وتماسكه، والواسع في كماله وعظمته، ومتن، يمتن، متانة، أي قوي مع صلابة واشتداد.

ويلحق بمعنى المتين معنى الثبات، والامتداد، ويكون المتين بمعنى الواسع.

الآن المتن من كل شيء ما صلب ظهره، والجمع مُتون، تقول متن الحديث وأصل المادة في اللغة يدل على صلابة الشيء مع امتداد وطول، والمتن المنطقة الصلبة من الأرض، والمرتفعة، أرض متينة أي صلبة ومرتفعة.

والمتين الشيء الممتدّ الطويل مع الإحكام، ومع القوة.

فإذا قلنا الله جلّ جلاله هو المتين فهو كامل القوة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، ولا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماوات، قوة ثابتة، قوة مستمرة، قوة ممتدة، في أي مكان، وفي أي زمان.

والله هو المتين هو القوي في ذاته، الشديد الواسع، الكبير المحيط، فلا تنقطع قوته ولا تتأثر قدرته.

والله هو المتين هو القوي الشديد، المتناهي في القوة والقدرة، الذي لا تتناقص قدرته.

والله هو المتين الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة، أنت قوي لكن هناك حدود لقوتك، بعد جري مسافة معينة مثلاً تصاب بالإعياء، أمّا إذا قلنا: إنّ الله هو المتين، فيعني أن قدرته بالغة الشدة، لا نهاية لها.

وقد وصف الله تعالى كيده بأنه متين فقال جل من قائل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥].

الكيد على إطلاقه هو التدبير في الخفاء بقصد الإساءة والابتلاء، أو المعاقبة والجزاء، إذا قلنا كيد فهو تدبير ليس في العلن، ليس نهاراً جهاراً، ليس على ملأ من الناس، الكيد تدبير في غرفة في قبو، في مكان مظلم، بعيد عن الناس، الكيد على إطلاقه هو التدبير في الخفاء، بقصد الإساءة والابتلاء، أو المعاقبة والجزاء، وقد يكون عيباً مذموماً إذا كان بالسوء في الابتداء.

إنسان قوي، يريد أن يأخذ ما ليس له، وخطط لذلك، هذا كيد يوصف بالسوء أو يُذَمُّ، لأنه بدأ بالسوء، وقد يكون محموداً، مرغوباً إذا كان مقابلاً لكيد الكافرين والسفهاء إذا عُزي الكيد إلى الله فهو تدبير حكيم، عادل، حماية للمؤمنين، أما إذا عُزي الكيد إلى البشر تكون جهة قوية، تخترع مشكلة، أزمة، في بلد معين تطمع في ثرواته، تثيرها، ثم تحتل هذا البلد، هذا كيد الكافر كيد يوصف بالذّمّ والانحراف.

فإذا كان الكيد عند إطلاقه كمالاً في موضع، ونقصاً في موضع آخر، فلا يصح إطلاقه بحق الله دون تخصيص.

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

الله عز وجل من سننه أنه يهدي عباده، لأنه تعهد بهداية عباده، وحيثما جاءت كلمة على مع لفظ الجلالة فهي تعني الإلزام الذاتي.

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل:٩]. يعني على الله أن يبين سبيل القصد.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الليل:١٢]. أي ألزم ذاته العلية بهدى خلقه، حتى لو أن إنساناً فيه بذرة من الخير فإنّه يُسْمِعُه الحق قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال:٢٣].

في العلوم الحديثة... الحبال التي تقاوم قوى الشّدّ تسمى متينة، وأمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المجدول -المضفور- فهو متين لذلك تُرفع به المصاعد وتُعلَّق عليه الغرف المتحركة التي تسير بين الجبال -التليفريك- لمتانته، فهو يقاوم قوى الشّدّ، إنّ الشّيء القاسي يقاوم قوى الضغط، وأقسى عنصر هو الماس، وبعده ميناء الأسنان، فالقساوة مقاومة قوى الضغط، والمتانة مقاومة قوى الشّدّ، فما الحكمة من قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾؟ أي كأنَّ الإنسان مربوط بحبلٍ متين لا يمكن أن يُتفلَّت منه مهما تحرك، مهما قوي، مهما ذاع صيته، أو كثر ماله، مهما تألقت صحته، إنه مربوطٌ بحبلٍ متين ففي أية لحظةٍ يشدُّ الله الحبل، فالإنسان إذاً في قبضة الله عز وجل.

وفي الدّعاء النّبويّ: «اللهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجَميع سَخَطِكَ» [رواه مسلم، من حديث ابن عمر].

تجد أشخاصاً كثيرين أحدهم في تمام صحته فجأةً يشعر بشيء ينمو نمواً طارئاً وغير عادي، يسارع إلى الطبيب فيجد هذا الشيء ورماً، فهل يا ترى هذا الورم خبيث أو حميد، فيحلل فتظهر النتيجة أنه ورم خبيث في أماكن مميتة بلا سبب.

فالإنسان تحت رحمة الله عز وجل فإذا لم يكن مصطلحاً معه ومطيعاً له، ومنيباً، ومقبلاً، ومخلصاً، ومشتاقاً، ويقدِّم من الأعمال الصالحة ما تمكِّنه عند الله فمشكلته مع الله خطيرة.

إذاً: أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ في الشيء مع امتدادٍ وطول، فيمكن لسنتيمترٍ مكعبٍ واحدٍ من الإسمنت أن يحمل تقريباً في الحالات الخاصة خمسمئة كيلو غرام، أما على قوى الشد فلا يتحمَّل أكثر من خمسة كيلو غرامات شداً، فالإسمنت ضعيفٌ على الشّدّ ويحتاج إلى تسليح، أما على الضغط فهو قاسٍ ويتحمَّل ضغوطاً عالية جداً، إذاً فلا بد من إسمنتٍ مسلَّح، فالحديد ضمن الإسمنت ليقاوم قوى الشد، والإسمنت نفسه ليقاوم قوى الضغط، هذا معنى من معاني قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾... أي إن كل واحدٍ منا شاء أم أبى في قبضة الله دائماً، شعر أو لم يشعر أحسَّ أو لم يحسّ، أدرك أو لم يدرك... ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾... والمَتْنُ: ما صلب من الأرض وارتفع.

المتن: المنطقة الصُّلبة في الأرض المرتفعة، نقول: أرضٌ متينة، والمماتنة: المباعدة في الغاية... أي أنَّ هدفه بعيد، تشعر أنّ المتين الشيء الممتد الطويل مع الإحكام، ومع القوة، ومع المتانة، وسار سيراً مماتِناً أي شديداً وبعيداً.

والمتين على وزن فَعيل... اسم فاعلٍ مبالَغٌ به مشتقٌ من المتانة، وهي شدة الشيء واستحكامه وصلابته.

أحياناً من الممكن أن تضع في بناء عشرة أطنان من الحديد، أو تضع خمسة أطنان منه أو ثلاثة أطنان، فإذا كان بداخله شوائب فحْميَّة مثلاً لا يصبح متيناً فيضاعفون الكمية، أما إذا كان خالياً من الشوائب الفحمية فالحديد متين، ويكفي أقلُّ كمية ممكنة منه وحسب المخطط لتوضع في البناء، فإذا لم يتقن الإنسان عمله وأنتج حديداً غير متين وغير متقن وبه شوائب، فيكلِّف البناءُ ثلاثة أضعاف ثمن الحديد حتى يطمئن المهندس إلى قوة البناء، وقد حَمَّل صاحب البناء ثلاثة أمثال الثمن لعدم متانة الحديد، وأذكِّر بأن إتقان العمل جزءٌ أساسيٌّ من الدين، وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» [رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة].

إذن: إتقان العمل جزءٌ من الدين.

تذاكرتُ مع صديق لي وجودَ كسادٍ عند بعض الحرفيين، وتوقف أعمالهم أحياناً، قلت: فأما المتقن فعمله لا يتوقف، كلُّ حرفة لها درجات ومستويات، فتجد شخصاً من الدرجة الأولى، أو الثانية، أو الرابعة، أو الخامسة.. وهكذا... فالذي في الدرجة الأولى لا يتوقف عن العمل إطلاقاً لأن الطلبات عليه أشدُّ وأكثر من الوقت المتاح له، وكلما تدنّت درجة الإتقان فكساد عمله أكثر والطلب عليه قليل ويعاني عندئذٍ من بطالة، يشتغل أسبوعاً ويتوقَّف شهراً، فهذه بطالة مقنَّعة، وعندئذٍ دخله لا يكفيه، وهذه قاعدة... فإتقاننا للعمل هو الذي يسبب التفوُّق، وأنت أمعن النظر في الأمر فهذه سنَّة الله في خلقه، وأينما ذهبت فالمتقن متفوِّق ويعمل عملاً مستمراً، والمتقن دخله كبير وفي بحبوحة، فالإتقان سبب من أسباب زيادة الرزق.

وبالمناسبة... فإن أهم موضوع بعد حياة الإنسان هو رزقه، فهناك أولويات للإنسان... فأول شيء سلامته، فإذا كان صحيحاً من كل الأمراض فقد حقق السلامة، وبعد السلامة الرزق، والإنسان إذا أيقن أن الله سبحانه وتعالى لا يسمح لمخلوقٍ أن يتدخل في شأن الحياة والرزق اطمأنَّ قلبه، فهذه الروح التي أودعها الله في الإنسان لا يمكن لمخلوقٍ كائنٍ من كان أن ينزعها منه، أما إذا بدا لك بالعين المجردة أن فلاناً قتل

فلاناً فالمقتول قُتل في أجله، ففي علم العقيدة: المقتول يقتل في ساعة أجله لا في أجلٍ قبل ساعة أجله، فأمر الحياة منوطٌ بالله عز وجل، وأمر الرزق منوط بالله عز وجل.

أخطر شيء في وجودك حياتُك ورزقُك، فالحياة والرزق أمران مقطوعٌ قضاء الله فيهما عن أن يتسلَّمهما إنسان، ولو بدا لك أنَّ هذا الإنسان قويٌّ أو أمره نافذ، ولو بدا لك أنه يفعل ما يريد، إلا أنَّ الحقيقة أن أمر الحياة وأمر الرزق لم يُتح لمخلوقٍ أن يتسلَّمهما أو يتصرف فيهما، فلهذا قالوا: كلمةُ الحقِّ لا تَقطَعُ رزقاً ولا تُقرِّبُ أجلاً.

وبعد فإن المتين كما قلنا قبل قليل: مشتقٌّ من المتانة وهي شدة الشيء واستحكامه وصلابته، وقيل: المتين هو الشديد، يقال: هو متين القِوى، أي: شديد القِوى.

ومن المجاز أن نقول: رأيٌ متين، خطبةٌ متينة، مقالةٌ متينة، أي: متماسكة، فقد يكون الأسلوب قوياً فيقال لك: التراكيب متينة، أي: مشدودة، متراصّة، محكمة، فتشعر بتركيب قوي، وأحياناً تجد التركيب ضعيفاً مهلهلاً غير محكم، وهذا استخدام مجازي للمتانة... ومن المجاز: رأي متين.

وقيل: المتين بمعنى القوي، فهو على ما يشاء قدير.

إذا قلنا: إن الله قويٌّ متين... أي: لا يحتاج في إمضاء حكمه إلى جندٍ أو مدد، ولا إلى معينٍ أو عضد... ولا إلى من يسانده... لأن الله سبحانه وتعالى قويٌّ بذاته، متينٌ بذاته.

وبالمناسبة... فالإنسان يحبُّ القوي ويلتفت إليه، فالله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحسنى، فمن القوة قويّ، ومن الغنى غنيّ، ومن الحكمة حكيم، ومن الرحمة رحيم، ومن اللطف لطيف، فكلما اشتدت معرفتك بأسماء الله الحسنى اشتدَّ حبُّك له، وقد ورد: «أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً».

وقيل: «المتين هو كامل القوة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات».

وقيل: «المتين بالغ الشدة، فالله شديد القوة والقدرة، والله متمٌّ قدرته، وبالغٌ أمره».

وقيل: «المتين المتناهي في المتانة، يؤثّر في الأشياء ولا تؤثّر فيه الأشياء».

نصيب المؤمن من اسم الله (المتين)

ماذا يعني أن نعرف أنَّ الله قويٌّ متين؟ قال العلماء: إذا عرفت أنَّ الله قويٌّ متين وأنَّ الأمر كلَّه بيده قطعت الرجاء عمن سواه، فانظر إلى الذي يهلك الناس؟ الناس يحتاجون بعضهم إلى بعض، فيقفون على أبواب اللئام، فقد سئل سيدنا علي رضي الله عنه: ما الذّل؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردُّه.

ويقول رضي الله عنه: «والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين».

ولئن عرف الإنسانُ: أنَّ الله هو القوي... فلسوف تتبدد أمام ناظريه كلُّ العقبات. ومعنى القوة واسع فسيح؛ فالقوة لله جميعاً، حتى القوة في الجمال، والقوة في العطاء، والقوة في العلم، وحتى القوة في الحكمة، فأعلى الصفات المتعلقة بأسماء الله الحسنى قد توصف بالقوة... فحينما تعلم علم اليقين أن الله قويٌّ متين تقطع الرجاء من غيره.

والحقيقة المُرَّة... أن يرجو الإنسان غير الله فالطريق عندئذٍ إلى الله مسدود، وأحياناً لحكمة بالغة ما دامت هناك منافذ أرضية فالطريق إلى الله مسدود، ومتى تلتجئ إليه؟ حينما تُغلق الأبواب كلُّها، فأحياناً يطرق الإنسان أول باب فيجده مغلقاً، والثاني كذلك مغلقاً، والثالث والرابع مغلقين فيضجر، عندئذٍ لا يجد إلا الله ملجأً له، فهو إذا كان عاقلاً فمنذ البداية يجب أن يعلم أنه لا إله إلا الله... لكن بسبب ضعف الإيمان في قلبه، وضعف التوحيد في عقيدته يتجه إلى زيد وإلى عبيد، وإلى فلان أو علاَّن فيجد أنّ الطرق جميعَها مغلقة، فيخيب ظنُّه بالناس جميعاً، فيلجأ بعد ذلك إلى الله.

تُروى قصة فيها موعظة في أيام العهد العثماني... عن إنسان في دمشق افتقر الافتقار الشديد، فضاقت به السُّبُل ولم يجد قوت يومه، وكان له قريب يعمل في منصب رفيع جداً لدى السلطان العثماني في عاصمة الخلافة العثمانية اسطنبول، فخطر في نفسه أن يذهب إليه ليعمل هناك في وظيفة معينة فتحلّ بذلك مشكلته، فذهب إلى اسطنبول ودخل على قريبه فرحَّب به، وكتب قريبه استدعاء إلى السلطان لتعيين هذا القريب في منصب جيد، وكلما دخل على السلطان يرى هذا الاستدعاء غير ممهورٍ بخاتم السلطان فيضعه أعلى الأوراق فيفاجأ بعدم توقيع السلطان له، لأكثر من أسبوعين وهو ينتظر، وكان يبدو أنَّ هذا الموظف الكبير على شيء قليل من التوحيد وسلامة الاعتقاد، فذهب إلى قريبه وتجهَّم عليه وأسمعه كلاماً قاسياً، وأن الضيافة ثلاثة أيام لا مثل هذه المدة فكفاك هذا واذهب عنا... فحينما سمع الضيف هذا الكلام القاسي، وهذا الطرد البشع، خرج من بيت قريبه هائماً على وجهه وهو يبكي فقد كان هذا القريب أمله الأخير... لكن هذا القريب أرسل وراءه خادماً يتبعه ليعرف أين سيذهب، فذهب إلى خان -فندق- ولكن المفاجأة أن السلطان في اليوم التالي وافق على المعاملة المقدمة ووقَّع عليها، فاستدعاه وأبلغه النتيجة بأن قضيَّته قد حُلَّت.

وتفسيرها أن كل هذه الأيام كان هذا الضيف الذي أتى من الشام يعلِّق الآمال كلَّها على قريبه، ونسي الله، لذلك لم يُلهَم السلطان أن يوقِّع على الكتاب، فلما طرد هذا المسؤول قريبه شرَّ طردة، وقطع الأمل منه لجأ إلى الله عز وجل، وعندما أخلص رجاءه إلى الله أُلهم السلطان أن يوقِّع على الكتاب.

فالموعظة في هذه الواقعة مهمةٌ جداً... كلما علّقت الأمل على إنسان خاب ظنك، لأن الله يغار أن تعلِّق الأمل بغيره، أن تعتمد على غيره، أن تنقاد إلى غيره، أن تريق ماء وجهك لغيره، فالمؤمن فيما بينه وبين الله ليبالغ في التذلل، أما فيما بينه وبين الناس فليبالغ في العزة، أنت مع الناس عزيزٌ، أما فيما بينك وبين الله فأنت ذليل تقطّعت بك الأسباب، وهذا شأن المؤمن، فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

فالإنسان مع الله يتذلّل ويمرِّغ جبهته في التراب، أما حينما يقف أمام إنسان فلْيَقفْ عزيز النفس؛ لذلك رأى النبي ﷺ أبا دجانة في أُحُدٍ يمشي متبختراً، فقال ﷺ: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع» [رواه الطبراني في الكبير، عن خالد بن سليمان بن عبدالله بن خالد بن سماك بن خرشة، عن أبيه، عن جده].

المؤمن لا ينبغي له أن يضعف أمام كافر، أن يتوسّل إليه، أن يتضعضع له... من جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

إذاً أول تطبيق عملي لهذا الاسم... ما دام الله هو القوي المتين اقطع الأمل ممن سواه، فلا تجد مؤمناً صادقاً إلا وله مناجاة لله عز وجل يناجيه، يسترضيه، يستغفره، يتوب إليه، يسأله... إن الله يحبُّ من عبده أن يسأله حاجته كلها... إنَّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله مِلح طعامه... إن الله يحبُّ من العبد أن يسأله شسْعَ نعله إذا انقطع... مَن لا يدعوني أغضب عليه، إنَّ الله يحبُّ الملحِّين بالدعاء.

وفي بعض الأدعية: إلهي أنت المتين المعين، تمدُّ الوجود بالقوة، وتجعل أحبابك في حصنٍ حصين، أعطنا متانةً في أجسامنا نصبر بها على الطاعة، وامنحنا قوةً في قلوبنا نكن بها مع السنّة والجماعة، أعطنا مدداً من غيب قدرتك نهزم به النفس والشيطان والكفار وأهل العصيان إنك على كل شيءٍ قدير.

يقولون: مَن علم أنَّ مولاه على كل شيءٍ قدير قطع الرجاء ممن سواه، وأفرد له سرَّه، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام... ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾... أراد أني سهَّلت طريقهم إليك، وقطعت رجاءهم عمن سواك، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: شغلتُهم بخدمتك خاصةً، وأنت أولى بهم مني ومنهم... لذلك قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إذا احتاجوا إلى شيء ذللت عبادك لهم فإنك على كل شيءٍ قدير.

وهذا في الآية الكريمة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

الإمام الجُنيد قال: سمعت السريَّ يقول: إنَّ في قُرى بغداد أولياء لله تعالى لا يعرفهم الخلق، كنت أدور في قرى بغداد لعلي أرى منهم واحداً، فقال له الإمام الجُنيد: هيهات أن تراهم، ولكن كن منهم تراهم وأنت في بيتك.

من تطبيقات هذا الاسم أنَّ اللائق بالإنسان ألا يغترَّ بقوته لأنه أمام قوة الله بلا حول ولا قوة، بل يطالبه الأدب بإظهار الضعف أمام ربِّه القوي مهما كان المرء غنياً بقوته، وأنت مهما كنت قوياً، مهما كنت صحيحاً، يجب أن تظهر ضعفك أمام الله عز وجل.

سيدنا عمر كان يوماً على المنبر يخطب وهو أمير المؤمنين، فجأةً قطع الخطبة وقال: يا ابن الخطاب -يخاطب نفسه- كنت ترعى غنيماتٍ على قراريط لبني مخزوم. فهذا الكلام ليس له معنى إطلاقاً وليس له علاقة بالخطبة، فلما نزل سأله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين ما حملك على ما قلت؟!! قال: قالت لي نفسي وأنا أخطب: أنت أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الله أحد فأردْتُ أن أعرِّف نفسي -حقيقتها.

فإذا كنت ضعيفاً وربُّك قوي متين فلا تخف. فأنت عبد القوي، عبد المتين، وإذا أعطاك ربّك قوة فكنت قوياً، والقوة لله وحده فلا تغتر بقوَّتك لأنَّ الله -عز وجل- كما يدهش في العطاء يدهش في الأخذ.

فكان سيدنا عمر يقول: اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط.

وكان النبي ﷺ يقول: «إذا اشتكيت فضع يدك حيث تشتكي ثم قل: بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد من وجعي هذا، ثم ارفع يدك، ثم أعد ذلك وتراً»

[رواه الترمذي والحاكم من حديث أنس بن مالك].

والآن لديّ تعليقٌ أتمنى أن تمعن النظر وتقلبه معي قالوا: هذا الاسم؛ اسم المتين لا يتعارض مع سعي الإنسان ليكون قوياً لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال:٦٠].

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾... أي أن ضعفك وتذللك وافتقارك، وعبوديتك، وتمريغ وجهك في التراب تواضعاً لله عز وجل، فليكن هذا فيما بينك وبين الله، أما أمام أهل الدنيا، أمام المنحرفين، أمام المشركين فيجب أن تظهر قوياً فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، والنبي ﷺ يقول:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَما شاءَ فَعَلَ، فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» [صحيح مسلم من حديث أبي هريرة].

«رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوةً» روي أنه قالها ﷺ لأصحابه في عمرة القضاء [السيرة النبوية لابن هشام، وانظر فقه السيرة، لمحمد الغزالي].

هذا افتقارك فيما بينك وبين الله، الصحابة كانوا في الليل رهباناً، أما في النهار فهم فرسان، أما إذا تمسكن الإنسان أمام الناس وأظهر الضعف أمامهم فحنَى ظهره مثلاً... فقد باء خاسراً مهزوماً. وفي عهد عمر بن الخطاب كان من حنى ظهره علاه عمر بالدّرة وقال له: ارفع رأسك يا أخي فقد أمتَّ علينا ديننا.

فالإنسان ينبغي أن يسير رافع الرأس، ينبغي أن يظهر أنه قوي، أما فيما بينه وبين الله فإنه يتذلّل.

يروى أن سيدنا عمر كان شديداً جداً حتى إن الناس اشتكوا شدّته، فجاءه أبو ذر وقال له: إن الناس هابوا شدَّتك يا أخي. فقال له: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

إذاً: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

يذكر الإمام البخاري: في باب قول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة:١٩٧] أن من صفة أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا أهل قوة، [البخاري، من حديث عائشة] وطريق القوة والمتانة هو طريق الله، لأنَّ الكتاب الإلهي حبل الله المتين، ودينه هو الدين المتين.

«إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله».

تجد الإنسان أحياناً من ضعف إيمانه ومن ضعف توحيده يعلّق الآمال بالآخرين، ويعلِّق الآمال بكفار، يريقُ ماء وجهه دونهم، ويتذلل لهم، ويتمسكن أمامهم، فيسقط من عينهم، وقد سقط من عين الله قبل أن يسقط من أعينهم.

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله.

قال العلماء: ويعاب عليك أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فكلما قوي إيمان الإنسان يصبح عزيزاً، ويصبح رافع الرأس، وكلما قوي إيمانه زاد اعتماده على الله وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وقال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ [الطلاق:٣].

اللهمَّ! أعنّا على دوام ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك، وارزقنا الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك الكريم، اللهمَّ! أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأمي وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

البرّ

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مطلقاً يفيد المدح والثناء على الله جل جلاله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور:٢٨].

من معاني اسم الله البر

البَرُّ سبحانه وتعالى هو العطوف على عباده، ببرّه ولطفه، فهو أهل البرِّ والعطاء، يحسن إلى عباده في الأرض والسماء.

روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: «أنفقْ أُنفِقْ عليك» [البخاري عن أبي هريرة].

وقال صلى الله عليه وسلم: «يدُ الله ملآى، لا يَغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار -يعني مستمرة في الليل والنهار- وقال: أرَأيتم ما أنْفَقَ منذُ خلق السماوات والأرضَ؟ فإنه لم يَغض ما بيده وكان عرْشُه على الماء، وبيده الميزانُ، يخفِضُ ويَرفَعُ» [البخاري عن أبي هريرة].

البَرُّ هو الصادق في وعده، الذي يتجاوز عن عبده، وينصره ويحميه.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤].

فهذه الوعود التي وعد الله بها عباده المؤمنين، زوال الكون أهون على الله من ألا تتحقق، من الذي يعدك؟ رب السماوات والأرض، خالق السماوات والأرض، إله السماوات والأرض.

البَرُّ هو المحسن إلى عباده، الذي عمّ بره وإحسانه جميع خلقه، فما منهم من أحد إلا وتكفل الله برزقه.

قال أبو السعود: البَرُّ كثير الرحمة، الذي إذا عُبد أثاب، وإذا سُئل أجاب، وفي الحديث: «إِنَّ مِن عِبادِ الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ على الله لأَبَرَّه» [البخاري عن أنس بن مالك].

«رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

هذه الكلمة باؤها مثلّثة... ومعنى ذلك أنك تقول: بَرٌّ، وبُرٌّ، وبِرٌّ، فالبُرُّ هو القمح... والبِرُّ هو الإحسان.. والبَرُّ هو اليابسة في الأصل، أما البَرّ إذا كان اسماً من أسماء الله الحُسنى فهو بالفتح، أي: فاعل البِرّ، والبِرُّ هو الإحسان، أي: المحسن، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨].

أي: هو المحسن.

البِرُّ هو الصلة، إسداء المعروف، المبالغة في الإحسان، البَرُّ هو المُحسن، فلان بارٌّ بأبويه إذا كان محسناً لهما، البَرُّ من الخلق من تتوالى منه أعمال البِرّ، فهناك مبالغة فمن تتوالى منه أعمال البر مِن الخلق يسمى بَرّاً، أما إذا كان هذا الاسم منسوباً إلى الله عزَّ وجلَّ فالبرُّ هو مطلق الإحسان.

البِرّ بالكسر... الصلة والإحسان، فلان يبَرُّ والديه، أي: يصلهما بإحسانه، وفلان يبَرُّ رحمه، أي: يصلهم، والصلة: العطاء مع اتصال، عطاء مع زيارة.

ما زلنا في كلمة البِر، والبَر، والبُر... اسم الله تعالى البَرُّ... أي: المُحسن، لأنَّه يعطي البِر ويعين عليه وهو الإحسان، والحجُّ المبرور هو الذي لا يخالطه شيءٌ من المآثم، والنبيُّ ﷺ يقول:

«العُمْرَةُ إلى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزاءٌ إلا الجَنَّةُ» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

أي حجٌّ لم يخالطه إثم، ولا رفث، ولا فسوق، ولا جدال، هذا هو الحجُّ المبرور، ليس له ثوابٌ إلا الجنة فقد قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

ومن معاني البِرّ التّقوى فقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

وقيل: البر التوسُّع في فعل الخير، وقيل اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، ولكلِّ أعمال الخير المقرِّبة إلى الله، أو اسمٌ جامعٌ لمرضيِّ الخصال، فالتقوى اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، اسمٌ جامعٌ لكلِّ القُرُبات، اسمٌ جامعٌ لكل الخصال الفاضلة، اسمٌ جامعٌ لكلِّ الأفعال المرضية... والبر هو التقوى، وفي قاموس تاج العروس.. البرُّ: خيرُ الدنيا والآخرة.

خيرُ الدنيا ما يُيَسِّره الله تعالى للعبد من الهدى والصِّحة وراحة البال والطمأنينة والرزق النفسي، وفيها من السرور والسعادة والهيبة، وفيها الزوجة الصالحة والأولاد الأبرار والدخل الحلال.

وخير الآخرة... الفوز بجنة الله وما فيها من النعيم المقيم، النعيم الدائم، ومن حورٍ عين، ومن وِلدانٍ مخلَّدين، من جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، من فواكه وهم مكرمون، وفيها النظر إلى وجه الله الكريم، والفوز برضوان الله عز وجل الذي هو أكبر

من كلِّ شيءٍ في الجنة، فقد قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

فالبِر اسم جامع لخيريّ الدنيا والآخرة.

النبيُّ ﷺ حينما قال: «عليكم بالصّدق فأنّ الصّدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويتحرّى الصدق حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً...» [متفق عليه من حديث عبد الله ابن مسعود].

عليكم بالصدق، فإنَّ الصدق يهدي إلى البر، وأرقى أنواع الصدق أن تكون صادقاً مع الله، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع نفسك، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع الناس.

أن تكون صادقاً مع الله... فإنَّك إذا عاهدته على التوبة ألا تنتكس بعد التوبة، وإذا عاهدته على الطاعة ألا تعصيه بعد العهد، وإذا قبَّلت الحجر الأسود في بيته العتيق وذرفت عنده الدموع، وعاهدته وقتها ألا تعصيه في بلدك، الصدق أن تنفِّذ هذا العهد.

إنَّ الصدق يهدي إلى البر... أي إلى الصلاح، إلى خيري الدنيا والآخرة، إلى الخير المطلق.

قال العلماء: زمزم هذا النبع الذي تفضَّل الله به على السيدة هاجر وعلى المسلمين من بعد ذلك، يسمى هذا النبع برَّةَ... لكثرة منافعها وكثرة مائها وسعة خيراتها.

وفي مصنف عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أُخبرتُ عن سعيد بن جبير: أنه سمَّى زمزمَ فسمَّاها: زمزمَ، وبَرَّةَ، ومضنونة.

البَرّ أبلغ من البارّ... نقول مثلاً علاَّمةٌ وعالم، العلاَّمة أبلغ، البرُّ أبلغ من البارِّ إن كانا بمعنى واحد وهو المحسن، فلو قلنا: فلان بارٌّ بوالديه. وأما إذا قلنا: فلان بَرّ، أي: تتالى بِرُّه، وتوالى إحسانه، وكثر عطاؤه، وكثر خيره وطاب، فالبَرُّ أبلغ من البارِّ.

أما البَرُّ في حقِّه تعالى فهو فاعلُ البِرِّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير، فالله عز وجل لماذا خلق الخلق؟ خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليحسن إليهم، خلقهم ليكرمهم، أصل الخلق إحسان.

مشروع الكون كلُّه هدفه الإحسان، فقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩].

فالبَرُّ... في حقِّه تعالى، أي: فاعل البِرِّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير.

وأحد العلماء يقول: «البَرُّ... المحسن بالبِرِّ المطلق»، فأحياناً المصيبة إحسان فتجد إنساناً شارداً غافلاً تائهاً ومنحرفاً، والله عزَّ وجل بَرّ، أي: إحسانه مطلق يسوق له بعض الشدائد ليحمله على التوبة، وإذا حمله على التوبة وتاب إليه قبله وأكرمه، فكلُّ مصائب الدنيا تنطوي تحت اسم البَر.

طفل يتيم تُوفِّي والده وله جار محسن، لمحه مرَّةً يسرق فاكهةً من دكان، فأمسك بيده وعنَّفه ووبَّخه وذكَّره بالقيم الأخلاقية وصار يتابعه، إلى أن انضبط هذا الطفل وتابع دراسته وكبرت سنُّه ونجح في حياته، فبقي سنواتٍ عديدة يقول: لولا هذا الإنسان المُحسن الذي أدَّبني ونبَّهني وراقبني وعنَّفني ما كنت فيما أنا عليه.

وكذلك يكشف الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن يوم القيامة عن كلِّ شيءٍ ساقه له في الدنيا من متاعب، لا شكَّ أنَّ هذا الإنسان يذوب من شدة الامتنانِ إلى الله عز وجل، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨].

لا أريد أن أطيل في هذا الموضوع، لكن كل مسلم يعلم لولا أنَّ الله تداركه باللطف، وبالتأديب أحياناً، وبالتخويف أحياناً، أحياناً مرضٌ يبدو أنَّه عُضال، أحياناً فقرٌ مدقع، أحياناً إنسانٌ قاهر يضيِّق عليه، هذه كلُّه تضييقاتٌ تنطوي على الرحمة، ويؤكد هذا قول الله عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧].

قيل: البَرُّ... هو الذي لا يصدر عنه القبيح. وقد ذكر الإمام الرازي أقوالاً: «البَرُّ... هو الذي منَّ على المريدين بكشف طريقه، وعلى العابدين بفضله وتوفيقه».

أي أن عابداً منَّ الله عليه بقبول العبادة، وأن سالكاً إلى الله يسَّر له الطريق إليه، وأنّ إنساناً أراد الإحسان مكَّنه من الإحسان، والبَرُّ هو المحسن يعطي كلًّا سؤله، فقد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء٢٠].

قيل: «البَر... هو الذي منَّ على السائلين بحسن عطائه، وعلى العابدين بجميل جزائه».

وقيل: «البَر... الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان».

إذا قال العبد: يا رب وهو راكع. قال له الله: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا ربِّ وهو ساجد. قال له: لبَّيك يا عبدي. فإذا قال: يا ربِّ وهو عاصٍ. قال الله له: لبَّيك ثم لبَّيك ثم لبَّيك.

وأنت حينما ترى أمّاً لها ابنٌ شارد عنها بعيد، ولها أولاد بَررة معها دائماً، كلُّ قلبها مع الشارد، كلُّ تعلُّقها مع الشارد، فإذا عاد هذا الشارد إليها فيوم عودته عيد عندها وأيُّ عيد، لذلك الله عز وجل كما روي في الحديث الشريف: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من العقيم الوالد ومن الضالِّ الواجد، ومن الظمآن الوارد» [ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة].

وقيل: «البَر.. هو الذي يحسن إلى السائلين بحسن عطائه، ويتفضَّل على العابدين بجزيل جزائه، لا يقطع الإحسان بسبب العصيان، وهو الذي لا يصدر عنه القبيح، وكلُّ فعله مليح».

مرَّةً ثانية... البَر هو الله عز وجل، أما البِر فهو خير الدنيا والآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهمَّ اجعل نِعَم الآخرة متَّصلة بنِعَم الدنيا، فهناك حالات رائعة جداً... كإنسانٍ متَّعه الله بالصحة، ومتَّعه بالعمر المديد، ومتَّعه بالحب، فلما توفي انتقل

إلى الجنة، هذه النعم العظيمة في الآخرة اتصلت بنِعَم الدنيا، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ﴾ [النساء:١٤٧].

إضاءات على الآيات التي ورد فيها البر ومشتقاته

اسم البَر ورد في القرآن مرَّةً واحدة فجاء في سورة الطور: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨ ﴾ [الطور:٢٨]، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ ﴾ هم في الجنة الآن ويتحدثون عن ربِّهم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨ ﴾ في الدنيا ﴿ نَدۡعُوهُ ﴾. أي: بَرٌّ رحيمٌ في الدنيا والآخرة.

وردت مشتقّات هذا الاسم في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم:١٤].

وفي السورة نفسِها ورد على لسان سيّدنا عيسى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم:٣٢].

معنى ذلك أن الإنسان إذا أراد الله تأديبه في حياة أمِّه ربما كان بعض هذا التأديب لأمِّه.

أي إنَّ جزءاً من إكرام الله لك في حياة أُمِّك من أجل أُمِّك، لأنَّ الله إذا أدَّب عبده في حياة أُمِّه فإن نصف التأديب لأمِّه.

فأحياناً أبٌ يتألَّم من ابنه فيدعو عليه، فإذا استجاب الله دعاءه تألَّم ألماً أشدَّ... فلا تتمنّ ذلك... ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾.

شعور الأب حينما يكون ابنه شارداً منحرفاً، شقياً، بعيداً عن الدين شعور أسىً لا يوصف، فقد يتألَّم ألماً يوجعه ويقعده، لو أنَّ الدنيا كلَّها بيديه وأنفقها من أجل أن

يصلُح ابنه لفعل، فمن رزقه الله ابناً صالحاً، وطاهراً، منيباً، مصلياً، عفيفاً، سلوكه حسن، هذا الأب عليه أن يُقبِّل الأرض شكراً لله عز وجل.

سبحان الله فالإنسان كلما تذلّل إلى الله ارتقى عند الله، أخ كريم له مشكلة كبيرة جداً، فلجأ إلى قيام الليل، يصلي قيام الليل وفي السجود دعا ربّه لحلِّ هذه المشكلة، والقصة من أغرب القصص حُلَّت بشكل هيّن ولا عنت فيه، وقد ذكر لي التفاصيل ومن غير المعقول أن تُحلَّ بهذه الطريقة، ومن شدة تأثُّره وبينما هو يجلس في المسجد قام وسجد لله عز وجل شكراً.

فالمؤمن إذا أصابه خير، أو له مشكلة حُلَّت، له قضية فُرجت، أو شبح مصيبة أزيح عنه، أو شيء ناله، وقام وسجد سجدة الشكر فهذا من مكارم الأخلاق، فقد تأثّرت... قام وسجد وشكر الله على حلِّ هذه المشكلة ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

وردت مشتقات هذا الاسم في آيةٍ ثالثة في سورة عبس قال الله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٥-١٦].

فالبَر، أي: المحسن، مطلق الإحسان... يجوز أن تقول: فلان بَرٌّ سعيد وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال:

«يا أَيُّها النَّاسُ! إنَّ اللهَ قَدْ اذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَها بآبَائِها، فَالنَّاسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى الله، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى الله، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرابٍ، قَالَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣]» [رواه الترمذي].

قال العلماء: يجوز أن تقول فلان بَر... فالعبد يكون براً بقدر ما يفعل من البر، وأفضل إنسان عليك أن تبرَّه أبوك وأمُّك ومن علَّمك ومن زوَّجك، فقد أتألَّم أشدَّ الألم

من صهر يناصب عمَّه العِداء، فقد زوَّجك ابنته وربَّاها عشرين سنة، أطعمها وسقاها وأكرمها وعالجها وأدّبها وأعطاها لك هدية، فليس لك همٌّ بعد ذلك إلا إغاظته؟! فهذا منتهى اللؤم.

لذلك قالوا: أبٌ أنجبك، وأبٌ زوَّجك، وأبٌ دلَّك على الله.

أبٌ أنجبك... الأب النسبي، وأبٌ زوَّجك... وهو عمُّك والد زوجتك، وأبٌ دلَّك على الله وهو من أخذ بيدك إلى الهداية، فهذه الزوجة التي عندك في البيت، وهذا أبوها فإن أسأت إليه أسأت إليها، فليس هناك إنسان إلا وهو يحبّ أمَّه وأباه، فإذا أسأت إلى أُمِّها وإلى أبيها أسأت إليها، فإذا أردتها أن تموت في حبِّك وأنت تسيء إلى أُمِّها وأبيها فهذا فعل إنسان غبي، واعلم أنها لن تحبَّك، فإذا أردت أن تُكافئها على إخلاصها بإخلاصٍ أكرم أبويها، قال مالك بن فهم الأزدي:

أُعلِّمه الرماية كلَّ يوم ... فلما اشتدَّ ساعده رماني
وكم علَّمته نظم القوافي ... فلما قال قافيةً هجاني

إن لم يكن في الإنسان خير لأمِّه وأبيه ولمن علَّمه ولمن زوَّجه فليس فيه خير لأحد، لأنَّ هؤلاء لهم فضلٌ كبير.

سيدنا عبد الله بن رواحة عندما رأى صاحبيه قد استُشهدا في مُؤْتة قال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليتِ
إن تفعلي فعلهما رضيتِ ... وإن تولَّيتِ فقد شقيتِ

لو حسبنا الوقت الذي قال فيهما البيتين لكان عشر ثوان، إذن تردد عشر ثوان في بذل روحه.

قال رسول الله ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه

الأنصار وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهونه قال: «ثم أخذها عبدالله ابن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم قال: «لقد رفعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب رأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: بم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد. ومضى»

[رواه الطبراني ورجاله ثقات من حديث عبد الله بن الزبير].

درجته نزلت لتردده لعشر ثوانٍ... ثم مات شهيداً، إحسان الله كبير جداً، فإذا ترددت في خدمة إنسان بإنفاق، أو بصدقة، أو ترددت بأداء صلاة، أو بحضور مجلس علم فهذه مشكلة كبيرة.

والله جلَّ جلاله يقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨].

هذه الآية عميقة المعنى، فقد تلتقي في عملك وفي محيطك، وقد تلتقي مع أقربائك بنماذج لا يُناصبونك العِداء، ولا ينكرون عليك تديُّنك، بل إنهم أضعف من أن يتمسَّكوا بما أنت عليه، هؤلاء يُقدِّرونك لكنهم ليسوا ملتزمين، لم يصطلحوا مع الله بعد، لم يقبلوا عليه، لكنّهم لا يُناصبونك العداء، بل يقدِّرون فيك هذا الاتجاه الطيب، هذا التديُّن الصادق، مثل هذه النماذج من الناس من الجريمة أن تُسيء إليهم، هؤلاء يقدِّرون، منصفون، وهم غير ملتزمين، فلا تعنِّفهم، لا تناصبهم العِداء، استمل قلوبهم إليك، لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أن تبرُّوهم، أي: أن تُحسنوا إليهم، فإذا لم يكن يصلّي ولكنه لا يُعاديك، أنت إن أحسنت إليه حملته على الصلاة، أنت إن أحسنت إليه حملته على حضور مجلس علم، أنت إن أحسنت إليه حملته على الطاعة.

أن تجد إنساناً غير ملتزم لكنَّه لا يعاديك ويقدِّر فيك تديُّنك، يُكبِر فيك استقامتك، لكنَّه لم يصطلح بعد مع الله، هذا النموذج ينبغي أن تُحسن إليه، وينبغي أن ترعاه، ينبغي أن تُمِدَّ إليه يد المساعدة، ينبغي أن يرى فيك تواضُعاً، وانفتاحاً وإحساناً، لأنه قد ورد: أن يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإنَّ النفوس جُبِلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

وإنَّ كثيراً من المؤمنين ممن هم في أرقى مستويات الإيمان، سبب إيمانه، والتفاته إلى الله وإقباله عليه موقفٌ أخلاقي من مؤمنٍ، فإنه يوم كان متفلِّتاً، وغير ملتزم التقى بمؤمن، فأحسن إليه، وتلطَّف معه، وأكرمه، فانشرح قلبه للإيمان.

فقد قرأت قصة عن عدة فتيات في بلد عربي اشتُهرن بالفن، فهؤلاء الفتيات تُبن إلى الله عز وجل وتحجَّبن واصطلحن معه، وشكَّلن مجتمعاً صغيراً واعتزلن الفن، إحدى اللواتي لم تستقمن ولم تصطلح مع الله ولم تتُب بعد، تاقت إلى أن تعرف حياة هؤلاء النسوة اللواتي اصطلحن مع الله، فذهبت لزيارتهن... والنقطة المهمّة في هذه القصة أنهنّ رحبن بها واستقبلنها ورأت بأُمِّ عينها مجتمع الصدق والوفاء والحب والاستقامة والطهر والعفاف والالتزام، ولأنَّهُنَّ استقبلنها ورحَّبن بها وأرينها ما هنَّ عليه من تواصل، ومن حب، ومن وئام، ومن مودَّة، ومن عفاف، ومن طهر، انضمَّت إليهن، حينما طرقت بابهُنّ لم تكن ملتزمة، لو رفضْنها وطردنْها لبقيت شاردةً، بعيدةً في سكة التّيه والضلال.

لو أنّ إنساناً ليس ملتزماً أراد أن يزورك، أراد أن يلتقي بك، أراد أن يرى على أيِّ شيءٍ أنت، فينبغي أن تفتح له صدرك وأن تُرحِّب به، وينبغي أن يرى من كمالك ومن تواضُعك، ومن كريم خصالك، ومن حبِّك له، هذا الموقف الأخلاقي هو الذي سوف يجُرُّه إليك، هذا الموقف المتواضع هو الذي يحمله على التوبة، ورحم الله أبا الفتح البستي إذ قال:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

أنت لم تكن ملتزماً وقد منَّ الله عليك، واصطلحت معه، وأقبلت عليه، ألا تُحبُّ أن يكون الخير عاماً؟ كيف كنت بعيداً عن الالتزام وجاء أناسٌ تقرَّبوا منك وحملوك على طاعة الله؟ كما فُعِل بك افعل مع غيرك، كما ذكَّرك الله، ذكِّر غيرك، كما أحسن الله إليك أحسن إلى عباده، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى كن سبباً في هداية عباده، لا تكن مغلقاً، لا تكن محدوداً، لا تكن متعصِّباً، لا تكن متشنِّجاً من هؤلاء غير الملتزمين، فماذا يحدث لو رأوا منك الكمال؟

أبو حنيفة النعمان له جار كان يغني طوال الليل، بحيث يعكّر على الإمام ليله، ولا يستطيع أن ينام، ويقول:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

أُلقي القبض عليه، فذهب أبو حنيفة إلى السجن يشفع له، فلما رأى الأمير عيسى بن موسى أبا حنيفة النعمان بمهابته يأتي ليشفع لجاره؛ فأطلق سراح من معه في السجن في تلك الليلة إكراماً له، وفي طريق العودة إلى البيت قال: يا فتى هل أضعناك؟ تقول دائماً: أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا فهل أضعناك؟ فكان هذا الموقف الأخلاقي سبب توبته.

عن أنس ﵁ أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ فمرض فأتاه رسول الله ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [رواه البخاري] فكانت هذه العيادة سببَ إيمانه، وإسلامه واصطلاحه مع الله.

فالبطولة لا أن تكون مكافئاً فحسب، ففي الحديث: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قُطعت رحِمُه وصلها) [البخاري عن عبد الله بن عمرو]

بطولتك لا أن تردَّ على زيارةٍ بزيارة، أو هديةٍ بهدية، أو لقاءٍ بلقاء، أو وليمةٍ بوليمة، فليس لك فضل بذلك، أمّا البطولة فأن تبادر، ألم يروَ عن النبي ﷺ:

«أمرني ربِّي بتسع... خشية الله في السرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأُعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني» [أورده ابن الأثير في جامع الأصول، وقال: أخرجه رزين].

قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾.

أَنْ تَبَرُّوهُمْ، أي: أن تحسنوا إليهم، وما دمنا في هذا الموضوع أذكر لكم آيةً أخرى، يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة:٨].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ لا تحملنَّكم عداوة قوم... وأعداؤكم هم الكفار.. على ألا تعدلوا معهم ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، إن عدلتم معهم قرَّبتموهم إلى الله، وتقرَّبوا منكم، أمّا إن ظلمتموهم فقد أبعدتموهم عن الله.

فلو أن إنساناً يصلِّي وأساء لنفَّر الناسَ من دينه، ولو أنّه يصوم وأساء لنفَّر الناس من دينه، إنسان يؤدي زكاة ماله، لو أساء لنفَّر الناس من دينه، فأنت إما أن تكون مقرِّباً، وإما أن تكون منفِّراً، إما أن تكون جامعاً، وإما أن تكون مفرِّقاً.

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ﴾ [آل عمران:٩٢].

«البِرُّ»... مطلق عطاء الله، إحسانه لكم في الدنيا، إحسانه لكم في الآخرة، سعادةٌ تملأُ القلب، صحةٌ تحفظ الإنسان، هيبةٌ تعين الإنسان على معيشته، كلُّ أنواع الخير تنطوي تحت كلمة البر ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾... أي إذا توهَّمت أنَّ الجنَّة ركعتان تؤدِّيها ودرهمان تنفقهما وانتهى الأمر عند ذلك الحدّ، وافعل بعدها ما تريد فأنت مخطئ كلَّ الخطأ، إنَّ سلعة الله غالية، فاسمع قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ

حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ الشيء النفيس، الوقت الثمين، المال الذي جمعته من كدِّك الحلال، الشيءُ الذي بذلت جهداً للوصول إليه، هذا ينبغي أن تُنفقه... ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله البر

قالوا: من أدب المؤمن مع هذا الاسم العظيم... أن تكون أعماله كلُّها خيِّرةً، أي: يتخلَّق بأخلاق هذا الاسم، إن فعل هذا غُرست محبَّته في قلوب العباد.

ألوان برِّ الله لعباده كثيرة... قال بعض العلماء: «سبحان ربي المنَّان، الذي منَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، والذي منَّ على المؤمنين بأن جعلهم من أصحاب اليمين، وهو الذي ألهمهم القيام بالأعمال الصالحة، وهو الذي رزقهم القبول، وقبول أحسن ما عملوا، وهو الذي يتجاوز عن سيئاتهم».

قال العلماء: حظُّ العبد من هذا الاسم البَر أن يكون مشتغلاً بأعمال البِر، كما قال العلماء «تخلَّقوا بكمالات الله».

الله عز وجل بَر... أي: محسن، أنت ينبغي أن تشتغل بأعمال البِر، وقد جمع الله أعمال البِر في آيةٍ واحدة في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ لا بد من أن تقتطع من وقتك وقتاً كي تؤمن بالله.

فالجانب الاعتقادي ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾.

أما الجانب العملي فأوّله البذل... ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

أما العبادات الشعائرية ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وأما العبادات الأخلاقية... ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

ولعل النبي ﷺ مستلهماً هذه الآية قال:

«علَيْكُمْ بالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ العَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود].

قال العلماء: من شرط البر أن تبذل الأحسن... كما قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، أحياناً أغلى شيءٍ عليك الوقت يجب أن تنفقه في سبيل الله، أحياناً أغلى شيءٍ عليك مكانتك يجب أن توظِّفها في خدمة الحقّ.

قال العلماء: من تخلُّق العبد بهذا الاسم أن يكون مشتغلاً بأعمال البر واستباق الخيرات... وهناك معنى سلبي... وألا يضمر الشرَّ لأحد وألا يؤذي أحداً، فإنَّ البَر هو الذي لا يؤذي.

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «البِرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديَّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان» [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة مرسلاً].

أي أنَّ المؤمن معطاء، وغير المؤمن أخَّاذ، المؤمن بالتعبير الحديث اتخذ قراراً استراتيجياً أن يُعطي... يُعطي من وقته ومن ماله ومن خبرته، والكافر رغبته مبنيَّة على الأخذ.

ما زلنا في الحديث عن أدب المؤمن مع اسم البَر... قالوا: المؤمن متى عرف أنَّ الله هو البَرُّ الرحيم ينبغي أن يكون باراً بكلِّ أحد كما يقول أحد العلماء، لا سيما بوالديه لحديث: «رضا الربِّ في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما» [الطبراني في الكبير عن ابن عمرو].

حُكي عن موسى عليه السلام لما كلَّمه ربُّه رأى رجلاً في أعلى مكانةعند الله فتعجَّب من علوِّ مكانته، فقال: يا رب... بِمَ بلغ هذا العبد ذاك المكان!؟ فقال: إنَّه كان لا يحسُد عبداً من عبادي على ما آتيته، وكان بَرّاً بوالديه.

قالوا: من كان الله بارّاً به عصم عن المخالفات نفسه، وأدام بفنون اللطائف أُنسه، ووفَّر في طريقه اجتهاده، وجعل التوفيق زاده، وجعل قصده سداده، ومنبع سلوكه إرشاده، وأغناه عن أشكاله بأفضاله، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله.

هذا الاسم متعلِّق بالإحسان، بالحركة، فأحياناً تجد المؤمن له خصائص عقائدية، أو خصائص أخلاقية، وكذلك خصائص سلوكية.

والسّنّة المطهّرة أكدت أن البِر حسن الخلق، وكأنّ الدين مجموعة أخلاقية، هذا الذي قاله ابن القيم رحمه الله تعالى: الإيمان هو الخلق، من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

لذلك قال النّواس رضي الله عنه: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن البِر والإثم، فقال صلى الله عليه وسلم البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في مجموعة من أحاديثه الصحيحة فقال: «وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً، وإن خير الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً» [أخرجه أبو يعلى والطبراني عن جابر بن سمرة].

«وأن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن» [أخرجه الطبراني عن أسامة بن شريك].

«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المؤمِنِ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ» [أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء].

«إِنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ» [أخرجه أبو داود عن عائشة أم المؤمنين].

«إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة» [أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك].

وكما قال ﷺ: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس].

من أعظم البِر بِرُ الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤].

باراً بوالديه، يعني هذان اللذان كانا سبب وجودك، إن لم تكن وفياً لهما فلن تكون وفياً لأحد، من أعظم الأعمال بر الوالدين، لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]. فرفع بر الوالدين إلى مستوى عبادته.

أنواع البِر لا تُعدُّ ولا تُحصى، فهناك المساكين والفقراء، وهناك العناية بالأيتام والأرامل، وهناك معاونة العجزة، وأيضاً هناك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، وتعليم العلم، وتعلُّم العلم، فأنواع البرّ لا تعدُّ ولا تحصى، فالاسم حركي، أي أنّ هذا الاسم متعلِّق بأعمالك الصالحة، ولا تنسَ أن حجمك عند الله بحجم أعمالك الصالحة، وأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف:١٩].

المقتدر

سمّى الله نفسه بالمقتدر وقد جاء الاسم مطلقاً منوّناً في آيتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١-٤٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

فالإنسان أحياناً يصل إلى الرفعة عند الناس، لكن هذه الرفعة زائلة، يموت فينتهي كل شيء، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وغنى الغني، وفقر الفقير، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، ولكن الذي عرف الله، واستقام على أمره، وتقرب إليه، له يوم القيامة ثواب كبير: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

أنت إذا عرفت الله فأنت مع القوي، أنت مع القادر، أنت مع القدير، أنت مع المقتدر.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧].

من معاني اسم الله المقتدر

المقتدر لغة اسم فاعل من اقتدر، يقتدر، اقتداراً، فهو مقتدر، وهو أكثر مبالغة من القادر والقدير، المقتدر الوسط في كلِّ شيء، ويقال: رجل مقتدر الخلق أي وسطه معتدل، ليس بالطويل ولا بالقصير.

و«المقتدر» على الشيء هو المتمكّن منه تمكُّنَ إحاطة وقوة تامتين، والمهيمن عليه بإحكام كامل وقدرة فائقة.

قال البيهقي: المقتدر هو تامُّ القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء، أحياناً يكون الحاكم قوياً مقتدراً في بلده طبعاً، أما في بلاد أخرى فليس له عليها أي سلطة، فقدرته ليست كاملة، يقول تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ .

أي ما عرفوه حقّ معرفته، وما عظّموه حقَّ تعظيمه.

قَدّره أي عرفه، من التقدير، وقَدّره من التعظيم، ومنها ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر:١].

لذلك إذا قدرت ربك وعرفته في هذه الليلة المباركة فهذا خير لك من ألف شهر، من ثمانين عاماً فيها عبادة جوفاء، أما هذه الليلة التي عرفت فيها الله عز وجل تعدل عند الله أن تعبده ألف شهر.

المقتدر من الاقتدار، وهو الاستيلاء على كلِّ ما أعطاه الله حظاً من قدرة.

«المقتدر» يقتدر على أقوى الأقوياء.

والمقتدر هو المتمكن من الفعل بلا واسطة، أنت متمكن أن تصل إلى حلب، ولكن بواسطة سيارة، متمكن أن تصل إلى أمريكا لكن بالطائرة، متمكن أن تجلب الماء، لكن بعد حفر بئر، فالإنسان يعتمد على الوسيلة، وهذا أحد أسباب ضعفه، الإنسان ليس من شأنه كن فيكون، هناك شح مياه، لا يملك الإنسان قراراً بإنزال المطر، أمّا الله عز وجل فقراره كن فيكون، زل فيزول.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

فالعلّة الغائيّة لا تليق بجلال الله عز وجل، نحن -البشر- مقهورون بالوسيلة، نخترع ميكروسكوب كي نرى ما لا تراه عيننا، فنحن رأينا الأشياء الدقيقة بواسطة.

المقتدر هو الذي يقدِّر الأشياء بعلمه، وينفذُّها بقدرته، فعلمه مطلق، وقدرته مطلقة.

فالمقتدر يجمع دلالة اسم الله القادر والقدير معاً، اسم الله القادر هو الذي يقدِّر المقادير بعلمه، وعلمه هو المرتبة الأولى لقضائه وقدره، والله قدّر كلَّ شيء قبل تصنيعه وتكوينه، ونظّم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده، فالقادر يدل على التقدير.

أمّا القدير فهو الذي يخلق بقدرته المطلقة وفق علم سابق، أحياناً يكون هناك تخطيط محكم جداً، ثمّ يأتي التنفيذ مطابقاً للتخطيط مئة بالمئة.

إذاً المقتدر فيه معنى العلم المسبق، القطعي، المطلق، الكامل، ومعنى القدرة القوية، المطلقة التي تنفّذ هذا التخطيط.

أحياناً يخطّط الإنسان، لكن لا يستطيع أن ينفذ، نقول عن أعدائنا: ما كلُّ شيء خططوه استطاعوا تنفيذه، إذاً قدرتهم ليست تامة، إمّا أنّ تقديرهم كان خاطئاً، أو أن التقدير جيد، لكن نشأت مستجدات لم تكن في الحسبان، الآن أعداء المسلمين الأقوياء

فقدوا الحسم، كانوا فيما مضى يخطّطون، وينفّذون، ويحسمون الأمر لصالحهم، وانتهى الأمر، الآن يخططون، يبدؤون في التنفيذ، تنشأ مستجدات تحول بينهم وبين التنفيذ، إذاً ليسوا مقتدرين، والله وحده هو المقتدر، فإذا كنت معه فمن يستطيع أن يصل إليك؟ من يستطيع أن ينال منك؟ إذا كنت مع القوي فأنت القوي.

فالمقتدر بدايته من التقدير، ونهايته من القدرة.

إذاً المقتدر: إما من القدرة أو من التقدير، وفرقٌ بين القدرة والتقدير، فالقدرة هي القوّة، أمّا التقدير فمتعلّق بالعلم والمهارة، فلذلك جاء في بعض المعاجم أنَّ القدير والقادر والمقتدر من أسماء الله عز وجل، يكونان من التقدير ويكونان من القدرة.

فمثلاً يجب على الطبيب أن يضع مبضع الجرَّاح في هذا المكان بالذات، لو أخَّره قليلاً لانقطع العصب، ولشُلَّ الإنسان، فوضع هذا المشرط في المكان المناسب من التقدير... أما أن يحتاج الشيء إلى قدرةٍ قادرة... هذا من القدرة، فاسم القادر والقدير والمقتدر ترد إلى موضوعين ومنهما اشتقت، من موضوع التقدير، ومن موضوع القدرة.

وهناك فرق آخر بين القادر والمقتدر، فالقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود.

ومعلومٌ أن الكون كلَّه ممكن الوجود، فالذي أوجد الممكن هو الله عز وجل، والذي سينهي هذا الممكن هو الله عز وجل، هو قادرٌ على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود.

أما المقتدر فهو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجهٍ لا يقدر عليه إلا الله، فأحياناً تشعر بمشكلة ليس لها حلٌّ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى عنده حلُّها، فهو مقتدر على أن يصلح الخلائق على وجهٍ لا يستطيعه إلا هو.

عندنا قاعدة لغوية وهي أنَّ كلَّ زيادة في المبنى زيادة في المعنى، فالقادر... أربعةُ حروف وهي: قاف، ألف، دال، راء، اسم فاعل.

أما المقتدر... فهي خمسةُ حروف، فالمقتدر حروفها أكثر إذاً معناها أوسع، والعلماء قالوا: هي مبالغة من اسم القادر، فماذا تعني المبالغة إذا نُسبت إلى الله عز وجل؟ أي أنَّ الله عز وجل على كلِّ شيءٍ قدير مهما تعددت الأشياء، وقدير على أكبر شيء مهما كبر، فإما المبالغة مبالغة عدد، أو مبالغة نوع.

فإذا قلنا إنَّ الله عز وجل فعَّال لما يريد... فعال صيغة مبالغة أي مهما كان الفعل كبيراً يفعله الله، ومهما كانت الأفعال كثيرة يفعلها الله كلَّها، أما اسم المقتدر فيفيد معنى القادر مبالغةً وأكثر تعظيماً، المقتدر هو المستولي على كلِّ شيء، المقتدر على جميع الممكنات، صاحب القدرة العظيمة، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتناهي في الاقتدار.

فمثلاً... هل هناك في الأرض قوةٌ مهما كبرت تستطيع أن تزيح جبلاً مئة كيلومتر؟! فلو طلبنا من أكبر جهة هندسية أن تنقل لنا جبل قاسيون بأكمله من دمشق إلى حلب هل تستطيع؟ مستحيل، أما الله عز وجل فيقول: كن فيكون... قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالله على كل شيء قدير.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

فقد قرأت مقالة عن بناء في ألمانيا مؤلَّف من عشرة طوابق، ولا بد من أن يُهدم ليُشَقَّ شارع مكانه، فجاءت شركة وعرضت على صاحب البناء أن تأخذ منه نصفَ تكاليف البناء وأن تنقل البناء إلى مكان آخر، وقد نقلوه ثلاثين متراً، وبالفعل تمّ نقله فهذا شيء يكاد لا يصدَّق، وشعرنا باندهاش ما بعده اندهاش من أجل بناء مؤلَّف من عشرة طوابق، نقلوه ثم قاموا بوصل المياه والكهرباء بعد أن حرَّكوه على أسطوانات وهيؤوا له أساسات، وبذلك تم نقل البناء وأخذوا نصف تكاليفه.

أما الله عز وجل فهو على كل شيء قدير، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

وفي مجال السفن البحرية، فهناك الآن سفنٌ حمولتها مليون طن، فقد قرأت عن بعض السفن أنّ قوتها تبلغ أكثر من ثلاثة آلاف حصان، وهناك سفن تأخذ الفلزات من قارة استراليا وتقوم بتصنيعها في الطريق وتنقلها إلى قارةٍ أخرى وهي مصنَّعة، هذه السفن العملاقة التي هي كالجبال، موج بسيط يجعلها كريشةٍ في مهبِّ الريح، فبعض الأمواج يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً، بارتفاع بناء، فهذه قدرة الله عز وجل.

أما في مجال الزلازل... فهل تعلم أن مدينة بأكملها ابتلعتها الأرض بفعل الزلزال في أربع ثوان؟!... فمدينة بالمغرب اسمها أغادير وهي مدينة سياحية وساحلية جميلة جداً، وفيها من الفسق والفجور ما لا يوصف كنوادي العراة وغير ذلك من الموبقات. أصابها زلزالٌ وخلال أربع ثوانٍ أصبحت تحت الأرض، وأبرز بناء فيها فندق من أضخم الفنادق في العالم ومؤلَّف من ثلاثين طابقاً، أصبح الفندق بأكمله تحت الأرض وبقي اسمه الذي على الطابق الأخير كشاهدٍ على هذا الفندق.

ففي ثانية واحدة تجد مدينة استغرق بناؤها خمسين عاماً يبتلعها الزلزال فيما يشبه لمح البصر، ألا فلتعلم إذاً أنَّ الله مقتدر وأن قدرتَهُ غير متناهية.

ويقولون عن مثلث برمودا: إن سفناً عملاقة دخلت إليه فاختفت وليس لها أثر، وكذلك الطائرات دخلت في محيطه فسقطت وليس لها أثر، وحتى الآن يصعب عليهم تفسير ذلك، ولا أحد يعلم ما سر هذا المثلث الواقع في المحيط الأطلسي -شمال شرق جزر الأنتيل- وهناك أشياء يتحدَّى الله بها عباده.

مدينة كان يسكنها الرومان حينما كانوا في أوج قوَّتهم وسيطرتهم على العالم، تقع بالقرب من سفح أحد جبال إيطاليا اسمه فيزوف، يطل على هذه المدينة، ثار في سفح الجبل بركان أرسل رماداً بركانياً حرارته ثمانمئة درجة وسمكه ثمانية أمتار غطى المدينة

بأكملها بمن فيها كما غطى شوارعها وبيوتها وقصورها وحمَّاماتها، بدأ هذا البركان يثور بعد الظهيرة والطعام على الموائد، وعندما غطى هذا الرماد البركاني هذه المدينة مات كل شيء فيها، ولكن بعد حين أصبح هذا الرماد صخرياً وبعد مئة عام جاؤوا بهذه الصخور وثقبوها فوجدوا في داخلها فراغات فحقنوها بالجبس السائل، ولما جفَّ هذا الجبس وجدوا أشكال الناس فيه، فأمٌّ مثلاً تنحني على ابنها، كما وجدوا أنواع الطعام الموضوعة على الموائد، أُناسٌ دفنهم البركان، وعلائم الهلع على وجوههم، استطاع العلماء بهذه الوسيلة أن يروا حالة مدينةٍ أهلكها الله دفعةً واحدة، حتى إن بعض النساء يأخذن الحلي ليضعنها في صدورهن حفاظاً عليها ظناً منهن أنهن سيبقين على قيد الحياة، وعندي مقالات واضحة جداً تتحدث عن هذا الزلزال وفيها تلك الصور، فقدرة الله عز وجل لا نهاية لها.

المقتدر عظيم القدرة المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتمكِّن بسلطانه.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:٤٥].

انظر إلى صور الأعاصير في أمريكا، فتجد إعصاراً يأتي على مدينة بأكملها فيها معامل وأبنية وحدائق ومتنزَّهات وفيها آليات ومركبات، هذه المدينة على سعتها وضخامتها يذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فسرعة الهواء ثمانمئة كيلومتراً في الساعة، نحن بحمد الله ليس في بلادنا رياحٌ مثل هذه الرياح والأعاصير المدمِّرة التي لا تبقي على شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم، هذه كلُّها من آيات الله عز وجل... ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر:٤٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

أوسع كلمة على الإطلاق في شمولية معناها كلمة شيء، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهنا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢] و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٠].

وفي سورة الزخرف قال تعالى: ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف:٤٢].

فإذا شعر الإنسانُ أنَّ أحداً قادر عليه تعامل معه بالحسنى، فكيف إذا شعرت بأنَّ الله في كلِّ ثانية مقتدر عليك؟

المقتدر من معانيها التقدير، فحاسة البصر لها حساسية معينة فلو زادت هذه الحساسية لرأيت البكتريات في الماء فلم تشرب الماء، لرأيت هذا الجلد أخاديد، ونتوءات، وحفر، وغابات من الشعر، فلا تستطيع أن تنظر إلى إنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القدر:٤٩].

لو أنَّ الموجة الصوتية لا تتخامد لكانت الحياة في الأرض لا تحتمل، أصوات أمواج البحر في كلِّ مكان، كلُّ أصوات الأرض تصل إلى كل أنحاء الأرض، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة أنَّ الموجة الصوتية تتخامد، هذا المكان فيه هدوء، الشارع التحتي فيه ضجيج، الضجيج لا يصل إلى هنا، الموجة الصوتية تتخامد، بينما الموجة الكهرطيسية لا تتخامد.

أرسلوا مركبة إلى المشتري، سارت بأسرع سرعة صنعها الإنسان، أربعون ألف ميل في الساعة، بقيت تمشي ست سنين، إلى أن وصلت إلى هناك، وأرسلت رسائل عن طريق الموجات الكهرطيسية، هذه الموجات لا تتخامد، حكمة الله من تخامد الموجة الصوتية أن تستمر الحياة في الأرض.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩].

إن الإنسان قد تُجرح يده، فإذا تناول طعاماً فيه حمض شعر بلذعة في يده، معنى ذلك أن الأعصاب مقدّرة تقديراً دقيقاً جداً.

ولو أنَّ عتبة السمع ازدادت لسمع الإنسان حركة أمعائه ولم ينم الليل كله، فإذا وضع الإنسان إصبعه بإذنه انتقل الصوت عن طريق العظام فيجد دوياً كأنَّ معملاً بجسمه.

فالعين لها قدرٌ معلوم، والأذن لها قدرٌ معلوم، وحساسية الجلد لها قدرٌ معلوم... ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

نصيب المؤمن من اسم الله المقتدر

قال العلماء: من أدب المؤمن مع ربِّه المقتدر أن يستحضر قدرة الله دائماً أمامه.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيِّ قالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاماً لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتاً: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» [صحيح مسلم].

أوقف الحجاجُ رجلاً بين يديه ليقتله، فقال له الرجل: أسالك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، أن تعفو عني.

فعندما يتحرَّك الإنسان ويعلم دائماً أنَّ الله على كل شيء قدير، يكون في حركته رحمة.

كان ﷺ يعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّم السورة من القرآن يقول: «... إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ...» [صحيح البخاري من حديث جابر بن عبدالله].

أي: أستعين بقدرتك على تحقيق هذا الأمر... وأطلبُ منك أن تجعل لي يا رب قدرةً على المطلوب لأني ضعيف.

ذكرت هذا الحديث لقول النبي ﷺ: «أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم»، فالإنسان ضعيف والله هو القدير.

المؤمن إذا كان مع المقتدر فإنّه يشعر بالقوة، فالمؤمن ضعيف كأيّ إنسان لكنّه يستمدُّ قوَّته من المقتدر، إذاً لا ينافق، إذاً لا يتضعضع أمام القويّ والغنيّ، يشعر بقوة فيرفع رأسه عالياً، يشعر بقوّة لأنّ مصيره بيد الله، ولأنّ الله جلّ جلاله لم يسلِم الأعمار والأرزاق لبني البشر، فالعمر والرزق بيد الله وحده.

قال الحجاج لسعيد بن جبير: سأقتلك، قال له: والله لو علمت أن حياتي بيدك لعبدتك من دون الله، ولكن حياتي بيد الله.

لمجرد أن تؤمن أنّ حياتك بيد الله، فإنّك ترفع رأسك عالياً، ولا تنافق، ولا تنبطح، ولا تتذلّل، ولا تتضعضع.

«من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه» [البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود] .

فإذا كنت مع المقتدر شعرت بالقوة، والمؤمن يشعر بقوته التي يستمدّها من الله، إنّه واضح، سريرته كعلانيته، وسرّه كجهره، وخلوته كجلوته.

«تركتكم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا ضال» [أحمد وابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية].

تشعر بالقوة إذ كنت مع المقتدر، ومن جهة أخرى تشعر بالضعف أمام المقتدر، إذا كنت مع المقتدر تشعر أنّك في حماه، تشعر أنّ قدرته تحميك، أنّ قدرته تحول بينك وبين أعدائك، الإحساس بالقوّة من لوازم الإيمان بالمقتدر، وأنت أمام المقتدر ضعيف، والضعف يجعلك متواضعاً.

المؤمن له حالان، حالة تواضع لأنه رأى عظمة الله عز وجل، وحالة قوّة لأنه استعان بالله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله.

هذان المعنيان ضروريان جداً، الإنسان أحياناً تغيب عنه قدرة الله فيتحرّك بحمق وغباء، فالله عز وجل يؤدّبه أشدَّ التأديب.

وأيُّ إنسان لا يدخل الله في حساباته يكون أغبى الأغبياء، وأحمق الحمقى.

هناك أناس كثيرون لضعف إيمانهم، ولضعف معرفتهم بالله، وهم أقوياء يتحرّكون بغطرسة، وكبر، واستعلاء، وقد يبطشون، ثم يفاجؤون أنَّ الله يبطش بهم.

أمّا أثر هذا الاسم في عبودية اللسان فيظهر حينما يعلِّق الموحّد أفعاله على مشيئة الله، فيقول: أفعل هذا إن شاء الله، هو عازم على التنفيذ لكنّه ربط مشيئته بمشيئة الله، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

وقد علَّمنا النبيّ ﷺ موقف الموحِّد فيما وقع ومضى من الأحداث: «فلا تَقُل: لو أنّي فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله وما شاءَ فَعَل فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشيطان» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة].

آخر كلمة أقولها في موضوع اسم المقتدر: إن عرفت قدرته وقدره خضعت له، واستعنت به، واعتمدت عليه، وتوكَّلت عليه، فأصبحت أقوى الأقوياء، وإن عرفت قدرته صَغُرت نفسك ووقفت عند حدِّها، وافتقرت إليه وتحققت عبوديَّتك، فأنت تعبده إن عرفته، وتستعين به إن عرفته، وهذا ملخَّص اسم المقتدر.

المليك

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة حيث إنَّ أبا بكر ﷺ، قال: يا رسول الله مُرني بشيء أقوله إذا أصبحت، قال: «قُلِ اللهمَّ فاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَن لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطانِ وَشِرْكِهِ. قالَ: قُلْها إذَا أَصْبَحْتَ، وَإذَا أَمْسَيْتَ، وَإذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ» [رواه الترمذي].

من معاني اسم الله المليك

المَلِك يحكم ولا يملك، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم، هناك إنسان مالك لأرض، ولكن ليس له حقّ التّصرف فيها، وهناك إنسان ملِك، هذه الأرض يحكمها ولكنّه لا يملكها، لكنَّ الله جل جلاله ملك ومالك، يملك ويحكم، والمُلك في الدنيا،

والملكوت في الآخرة، المُلك في عالم الشهادة، والملكوت في عالم الغيب، والله -جل جلاله مالك المُلك والملكوت.

والمليك مِلك ومالك، وصاحب الملك والملكوت، والمليك يملك كل شيء، خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

للتوضيح: قد تملك المنفعة، ولا تملك الرّقبة، وقد تملك الرّقبة، ولا تملك المنفعة، وقد تملكهما معاً، ولا تملك المصير، ولكنّ الله جلَّ جلاله يملك كلَّ شيء خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

معمل طائرات حربية يصنع طائرة، صنعها وباعها، الآن أمرها بيد مَن؟ بيد من اشتراها، فقد تقصف بلاداً لا يرضى صانع الطائرة أن تُقصف، لكنّها خرجت من يديه.

لكن ولله المثل الأعلى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر:٦٢].

يملك ويحكم.

﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ ﴾ [الأعراف:٥٤].

قد تصنع طائرة، وقد تأتمر بأمرك، ولكن قد تفاجَأ بأنها سقطت، فأنت لا تملك مصيرها إذاً.

المليك صيغة مبالغة، تدل على كمال الملكية ودوامها أزلاً وأبداً، فهو -جلّ جلاله في أعلى درجات الملك، وهو يملك كلَّ شيء.

الله عز وجل مليك، بمعنى أنّه مالك لكلِّ شيء يُملّك، يملك الحياة، فهو الذي يهب الحياة، وهو الذي يأخذها.

هناك قصة قبل أكثر من عشر سنوات: تحطّمت نافذة طائرة متّجهة من السعودية إلى باكستان، وكان إلى جانب هذه النافذة امرأة من باكستان معها ولدان صغيران،

فخرجا من نافذة الطائرة، والطائرة مضغوطة ثمانية أمثال حاجتها من الهواء، الموت محقّق، الشيء الذي لا يُصدَّق أنّ الطفلين بقيا حيّين، لأنهما سقطا إلى جانب صياد، فرأى شيئاً من السماء يسقط، تتبع الشيء فإذ هما طفلان، أخذهما إلى القارب وأبلغ السلطات، وبلغت السفارة في باكستان، وجاءت الأم وأخذت ولديها.

الله عز وجل واهب الحياة، وهو الذي يأخذ الحياة بأقلّ سبب، وهناك قصص لا تعدُّ ولا تُحصى في مثل هذا.

قد يتمتع الرجل بأعلى درجات الصحة، ولا يشكو من شيء، وفي ثانية واحدة يصبح خبراً على الجدران، فلذلك الله مالك الحياة، ومالك الرزق.

وَلَو كانَتِ الأَرزاقُ تَجري عَلى الحِجا ... هَلَكنَ إِذَن مِن جَهلِهِنَّ البَهائِمُ

إنسان يتمتّع بأعلى درجات الذكاء، ورزقه محدود جداً، وإنسان أقلُّ ذكاء منه بكثير وله رزق وفير، فالله مالك الحياة، ومالك الرزق، مالك السمع والبصر والقوّة، وقد جاء في الحديث أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» [الترمذي].

من تكريم الله للإنسان أن يمتّعه بسمعه وبصره، وعقله وقوّته ما دام حيّاً، من يملك نموَّ الخلايا؟ إذا نَمت الخلايا نموّاً عشوائياً ينتهي الإنسان، من يملك الشرايين؟ من يملك مرونتها؟ الله جل جلاله، مَن يملك سيولة الدم؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن حولك؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن فوقك؟ الله جل جلاله، مَن يملك مَن دونك؟ الله جل جلاله، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ يا رب، ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

إنّ أخاً أظنّه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً، قال كلمة خطيرة، قال: الدراهم مراهم، تحل بها كلّ المشكلات، فأدّبه الله بأن أدخله السّجن المنفرد، وبقي فيها سبعة وستين يوماً، وفي كلّ يوم يخاطب نفسه معاتباً: الدراهم مراهم؟!

المليك بيده كلّ شيء، بيده حواسك، بيده نشاطك وقدرتك، بيده زوجتك، بيده أولادك، إذا رضي الله عنك خدمك عدوُّك، وإذا غضب عليك تطاول عليك أقرب الناس إليك.

والمليك ملّكنا حرية الاختيار، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨].

جيء لسيدنا عمر بشارب خمر، فقال: «أقيموا عليك الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر عليّ ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار».

أعطانا كوناً ينطق بكماله، وبوجوده، ووحدانيته، أعطانا وقتاً هو غلاف عملنا، أعطانا منهجاً تفصيلياً يهدينا إلى سواء السبيل، ثم أعطانا حرية الاختيار، وعند الموت تستردّ هذه الحرية فالله تعالى هو مالك وملك يوم الدين.

فالمليك ملّكك الحرية، وعند الموت استردَّها منه. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وأنت حيٌّ تُرزق والقلب ينبض، والنَّفس يخرج، يمكن أن تفعل كلَّ شيء، يمكن أن تتوب من كلِّ الذنوب، يمكن أن تصلح كلَّ العيوب، يمكن أن تفتح مع الله صفحة جديدة.

فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٤].

والذي قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

أكفر كفار الأرض عند الموت قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

إذاً: أهل الأرض قاطبة عند الموت تُكشف لهم الحقائق.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق:٢٢].

إذاً: خيارنا مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض، بل خيار وقت، فلا بد من أن نؤمن في الوقت المناسب، أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، أن تؤمن وأنت في مقتبل العمر، أن تؤمن والدنيا بين يديك. أن تؤمن وأنت في أتمِّ درجات القوة، أن تؤمن وأنت غني، أمّا عند الموت فما من إنسان على الإطلاق إلا وتُكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء.

يقال: ابدأ من النهاية، والمؤمن الصادق يبدأ من الموت، إذا بدأ من الموت أفلح في حياته، يقول: هذا العمل سأحاسب عليه، هذا الدخل مشبوه سوف أحاسب عليه، هذا الطلاق لا يرضي الله سأحاسب عليه، حينما تبدأ من النهاية تبدأ من وقفتك بين يدي الله عز وجل، عندئذٍ تستقيم على أمره.

ومن معاني المليك: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح:١١].

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء، هل يعقل أن تضغط مضامين دعوة الأنبياء جميعاً بآية واحدة؟

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

أيّ خلل في أجهزتك يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، فجأة خثرة في الدماغ تصيبه بشلل، وفي مكان بفقدِ البصر، وفي مكان بفقدِ الذاكرة.

قبل أن تقول كلمة، قبل أن تَصِل، قبل أن تقطع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تبتسم، قبل أن تتجهّم، هل جهّزت جواباً لله عزَّ وجلَّ؟

نصيب المؤمن من اسم الله المليك

حينما تعرف أنَّ الله بيده كل شيء تتجه إليه وحده، تعلّق الأمل عليه، لا تعلّق أملاً على غيره، لا تضعضع إلا في أعتابه.

«اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير» [أخرجه تمام وابن عساكر عن عبد الله بن بسر].

وحينما تعرف المليك تسعى لمقعد صدق عنده وحده وتعتمد مقاييسه وتعرض عن مقاييس خلقه المصطنعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

فالبشر لهم مقاييس، يُكْبِرون الغني، يُكْبِرون القويَّ، يُكْبِرون الوسيم، يُكْبِرون الذّكيّ، لكنّ خالق البشر من خلال القرآن الكريم يعتمد قيمة العلم، وقيمة العمل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٢٣].

والقرآن الكريم من عند الخالق العظيم، اعتمد قيمة العلم والعمل، بينما أهل الدنيا اعتمدوا القوة والمال، والوسامة والذكاء، والبطولة أن تأتي مقاييسك وفق مقاييس القرآن، لا وفق مقاييس البشر، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» [رواه مسلم].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» [رواه الترمذي].

فالبطولة أن تكون صاحب: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ .

والطريق إلى ذلك أن تكون من المتقين، تطيع الله فلا تعصيه، وتذكره فلا تنساه، وتشكره فلا تكفره.

الأوّل

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

وورد في السّنّة الصحيحة، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أَنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بَعدَك شيء، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوْقَك شيء، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء، اقْضِ عنا الديْنَ وأَغْنِنا من الفقرِ» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الأول

الأوّل: هو الذي يترتّب عليه غيره، شيء يُبنى على شيء، ونتيجة تؤسَّس على مقدمة، هذا المعنى الجامع، أما التفاصيل: فالأول هو المتقدِّم زمانَه، المحّرم، ثمّ صفر، ثم ربيع الأول وهكذا، فالأوّل هو الذي يأتي أولاً زماناً يعني التّقدُّم زماناً.

المعنى الثاني؛ التَّقدم رتبةً، فلان الأول على طلاب الصف، فلان الأول في التّجارة، فلان الأول في الصناعة، الأول في العلم، هذا التّقدم تقدُّم رُتَبِيٌّ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤].

لا يُعقل أن يُعلَّم الإنسان القرآنَ قبل أن يُخلق، فهذا التقديم تقديم رُتَبِيٌّ وليس زمنيّاً.

المعنى الثالث، المتقدِّم مكاناً، أنت في الطريق إلى حلب، حمص قبل حماة، وحماة قبل حلب، فحمص أولاً وحماة ثانياً وحلب ثالثاً، إذاً هناك تقدّم زمنيّ وتقدّم مكانيّ وتقدم رُتَبِيٌّ.

المعنى الرابع التَّقديم في الترتيب، وهذا يُستخدم في الصناعة ترتيب المحرِّك أولاً، ربطه بالعجلات ثانياً، ربطه بالكهرباء ثالثاً، إذاً هناك أولويّة في الزّمان، أولويّة في المكان، أولويّة في الترتيب، أولوية في الرّتبة، هذه المعاني الأربعة مستفادة من معنى الأوَّل.

أمّا إذا قلنا: الله هو الأوّل، فمعناه أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يسبقه في الوجود شيء، لكن لا ينبغي أن تقول: زماناً، لأنَّ الزّمن من خلق الله، لم يسبقه في الوجود شيء، هذا هو الذي ينبغي أن نقوله في شرح معنى اسم الله الأول.

هناك معنى آخر متعلِّق بالله عز وجل؛ الأول هو الذي لا يحتاج إلى غيره، فكلُّ شيء يحتاج إلى غيره فليس أولاً، المنضدة تحتاج إلى خشب، إذاً ليست هي الأول، الخشب يحتاج إلى أن ينبت، إذاً ليس هو الأول، النبات يحتاج إلى بذر، ليس هو الأول، البذر يحتاج إلى نبات يخرج منه، النبات ليس هو الأول، فكل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً.

فالمعنى الثاني إذاً: هو الشيء الذي لا يحتاج إلى غيره، هذا معنى الأول بالنسبة لله عز وجل.

المعنى الثالث: الشيء المستغني بنفسه في وجوده، لو أنَّ شيئاً يفتقر في استمرار وجوده إلى شيء آخر ليس أولاً، المادة الأوليّة سبب استمراره، ما دام هناك شيء يعين

على استمرار الوجود، فهذا الشيء ليس أولاً، المادة الأولية هي الأول، فثلاث معانٍ مستفادة من اسم الله العظيم الأول هو أنه لم يسبق وجودَه شيء، والثاني لا يحتاج إلى غيره، والثالث المستغني بنفسه، فهذه الثلاثة تشكّل معنى الأول.

النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره» [البخاري من حديث عمران بن حصين].

كان هنا فعل ماض تام، لو قلنا: كان الجو صاحياً، فكان فعل ماض ناقص، أمّا كان الله: فهو فعل تام، إذاً هذه كان التامة الكاملة التي تحتاج إلى فاعل، وتكون بمعنى وُجِدَ، أما كان الناقصة فلا تعني حدوث عمل.

بالمناسبة، الورقة، إذا مزّقتها، هذا التمزيق حدوث عمل، الفعل التام يدل على حدوث عمل، أما الفعل الناقص فلا يدل على حدوث عمل، يدل على زمن فقط، إذا قلت: الجو صاح، هذا تركيب اسمي، أمّا إذا قلت: كان الجو صحواً، ماذا أضفت؟ المضي فقط، كان الناقصة لا تفيد حدوث العمل، تفيد مضي الزمن فقط، الجو ممطر، كان الجو ممطراً البارحة، فكأن «كان» شدت هذا التركيب الاسمي إلى الماضي شداً، أمّا إذا دلت على حدوث عمل فقد أصبحت كان التامة إعرابها فعل ماضٍ تام، تحتاج إلى فاعل مرفوع، كان الله، وجد الله، الله لفظ الجلالة فاعل، ومن ذلك قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، -حيثما وجدت- وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» [الترمذي من حديث أبي ذر].

النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره»[1]، والحقيقة، هذا الاسم العظيم ورد في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

---

(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل =

من معاني هذا الاسم أنّك مهما أوغلت في النهاية فإنّك ستصل إلى الله، فالله وراء كل شيء، وسبب كلِّ مسبَّب، فهو الأول والآخر، أحياناً يقع حدث ما سببه؟ سبب آخر مادي فما سبب هذا السبب؟ سبب آخر مادي من مسبب الأسباب؟ الله وهو الأول، إذا تحركت نحو الوراء بسلسلة يجب قطعاً أن تنتهي إلى الله، هو الأول.

إنسان حرَّك يديه، كيف حرَّكهما؟ لأنه حيّ، من أعطاه الحياة؟ الله جل جلاله، إذاً هو الأول.

حصل زلزال: من أحدث هذا الزلزال؟ هذا الزلزال نتيجة اضطراب القشرة الأرضية، من جعلها تضطرب؟ الله هو الأوّل. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠].

بالمناسبة هذا المعنى له تطبيق رائع، الإنسان أحياناً يُصاب بمصيبة؛ فمن ضعف توحيده، أو لضيق أفقه، يصبُّ جام غضبه على من جاءته هذه المصيبة على يديه، لو تعقّل، لو كان توحيده أقوى لرأى يد الله هي التي عملت في الخفاء، لرأى يد الله فوق أيديهم.

لذلك ربنا عز وجل قال: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

= اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبلنا يا رسول الله! قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض». فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها [رواه البخاري].
قال ابن حجر رحمه الله تعالى: تنبيه! وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث.

أن تصبر على ما أصابك، فإن ذلك من عزم الأمور، هناك آية أخرى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٣].

هذه اللام (لمن عزم الأمور) هي اللام المزحلقة، وهي لام التوكيد، فهنا في الآية توكيد، معنى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يعني قضاء وقدر جاء على يد إنسان، الإنسان أحياناً ينقم على هذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه هذه المصيبة.

فلو افترضنا -لا سمح الله ولا قدر- أن طفلاً وقع من الشرفة، نزل ميتاً، الأب يتألّم أشدَّ الألم، وقد يتفطَّر قلبه، لكن يحقد على من؟ يقول: هذا قضاء وقدر، أمّا لو أنَّ سائقاً قتل طفلاً، الأب في ساعة غفلة، في ساعة غضب شديد ولنقص في توحيده يصبُّ كلَّ نقمته على هذا السائق، إذا عرف أن الله هو الأول في كل حادث، هو المسبب، هو مسبب الأسباب، طبعاً يأخذ حقَّه لكن لا يحقد، لأنَّ الحقد من لوازم الشرك.

هناك رجل يملك محلاً تجاريّاً، اختلف مع أحد موظفي المحل، هذا الموظف يعرف الدخائل والمخارج، فأبلغ بعض الجهات عن بضاعة غير نظامية، فضُبطت المستودعات، وغُرِّم بمبلغ كبير جداً، غرامة لهذه المخالفة الجمركية، فصاحب هذا المحل، بساعة من ساعات الغضب، أخرج مسدساً وأطلق النار على هذا الموظف فأرداه قتيلاً فأودع في السجن ثلاثين عاماً، لو كان موحِّداً لما رأى هذه المصيبة من هذا الشخص، بل رأى يد الله فوق يديه، وأنَّ الله هو الأول، هو مسبب الأسباب، ولعلَّ الله عز وجل يعوضه عن خسارته، ولعل الخسارة وقعت لذنب اقترفه.

الخلاصة أنك إذا آمنت أن الله بيده كلُّ شيء، هو الأول، لا تحقد على أحد، كما لو أنَّ إنساناً تلقى ضربةً بعصاً، فهل يحقد على العصا؟ أم على الذي ضربه؟ العصا لا تقدم ولا تؤخر، ويجب أن تعلم أنَّ الناس جميعاً، حتى الأقوياء، وحتى الأشرار إنما هم عصي بيد الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل على لسان نبيه: ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٥-٥٦].

وهذه الآية لها معنى مهمّ، يعني إذا كانت مجموعة وحوش كاسرة مربوطة بأزمَّةٍ بيد إنسان عظيم رحيم عادل منصف حكيم، فأنت ينبغي أن تخاف من هذه الوحوش أم من الذي يملك ناصيتها؟

فالكافر المشرك ضعيف الإيمان يخاف من الوحوش، والمؤمن يخاف من الذي يملك أزمَّتها، فإذا اصطلح معه أبعدها عنه، أما إذا عصاه، فسوف يرخي لها أزمّتها وتصل إليه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

ويقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة:٦٠].

يعني لم يسبقنا في الوجود أحد، وما نحن بمسبوقين، كان الله ولم يكن معه شيء، وسيدنا علي رضي الله عنه، سئل: «متى كان الله؟» فأجاب إجابةً رائعة: «ومتى لم يكن».

هو الأوّل بكل ما سواه، المتقدِّم على كلِّ ما عداه، فكلُّ ما سوى الله يأتي بعد الله، من دون الله، هو الأول، والمتقدم على كل ما عداه هذه الأولوية ليست بالمكان ولا بالزمان، ولا بأيِّ شيء في حدود العقل أو العلم.

يقول بعض العلماء: «الله سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً، هو الأول أظهر من كل ظاهر، لأن العقول تشهد أن المحدثات لها موجد متقدم عليها وهو سابق الوجود».

فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة، أنّ كلَّ شيء محدَث له محدِث، كلَّ شيء موجود له موجِد، فمن بديهيات العقل: أنَّ الموجِد قبل الموجود، وأن المُحْدِث قبل الحادث، وأن الخالق قبل الخلق، وأن المدبِّر قبل المدبَّر وأن الرازق قبل الرزق.

وهو الأول أبطن من كل باطن، لأنك إذا توغلت في الشيء وتوغلت فيه...إلخ، تصل إلى الله، هو الأول أظهر من كل شيء وهو الأول أبطن من أي شيء.

قال: كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود بعقلك وعلمك فيكون متناهياً، فمثلاً؛ نجمة تبعد عنا أربع سنوات ضوئية، مسافة بعيدة جداً نحتاج لقطعها في مركبة

أرضية إلى خمسين مليون عام، هناك نجم أبعد فنجد نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، هناك نجم أبعد بعدُه عنّا عشرين مليار سنة ضوئية، يا ترى هذا المجرة هي حدود الكون؟ لا... والشيء اللطيف أن هذه المجرّة التي اكتشفت حديثاً، والتي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، كانت في هذا المكان الذي وصل إلينا منه ضوؤها قبل عشرين مليار سنة ضوئية، أين هي الآن؟ لا يعلم إلا الله.

كلُّ شيء نرصده بالمراصد فالمكان غير حقيقي، مثلاً مجرّة كانت في مكان، وأطلقت شعاعاً، هذا الشعاع سار بسرعة ثلاثمئة ألف كيلومتر، وصل إلينا بعد عشرين مليار سنة ضوئية، هذا النجم أين صار الآن؟ هل تصدِّقون أنَّ بعض المجرَّات سرعتها تقترب من سرعة الضوء، سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلومتر في الثانية، الضوء سرعته ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية تقريباً، فإذا كان هذا النجم تحرّك بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلومتراً في الثانية، وكان بهذا المكان قبل عشرين مليار سنة، فأين هو الآن؟ أين حدود الكون؟ مهما تخيلت الكون واتساعه، فهو عقلاً محدود، لماذا هو محدود لأنه من دون الله، حادث، والحادث متناهٍ، أما الله عز وجل فهو غير متناهٍ.

هناك مشكلة اجتماعية ونفسية ودينية في آنٍ واحد، الإنسان يشعر بما يسمى سعادة، أو يتوهم السعادة ما دام شاباً لأنه يتحرك نحو المجاهيل، يريد شهادة عليا، أخذ شهادة عليا، أحاط بعلومها واستوعبها ثم سئِم منها، بحث عن زوجة، تزوج، أنجب أولاداً، اشترى بيتاً، اشترى مركبة، أكل، تنزّه، ثمَّ شعر بالملل، لماذا؟ لأنّ النّفس فطرها الله فطرةً عالية، فطرها على أن تسعى للانهائي، فإذا قبلت بالنّهائي سئمت.

تجد حقيقةً أنّ الإنسان بعد الأربعين يغلب عليه السأم، أكل أطايب الطعام حتى شبع، تنزه، وساح في العالم، فلم يعد لديه شيء جديد، كلُّه مكرّر، صباحاً جلست للطعام ففوجئت بطعام لم تره من قبل وبطعام ما عرفته سابقاً، وفي اليوم التالي كأس شاي، قطعة جبن، وبيض، وبعد؟ فما هو الجديد في الطعام؟ لم يعد من جديد فهذه الخضر الموجودة، والطبخ، والفاكهة، والسرير سرير، والنوم نوم، والأكل أكل، يعني

حياة رتيبة تنتهي إلى سأمٍ، فهذه النفس البشرية، بالأساس مخلوقة على أن تتجه إلى المطلق، فإذا قنعت بالمقيد فلن ترضى، فهي أكبر من كل قيد، لذلك تشعر بالسأم.

وإذا كانت النّفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

مثل بسيط: إنسان ذو طاقات كبيرة جداً، ضَعْهُ في مكان بلا عمل يتضجر ويتمزّق، طاقته كبيرة والعمل محدود، أما حينما يلتجئ الإنسان إلى الله، فإنّ السأم يتبدّد لأن الله عظيم، لا نهائي، لذلك أقول وأصر على ما أقول: المؤمن لا يشيخ إطلاقاً، شاب دائماً، ما الشباب؟ الشباب أن تكون أهدافك أكبر من حياتك، أن تكون أهدافك نبيلة تضيق بها حياتك، فأنت في شباب دائم، أما إذا كانت أهدافك كلُّها ماديّةً، الأشياء المادية محدودة، أنت أكبر من المادة.

فلذلك منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال. فإذا أردت أن تشيخ وألا تهرم وأن تكون في شباب دائم فاتّجه إلى الله، واجعل الله عز وجل مقصودك، ورضاه مطلوبك، اجعل هدفك الآخرة فأنت في شباب دائم ومتجدد.

حتى الناجحون في حياتهم، وحتى الأعلام المتألقون، في الصناعة، في التجارة، في العلوم، في مراكز القوى، أيُّ إنسان متألّق، ما دام حياً فأهدافه الماديّة أصغر من طاقته الكبرى، فالإنسان الوحيد الذي يسعد طوال حياته هو إنسان اتّجه إلى الله، الله لا نهائيّ.

قال بعض العلماء: «الأوّل في وصفه تعالى بمعنى القديم الأزليّ لا ابتداء له» وقيل: «الأول بلا ابتداء الموجود بذاته قبل وجود مخلوقاته وكان الأول لأنّه كان موجوداً ولا شيء معه»، يعني مهما أوغلت في القدم، مثلاً نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين، توغل في القرن العشرين، القرن التاسع عشر، الثامن عشر، السابع عشر، السادس عشر، الخامس عشر، الرابع عشر، القرن السابع، الثالث، الثاني، الأول، ما قبل التاريخ إلى نشوء العالم، أين تصل؟ إلى الله هو الأول، هو الذي أنشأ العالم: كان الله ولم يكن معه شيء.

قالَ أَبُو حَازِمٍ سَمِعْتُهُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ يقولُ: قالَ رَسُول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنا وَالسَّاعَةَ كَهذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ» وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى [صحيح البخاري].

لو انتهت الحياة الدنيا، ماذا بعد الحياة الدنيا؟ الله، هو الأول والآخر، لو تحركت نحو الماضي الله هو الأول نحو المستقبل الله هو الآخر.

اسم الله الأوّل يعني مطلق القبلية، فالله عز وجل علمه مطلق، ورحمته مطلقة، أحياناً قاضٍ يحكم ألف حكم، عشرة أحكام منها غير عادلة، لا عن قصد، ولكن عن خطأ، ونقص معلومات، عند البشر هذا القاضي الذي حكم ألف حكم، منها عشرة أحكام غير عادلة يُسمّى عند الناس عادلاً، لأن الإنسان ليس مطلقاً، أما الإله فلو ظُلم عصفورٌ في ملكه فليس عادلاً، عدله مطلق، رحمته مطلقة، حكمته مطلقة، غناه مطلق، قدرته مطلقة.

والأولويّة في الأشياء مرجعيتها إلى الله، خلقاً، وإيجاداً، وعطاءً، وإمداداً.

نصيب المؤمن من اسم الله الأول

يجب أن تسعى أيها الإنسان إلى أن تكون أوّلاً في كل حقل، أول في بيتك أب ناجح، أول في عملك، طبيب ناجح، مهندس ناجح، صناعي ناجح، تاجر ناجح، في عمل الخير ناجح، في أداء العبادات ناجح، ما دام الله أولاً، وأنت عبده، وقد أمرك أن تتخلق بكمالات مشتقة من كمالات الله، فلابدّ من أن تكون أولاً في اختصاصك، تعلّم كلَّ شيء عن شيء وشيئاً عن كلِّ شيء، لا بدّ لك من اختصاص تتعمّق فيه كثيراً.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

المؤمنون مع الأوائل، وفي آية ثانية: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

من توجيهات النبي: أن تحرص في الصلاة على الصّفّ الأول، من أجل أن تكون أولاً احرص على الصف الأول.

ومن توجيهات النبي: احرص على أن تصلي الصلاة في أوّل وقتها.

مرة تكلمت بكلمة قناعتي بها بلا حدود: الآن إن لم نكن متفوقين في دنيانا، فلا يحترم ديننا، بلاد متخلفة، نسب الأمية عالية جداً، نسب الفقر عالية جداً، نسب البطالة عالية جداً، نسب العنوسة عالية جداً، في قائمة الاستيراد اسم هذه البلاد في الأوج، في المقدمة، تستورد كلَّ شيء، و في قائمة المصدرين هي في أسفل القائمة، بأس هذه الأمم بينها، تتقاتل، وتسيل الدماء، وبين أطيافها ٩٥٪ قواسم مشتركة، بينما أعداؤها يتعاونون، وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، بأسها بينها، وسلمها لأعدائها، هذه الأمة بهذا الوضع لا يمكن أن يصغي إليها أحد.

لذلك قالوا: الإسلام الآن محجوب بالمسلمين، المسلمون معهم أعظم دين، لكنَّهم أسوأ مسوق لهذا الدين، وغير المسلمين معهم الباطل لكنّهم مسوِّقون ناجحون لباطلهم.

فلذلك ما لم تكن أوّلاً لا يحترم دينك، يجب أن تكون الأوّل.

المسلمون أفراداً متفوقون جداً، تذهب إلى بلاد بعيدة، هذا البناء الشامخ بناه مهندس مسلم، لأن الله سبحانه وتعالى وزع الذكاء بالتساوي على كل الشعوب، في كل أمة أذكياء بقدر ما عند أمة أخرى متفوقة أذكياء، لكن الأمة المتخلفة لا تهتم بأذكيائها فتدفعهم إلى الهجرة.

سيدنا إبراهيم، ماذا قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٣].

سيدنا محمد: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١].

سيدنا موسى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

وفي أمر إلهيّ واضح: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام:١٤].

الدنيا ماضية، فانية، زائلة، اعمل عملاً لتكون في الدنيا شيئاً مذكوراً، اعمل عملاً لتكون حديث الناس، قدم شيئاً لهذه الأمة، اخرج من ذاتك.

ما دمنا نقدِّس اسم الله الأول فيقتضي هذا التقديس أن تكون أولاً في عملك، وفي بيتك، وفي اختصاصك، وفي كلِّ شيء.

الآخر

ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: «اللهم أَنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بَعدَك شيء، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوْقَك شيء، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء، اقْضِ عنا الديْنَ وأغْنِنا من الفقرِ» [اخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الآخر

الآخر اسم فاعل لمن اتصف بالآخرية، والآخر يقابل الأول، والآخر لما بقي من المدة الزمنية، كقولنا جاء في آخر الوقت، والرقم الذي يلي الأول هو الآخر في الأرقام العددية، أو ما يلي الأول في البعدية والنوعية، أو لما بقي في المواضع الأرضية، هذه كلها

معان عليها شواهد من كتاب الله، ولكن نكتفي بشاهدين، الآخر الذي يقابل الأول قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة:١١٤].

و«الآخر» لما بقي من المدة الزمنية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢].

الله الآخر المتّصف بالبقاء، والآخريّة، هو الآخر الذي ليس بعده شيء، والآخر الباقي بعد فناء خلقه.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

لكن هناك إشكاليّة في الموضوع، إذ إنّ آيات كثيرة تؤكد أنَّ المؤمنين في الجنة خالدون قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١].

فكيف نجمع ونوفق بين أنَّ الله هو الآخر وليس بعده شيء، وأنّ المؤمنين في الجنة خالدون فيها أبداً؟ الله عز وجل باقٍ وليس بعده شيء، ببقائه هو، لكن إذا أراد الله للمؤمنين أن ينعموا في جنة إلى أبد الآبدين فهؤلاء باقون بإبقاء الله لهم، وفرق كبير بين أنَّ الله باقٍ ببقائه الذاتي، وبين أن يكون المؤمنون في الجنة إلى أبد الآبدين، يتّضح الأمر أكثر من خلال المثال الآتي:

النّبيّ ﷺ على عظم شأنه، وعلوّ مقامه، وهو سيِّد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، لا يعلم الغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وأيُّ إنسان، وأية جهة، تدعي أنها تعلم الغيب، قل لها بملء فمك: أنتم كاذبون، لا يعلم الغيب إلا الله، وعلى الرغم من أن هذا العصر عصر علم، وعصر تنوير، هناك خرافات، وهناك مشعوذون، وهناك دجل لا يعلمه إلا الله، فالغيب لا يعلمه إلا الله.

ولكن هناك أحاديث كثيرة تتحدث عن أشراط الساعة، كيف نوفق بين أن النبي الكريم لا يعلم الغيب، وبين أنّه تحدّث عن أشراط الساعة؟

النبي ﷺ لا يعلم الغيب، لكن إذا تحدّث عن المستقبل فبإعلام الله له.

ومن معاني هذا الاسم أيضاً أن أمور الخلائق تنتهي إليه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى:٥٣].

معظم الناس الذين لم يكن إيمانهم توحيدياً يتوهّمون، أن الأمر بيد فلان، أو فلان، أو فلان، يتعاملون مع شركاء لله عز وجل، يوم القيامة يتّضح لكلِّ الخلائق أن الأمر بيد الله، أما المؤمن وهو في الدنيا يعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله، إلا أن عامة الناس الذين لم يكن إيمانهم إيماناً تحقيقياً، توحيدياً، مع إيمانهم بالله يرون في الأرض آلهة، من بني البشر، بيدهم مصائر الشعوب، بيدهم قصف هذه المدينة أو عدم قصفها، مثلاً، فالإنسان إذا عاش بجو الشرك فالحياة لا تطاق، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾ [الشعراء:٢١٣].

أي إنَّ أحد أكبر عذابات الإنسان أن يرى مع الله إلهاً آخر، شيء لا يحتمل، حالة الإحباط أساسها ضعف التوحيد، حالةِ الخوف أساسها ضعف التوحيد، حالة اليأس أساسها ضعف التوحيد.

كثيراً ما يأخذ أكبر الأخوة المال كلَّه، إخوته صغار وأخواته بنات متزوجات، وله هيمنة عليهم، أعطوه وكالة عامة، اغتصب كلَّ أموال الأب، والله عز وجل هو الآخر والمصير إليه.

سمعت قصّة عن إنسانة تعمل في حقل القضاء، وهناك جمعيّة سكنيّة تتيح لمن في القضاء أن يشتري بيتاً بسعر مخفض، وبالتقسيط فسجّلت اسمها، ولا تملك كامل الثمن، دخل أخوها معها مناصفة، والبيت باسم الأخت، ارتفع سعره حوالي خمسين ضعفاً، فقالت له: اخرج من البيت، والبيت باسمي، لم يترك وسيلة يرجو أخته أن تبقيه في البيت، هي أقوى منه بالقانون، لأن البيت باسمها، فلم تُجْدِ كلُّ المحاولات،

فأخرجته من البيت، يقول لي ابن أخيها: عمتي مريضة، قلت: ما المرض؟ قال لي: ورم خبيث بأحشائها، بعد شهر، قال لي: توفيت، وعاد البيت إلى أخيها.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الزخرف:٧٩].

الله هو الآخر، هو مع المظلوم، قد يكون الزوج ظالماً، يطلّق امرأته طلاقاً تعسفيّاً، يهيء الله لهذه المرأة زوجاً صالحاً يكرمها، ويحميها، وينسيها الأول، ويهيء للثاني زوجة تعدُّ نقمة.

بطولتك أن تخشى الله، بطولتك أن تخاف منه، بطولتك أن تعلم علم اليقين أنَّ الأمر بيده، هو الآخر.

حدثني إنسان، ذاهب إلى المطار مع سائق، هذا السائق أراد أن يقطع يدي كلب صغير، جالس على طرف الطريق، ليظهر مهارته في القيادة، لم يقتله، دهس يديه فقط، هذه تحتاج إلى مهارة كبيرة جداً، وأطلق ضحكة هستيرية، يقسم لي بالله هذا الأخ، قال لي: بعد أسبوع في المكان نفسه أصاب العجلة عطل، رفع المركبة في الرافعة، وسحب العجل، وقعت المركبة فوق العجلة، والعجلة فوق رسغيه، فإلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يداه، فلابدّ من قطعها، أقسم لي بالله بعد أسبوع كانت يداه مقطوعتين.

لكن... إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تتوهّموا أنّ كل مسيء يعاقب في الدنيا، الله عز وجل يعاقب بعض المسيئين، ردعاً للباقين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، قد يقول قائل: فلان فعل كذا وكذا وما أصابه شيء، نحن لسنا في دار جزاء، نحن في دار ابتلاء، لكن من رحمة الله بنا كي يردعنا عن الإساءة، وكي يشجعنا على العمل الصالح، يكافئ بعض المحسنين في الدنيا. ويعاقب بعض المسيئين.

الآخر هو الباقي سبحانه بعد فناء خلقه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

الإنسان العاقل يربط مصيره بمصير الأزليّ الأبديّ، الباقي الآخر، أمّا لو ربط مصيره بأيّ شيء آخر فإنّ هذا الشيء الآخر سيفنى.

قال العلماء: الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه، الإنسان يعيش ويتعلّم، يكسب المال، يسكن ويأكل ويتحرّك ويسافر، ثم تُكتب نعوته، ثم يوضع في القبر وهو صندوق العمل.

قال بعضهم: الآخر الدائم بلا نهاية، عندنا قلق عميق، فالإنسان قد تكون حياته منتظمة، حقق نجاحات في حياته، هناك موت، هناك نهاية لهذا النجاح، لكن كلُّ عصر له تجّار وصنّاع وموظفون وأقوياء وأغنياء وأذكياء عاشوا، ترفّهوا، أكلوا، شربوا، تمتّعوا، ثم طواهم الرّدى.

قف أمام سوق الحميديّة في دمشق، وعُدْ بذاكرتك إلى المحالّ التي على الصفين قبل ستين عاماً فكلُّ أصحاب هذه المحالِّ لم يكونوا فيها قبل ستين سنة، وبعد ستين عاماً في الأعمِّ الأغلب هناك عدد آخر من الناس في هذه المحالِّ، البيوت، المتنزّهات، المدن الساحلية، كان فيها الرومان، قبلهم الآشوريون، الآراميون، بعدهم العرب المسلمون، جاء الصليبيون، جاء المسلمون، الله هو الآخر.

يقول أحد العلماء: «اعلم أن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان، فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً».

ليس من المعقول أن تكون هذه اليد قبل الكأس، هي يد واحدة، وتكون بعدها -أي: بعد الكأس- أيضاً فهذا شيء خلاف المنطق، شيء مضاف إلى شيء، وهذا الشيء نفسه مضاف إلى شيء آخر، إلى الشيء نفسه، الأول مضاف أول، والثاني مضاف آخر، هناك تناقض عقلي، حلَّ هذا الإشكال على النحو التالي؛ قال: هما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً، يعني هذا

المسجد هناك في الجهة الشرقية شجرة، هي قبله، هي نفسها أيمكن أن تكون بعده؟ مستحيل هذا يتناقض مع مبدأ الهوية بالمنطق! شجرة واحدة أول وآخر لا يصح.

فما دام الأول يجب أن يضاف إلى شيء، والآخر يجب أن يضاف إلى شيء، فينبغي أن يكون هذا الشيء شيئين، الأول بالنسبة لكذا وآخر بالنسبة لذلك.

يمكن أن نقول: هذا الكأس قبل الكتاب، وهذا الشريط بعد الكتاب، أما هذا الكأس قبل الكتاب وقبل الشريط هو ممكن، فإذا اختلف المضاف إليه يمكن أن نجمع بين الأول والآخر، الكأس بعد الشريط وقبل الكتاب واحد، أما شيء واحد مضاف مرةً إضافة أولوية ومرة أخروية لمضاف إليه واحد فهذا الشيء يرفضه العقل.

قالوا: إذا نظرت إلى تركيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذا نظرت إلى الموجودات الله تعالى أول الموجودات، إذ الموجودات كلُّها استفادت الوجود منه، فالله أوجدها، فهو أوَّل، وأمّا هو فموجود لذاته، وما استفاد الوجود من غيره، الله عز وجل وجوده ذاتي، أما وجود الكون كلِّه فيستفاد من وجود الله عز وجل، فالوجود ليس ذاتياً، وجود معلول بالموجِد، أما وجود الله عز وجل، فوجوده ذاتي.

فهناك أحداث ومسالك، فهو آخر، في نهاية المطاف تجد الله أمامك، إذا أضفنا إلى الموجودات فهو الأول، أما إذا أضفنا إلى الحركة فهو الآخر، نهاية المطاف، نهاية السعي، نهاية الحياة، نهاية كل عمل الله جل جلاله.

إذ هو آخر ما يرتقي إليه العارفون، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته، لذلك قالوا: نهاية العلم التوحيد، مهما تعلمت، مهما درست، نهاية النهاية التوحيد، وأعلى مرتبة علمية أن تعرف الله فهو آخر بالإضافة إلى السلوك، بالإضافة إلى الموجودات فهو أول، منه المبدأ أولاً وإليه المرجع والمصير آخراً.

هذا المعنى له علاقة بحياتنا، إنسان سافر وتاجر وجمع مالاً، أسس أعمالاً، ونجح، وتألق مصيره إلى الله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥].

اذهب أين شئت: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾ [البقرة:١٤٨].

هو الآخر، يجوز أن تركن إلى إنسان، تركن إلى جهة، تركن إلى جماعة، تركن إلى مالك تركن إلى قوتك، في النهاية أنت مع الله، مصيرك إليه.

عالم جليل يقول: «الأول في وصفه القديم الأزلي، الذي لا ابتداء له، والآخر في وصفه بمعنى لا انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده هو الأول بإحسانه، والآخر بغفرانه، الأول بالهداية، والآخر بالرعاية».

الإمام الرازي يقول: «الأول والآخر؛ فذكر عدة عبارات منها: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، الأول لعرفان القلوب، والآخر لستر العيوب، الأول قبل كلِّ شيء، والآخر بعد كلِّ شيء، الأول قبل كلِّ شيء بالقدم والأزليّة، والآخر بعد كلِّ شيء بالأبدية والسرمدية، الأول مبدي كلِّ أول، والآخر مؤخِّر كل آخر، الأول بالوجود والقِدَم، والآخر للتوجيه عن الفناء والعدم».

يعني أينما ذهبت وأوغلت في القدم فهو الأول، وأينما سعيت وتحركت وطرت وغصت وسافرت وتخطيت فهو الآخر، الإنسان أين ومتى مات فمصيره إلى الله.

الأول بالخلق، والآخر للرزق، الأول بلا مطلع، والآخر بلا مقطع، الأول هو الذي ابتدأ بالإحسان، والآخر هو الذي تفضل بالغفران، هذه كلها معانٍ فرعية تستفاد من الأول والآخر.

نصيب المؤمن من اسم الله الآخر

قال العلماء: من أدب المؤمن مع هذا الاسم الآخر، أن يُكثر من ذكر هذا الاسم حتى يتجلّى لقلبه نور الظّاهر، وأن يفر من دار الفناء إلى دار البقاء.

رثى أبو البقاء الرندي مملكة الأندلس فقال:

لكـــلِّ شيء إذا مـــا تـــمَّ نقصـــان فـــلا يُغَـــرَّ بطيـــب العـــيش إنســـان
هـــي الأمـــور كـــما شـــاهدتُها دولٌ مَـــن سرَّه زمـــن ســـاءته أزمـــان
وهـــذه الـــدار لا تُبقـــي عـــلى أحـــد ولا يـــدوم عـــلى حـــالٍ لهـــا شـــان

دعا بعضهم فقال: إلهي أنت الآخر لك البقاء، وأنت الدائم والجموع هباء، فاجعل لنا قسطاً من نور اسمك الآخر، فيحيي به الظواهر والسرائر فلا نشهد إلا الباقي بالباقي، ولا نصل إلا إلى مقام العالي الراقي.

ودعا بعضهم فقال: «يا كائناً قبل أن يكون شيء، والمكوِّن لكلِّ شيء، والكائن بعد ما لا يكون شيء، أسألك جنّة الخلد ودوام النّعيم».

الظاهر

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، في دعاء النبي ﷺ:

... اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فلَيْسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فلَيْسَ بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فلَيْسَ فوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفَقْرِ» [صحيح مسلم].

من معاني اسم الله الظاهر

الظّاهر؛ اسم فاعل لمن اتّصف بالظهور، والظُّهور هو العلوُّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ ﴾ [الكهف:٩٧].

أيّ إنّهم ما استطاعوا أن يعلو عليه لارتفاعه.

و «الظاهر» من الغلبة، والنصر، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف:١٤].

والظاهر من السّند والدّعم، يقول ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنى» [أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة].

والظهور؛ البيان وبدوُّ الشَّيء الخفيِّ، والظّهر ما غاب عنك، نقول هذا الإنسان الصالح يقرأ القرآن عن ظهر قلب، أي لا ينظر في المصحف.

والمظاهرة: المعاونة، قال تعالى: ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة:٩].

أيّ: أعانوا على إخراجكم.

أمَّا إذا قلنا: الله جل جلاله هو الظَّاهر فهو المنفرد بعلوّ الذات والفوقيّة، وعلوّ الغلبة والقهريّة، وعلوّ الشّأن وانتفاء الشبيه والمثليّة، هو الظاهر في كل معاني الكمال، هو المبين لحججه الباهرة وبراهينه الظاهرة.

ولكن....لو أنَّ الله مكّن الأعداء إلى أبد الآبدين، لوقع اليأس في صفوف المؤمنين، ولو أنّه قوّى المؤمنين إلى أبد الآبدين لظهر النّفاق في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الله عز وجل هو الظَّاهر، سيدنا نوح يجد نفسه فجأة في بطن حوت، والإنسان لقمة واحدة في طعام الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء:٨٧].

سيدنا موسى مع قليل من بني إسرائيل، أمامهم البحر، وراءهم فرعون، بقوته، بأسلحته، بحقده، بجبروته.

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١].

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢].

ضرب البحر بعصاه، فأصبح الطريق يبساً.

تروي الروايات: أنَّ فرعون رأى في منامه أنَّ طفلاً من بني إسرائيل سيقضي عليه، فاتّخذ قراراً ببساطة بالغة بذبح أبناء بني إسرائيل دون استثناء وأيّة قابلة لا تخبر عن وليد ذكر فإنّها تقتل مكانه، وانتهى الأمر.والذي حصل أنَّ الطفل الذي سيقضي عليه رباه في قصره.

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨].

الله عز وجل ظاهر، ينصر بأدنى سبب.

سيدنا إبراهيم، سمح الله عز وجل أن يقبضوا عليه، وكان بالإمكان ألاّ يصلوا إليه، وسمح أن يحاكموه، وسمح أن يتّخذوا قراراً بإحراقه، وجمعوا ناراً عظيمة، وألقوه في النار، لكنّ الله عز وجل هو الظاهر.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

الظَّاهر في اللغة من الظُّهور، وهو بدوُّ الشيء الخفيِّ، شيء خفي ظهر يُقال له: ظاهر، والظَّاهر أيضاً هو الغالب.

المعنى الأول من فعل: بدا، أي: ظهر، والمعنى الثاني: الغالب من فعل غَلَب يغلِب، قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٤].

أي أصبحوا غالبين، والظَّاهر كذلك هو: الشَّيء الخارجيّ خلاف الباطن: الشيء الدّاخلي، والظَّهر: الرِّكاب التي تحمل الأثقال على ظهورها، فلان عنده ظهر؛ أي: عنده دابة يحمل عليها، والظّهير هو القويّ.

الظاهر

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في السنة الصحيحة، في دعاء النبي ﷺ:

... اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفَقْرِ» [صحيح مسلم].

من معاني اسم الله الظاهر

الظّاهر؛ اسم فاعل لمن اتّصف بالظهور، والظُّهور هو العلوُّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف:٩٧].

أيّ إنّهم ما استطاعوا أن يعلو عليه لارتفاعه.

و «الظاهر» من الغلبة، والنصر، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف:١٤].

والظاهر من السّند والدّعم، يقول ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ ما كان عن ظَهْرِ غِنى» [أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة].

والظهور؛ البيان وبدوُّ الشَّيء الخفيِّ، والظّهر ما غاب عنك، نقول هذا الإنسان الصالح يقرأ القرآن عن ظهر قلب، أي لا ينظر في المصحف.

والمظاهرة: المعاونة، قال تعالى: ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة:٩].

أيّ: أعانوا على إخراجكم.

أمَّا إذا قلنا: الله جل جلاله هو الظَّاهر فهو المنفرد بعلوّ الذات والفوقيّة، وعلوّ الغلبة والقهريّة، وعلوّ الشّأن وانتفاء الشبيه والمثليّة، هو الظاهر في كل معاني الكمال، هو المبين لحججه الباهرة وبراهينه الظاهرة.

ولكن....لو أنَّ الله مكّن الأعداء إلى أبد الآبدين، لوقع اليأس في صفوف المؤمنين، ولو أنّه قوّى المؤمنين إلى أبد الآبدين لظهر النّفاق في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الله عز وجل هو الظَّاهر، سيدنا نوح يجد نفسه فجأة في بطن حوت، والإنسان لقمة واحدة في طعام الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل.

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

سيدنا موسى مع قليل من بني إسرائيل، أمامهم البحر، ووراءهم فرعون، بقوته، بأسلحته، بحقده، بجبروته.

النفوس، وشيء يُثَبِّتُ الإيمان في القلوب، وأحياناً يبدو لنا أنَّ زيداً أو عبيداً يفعل ما يريد، وكأنّه يتصرّف وحده، أيضاً هذا امتحان آخر، هذا امتحان لضعاف الإيمان، أحياناً يضعف إيمانهم فيقولون: أين الله؟ وأحياناً تقع بعض أفعال الله عز وجل صارخةً جليّةً فيقولون: لا إله إلا الله.

فمثلاً مركبة فضائيّة أُتقنت إتقاناً خيالياً، سُمّيت المتحدّي، أطلقت، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، العالم كلُّه مؤمِنُه وكافره يشعر أنَّ هذا فعل الله.

باخرة صُنعت في عالم ألف وتسع مئة واثني عشر، وكتب عنها أنّ هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها، لأنها صنعت من طبقتين وهناك أبواب عرضيّة، فأيُّ خلل أصاب جدارها الخارجي، فإقفال الأبواب الداخلية، يمنع تسرُّب الماء إليها، وضع في هذه الباخرة أجمل ما في العالم من أثاث ومن ثريّات ومن مسابح ومن مطاعم ومن ملاعب ومن مقاصف، ومن غرف من الدرجة الممتازة، ورَكِب في هذه الباخرة أغنياء أوروبا، رجال أوروبا الأغنياء الأثرياء ونساؤهم، اتجهت في أول رحلة لها فيها أذكر من بريطانيا إلى بوسطن، وفي أول رحلة من رحلاتها ارتطمت بجبل ثلجيٍّ في عرض المحيط فغرقت وانشطرت شطرين، ثمّ عُثر عليها في أعماق المحيط، لأنَّ القدر لا يستطيع إغراقها حسب ما يدَّعون، أغرقها الله تعالى من أول رحلة.

الإنسان يشعر أحياناً أنَّ فعل الله ظاهر، وأحياناً لحكمة يريدها الله عز وجل يبدو فعل البشر أنّه هو الظَّاهر وأنَّ الإنسان هو الفعَّال، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الفعَّال دائماً، هذا ما يراه المؤمن، لكن ضعاف الإيمان إذا بدت قدرة الله صارخة يكتفون بأن يقولوا: سبحان الله، وإذا بدت قدرة البشر خارقة يتزلزلون وينكمشون ويضعفون، لكنَّ الحقيقة أنَّ الظَّاهر هو الله جل جلاله، الغالب على أمر الخلق.

الظَّاهر هو العليم بما بطن، والظَّاهر هو الذي ظهر فوق كلِّ شيء وعلا عليه، وقيل: عُرف بطريق الاستدلال العقلي مما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه.

يعني لو افترضنا أنَّ مكواة كهربائية، وُضع شريطها في المأخذ الكهربائي فلم تسخن، الاحتمالات في الفكر؛ ليس هناك كهرباء في البيت، نظرتَ فإذا المصباح متألق، فالمعنى أن تيار الكهرباء متصل، سألْتَ يا ترى في المأخذ خلل؟ جئت بآلة أخرى وضعتها في المأخذ فعملت هذه الآلة، فمن أين الخلل؟ من المكواة، جئت بشريط آخر وصلته بالمأخذ فعملت، أين الخلل؟ حصراً في الشريط.

الفكر نفى انقطاع التيار عن البيت لوجود مصابيح متألقة، نفى أن يكون الخلل في المأخذ لاستعماله في آلة أخرى، نفى أن يكون الخلل بالمكواة لأنها عملت بشريط آخر، إذاً الخلل محصور في الشريط، هذه محاكمة عقلية إلا أنّه كأنك ترى هذا الحادث رأي العين، لشدة المنطقية والنتيجة الحتمية وكأنّ هذا الشيء ظاهر.

فالله سبحانه وتعالى بمحاكمة بسيطة توقِن أنّه موجود، أحيانا يفتح الإنسان آلة يرى فيها توصيلات، وصمّامات، ولوحات توصيل، العقل لا يتصور دقتها، يعني لو قطعوا الإنسان المنطقي إرباً إرباً هل يصدق أن هذه الآلة صُنعت وحدها؟

قاموس لاروس من أضخم المعاجم في اللغة الفرنسية وهناك مطبعة فيها حروف إفرنسية، فلو جئت بمتفجرة وفجرت المطبعة هل يعقل أن ينتج من تفجير هذه المطبعة قاموس لاروس.

بصراحة أقول: لو أنَّ مطبعة بالحروف العربية وهي من المطابع الحديثة، جئنا لها بورق وجئنا بحروف وجئنا بحبر وجئنا بمتفجرة وفجرنا المطبعة، هل يُعقل أن ينتج عن هذا الانفجار معجم المورد مثلاً، معجم القاموس المحيط، مختار الصحاح المواد مرتبة وفق ترتيب الحروف الأبجدية كل الكلمات أُرجعت إلى الأصل الثلاثي المجرد ثم رُتِّبت ثم بُدئ بالفعل الماضي فالمضارع فالأمر، فالمصادر كلها السماعية والقياسية، ثم المشتقات بدئت باسم الفاعل، اسم المفعول، اسم المكان، اسم الزمان، اسم الآلة، الصيغة المشبهة باسم الفاعل ثم الأمثلة من كتاب الله، من السنّة، من الشعر، هل بمقدور الانفجار أن يفعل هذا؟!

فالخلق والكون أدقُّ من ذلك بكثير، في العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، والعصب البصريُّ مؤلَّف من تسع مئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغمدة، وفي الدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد، وفي المعدة خمسة وثلاثون مليون غدة هاضمة، والأمعاء الدقيقة تتجدَّد كلَّ ثمان وأربعين ساعة، والقلب يضخُّ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة بدسّامات وشرايين وأوردة، والغدّة النُّخاميَّة لا يتجاوز وزنها نصف غرام تعطي اثني عشر أمراً هرمونياً مسيطرة على كلِّ غدد الجسم، من صنع هذا الحُوين وتلك البويضة، كيف انقسمت، كيف تشكلت الأجهزة؟ محاكمة بسيطة جداً ترى أنّ الله وراء كلِّ شيء، من أودع في هذا الإنسان الطباع؟ من أودع فيه حسَّ الجوع؟ وحس الشبع؟ الرغبة إلى الطرف الآخر؟ هذا معنى اسم الظاهر، يعني يُعرف وكأنَّه ظاهر بالاستدلال العقلي، يعرف معرفة يقينية وكأنه ظاهر للعيان.

العوام لهم كلمة لطيفة، يقولون لك: الله عز وجل «لم يُر بالعين ولكن بالعقل عُرف»، بالعقل نرى الله عز وجل.

وقيل: هو الظاهر وجودُه لكثرة دلائله، وهو البادئ بالأدلة عليه، فلا يمكن أن يجحده جاحد، لذلك يوم القيامة يقسم الذين جحدوه وأنكروا وجوده، أنهم ما أشركوا، ولا كفروا، ولا جحدوا، اقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

موضوع الجحود، جحود الله عز وجل، حالة مَرَضية شاذة نادرة، عملية مكابَرة بالمحسوس، وهو الظاهر بحُجَجه الباهرة وبراهينه المنوَّعة، يعني أنَّ الماء لو أنّه كان على التبريد ينكمش شأنه شأن أي عنصر لما كانت حياة على الأرض، ولانعدمَت الحياة نهائياً.

قال العلماء: لقد خلق الله كلَّ الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات، يقال: إن هذه المشكلة لم نستطع أن نسيطر عليها،

فالثقب في طبقة الأوزون حتى الآن لم يستطع البشر أن يسيطروا عليه، فيروس الإيدز حتى الآن البشر جميعاً، الدول العظمى بإمكاناتها المالية الضخمة، بعلمائها، بمخابرها، ببحوثها، كل هذه الدول تقف مكتوفة اليدين أمام أضعف فيروس عُرف على وجه الأرض، لم نستطع أن نسيطر عليه، ولو تمكنوا من أن يسيطروا عليه لكلَّف علاج المريض الواحد مبلغاً فلكياً، لأن هذا الفيروس يحير، يغير شكله، يظهر وكأنه كرية بيضاء، عناصر الدفاع في الجسم تأنس به وكأنه واحد منها، فإذا دخل إليها دمرها جميعاً وهو أضعف خلق الله.

لذلك من أعمق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كلُّه بما فيه ومن فيه مظهر لمظاهر أسمائه وصفاته وعلاماته، كلُّ الكون يدلُّ على الله، كلُّ الكون بمجراته، بالسماوات، بالأرض بالنبات بالحيوان بالأطيار بالأسماك بالإنسان، بالطعام بالشراب، لذلك أكبر وظيفة للكون أن تتعرَّف إلى الله من خلاله، ولو لم تستفد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف إلى الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده.

وقيل في الاسم الظاهر: «هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزِّه بمعاني أسمائه وصفاته»... هدايته واضحة، وآياته واضحة، أمّا أسماؤه وصفاته فالعقول تعجز عن إدراكها، فهو ظاهر بهدايته وآياته، باطن بأسمائه وصفاته... مهما تحدثت عن أسماء الله الحسنى، لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، ولا الأنبياء، ولا سيد الأنبياء لا يستطيع أن يحيط بالله، أعلى معرفة على الإطلاق معرفة النبي ﷺ، إلا أنها معرفة ولكنها ليست المعرفة المطلقة... سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك... فالظاهر هدايته وآياته، والباطن أسماؤه وصفاته.

قال العلماء: لا ترى ذرّة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلّقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال... كلُّ الخير من الله، كلُّ الكمال من الله، كلُّ الأعمال الصالحة بتوفيق الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر.

قالوا: الظاهر لا يخفى على كلِّ متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له.

قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون مملوء بالجمال محلّى بالكمال، وكلُّ شيء فيه ينادي: أشهد أن خلاّقي ذا الجلال.

الناس جميعاً وفي حالات كثيرة يرون أفعال الله صارخةً كالشمس في رابعة النهار، لأنه ظاهر.

فمثلاً مرة هبَّت رياح عاتية على منطقة زراعية فدمّرت ما يزيد على مئة بيت زراعي، النّاس جميعاً فيها على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم بفطرتهم، فالسيئ هو الذي دُمِّر بيته، والمستقيم هو الذي حفظه الله عز وجل، وكأن هذه الرياح مسيّرة، من أغرب المصادفات أن بيتين متلاصقين، يعني جسم البيتين متصل، لأخوين من أم وأب، الأول صالح والثاني طالح، جاءت الرياح العاتية فقلعت بيت الطالح، وقلعت معه النباتات المحيطة به، والبيت الملاصق له نجا من الدمار... فعل الله ظاهر.

أحياناً ترى أرضَين متجاورتين، الأولى قمحها نام نماءً رائعاً والثانية قمحها هزيل النماء، والتربة واحدة والنهر واحد، والزراعة فيها بشروط موحدة، ولكن هذا ينوي أن يعطي أولاد أخيه الأيتام من محصوله، فبارك الله له في محصوله، وهذا في نيته أن يأكل على صاحب الأرض بعض الغلّة فدمر الله غَلَّته، فعل الله ظاهر... محاكمة بسيطة تشعرك أنّ الله عز وجل ظاهر كأنّك تراه، لذلك صح في الحديث أنّ مرتبة الإحسان تعني أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

نصيب المؤمن من اسم الله الظاهر

الله عزّ وجلّ هو الظّاهر، وما عليك إلا أن تطلب معرفته فقط، أن تريد الوصول إليه، أن ينشأ في قلبك رغبة صادقة للوصول إليه، هو ظاهر، لكنَّ حبَّ الدنيا يعمي ويُصِمّ، الشهوات حُجُب، أمّا إذا أزيحت الشهوات فهو ظاهر.

الله عز وجل ظاهر وأنت أيّها المؤمن ينبغي أن يكون إيمانك ظاهراً صارخاً، أنا لا أصدق أن الذي يدلُّ على المؤمن صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته، فحسب، لكن تدلُّ على المؤمن صفاته، تفكيره، مبادئه، قيمه، عطاؤه. المؤمن ظاهر بإيمانه، بمبادئه، بقيمه، بورعه، باستقامته.

فكما أنَّ الله ظاهر في خلقه، وفي أفعاله، فالمؤمن ظاهر في مبادئه وفي قيمه.

الباطن

هذا الاسم ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد:٣].

وقد ورد أيضاً في دعاء النبي ﷺ: «وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيء» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الباطن

الباطن اسم فاعل، والبطن في كل شيء جوفه، والباطن خلاف الظاهر والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨].

والشيء الباطن المحتجب عن الأنظار.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

الله عز وجل باطن لأنه احتجب بذاته عن أبصار الناظرين لحكمة أرادها من الخلائق أجمعين، من أجل الابتلاء.

لو فرضنا امرأة تمشي بأبهى زينة، وهناك إنسان يحمل سلاحاً، يقول لإنسان آخر: إن نظرت إليها أقتلك، هل ينظر إليها؟! أمّا أن تكون امرأة تمشي بأبهى زينة وهناك ناظر مؤمن بالله، يمنعه النّصّ فقط من أن ينظر إليها فهذا شيء آخر.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠].

الشهوة محسوسة، ملموسة، أمام عينك، المرأة الجميلة، البيت الجميل، المركبة الفارهة، الطعام الطيب، المال الوفير محسوس، تدركه بحواسك الخمس، أمّا الآخرة فهي خبر.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى:٤].

لماذا يستحقّ المؤمن الجنّة؟ لأنّه صدّق الله، أمّا أحاسيسه كلُّها ففي الدنيا، الدنيا خضرة نضرة، الدنيا محسوسة.

صدّق الله بالغيب، لم يرَ الجنة، ولم يرَ النار، آمن بالغيب فاستحقَّ الجنة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:١-٣].

لو أنَّ الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو أجبرهم على أفعالهم لألغيت الجنة والنار، والثواب والعقاب، ألغي كل شيء، ألغي التكليف، ألغيت الأمانة.

كل بطولة الإنسان أن يأتي ربه مختاراً، بمحض اختياره، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣].

يعني: يا عبادي لو أنني أريد أن ألغي اختياركم، لو أنني أريد أن ألغي تكليفكم، لو أنني أريد أن ألغي حملكم للأمانة، لو أنني أريد أن تكون طاعتكم قسراً، لفعلت هذا، ولكن هذا الهدى الذي يأتي قسراً لا قيمة له.

بربكم، لو أنّ رئيس جامعة أجرى امتحاناً لطلاب جامعة، وزّع أوراقاً طُبع عليها طبعاً الإجابة الكاملة، والعلامة الكاملة، مئة بالمئة، قيل للطالب اكتب اسمك واخرج هل لهذا النجاح قيمة؟!

الله عز وجل باطن لا يُرى، لكن كل ما في الكون يدل عليه، واحتجب عن رؤية عباده ليمتحنهم، سأوضّح بمثال:

أنت صاحب محلٍّ تجاريٍّ، تفتح المحلَّ بيدك صباحاً، وتجلس وراء الطاولة وأمامك مكان للأموال، وعندك موظف، يا ترى هذا الموظف أمين أو خائن؟ ما أتيح لك أن تمتحنه، أنت وراء الطاولة، دخلت أول داخل، وخرجت آخر خارج، والمفتاح بيدك والمال معك، لكن متى يمكن أن تمتحنه؟ إذا خرجت من المحل إلى محل آخر وراقبته، هو الآن وحده، والمال بين يديه، أنت تراه وهو لا يراك، راقبته ساعات طويلة لم يأخذ قرشاً من مكان المال، متى أتيح له أن يمتحن؟ إذا توهّم أنّك لا تراه.

الباطن، هو المحتجب عن عيون خلقه، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

الباطن محجوب عن عين الرأس، ظاهر لعين القلب.

إذاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن يرى الإنسان ربّه في الدنيا، لأن أجهزته، خصائصه، حواسّه لا تحتمل أن ترى الله، لكنَّ طبيعة الإنسان في الجنة تختلف عن طبيعته في الدنيا، في الجنة يمكن أن ترى الله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

بعض العلماء يقول: «إنه باطن من حيث إنَّ كُنْه حقيقته غير معلوم للخلق»، يعني لا يستطيع الخلق مجتمعين أن يصلوا إلى كُنه حقيقته، هو باطن، لذلك قال بعض علماء التوحيد: «عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به».

إذا سُئلت عن ذات الله، فإذا قلت: لا أدري فأنت العالم، وإن قلت: أدري فأنت لا تعلم، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذا معنى الباطن، كنه حقيقته محجوبة عن الخلق.

معنى آخر؛ باطن، أيّ: أنَّ الأبصار لا تحيط به، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

المعنى الرابع؛ باطن يعلم ما بطن، الإنسان له ما ظهر والله عز وجل يعلم ما ظهر وما بطن، والإنسان أحياناً يكون ممثّلاً بارعاً، وقد يجوز تمثيله على الأذكياء، بنو عامر أتوا النبي ﷺ وطلبوا منه سبعين داعية وعالماً ليُعلّموا قومهم، وأرسل النبي ﷺ معهم سبعين صحابياً ليُعلموهم، وفي الطريق ذبحوهم، بقي النبي ﷺ ثلاثين صباحاً يدعو عليهم في الصلاة [انظر صحيح البخاري (٤٠٨٨)، ومسلم (٢٧٧) (٢٩٧) حديث أنس بن مالك]، النبي ﷺ لا يعلم الغيب، والنبي ﷺ له الظاهر، لكنَّ الله يعلم الظَّاهر والباطن.

فأنت إذا لم تعرف الباطن فلست مؤاخذاً، أحد أصحاب رسول الله ﷺ في إحدى المعارك، كان على وشك أن يقتل مشركاً، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله، فلما بلغ النبي ﷺ غضب غضباً شديداً: فقال: يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً، فقال ﷺ: «هلا شققت عن قلبه؟» [مسلم، عن أسامة بن زيد] وقال: «إني لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس ولا أشقَّ بطونهم» [البخاري ومسلم، من حديث أبي سعيد الخدري]، هذا موقف الإنسان الحقيقي، أنت لك الظاهر.

الباطن: محتجب عن عيون خلقه.إدراك كنهه مستحيل، الأبصار لا تحيط به، ويعلم ما بطن.

والباطن حَجَب الكافر عن معرفته ورؤيته، وحجب المؤمنين في الدنيا عن رؤيته.

شيء عظيم المنال، الشيء الثمين ليس في متناول الأيدي، الجوهرة الثمينة موضوعة في صندوق محكم الإغلاق، فالله عز وجل باطن يعني عزيز، فالإنسان إذا لم يطلبه، ولم يطعه، وما جهد من أجل معرفته فلن يصل إلى شيء، الله عز وجل عزيز، سلعة الله غالية، هناك أشياء مبتذلة، كلُّ إنسان يشتري قصّة ويقرؤها، لكن ليس كل إنسان بإمكانه أن يحمل شهادة دكتوراه، يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة دراسة، أمّا أن يشتري قصة فممكن، أن يقيم حفلاً ممكن، وأن يشتري بيتاً ممكن، وأن يقوم بنزهة ممكن، هذا شيء مبتذَل، لكن ليس كلُّ إنسان يمكنه أن ينال دكتوراه؟ فهذا يحتاج إلى جهد كبير.

وقيل: الباطن في حقيقة ذاته، فلا تدركها العقول، ومع شدة ظهوره احتجب عن إدراك الحواس، وقيل تنزّه في علوِّ كبريائه فلا تحيط به بصائر المقربين الأطهار، وهو الظاهر بأسمائه وصفاته وأنوار آياته، والباطن في حقيقة ذاته عن جميع مخلوقاته.

والظَّاهر إشارة إلى معرفتنا البديهية بالله عزّ وجل، كلُّ النَّاس في الأرض يقولون لك: الله. فقد يكون شخص عادي معرفته محدودة جداً، يرى شخصاً منحرفاً يتردّى فيقول: الله لم يوفقه، الله حطمه. فكلمة الله على كلِّ لسان.

ففي اسم الظّاهر إشارة إلى معرفتنا البديهية، إنَّ الفطرة تقتضي في كلِّ ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود، المعرفة الفكرية تقتضي أن الله موجود وهذا الظاهر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، لكن بعض العلماء قال: «مثل طالب معرفته مثل من طوَّف في الآفاق في طلب ما هو معه. ذهب إلى أقصى الدنيا شرقاً وغرباً يبحث عن شيء وهو معه»، فالله عز وجل ظاهر، أما كلمة الباطن فهي توجب معرفته الحقيقية.

فالمعرفة الظاهرة قد لا ترتبط باستقامة، شأنه شأن الناس جميعاً وربما كلمة الله يقولها الإنسان في اليوم ألف مرة، «الله يعطيك العافية» مثلاً، كلمة الله تدور على كل لسان، إلا أن الباطن تعني معرفة الله المعرفة الحقيقية التي تحملك على طاعته.

فالحقيقة، مقياسك الدقيق فيما إذا كانت معرفتك بالله صحيحة وجيدة أو لا، التطبيق العملي فالمعرفة التي تحمل صاحبها على طاعة الله، هي المعرفة الحقيقية.

سيدنا الصديق قال: «العجز عن إدراك الإدراك إدراك»، يعني أن تصل إلى معرفة حقيقة الله هذا شيء مستحيل، فعجزك عن الوصول إليها أحد أنواع الإدراك، أحد علامات الإدراك أن تقول لا أدري، إذا كان الموضوع متعلقاً بذات الله عز وجل.

قيل: ظاهر بآياته باطن بذاته، كلام لطيف، جميل جداً.

ظاهر لأنه محيط بالأشياء مدرك لها، باطن من أن يُحاط به.

يروى عن سيدنا عليّ رضي الله عنه، أنه قال: «تجلّى الله لعباده من غير أن يروه، وأراهم نفسه من غير أن يتجلّى لهم» ومعرفة ذلك تحتاج إلى فهم ثاقب.

أحياناً أراهم نفسه بعقولهم، أيُّ إنسان أعمَل عقله بالكون وصل إلى الله ببساطة، وأحياناً يتجلّى على قلوبهم بالسكينة من غير أن يروه، يتجلّى عليهم ولا يرونه، ويرونه بعقولهم ولا يتجلّى عليهم، هذا معنى الظاهر والباطن عند سيّدنا عليّ رضي الله عنه.

يقول أحد العلماء: كما ذكرت في بحث سابق لا يقبل العقل أن يكون الله ظاهراً مضافاً إلى شيء، وباطناً مضافاً إلى الشيء نفسه، فهذا الشيء نفسه مثلاً يكون أول هذا وآخر هذا مستحيل، هو إما أنه هنا وإما أنه هناك، فإذا قلت: أول هذا وآخر هذا وهذا واحد فقد وقع تناقض، العقل مفطور على مبدأ الهوية، أي: عدم التناقض، فلا بد من أن يكون أول شيءٍ وآخر شيء آخر، وأيضاً هنا في الظاهر والباطن، ظاهر بالنسبة إلى شيء باطن بالنسبة إلى شيء آخر.

يعني ظاهر للعقول باطن مستحيل أن تدركه الأبصار.

قال بعضهم: الله تعالى باطن إن طلبته عن طريق الحواس، لكنه ظاهر إن طلبته عن طريق العقول والاستدلال، ظاهر وباطن.

يقول أحد العلماء: «الظاهر في وصفه سبحانه تعالى بمعنى القاهر»، ظهر فلان على فلان، أي: قدر عليه وقهره، «والباطن في وصفه عز وجل بمعنى العليم بخلقه المدبر لأحوالهم»، الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ودلائل توحيده، والباطن

المتعزّز على القوم المحتجب عنهم حتى أنكروا وجوده وجحدوه، ظاهر للعقول السليمة باطن متعزز عن القوم إن لم يدفعوا ثمن هذه الرؤيا.

قيل: ظاهر بنعمته، باطن برحمته.

وقيل: ظاهر بالكفاية باطن بالغاية.

وقيل: ظاهر بالقدرة على كلِّ شيء باطن عالم بحقيقة كلِّ شيء.

وقيل: ظاهر لكلِّ شيء بالدلائل اليقينية، الباطن عن مظاهر الجسمية، فسبحان من احتجب عن خلقه بنوره وخفي عليهم بشدَّة ظهوره.

هناك معنى لطيف جداً ذكره العلماء، وهو أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠].

الإنسان كثيراً ما يتألم من المصيبة، وقد تكون المصيبة نعمة باطنة، النعمة الظاهرة؛ المال، الصحة، الوجاهة، راحة البال، الأمن الطمأنينة، الزوجة الأولاد، هذه كلها نعم ظاهرة، ولكن هذه النعم الظاهرة لا ترقى بالإنسان، الحُزن خلاَّق، أما الراحة فمثبِّطة، الراحة والمورد والطعام والشراب وراحة البال، الأمن والطمأنينة، هذه لا تخلق عظماء.

فهناك كلمة رائعة جداً «الحزن خلّاق»، العبقريات أحياناً تتفجّر بالأحزان، والهموم، فالله عز وجل له نعمتان... ترى شخصاً في بحبوحة، كسول، بارد، مشاعره باردة، صلاته جوفاء، معرفته سطحية، اتصاله بالله شبه معدوم، صفاته غير مقبولة، تأتيه مصيبة مخيفة، يدعو الله، يلجأ إليه، يصلي قيام الليل، يتوسّل إليه، يبالغ في طاعته، يقدم صدقات، لولا هذه المصيبة ما تألّق هذا التألّق، لولا هذه المصيبة ما سعى إلى الله هذا السعي، لولا هذه المصيبة ما جدَّ إلى الله هذا الجدّ، فهذه المصيبة نعمة باطنة.

وأنا لا أبالغ إن شاء الله، أعتقد أن ثلثي رواد المساجد المصطلحين مع الله الذين أحبهم الله وأحبوه، كان انطلاقهم إلى الله بسبب مصيبة ألّمت بهم فحملتهم على التوبة،

فهذه نعم أم ليست نعماً؟ بل نعم باطنة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾.

احفظوا هذه الكلمة؛ «الحزن خلاق»، أحياناً ينشأ طفل يتيم، لا أب ولا مال، وله أخ قاس وضعه بعمل مرهق، وطالبه بدراسة متعبة والأستاذ من جهة يطالبه، وصاحب العمل من جهة أخرى، والأب غير موجود، والأخ يمنُّ بعطائه، فهذا الطفل قد يصبح عبقرياً... وبالمقابل انظر إلى ولد آخر، كلُّ شيء موفَّرٌ له، الأكل الشرب، ترى صفاته النفسية خسيسة جداً؛ لأنه ما ذاق طعم الفقر، ذاق طعم الغنى وحده، فلذلك؛ الله جل جلاله قاله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾.

هذه الآية من أعمق الآيات، وهي تبثُّ الفرح في قلب المؤمن، عليك ألّا تتألّم من المصيبة، لعلّ الفقر هو المنطلق إلى الله، لعلّ المرض هو سبب التوبة، لعلّ شبح هذه المصيبة سبب إقبالك على الله هذه نعمة باطنة، والله عز وجل إذا أراد أن يعالج الإنسان يعرف كيف يعالجه، يأتيه من مأمنه، يأتيه من مكان طمأنينته، من مكان قوّته، بل يأتيه من حيث لا يحتسب.

فالظاهرة ما نقف عليها، والباطنة لا نعرفها، من هنا قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل:١٨].

النعم الظاهرة والباطنة لا تحصى.

قالوا: النعم الظاهرة النصر على الأعداء بالعدد، والنعم الباطنة النصر على الأعداء بالخوف، فالله عز وجل أحياناً يسبغ عليك هيبة يخاف منك عدوك، أحياناً تكون قوياً فعلاً، فإما أن ينصرك بقوة ظاهرة وإما أن ينصرك بقوة باطنة.

وبعد فهذه كلمات واعية فالإنسان مظهر لاسم الظاهر، ومظهر لاسم الباطن فالإنسان بجسمه مظهر نور الظاهر، وبروحه مظهر نور الباطن.

نصيب المؤمن من اسم الله الباطن

متى أكثر العبد من ذكر اسم الباطن خشعت نفسه، وأدرك أنه عاجز بالكليّة فيعطف عليه الحق، يعني كلما ذكرت اسم الباطن وافتقرت إليه عطف عليك الله عز وجل.

ومن عرف الله الباطن فإنّه يتجاوز الصورة إلى الحقيقة، لو دخلت لبيت تاجر مخدرات مساحته سبعمئة متر، في موقع رائع، بأثاث يصعب وصفه، ودخلت لبيت موظف مستقيم، مؤمن، طاهر، خمسة وأربعون متراً، بأثاث متواضع، ببيت رخيص، بحيٍّ شعبيّ، عود نفسك أن تحترم صاحب هذا البيت المتواضع لأنه مستقيم، ما بنى مجده على أنقاض الناس، عوّد نفسك أن تحتقر تاجر المخدرات، مع هذا البيت العظيم، لأنَّ هذا البيت بني على تدمير الأسر، كلُّ أسرة فيها شاب وقع في المخدرات دُمرت، عود نفسك أن تتجاوز الصورة الظاهرة إلى الحقيقة الباطنة، لذلك لا تقيّم جهة في الأرض إلا إذا ضممت الآخرة إلى الدنيا، عوّد نفسك أن تضيف الآخرة إلى الدنيا، ثم وازن، ماذا قال الله عن قارون؟

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨١].

عوّد نفسك أن تقيّم تقييماً حقيقياً لا تقييماً ظاهرياً، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة:٥٥].

وأختم بنصّ الحديث الشّريف الذي دعا فيه النبيّ ﷺ الله تعالى بأسمائه الحسنى الأول والآخر والظّاهر والباطن

عَنْ سُهَيْلٍ قالَ: كَانَ أَبو صَالِحٍ يأْمُرُنا إذا أرادَ أَحَدُنا أنْ يَنامَ أنْ يَضْطَجِعَ عَلى شِقِّهِ الأيْمَنِ ثُمَّ يقولُ: «اللهمَّ رَبَّ السَّمواتِ وَرَبَّ الأرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ رَبَّنا

وَرَبَّ كلِّ شَيْءٍ، فالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، ومُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإنْجيل وَالفُرْقانِ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شيءٍ أنْتَ آخذٌ بناصِيَتِهِ، اللهمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فلَيْسَ بَعْدَكَ شيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأغْنِنا مِنَ الفَقْرِ» وكان يَرْوِي ذلك عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ [صحيح مسلم].

الملك

إن من أسماء الله الحسنى: المَلِك، و«إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» [رواه البخاري من حديث أبي هريرة]، وقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة:٤].

وقُرئت: ﴿مَلِك يوم الدين﴾[1].

---

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف ﴿مالك﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ﴿مَلِكِ﴾. انظر: «معجم القراءات» للخطيب، ١/ ٨-١٢.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ...» [أخرجه مسلم وأبو داود و الترمذي والنسائي].

وفي صحيح مسلم أيضاً أن النبي ﷺ يقول: «يَنْزِلُ الله تعالى إلى السماءِ الدُّنيا كُلَّ لَيلةٍ حين يَمضي ثُلُثُ الليلِ الأولُ فيقول: أَنَا الملكُ، أنا الملكُ، مَنْ ذَا الذي يدعوني فأستجيب له» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود و الترمذي ومالك عن أبي هريرة].

من معاني اسم الله الملك

المَلِك من أسماء الذات، ويمكن أن يكون من أسماء الأفعال، ويعني القدرة على التصرّف، ومعناه المتصرِّف.

الله تعالى ملك بل هو مالك الملوك، ومعنى هذا: أن أي شيء يُملَّك: فمالكه الله سبحانه وتعالى، وقال بعض العلماء: الملك هو الذي يحكم ولا يملك، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم، والله سبحانه وتعالى مالك وملك ومليك.

قد يملك الإنسان الشيء ولا ينتفع به، وليس من حقِّه أن يتصرَّف فيه، وأحياناً ينتفع به ويتصرّف فيه ولا يملكه، وأحياناً يملك الشيء وينتفع به، ويتصرّف فيه، ولكنّ المصير ليس إليه.

مثال: بيت يملكه إنسان ملكاً حرّاً شرعياً، يسكنه، ويملكه، وينتفع به، فإن صدر قرار استملاك فلا يكون مصيره إليه، إذاً إذا قلنا: إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك فهو يملك الشيء، ويتصرف به، ومصيره إليه، فتكون أعلى درجات المالكية هي ملكية الله سبحانه وتعالى.

سئل أعرابي يملك قطيعاً من الإبل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي، فالمؤمن الصادق: بيته، متجره، سيارته، خبرته، مكانته، شهاداته، يراها بملك الله عز وجل.

مثال: أعلى طبيب في اختصاصه، إذا تجمدت خثرة في دماغه، يفقد ذاكرته فمصيره إلى مستشفى المجانين، إذاً مَن مالك الملك؟ الله سبحانه وتعالى.

هذه العين التي ترى بها، من مالكها؟ الله سبحانه وتعالى، هذه الأذن، هذا اللسان، هذه الحركة، هذه القوة، أيْ: مِن لوازم الإيمان أن ترى أنّ كلَّ شيء بحوزتك هو ملك لله عز وجل سمح لك أن تتصرّف به.

فبيتك لله في يدك، ومتجرك لله في يدك، ومركبُك لله في يدك.

الآن إذا قلنا: فلان مَلِك، هل نقصد بها حقيقةً أم مجازاً؟ العلماء قالوا: لا يمكن أن يملك حقيقةً إلا الله، وأيُّ وصف للملكية لغير الله، فهو على سبيل المجاز فقط، لأنَّ الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلِّ موجود، فهل من ملك يستغني في ذاته عن كلِّ موجود؟ ألا يستنشق الهواء، ألا يشرب، ألا يأكل، ألا يشعر بحاجته إلى النوم، ألا يخاف، ألا يحزن، ألا يتمنى أن يكون له أعوان كثر، إذاً أيُّ إنسان مفتقر في وجوده وفي صفاته إلى إنسان آخر، لا يمكن أن يكون مِلكاً حقيقياً، الملك الحقيقي هو الله -عز وجل-، وإذا سمينا فلاناً ملكاً فهو من باب المجاز.

المَلِكُ الحقيقي الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كلِّ موجود ويحتاجه كلُّ موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، فهو ملك في ذاته في وجوده، في صفاته، مستغنٍ عن كلِّ شيء، بحاجة إليه كلُّ شيء، هذا هو الوصف الدقيق للملك ولا يستحقّه إلا الله عز وجل، إذاً الملك الحقيقي هو الله، وكلُّ من يصف نفسه: أنه ملك، أو مالك هذه الدار، أو مالك هذه الدكان، أو مالك هذه التجارة، أو صاحب هذه الشركة، هذا من باب المجاز، اعرف حجمك الحقيقي، رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده.

الله سبحانه وتعالى: مالك مُملِّك، والشخص الذي لا يستطيع أن يملِّكَك فليس مَلِكاً، فمن لوازم هذا الاسم أن الله مالك مملِّك، والدليل: قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

قال بعضهم: المَلِكُ: الذي ملك قلوب العابدين فأقلقها، ومَلَكَ قلوبَ العارفين فأحرقها، والحقيقة أن الإنسان منذ أن عرف الله عز وجل، أو منذ أن بدأ في معرفة الله، دخل في دوَّامة الحب، أصبح مشغولاً، أصبح عظيماً، بعد أن كان تافهاً، فالمؤمن قلق، لا ينزاح عنه قلقه، حتى يلقى الله عز وجل، هل اللهُ راضٍ عني؟ هل عملي وفق ما يرضي الله؟ هل الله يحبني؟ هل في عملي إخلاص؟ هل في عملي زيغ؟ هل هناك ما أرجوه غير الله عز وجل؟

المَلِكُ مَنْ إذا شاءَ مَلَّك، ومن إذا شاء أهلك: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢].

إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتّش، أعطانا قبل سنوات أمطاراً غزيرة أخرجتْ سبعين ضعفاً عن إنتاج السنوات السابقة من القمح، وإذا انحبست أمطار السماء، فَمَنْ في الأرض كلِّها يستطيع أن يصدر قراراً بإنزال المطر؟! حتى ولو اجتمعت الأمم كلُّها، والمجالس كلُّها، والقيادات كلُّها، وإذا انحبست الأمطار مات الزرع، وتبعه الضَّرع، وتبعه الإنسان.

فنحن عبيد، لأننا مفتقرون إلى ماء السماء: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠].

اللهُ سبحانه وتعالى المَلِكُ، من إذا شاء ملّك، وإن شاء أهلك، الملك الحق من لا ينازعه معارض، لا معارضون، لا مُشَوشون منتقدون، ولا يمانعه ناقد، فهو في تقديره منفرد، وبتدبيره متوحِّد، ليس لأمره مردٌّ، ولا لحكمه ردّ، والمَلِكُ من دار بحكمه الفلك.

ذكر الله تعالى في آية واحدة خمسة بنود للملكية، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

المعنى الأول: فَسَّرَ العلماء المُلْكَ أنَّه ملك الآخرة، كما فسَّروه أنَّه ملك الدنيا، فإذا كنت مؤمناً، مستقيماً، صادقاً مخلصاً، لك عمل طيب فأنت ملك، ولكن مِن ملوك الدار الآخرة، يوم لا ينفع مال، ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم؟ وسيّدنا علي يقول: «الغنى والفقر بعد العرض على الله»، وقال سبحانه: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ولكن ما معنى: من تشاء؟ إذا قال الله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣] ما معنى: يهدي من يشاء؟ يعني: من شاء الهداية هداه الله، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤]: من شاء الضلالة أضله الله، فالهداية والضلالة، أصلهما هداية جزائية، أو ضلال جزائي، مبني على هداية أو ضلال اختياريين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف:٥].

تؤتي الملك من تشاء: تؤتي الهداية من شاءها، وتنزع الملك ممن تشاء: رفض الدين، رفض رحمة رب العالمين، رفض وعده العظيم، أراد الدنيا، أراد شهواتها، ينصرف الإنسان إلى الملاهي، إلى شهواته، إلى معاصيه، إلى انحرافاته.

بالمناسبة مُلْك الدنيا: يؤتيه الله لمن يحب ولمن لا يحب، وأما مُلك الآخرة فلا يؤتيه إلا لمن يحب.

المعنى الثاني: ملك الدنيا، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

مَن مَلَّكَكَ هذا البيت؟ الله سبحانه وتعالى، لمن كان هذا البيت؟ لفلان، كيف باعه؟ ضاقت به الأمور فباعه، من الذي جعلك خليفة له في هذا البيت؟ الله سبحانه وتعالى، هذا العمل من ولاّك إياه؟ الله سبحانه وتعالى: لماذا عُزِلَ فلان؟ بحكمة الله وتقديره، إذاً المعنى الآخر: تؤتي الملك مَنْ تشاء، المعنى الدنيوي الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ما الحكمة؟ لماذا أعطى فلاناً ومنع فلاناً؟ وملَّكَ فلاناً ونزع من فلان؟ لماذا رفع فلاناً وخفض فلاناً؟ الجواب: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧] يمتحنك بالغنى وبالفقر، بالصحة وبالمرض، بالقوة وبالضعف، فإذا كان هذا العبد متمرداً فما الجواب؟ قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فإذا كان طائعاً فما الجواب؟ ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

إذاً: جعلكم خلائف الأرض، ووزّع الحظوظ توزيع ابتلاء، وسوف تُوَزَّعُ في الآخرة توزيع جزاء، إذاً هو مالك الملك: إما أن يُمَلِّكك ملك الآخرة، أو ملك الدنيا، أو ملك الآخرة والدنيا.

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ دخلنا في باب العز والذل، هنالك شيء مهمٌّ جداً: إذا أعزك الله سخَّر لك أعداءك، وإذا أراد الله أن يذلَّ عبداً ما، أذلَّه أقرب الناس إليه، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨].

اجعل لربك كل عزّ ... ك يستقرُّ ويثبُت

فإذا اعتززت بمن يمو ... ت فإن عزّك ميّت

إذاً من لوازم أن الله مَلِك أنه هو الذي يُعِزّ وهو الذي يُذِلّ، فكن مع العزيز.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا ... فإنّا منحنا بالرضا من أحبنا

ولــــذ بحماهـــا واحـــتَم بجنابنـــا لنحميـــك ممـــا فيـــه أشرار خلقنـــا

بيدك الخير، إذاً فالذلُّ خير، ونزع المُلكِ خير، ولكن يُسمَّى شرَّاً من وجهة نظر الإنسان.

تولج الليل في النهار، تصريف الكون، تسيير الكون، الأرض تدور حول الشمس، بمدار إهليلجي بيضوي، مَنْ يجعلها على مسارها تماماً؟ هل في الكون كلِّه قوَّةٌ تستطيع أن تجعلها على مسارها لو خرجت؟ إنها إن خرجت انتهت، وجذبتها كواكب أخرى!!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

يمسكها على مسارها، إذا خرج القطار عن سِكَّته، طفل رضيع أو نملة صغيرة أو ذبابة حقيرة هل بإمكانها أن تعيده إلى السّكّة؟ ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ ﴾ من جعل الأرض تسير في الثانية ٣٠ كم؟ مَن جعلها تدور في الساعة ١٦٠٠ كمٍ؟ مَن جعلها بهذا الحجم؟ من جعل بُعْدَها عن الشمس بهذه المسافة؟ هذا من اسم الله: الملك.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٧].

ظاهرة توالد الإنسان، تكاثر الحيوان، ظاهرة النبات، وتكاثره، ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: بذرة الزيتون تبدو لك قطعة من الخشب لكنّ فيها شجرة بقوّة هذه البذور، هذه أنماط الحياة، دورة الحياة، الشجرة يابسة في الشتاء كأنها خشب، يأتيها الربيع فإذا هي خضراء.

مرة طلب سيدنا عمر من سيدنا عمرو بن العاص أن يصف له مصر وكان بليغاً، قال:

«يا أمير المؤمنين! مصر طولها شهر، وعرضها عشر، (يعني طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة عشرة أيام)، يخط وسطها نهر ميمون الغَدَوات، مبارك الرَّوْحات، يا أمير المؤمنين بينما هي عنبرة سوداء (ترابها أسود اللون لخصوبته) إذا هي درَّة بيضاء (طوفان النيل) إذا هي زبرجدة خضراء، فتبارك الله الفعَّال لما يشاء» [النجوم الزاهرة لابن تغري بردي].

وصف مصر في الشتاء، وفي فيضان النيل، وفي الربيع، والصيف، وصف طولها، ووصف عرضها.

إذاً مِن معاني الملك أنّه يقلِّب الليل والنهار، ويخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميّت من الحي.

آخر بند في المُلْكية: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ قد يرزق الإنسان الضعيف، وقد يُفقِر القويَّ الذكيَّ، لذلك التّجار يقولون: ليس عند الله تاجر ذكي، ومن دعاء المؤمنين على الكافرين «اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم» فالكافرُ يدبر فإذا هو يدمر نفسه. «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

هناك سؤال: هل يَمْلِكُ العبدُ بالتمليك، لو أنَّ إنساناً ملَّكك شيئاً هل تملكه، كيف نناقش هذه الفكرة؟ مالك هذه الدار، هذه المركبة، تملَّكَ بالثبوتيات تملكاً كاملاً، هذا كلام نقوله نحن، لكنْ هناك غلط كبير في هذا الكلام، العلماء قالوا بالحرف الواحد: الأصح أن الإنسان لا يملك! لماذا؟ لأن استقلاله بالتصرف في شيء ما فرع من كونه مستقلاً في نفسه، فإذا كان العبد لا استقلال له في نفسه، وذاته البتة، فكيف يكون مستقلاً في تصرّفه في غيره؟ ولهذا قال ربنا عز وجل مُعلماً رسوله ﷺ ومن بعده عباده:

(١) من دعاء النبي ﷺ. ففيما رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كلِّ صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم! لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

إذا كان النبيُّ ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أفيملك النفع والضرَّ للآخرين، الجواب: لا، مِن باب أولى، إذا كنتُ عاجزاً عن هداية ابني! فهل بإمكاني أن أهدي ابنك؟ مستحيل! لذلك فالكلام القطعي والثابت أن الله سبحانه وتعالى هو المَلِك الحقيقي، وأن الإنسان إذا ملك فملكيَّتُه مجازية، فمثلاً؛ قد يقول لك مستخدم في وزارة الخارجية: والله عيَّنَّا فلاناً سفيراً! هذا كلام مجازي، إنَّ الذي عين فعلاً ليس المستخدم بل الوزير، أما في الحقيقة المطلقة: الذي مَلَّكَ هذا الإنسان هذا المنصب، هو الله سبحانه وتعالى.

العبد مثلاً متى يكون مسافراً؟ إذا سافر سيده، ومتى يكون مقيماً؟ إذا أقام سيده، هل للعبد استقلال في حركته عن سيده؟ لا، إذاً كلام قطعي: يجب أن تشعر وأنت تملك أوراق الملكية للبيت أن هذا البيت ملك الله عز وجل، وفي أية لحظة يمكن أن تبيعه. قد يتعطل جهاز في الجسم، فيقال لك: هذه العملية تكلفتها ثمان مئة ألف ليرة ومصاريف سفر وإقامة، وبالعملة الصعبة، والنتيجة بيتك ثمن للعملية، فتعرضه للبيع، فسبحان مالك الملك.

ومثل آخر: كلية تكلفة زراعتها مليون ليرة، وكلُّ شيء تملكه ثمن لهذه العملية، صمام القلب كلفته نصف مليون ليرة، فالإنسان إذا عافاه الله فهو غنيّ بالمعنى الحقيقي.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥].

إذا كان العبد مملوكاً لا يقدر على شيء، فهل يكون مالكاً؟ أي: متصرّفاً في ملك الآخرين، هذا مستحيل! لكن ما بال الآية الكريمة تقول: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم:٤].

فتبصَّر يا أخي المؤمن، الأمر دائماً بيد الله فكيف نفسر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار:١٩].

الآن، الأمر لله، وفي آية أخرى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ ﴾، وفي آية أخرى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

وفي آية أخرى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص:٧٠].

وفي الدنيا لمن الحكم؟ أليس الحكم لله؟ بلى.

مثال آخر: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

وكما يقول الله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٣].

بيدِ مَنْ كانت إذاً؟ هنا العلماء وقفوا وقفة رائعة، قالوا: الحقيقة أنَّ الأمر بيد الله من قَبلُ ومن بَعدُ، والحقيقة أن الحكم لله دائماً، والحقيقة أنه إليه يرجع الأمر كلُّه دائماً، لكن الكفار، الغافلون، الشاردون، الضعاف؛ يرون أنَّ الأمر بيد زيد أو عبيد في الدنيا، والحكم بيد فلان والأمر بيد علان، أما إذا كان يوم الدين فكلُّ الخلائق قاطبة ترى أن الأمر بيد الله، وأن الحكم لله، وأنه إلى الله تصير الأمور، فالحكمة أنْ ترى هذا الشيء في الوقت المناسب.

إذاً حتى الكفار والشاردون، وحتى أعتى الكفرة، سوف يرون أنّ الأمر بيد الله، وأنَّ الحكم لله، وأنَّه إليه يرجع الأمر كلُّه، ولكنهم في الدنيا لا يرون الله عز وجل، يرون

أولياء من دونه، يرون مراكز القوى في الحياة، وهم يعبدونها من دون الله، ويوم القيامة يرون الحقيقة.

إذاً القضية قضية وقت فقط، إما أن ترى الحق في الوقت المناسب قبل أن يفاجئك المِوت، أو لا بدَّ أن تراه يوم القيامة فتكون الحسرة وأيّة حسرة، إذاً الحكمة لا أن تنتظر إلى أن ترى مع الآخرين الحقائق، الحكمة أن ترى الحقيقة في الوقت المناسب، كي تستفيد منها.

هناك شيء آخر: لماذا لا يكون العبد مالكاً مطلقاً؟ قيل: لأنه لا يستغني عن كلِّ شيء: فلو افترضنا أنّ ملكاً عظيماً يستغني عن كلِّ أفراد رعيته، فهل يستغني عن الهواء أو عن الماء أو عن الطعام أو عن الزواج؟ لذلك حين طلب هارون الرشيد الخليفة العباسي الذي ترامت أطراف دولته إلى أقاصي الدنيا، كأسَ ماء، قال له ابن السّماك وكان واعظاً ذكياً: يا أمير المؤمنين! بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع عنك؟ قال: بنصف ملكي، قال: فاشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجه بكم كنت تشتري؟ قال: بنصف ملكي الآخر، قال: إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخر بولةٌ، لخليق ألّا يُتنافس فيه، فبكى الرشيد [البداية والنهاية ١٠/ ٢١٥، تاريخ بغداد ٨/١٤ تاريخ الخلفاء ٢٩٣ وابن السماك: محمد بن صبيح أبو العباس الواعظ].

في بعض متاحف القاهرة فرعون من فراعنة مصر الكبار اسمه توت عنخ آمون كُشفت مقبرته بأكلمها، كما دُفن معه طبعاً من الذهب والحلي والأغراض ما لا سبيل إلى وصفه، ولكن وقفت عند نقطة واحدة: أن هذا الملك مات شاباً في الثامنة عشرة من عمره، حيث إن التابوت قصير جداً، والجثة قصيرة جداً، قلت وقتها: سبحان الله! مهما كان الإنسان مالكاً، ولديه من الثروات ما لديه تبقى الحياة بيد الله عز وجل، فمصر كلُّها كانت بيده، مقدرات مصر كلُّها بيده، ومع ذلك توفاه الله في الثامنة عشرة من عمره، فالمقبرة عامرة بالذهب، وبشتى أنواع الحلي، وبأشياء تحار فيها العيون، ومع

ذلك مات في سن مبكرة، فما أغنى عنه مالُه، ولا رَدَّ الموت ملكه، إنه مُلك، ولكنه عارية.

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين وقد التقيا يوماً: سلني حاجتك؟ فقال له الصالح: إليَّ تقول؟! قال الأمير: نعم، قال الصالح: لي عبدان هما سيّداك، قال الأمير: ومن هما؟ قال الصالح: الحرص والأمل؛ الحرص على الدنيا والأمل المديد هما عبدان عندي، وهما سيداك، فقد غلبتُهما وغلبَاك، وملكتُهما وملكاك، فالإنسان يكون ملكاً إذا سيطر على شهواته.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهما أصحاب لهما حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي.

فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة فلما رآها عطاء ظنَّ أن لها حاجة، فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم! قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني فإني قد وَدِقْت ولا بعل لي... فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك! إليك عني! قال: فاشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي! فبينما هم كذلك إذ جاء سليمان من حاجته. فلما نظر إلى عطاء يبكي، والمرأة تبكي، بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما، وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً، كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

ولبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة، قال: وكان أسنَّ منه.

قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فبينا عطاء ذات ليلة نائم إذا استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة قال: وما هي؟ قال: لا تخبر أحداً ما دمت حياً، رأيت يوسف النبي ﷺ في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حُسنه بكيت، فنظر إليَّ في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله! ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتليتَ به من أمرها وما لقيتَ من السجن وفرقة يعقوب فبكيتُ من ذلك وجعلت أتعجب منه! قال: فهلا تعجَّبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت واستيقظت باكياً.

قال سليمان: أي أخي! وما كان من حال تلك المرأة، فقصّ عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحد حتى مات عطاء فحدّث بها بعده امرأة من أهله. قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رضي الله عنهما.

هذا هو الملك الحقيقي عندما تطيع الله عز وجل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف ﷺ بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً، فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠].

فالحقيقة هي: مَن تحقق مِن ملك سيده فكأنه ملك كلَّ ملكِ سيده.

حُكي عن شقيق البلخي أنه قال: كان ابتداء توبتي أن رأيت غلاماً في سَنَةِ قحطٍ يمرح زهواً والناس تعلوهم كآبة، فقلت له: يا هذا ما هذا المرح؟ ألا تستحي؟ أما ترى

ما فيه الناس من المحن؟ فقال: لا يحقّ لي أن أحزن ولسيدي قرية مملوكة أدخر فيها كلَّ ما أحتاج، فقلت في نفسي: إن هذا العبد لمخلوق ولا يستوحش، لأن لسيده قرية مملوكة ومولاه مخلوق فقير، فكيف يصحُّ أن أستوحش أنا وسيدي مالك الملوك، فانتبهت وتبت -لقَّنه الغلام درساً في التوبة- واستمع إلى بعضهم يقول: دبِّر أو لا تدبر، فالمدبر هو الله سبحانه:

كـن عـن همومـك معرضـاً ... وكِـلِ الأمـور إلى القضـا
وابـشر بخـيرٍ عاجـل ... تنسـى بـه مـا قـد مـضى
فلـربَّ أمـر مسـخِط ... لـك في عواقبـه رضـا
ولـربما اتسـع المضيـ ... ـق وربـما ضـاق الفضـا
الله يفعـل مـا يشـا ... ء فـلا تكـن معترضـا
الله عـوّدك الجميـ ... ـل فَقِـسْ عـلى مـا قـد مـضى

ومن رائق الشعر قولهم:

ولـرُبّ نازلـةٍ يضـيق بهـا الفتـى ... ذرعـاً وعنـد الله منهـا المخـرجُ
ضـاقت فلـما اسـتحكمت حلقاتهـا ... فُرجـت وكنـت أظنُّهـا لا تُفـرجُ

سمعتُ أنه نزلت في إيطاليا في عام من الأعوام أمطارٌ في ليلة واحدة تعادل أمطار العام بأكملِهِ وفي لحظة واحدة، فإن الله عز وجل قادر على أن يرزقنا مطراً غزيراً فيصبح المعدل فوق المعدل الطبيعي، ولو تأخر المطر، فالأمر بيد الله عز وجل، لكن لا تنسوا أنَّ تقليل الله عز وجلَّ للماء تقليل تأديب لا تقليل عجز.

نصيب المؤمن من اسم الله الملك

من آداب الإيمان أن يوقن العبد بأن الله هو الملك وحده، أن يكون العبد بما في يَدَيِ الله أوثق منه مما في يديه، وإذا أردْت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله

أوثق منك مما في يديك، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس منزلةً فاتق الله.

كان حاتم الأصم صائماً يوماً، فلما أمسى قُدِّم إليه فطوره، فجاء سائل فدفع ذلك الفطور إليه، فحُمِلَ إليه في الوقت ذاته طبق عليه كل ألوان الأطعمة، فأتاه سائل آخر فدفع إليه كلَّ ذلك، ففتح بصره فإذا دنانير في الوقت نفسه بين يديه، فلم يتمالك أن صاح: الغوث مِن الخَلَفِ، وكان في جيرانه من يسمى «خَلَفاً»، فتسارع الناس إليه وقالوا: يا أخي؟ لِمَ تُؤذي الشيخ؟! وما زالوا به حتى جاؤوا به إلى الشيخ وقالوا: هذا خَلَف جاءك معتذراً، فقال: إني لم أعْنِهِ أبداً إنما عجزت عن شكر الله عز وجل على ما يعاملني به من الخَلَف، فكلما أنفقت شيئاً أعطاني الله خيراً منه.

عن أنس قال: بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كلِّ شيء، فكانت سبع مئة بعير، فارتجّت المدينة من الصوت، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْواً».

فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله[1].

---

(١) رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني وفيه عمارة بن زاذان ضعفه النسائي والدارقطني. وقد شهد عبدالرحمن بن عوف بدراً والحديبية وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وصلى خلفه.
قاله الإمام الذهبي في السير (١/ ٧٧)، وقال: وبكلِّ حالٍ فلو تأخر عبدالرحمن بن عوف للحساب ودخل الجنة حبواً على سبيل الاستعارة وضرب المثل فإن منزلته في الجنة ليست بدون منزلة علي والزبير.

من عرف أنَّ الملك هو الله وحده: أَنِفَ أن يتذلّل لمخلوق؛ وقال بعضهم: أيجمل بالحرِّ أن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد؟! اطلبْ تُعطَهْ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أيليق بك وقد عرفت أنَّ الله هو الملك وحده، ولا ملك سواه أن تتذلّل لسواه؟ مَنْ عرف الله لم يحتج إلى عَوْنِ المخلوقين وفتنتهم، وبذا تستغني عن الناس، وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

عن أبي الحسين الحمادي القاضي قال: سمعت الفتح بن شخرف يقول: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم فقلت له يا أمير المؤمنين أوصني، قال لي: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسنُ من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء» قال: فقلت له: زدني فأومأ إليَّ بكفه فإذا فيه مكتوب:

قد كنت ميتاً فصرت حياً ... وعن قليل تصير ميتا
أغنى بدار الفناء بيت ... فابن بدار البقاء بيتا

وإذا وثقت بالله عز وجل فالله تعالى لا يخيبك، ومن جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

وكان أميّة الشاميّ يقول: «ألا إن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة»، وقيل لبعض الشيوخ: أوصني، فقال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، فقال: وكيف أفعل ذلك؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الدنيا، واستغنِ عن الرجل تكن نظيره، واحتج إليه تكن أسيره، وأحسن إليه تكن أميره، فإن كنت ملكاً في الدنيا كنت ملكاً في الآخرة.

سئل الحسن البصري: بِمَ نلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

ومن عرف الله الملك كان ملكاً حقيقياً، والمُلْك الحقيقي هو أن يَمْلِكَ الإنسان هواه ولا يَمْلِكُه هواه، والذي أُعتِق من أَسْرِ نفسه، وليس مُلْكاً لنفسه، قال تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

هذه الآية عميقة جداً: سيدنا يوسف يصف بأنَّ الله قد آتاه الملك: أيَّ مُلْكٍ آتاه؟ لم يكن أميناً على خزائن الأرض فحسب، بل آتاه الله كذلك الملك الحقيقي، فهذا الملك الذي يؤتيه الله لمن يشاء، ملك زائل، وليس مزية يفتخر بها، فما الملك الحقيقي؟ هو أنه مَلَكَ نفسه، لمجرد أن قال: معاذ الله... حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال، حينما قالت: «هيت لك» قال: «معاذ الله»، هذا هو الملك الحقيقي، الملك الذي لا يزول، الملك الذي تسعد به إلى الأبد، أن تملك نفسك ولا تَمْلِكُك، أن ينقاد لك هواك ولا تنقاد له، إذا انقاد لك هواك وسيطرت عليه فأنت ملك، إذا سيطرت على نفسك فأنت ملك، إذا ملكت زمام نفسك فأنت مَلِك، إذا سيطرت على شهواتك فأنت ملك، إذا قُدْتَ نفسك إلى طريق الخير والسعادة فأنت ملك، أما إذا قادتك نفسك إلى الضلال والشهوات والمعاصي والآثام فأنت مملوك، إذا قادك عقلك أنت ملك، إذا قادك هواك فأنت مملوك، وشتان بين أن تكون مَلِكاً وأن تكون مَمْلوكاً.

أحد أكبر زعماء أوروبا، في الحقبة السابقة، والذي حقق انتصاراً ساحقاً في الحرب العالمية الثانية، له كلمة لا أنساها، قال: ملكنا العالم... ولم نملك أنفسنا، نحن ضعاف أمام أنفسنا. شخصية كبيرة تغريه امرأة تعمل معه، تنهار نفسه أمام فتنتها. إذاً أنت مملوك، كل أهل الدنيا عندهم نقطتا ضعف مدمِّرتان: المال والنساء، أي: يملك أشياء كثيرة وله اطّلاع واسع، له قدرات عجيبة، ومع ذلك المرأة والدرهم والدينار تمتلكه، إذاً هو مملوك.

عن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وعَبْدُ الدِّرْهَمِ» [سنن ابن ماجه].

المملوك من كان في خدمة المال، ولم يجعل المال في خدمته، المال أصلاً مُسخَّر لك، لكنك سُخِّرت له، فأنت عبد له، تعس عبد الفرج، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة (أي: الثوب) أي: أنت مملوك.

إذا قرأتم هذه الآية ترنموا بها: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف:١٠١] الملك الحقيقي أن تملك نفسك لا أن تملكك، أن ينقاد لك هواك لا أن تنقاد له، أن تسيطر على شهواتك، أن تكون مع الحقّ حيث كان الحقُّ، أن تكون وقّافاً عند كتاب الله، أن تعترف بالحقِّ الذي لغيرك عليك، وإن كان مُرّاً، هذه هي البطولة الحقيقية.

علاقة الإنسان بهذا الاسم أن يملك نفسه عند الغضب، وفي الحديث الشريف: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [متفق عليه].

عند العقبات الكأداء، عند الصوارف المغرية، والمؤمن رجل مبدأ، المؤمن رجل قيم، لأنه اتصل بالملك، فملك نفسه، وأعظم مرتبة تملكها أن تملك نفسك، وأكبر سيئة تصيب الإنسان أن يتفلت من منهج الله، أن يثيره موقف استفزازي يخرجه عن طوره وعن مبادئه وعن قيمه.

قال سفيان بن عيينة: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا برجل مشرِف على الناس حسن الشيب، فقلنا بعضنا لبعض: ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم، قال: فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا؟ قال ربكم: أنا الملك أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له: وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال: قال ربكم: أنا الحي الذي لا يموت، أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله! قال: قال ربكم: أنا الذي إذا أردتُ شيئاً كان، أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم، قال ابن عيينة: ثم ذهب فلم نره.

كأن الله عز وجل يقول للإنسان حين يدخل القبر: «عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت».

قال: ألم تسمع ربك يقول: أنا الحي الذي لا أموت، فإن أطعتموني جعلتكم أحياء لا تموتون في جنة عرضها السموات والأرض، أنا الملك الذي لا أزول، هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكاً لا تزولون، ملوك الدار الآخرة، أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون، هلموا أطيعوني أجعلكم كذلك، أي: كلما دعوتموني أجبكم، كلما سألتموني أعطيتكم، أنا عند ظنكم: «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه».

هذه بعض التعريفات والآداب والحدود في شأن اسم الله الملك.

فهرس